

الجمهوريّة الجزائريّة الدِّيمقراطيّة الشّعبيّة

وزارة التّعليم العالي والبحث العلميّ

جامعة أحمد دراية –أدرار–



كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية

قسم العلوم الإنسانية

منطقة تـوات في القـرن 19م من خـلال كتابات الرحـالـة والمستكشفيـن

أطـروحة مقـدمـة لاستكمال متطلبات نيـل شهادة الدكتـوراه في التـاريخ

تخصص: تـاريخ الجـزائر المعاصـر

إعــداد الطـــالب

عبد المالك طاهري

إشــراف الدكتور:

أحمـد بوسعيـد

اللجنة المناقشة

الاسـم واللقـب	الرتبة العلميـة	المؤسسة الأصلية	الصفـة
محمد حوتية	أستاذ التعليم العالي	جامعة أدرار	رئيساً
أحمد بوسعيد	أستاذ محاضر أ	جامعة أدرار	مشرفاً ومقرراً
مبارك جعفري	أستاذ التعليم العالي	جامعة أدرار	عضواً مناقشاً
مختار هواري	أستاذ محاضر أ	جامعة باتنة	عضواً مناقشاً
عبد الله بابا	أستاذ محاضر أ	جامعة أدرار	عضواً مناقشاً
سالم بوتدارة	أستاذ محاضر أ	جامعة أدرار	عضواً مناقشاً

السنة الجامعية: 1443–1444هـ / 2022–2023م


بسم الله الرحمن الرحيم


«... وهذه المنطقة من الوطن غنية بتراثها العلمي
والديني، وغنية بعلمائها ومؤلفيها، وبزواياها ونظمها، وكذلك
غنية بآثارها ومكتباتها، ولكن البحث في ذلك لا يزال ضعيفاً،
ولم يهتم بها إلا الأجانب، رحالة ومستكشفين، وحكاماً
ودارسين، ومبشرين وجواسيس...واشتهر بعضها بالكتب
والعلم مثل تمنطيط. وعرف عن بعضها الاهتمام بالتجارة
والمغامرات وخبرة الطرق...مثل عين صالح»
أبو القاسم سعد الله



إهداء

إلى الذي أخرجني إلى هذه الحياة، إلى اليد التي رعتني

ولم ترَ نجاحي، إلى روح والدي تغمده الله برحمته الواسعة.

إلى أغلى ما لدي في هذا الو جود، إلى أعز وأطهر الناس،

أمي الغالية أطال الله عمرها.

إلى شريكة العمر، زوجتي الوفية.

إلى زينة حياتي بناتي: سارة، فاطمة، هاجر.

إلى من أعيش في قلوبهم ويعيشون في قلبي،

سندي في هذه الحياة إخواني وأختي.

إلى جميع الأهل والأقارب والأصدقاء.

إلى من أضاء لي طريق العلم...شيوخي وأساتذتي

إلى الذين تسعهم ذاكرتي ولم تسعهم مذكرتي.

إلى كل هؤلاء اهدي ثمرة جهدي.

عبد المالك



كلمة شكر

الحمد لله أولاً وأخيراً على توفيقه وسداده في إتمام هذا العمل المتواضع. كما يسرني أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى كل من ساهم في إنجازه، وأخص بالذكر:

- الدكتور أحمد بوسعيد الذي تفضل بالإشراف على هذه الأطروحة، وتحمل عناء قراءة وتصحيح فصولها بسعة صدر وأدب جم، وعلى ما بذل من إرشادات وتوجيهات ونصائح.
- كل أساتذة قسم العلوم الإنسانية بجامعة أدرار الذين تشرفنا بالتكوين على أيديهم.
- كل من ساهم في انجاز هذا العمل من قريب أو بعيد خاصة الأساتذة الأفاضل: مبارك جعفري، عبد الله بابا، مصطفى بن واز، أحمد جعفري، عبد الكريم حرمة، رمضان هداجي، عبد الوهاب علالي.

عبد المالك

قائمة المختصرات:

01/ باللغة العربية:

ص: الصفحة

ص ص: صفحات عديدة متتالية

ج: جزء

ط: طبعة

ع: عدد

مج: مجلد

تر: ترجمة

تح: تحقيق

د.ن: دون دار نشر

د.م: دون مكان نشر

02/ باللغة الفرنسية:

P: Page

PP: Pages continues

T: Tome

N: Numéro

Ed: edition

S.D: Sans date

Ibid: Remplacer une référence déjà donnée mais a condition quelle soit citée dans le renvoi qui précède immédiatement.

Op.Cit: Précédé du nom de l'auteur renvoi a une étude ou un article de cet auteur déjà mentionne plus haut.

Tr: Traduction.

مقدمة الأطروحة

تعد الرحلة قديمة بقدم الإنسان عرفها منذ العصور الغابرة واختلفت دوافعها وتباينت وسائلها، ورغم أن كتابات الرحالة والمستكشفين كانت تُعبر عن توجهاتهم الفردية ونزعاتهم الشخصية، فإنها تصور إلى حد كبير ملامح حضارة العصر الذي عايشوه، كما تصف الكثير من عناصر ثقافة البلدان التي حلوا بها وأحوال الشعوب التي اختلطوا بها، سواء كانت هذه الرحلة جغرافية حيث تلعب دوراً كبيراً في توسيع المعارف الجغرافية من خلال عملية الاتصال بين الشعوب والتعرف على بيئاتهم الجغرافية، أو كانت رحلة علمية والتي يقوم بها أصحابها من أجل التزود بالعلوم أو لأغراض تعليمية، أو كانت بعثة عسكرية الغرض منها إخضاع الشعوب.

وإذا كانت الرحلة عل اختلاف أهدافها مظهراً من مظاهر حركة الإنسان وتعبيراً صادقاً عن رغبته في اكتشاف المجهول، فإنها كذلك مصدرٌ هامٌ في كتابة التاريخ، ومحور اهتمام الدارسين والمؤرخين، فمع حلول القرن التاسع عشر تطورت حركة الرحالة والمستكشفين الأوروبيين إلى مختلف أنحاء الصحراء الجزائرية، ومنها منطقة توات لاكتشاف أسرارها والانتفاع بثرواتها، سيما الفرنسيين الذين تضاعف اهتمامهم بالمنطقة لأغراض سياسية توسعية مستغلين سيطرتهم على مختلف أقاليم الشمال الجزائري، فانكبوا على دراسة جوانبها المختلفة الطبيعية، البشرية، الاجتماعية والاقتصادية، ونتيجة لدور المستكشفين في تدوين ورصد الأحداث التاريخية على اختلاف أنواعها، ولأهميتها في نقل الوقائع والحقائق كان موضوع دراستنا: **"منطقة توات في القرن 19م من خلال كتابات الرحالة والمستكشفين"**.

تحديد الموضوع:

سأحاول من خلال هذه الدراسة إبراز تاريخ منطقة توات خلال القرن التاسع عشر، استناداً إلى كتابات الرحالة والمستكشفين الذين زاروا المنطقة سواء كانوا أوروبيين أو عرباً أو رحالة محليين، حيث أن كتابات الرحالة الأجانب الذين مروا بمنطقة توات تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أنها كانت عامرة، وأن الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية كانت نشطة ومزدهرة فيها، كما أن الدراسات التي أجريت حول المنطقة لم تثبت يوماً أنها بالرغم من قساوة طبيعتها وصعوبة تضاريسها وندرة التساقط فيها، قد ضاقت يوماً بأهلها ذرعاً لتدفعهم لهجرها، بل أن سكانها ظلوا متمسكين بها حتى في أحلك فترات التاريخ التي عرفت انتشار المجاعات والحروب والأمراض، مثلما وقع في بعض سِني وعقود القرن التاسع عشر ميلادي.

دواعي اختيار الموضوع:

كان اختياري لموضوع " منطقة توات في القرن 19م من خلال كتابات الرحالة والمستكشفين" نتيجة تراكم جملة من الأسباب والدوافع الموضوعية والذاتية والتي أهمها:

- الرغبة في الإلمام بتاريخ منطقة توات خاصة الاجتماعي والثقافي والاقتصادي ونفض الغبار عنه، والإسهام في نشره من خلال المصادر الأصلية المخطوطة أو المطبوعة، لتمكين الباحثين والدارسين من التعرف عليه.

- توجيهات أساتذتي لدراسة التاريخ المحلي للمنطقة، والذي يعتبر جزءاً من تاريخ الجزائر، كما أكد على ذلك شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله رحمه الله.

- حداثة موضوع البحث، فمعظم الدراسات التاريخية التي تناولت تاريخ منطقة توات خلال هذه الفترة لم تنطلق من كتابات الرحالة والمستكشفين للمنطقة.

- الإيمان باستحالة تناول تاريخ المنطقة بالاعتماد فقط وحصراً على ما كتبه مؤرخو المنطقة، بل هناك ضرورة حتمية لتصفح مؤلفات الأجانب.

- الفترة الزمنية التي يتناولها هذا البحث، والتي كانت أكبر الفترات غنىً بالتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية في أغلب المناطق المجاورة.

- محاولة التعرف على كتابات الأجانب حول المنطقة، وأهم ما تضمنته من معلومات وإحصاءات، ثم غربلتها لإظهار الوجه الحقيقي للمنطقة.

أهمية وأهداف الدراسة:

تم صياغة عنوان الدراسة "منطقة توات خلال القرن 19م من خلال كتابات الرحالة والمستكشفين"، وحددت القرن التاسع عشر الذي يعتبر غنياً بالتطورات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والأحداث السياسية من جهة، ومن جهة أخرى دخول العديد من الرحالة والمستكشفين للمنطقة وكتبوا عمَّا شاهدوه، وبذلك تعتبر كتاباتهم مصادر مهمة لكتابة تاريخ المنطقة، وتوقفت عند نهاية هذا القرن الذي هو بداية الاحتلال الفرنسي للمنطقة، وبالتالي تغيرت معالم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في المنطقة. وتتجلى أهمية الموضوع في:

- يندرج ضمن استكمال جهد الأبحاث والدراسات التي تناولت تاريخ منطقة توات خلال القرن 19م، لكن في اعتقادي أنها لم تعتمد على المصادر الأجنبية عن المنطقة، كما أنها تحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة من مختلف الجوانب.

- معالجة فترة مهمة من تاريخ المنطقة وتسليط الضوء عليها وهي فترة القرن 19م، كونها مرحلة شهدت تطوراً اقتصادياً وازدهاراً اجتماعياً وثقافياً كبيراً.

- أن هذه الفترة أثرت في المرحلة التي تليها، وساهمت في إبراز الوضع الاقتصادي والاجتماعي والثقافي للمنطقة.

أما أهداف الدراسة فلقد كانت الغاية من هذه الدراسة هي التعريف بمختلف أنماط وسمات الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية في منطقة توات، من خلال ما كتبه الرحالة الذين مروا بالمنطقة وكتبوا عنها، وذلك بالتوقف عند كل رحلة و تحليلها، وربطها بالأحداث التي كانت تمر بها منطقة توات في تلك الفترة الزمنية، آملاً أن أحقق من ذلك الأهداف التالية:

- تزويد المكتبة الوطنية بدراسات تاريخية تكمّل جهد الباحثين حول التاريخ الاجتماعي والثقافي والاقتصادي لمنطقة توات.

- تمكين الباحثين والطلبة والقراء من معرفة المزيد من المعلومات حول معالم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في منطقة توات خلال القرن 19م.

- فتح آفاق مستقبلية لدراسات أخرى يمكن أن تتناول المسائل التاريخية ذات الصلة بتاريخ المنطقة، والتطرق إليها بالدراسة والتحليل.

- المساهمة في كتابة التاريخ الوطني الجزائري من خلال كتابات الرحالة والمستكشفين لإحدى جهات التراب الجزائري الشاسع.

- الوصول إلى نتائج تبين أن الرحالة الأجانب كان لهم اهتمام بتاريخ منطقة توات لما كانت تشهده المنطقة من ازدهار اقتصادي وثقافي واجتماعي، وفي المقابل خدمة مصالح إدارتهم الاستعمارية التوسعية.

إشكالية البحث:

يعتبر هذا البحث مساهمة متواضعة لإبراز جوانب رؤية الرحالة لكتابة تاريخ منطقة توات، إذ لعب الرحالة والمستكشفون دوراً مهماً كمتتبع للأحداث، كما يشكل هذا الموضوع دراسة لمرحلة هامة من تاريخ هذا الجزء من الجزائر، وهو مساهمة في إبراز صورة صادقة لهذه المنطقة من منظور تاريخي، وذلك من خلال ما دوّن في المصادر الأصلية للرحالة والمستكشفين. ولهذا فإشكالية الدراسة تتمحور حول سؤال جوهري هو: إلى أي مدى ساهمت كتابات الرحالة والمستكشفين لمنطقة توات خلال القرن 19م في إبراز سمات الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية للمنطقة؟

الإشكالات الفرعية:

ولتوضيح إشكالية هذا البحث أكثر يمكن طرح التساؤلات الجزئية الآتية:

- من أشهر المستكشفين الذين قدموا إلى منطقة توات خلال القرن التاسع عشر، وكتبوا عنها؟
- ما هي الدوافع الحقيقية لاهتمام الأوروبيين بمنطقة توات في القرن 19م؟
- كيف كانت نظرة هؤلاء المستكشفين إلى جانب الاجتماعي والثقافي والاقتصادي للمنطقة؟
- ما هو دور الرحالة والمستكشفين وكتاباتهم في التأريخ لمنطقة توات خلال القرن 19م؟
- هل عكست كتابات الرحالة والمستكشفين الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للمنطقة خلال القرن 19م؟
- ما مدى التزام المستكشفين الفرنسيين بالموضوعية المطلوبة؟
- ما هي أهم نتائج هذه الرحلات والبعثات الاستكشافية؟
- ما مدى تطابق كتابات المستكشفين مع الكتابات المعاصرة للمنطقة؟
- ما هو دور الرحلات والبعثات الاستكشافية خلال القرن 19م في التمهيد لعملية التوغل والاحتلال الفرنسي للمنطقة؟

منهج الدراسة:

لدراسة موضوع البحث ونظراً لطبيعته اعتمدت على المنهج التاريخي بأسلوبيه الوصفي والتحليلي النقدي:

- الأسلوب التاريخي الوصفي: لوصف وسرد الأحداث وربطها بالسياق التاريخي الذي حدثت فيه، مع الوقوف عند أهم الأفكار التي تكمّل عملية هذا الوصف وتسمح بفهم تلك الأحداث الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي خطتها أنامل الرحالة والمستكشفين.
- الأسلوب التحليلي النقدي: لشرح وتعليل ومقارنة الوقائع التاريخية، وذلك بالتعامل المباشر مع النصوص التاريخية من مصادرها الأصلية، محاولين بذلك استقراءها وتحليلها قدر الإمكان، والغرض من ذلك توخي الموضوعية في دراسة الأحداث وتحليلها بشكل مبسط، كما ساعدني هذا المنهج على فهم وتفسير الإحصاءات التي تكون أحياناً متضاربة أو مبالغاً فيها مما يستوجب أخذ الحذر.

الدراسات السابقة:

ظهرت بعض الدراسات التاريخية عن الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية لمنطقة توات خلال القرن التاسع عشر، إلا أن معظمها تطرق إلى الأوضاع خلال هذه الفترة بشكل عام، ولم

تعتمد على كتابات الرحالة والمستكشفين كمستند أو مرجع تنطلق منه، وأهم هذه الدراسات الأكاديمية:

01/ "إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الملاديين" لفرج محمد فرج، والذي هو أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ من جامعة الجزائر، سنة 1977م، إلا أنها دراسة عامة لمنطقة توات، رغم كونها من بواكير الدراسات الأكاديمية عن المنطقة.

02/ " توات والأزواد خلال القرنين 12هـ و13هـ دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية" في جزأين لمحمد حوتية، وهو في أصله أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ من جامعة الجزائر، سنة 2004، لكن كانت دراسة عامة حول الحياة الاجتماعية والثقافية والإمكانات الاقتصادية لمنطقة توات.

03/ "البيئة الاجتماعية والاقتصادية للصحراء الجزائرية من خلال تقارير الأجانب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر" لعثمان حساني، وهي أطروحة دكتوراه في التاريخ من جامعة الجزائر، سنة 2007م، وقد شملت الصحراء الجزائرية عامة، ولم تعط إلا أهمية قليلة لمنطقة توات.

04/ "الاستكشافات الأوروبية للصحراء الجزائرية خلال القرن 19م"، لطاهر موساوي، وهي رسالة ماجستير، من جامعة بشار، سنة 2012م، حيث ركزت على الرحلات الاستكشافية للصحراء، دون الاهتمام بما نتج عنها من وصف للجوانب الحضارية في المناطق المستكشفة.

خطة البحث:

من أجل إيفاء الدراسة حقها، ارتأيت تقسيم موضوع البحث إلى مقدمة، أربعة فصول، وخاتمة، بالإضافة إلى ملاحق ذات صلة وفهارس متنوعة.

تناول الفصل الأول الرحلات التي وصلت منطقة توات قبل القرن التاسع عشر، سواء العربية منها أو المحلية حيث تم الإشارة إلى المنطقة في العديد من الرحلات العربية، ثم محاولات الأوروبيين استكشاف المنطقة خلال القرن الثامن عشر، لأبرز أن رحلات الأوروبيين خلال هذا القرن كانت محتشمة، وفي المبحث الثاني تعرضت لأهم الرحالة العرب والمحليين الذين كتبوا عن المنطقة خلال القرن التاسع عشر، ثم في المبحث الثالث أبرزت دوافع الاستكشاف الأوروبي لتوات خلال هذا القرن، وأهم الرحلات الاستكشافية التي وصلت المنطقة ودونت معلومات عنها.

أما الفصل الثاني فيعنى بالحديث عن المجتمع التواتي من خلال ما كتبه الرحالة والمستكشفون خلال القرن التاسع عشر، وعرجت من خلاله على البنية الاجتماعية والديمغرافية لهذا المجتمع من

فئات وطبقات اجتماعية، بالإضافة إلى تقديم إحصاءات عن التعداد السكاني حسب الأقاليم والفئات، وأهم اللغات واللهجات المحلية، فالنظام الاجتماعي والقضائي، ثم القيم الاجتماعية التي شدت انتباه المستكشفين الأوروبيين، وفي المبحث الثاني تم إبراز سمات القصور التواتية من عمارة وصراعات داخلية ويوميات، وصولاً إلى العادات والتقاليد، وفي المبحث الثالث تم رصد المستوى المعيشي والصحي للسكان.

وخلال الفصل الثالث تطرقت للحياة الثقافية بالمنطقة، حيث تناولت في المبحث الأول أهم المؤسسات الثقافية التواتية وموارد تمويلها، والمراحل التي يمر بها التعليم في توات، والعلوم المدرسة والمناهج التعليمية، ثم إبراز المكانة العلمية للمنطقة خلال القرن التاسع عشر في المبحث الثاني، مع تحديد أهم المؤلفات العلمية والمؤلفين المشهورين بالمنطقة ومجالات تأليفهم في المبحث الثالث، كما توقفت في المبحث الرابع عند أهم الطرق الصوفية التي انتشرت بالمنطقة خلال هذه الفترة ودورها في تنشيط الحياة العلمية، من خلال نظرة المستكشفين الأوروبيين لها.

وتناولت في الفصل الرابع الاقتصادي التواتي من نظرة المستكشفين له، حيث ركزت فيه أولاً على نظام السقي عن طريق الفقارة باعتبارها مصدر الحياة في الصحراء، ثم تناولت النشاط الزراعي الممارس بالمنطقة، وأهم المنتجات الزراعية المعيشية والتجارية، وتربية المواشي والدواجن لتأمين اللحم والصوف، فالحرف والصناعات التقليدية السائدة، مع إبراز دورها في الاقتصاد التواتي، وختاماً تطرقت إلى ميزات ودعائم التبادل التجاري للمنطق من خلال أهم الأسواق الداخلية والخارجية، والنظم التجارية السائدة بالمنطقة، ثم أهم الطرق والأطراف التجارية التي ارتبطت معها توات، مع تبيين دور الفرنسيين في التأثير على التجارة التواتية نهاية هذا القرن.

وأنهيت دراستي لهذه الموضوع بخاتمة جاءت على شكل حوصلة لأهم النتائج المتوصل إليها خلال مراحل البحث المختلفة مع شفعها بمجموعة من المقترحات والتوصيات، ثم يليها بعض الملاحق والفهارس الضرورية.

أهم المصادر والمراجع المعتمدة ونقدها:

لطرق أبواب هذا الموضوع اعتمدت على مجموعة من المصادر سواء كانت باللغة العربية أو الأجنبية، خاصة وأن معظم الرحلات الكشفية التي مست منطقة توات خلال القرن التاسع عشر كانت من طرف الأوروبيين، كما أن غالبية الدراسات حول المنطقة خلال هذا القرن كانت من طرف المؤرخين والعسكريين الفرنسيين، ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

01/ المصادر والمراجع باللغة الأجنبية:

المصادر الأجنبية أغلبها مذكرات شخصية ومدونات ورسائل لرحالة وضباط عسكريين أبرزها:

- مذكرات جيرهارد رولفس (Voyages et Explorations au Sahara) "أسفار واستكشافات في الصحراء" الجزء الأول، الذي يوضح فيه رحلاته من درعة إلى غدامس مروراً بتوات وتيدكلت، وتعد هذه المذكرات أهم مصدر لدراسة المنطقة خلال فترة القرن التاسع عشر، باعتباره الوحيد من الأوروبيين الذي استطاع أن يعبر توات من غربها إلى شرقها، وتجول في معظم قصورها وسجل ملاحظاته عنها، بالإضافة إلى مذكرة أخرى بعنوان: " Reise durch Marokko" (رحلة عبر المغرب) التي دون بها معلومات مهمة عن إقامته بتوات.

- مذكرات لويس دو كولومب (Notice sur les oasis du Sahara et les routes qui y conduisen) "مذكرة عن واحات الصحراء والطرق المؤدية إليها"، التي صدرت في ثلاثة أجزاء ضمن المجلة الجزائرية والاستعمارية سنة 1860م، عرَّف فيها بالقصور التواتية وعاداتها وتقاليدها وأنشطتها الاقتصادية من خلال ما شاهده، كما وصف أهم الطرق والمسالك التي تتبعها القوافل التجارية نحو توات.

- مذكرات فيكتور كولونيو (Voyage au Gourara et à l'Auougurout 1860) "رحلة إلى قورارة وأوقروت 1860"، وصدرت في ثلاثة أجزاء ضمن مجلة الجمعية الجغرافية بباريس سنوات 1892م، 1893م، 1894م، حيث سجل ملاحظاته العينية عن الطبيعة والسكان، وفصَّل في النشاط التجاري من خلال الحديث عن السلع والأسعار ومناطق التبادل.

- كتاب أوجين دوماس (Le Sahara Algérien) "الصحراء الجزائرية"، وكتابه: (Le grand désert) "الصحراء الكبرى"، الذي يعتبر مصدراً مهماً في هذه الدراسة، وقد وأورد دوماس معلومات تاريخية وإحصائية عن سكان توات وعاداتهم وطرائق عيشهم، كما وصف عدة مسالك وطرق تربط توات بغيرها من المناطق.

- كتاب بول صولييه (L'Afrique Occidental) "غرب إفريقيا"، وكتابه: (Voyage de Paul Soleillet d'alger a l'oasis d'In Salah) "رحلة بول صولييه من الجزائر إلى واحة عين صالح"، حيث دوَّن معلومات غاية في الأهمية حول الإمكانات الاقتصادية لتيدكلت، كما وصف بدقة الطريق الذي سلكه من الجزائر إلى عين صالح مبيناً أهميته التجارية.

- كتاب لويس فوانو (Le Tidikelt) "التيدكلت"، وهو دراسة ميدانية خاصة بإقليم تيدكلت،

حيث عرَّف بها من الناحية الطبيعية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، اعتمد فيها على المشاهدات العينية والروايات الشفهية، مقدماً بذلك معلومات قيمة عن هذا الإقليم من حيث موارد المياه، وأهم الزراعات التي تزخر بها المنطقة، وعادات وتقاليد المجتمع التيدكلتي، مدعماً ذلك بإحصاءات دقيقة لعدد السكان ولمختلف المنتوجات الزراعية.

- مقال لعبد الرحمن سلكة "ملخص حول توات" (Notice Sur le Touat)، يعد ذا فائدة علمية كبيرة رغم أنه دراسة مختصرة للمنطقة من حيث التقسيم الإداري والديمغرافي لمنطقة توات، حيث تطرق فيه إلى أصول السكان وأهم القصور التي قاموا بتشييدها، وإبراز العادات والتقاليد التواتية، وفي الجانب الاقتصادي تطرق لأهم المنتوجات الفلاحية، وأهم الحرف والسلع والمبادلات التجارية، غير أنه لا يخلو مع الأسف من بعض الأساطير والخرافات التي يذكرها بين الحين والآخر.

أما المراجع باللغة الأجنبية فتمثلت في تلك الدراسات التي قدمت من طرف شخصيات عسكرية فرنسية اهتمت بمنطقة توات، اعتماداً على مخطوطات محلية عن طريق ترجمتها، أو روايات شفهية، وأهم هذه الدراسات:

- "أربعة قرون من تاريخ المغرب من 1504 إلى 1902م" لمارتان (Quatre siècles d'histoire Marocaines au Sahara de 1504 a 1902)

عالج فيه تاريخ المغرب من سنة 1504- 1902م، كما تطرق لتاريخ منطقة توات بأقاليمها الثلاث معتمداً على مصادر ووثائق ومخطوطات وروايات شفهية، وقد اعتمدت على هذا الكتاب في التعريف بالحياة الاجتماعية بمنطقة توات، وإبراز العلاقات بين سكان توات والمناطق المجاورة، والصراعات التي كانت داخل المنطقة، كما عرَّف بالحياة الاقتصادية من خلال تطرقه لأهم المنتوجات الزراعية، ونظام السقي بالفقارة.

- "الواحات الصحراوية" لنفس المؤلف (Les oasis Sahariennes):

يكتسي أهمية كبيرة حيث تعرض فيه لتاريخ منطقة توات من ما قبل التاريخ إلى غاية الاحتلال الفرنسي، مبرزاً أهم السمات الاجتماعية والاقتصادية لها، مدعماً ذلك بالعديد من الإحصائيات والنسب التي أخذها من السجلات الرسمية الفرنسية حول أهم القبائل التواتية وتاريخ استقرارها وعدد السكان في كل إقليم، بالإضافة إلى الإحصاءات الاقتصادية المتعلقة بالمنتوجات الزراعية والصناعية والحرف التقليدية وأهم الأسواق التجارية، كما قدر ثروة السكان من حيث كميات المياه وعدد النخيل.

- "الصحراء الفرنسية" للرائد هنري بيوسيل (Le Sahara français)

تعرض فيه للمناطق الصحراوية الجزائرية، ومن أهمها توات بأقاليمها الثلاث، حيث قدم لمحة تاريخية عن كل إقليم وذلك بتعريفه وإبراز المقاطعات المشكلة له وتحديد تركيبته الاجتماعية، مقدماً بذلك إحصائيات وأرقاماً دقيقة حول عدد السكان والنخيل، وأهم الصادرات والواردات التجارية في المنطقة.

- "مسألة توات" للرائد ديبورتي (La Question du Touat)

وهو دراسة هامة حول منطقة توات، تحدث فيها عن قصور توات بأقاليمها الثلاثة من خلال تسمياتها وتوزيعاتها، مقدماً إحصاءات عن عدد السكان، والطرق الصوفية المنتشرة في كل إقليم، كما تعرض لتنظيم القوافل التجارية بالصحراء.

- "وثائق من أجل دراسة شمال غرب إفريقيا" للحاكم العام للجزائر جول كامبو (Documents pour servir à l'étude du Nord-Ouest africain)

دراسة مهمة استقى معلوماتها من تقارير السلطتين المدنية والعسكرية بالقطاع الوهراني، خصص الجزء الثالث منها لمنطقة توات من خلال الوثائق التي جمعها الضابطان لامارتنيير ولاكروا، حيث اهتم بدراسة المنطقة من حيث الجغرافيا، التاريخ، السكان، العادات، المناخ، الأمراض، المنتوجات الاقتصادية، التجارة التواتية، مقدماً إحصاءات دقيقة عن هذه الجوانب.

02/ المصادر والمراجع العربية:

تمثلت المصادر أساساً في تلك الرحلات العربية والمحلية في المنطقة وأهمها:

- مخطوط رحلة عبد الرحمن بن إدريس التنيلاني من توات إلى الجزائر، وهو مصدر مهم لدراستنا إذ يعتبر من الرحلات التواتية في القرن التاسع عشر، وقد دوَّن فيها صاحبها المحطات الأساسية عبر رحلته إلى مدينة الجزائر سنة 1816م، استفدنا منه في التعرف على الطريق الرابط بين الجزائر وتوات، بالإضافة إلى التواصل الثقافي بين المنطقة وأقاليم الشمال الجزائري.

- مخطوط غنية المقتصد فيما وقع بتوات من القضايا والمسائل، لمؤلفه عبد العزيز بن عبد الرحمن البلبالي (ت1261هـ/1845م)، والمخطوط عبارة عن مجموعة من القضايا والفتاوى والمسائل المنقولة من سجلات القاضي عبد الحق بن عبد الكريم، وقد أفادنا بمعلومات قيمة عن الواقع الاجتماعي خاصة ما تعلق بالحياة الأسرية، والزواج والطلاق وبعض العادات والتقاليد والأعراف، كما توضح الغنية التواصل الثقافي والعلمي بين توات والحواضر المجاورة، وفي الجانب الاقتصادي ورد بالمخطوط

ذكر بعض المنتوجات الفلاحية والحرف والمهن، والعديد من المعاملات التجارية في توات، بالإضافة إلى العملة والتبادل التجاري مع مختلف المناطق.

- رحلة الأغواطي في شمال إفريقيا والسودان والدرعية، لصاحبها الحاج ابن الدين الأغواطي، دوَّن فيها أهم المحطات في رحلته سنة 1829م ومنها منطقة توات، وتعتبر من الرحلات الأساسية التي أشارت إلى المنطقة في القرن التاسع عشر، حيث ضمنها معلومات اجتماعية واقتصادية وجغرافية قيمة عن المنطقة، استفدنا منها في التعرف على أحوال السكان ولغاتهم وعاداتهم وتقاليدهم.

أما المراجع باللغة العربية فكانت كثيرة ومتنوعة وأهمها:

- إقليم توات خلال القرنين 18-19م، لصاحبه فرج محمود فرج، الذي يعتبر أول وأهم دراسة أكاديمية تتطرق لتاريخ منطقة توات، وتضمن نظرة شاملة حول التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي لتوات، استفدنا منه في دراستنا هذه للتعرف على مظاهر الحياة الاجتماعية، وأسماء أهم قبائل المنطقة، والنشاط الزراعي والحرفي والتجارة الداخلية والخارجية وأهم الأسواق بالمنطقة. ختمه مؤلفه بتحقيق مخطوط "القول البسيط في أخبار تمنطيط".

- توات مساهمة في دراسة مجتمعات الواحات وتاريخها، لصاحبه محمد أعفيف، والذي هو عبارة عن دراسة شاملة حول توات من الجانب التاريخي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي، اعتمد فيها صاحبها على العديد من المصادر الفرنسية، والذي أفادنا في معرفة التنوع الاجتماعي والازدهار الاقتصادي الذي عرفته توات في القرن 19م.

- توات والأزواد خلال القرنين 12هـ و13هـ دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية، في جزأين، لصاحبه محمد الصالح حوتية، حيث اهتم في الجزء الأول بموقع توات وإمكانياتها الزراعية والصناعية والتجارية، بالإضافة إلى تراجم لأهم أعلامها ودورهم الثقافي، وتناول الجزء الثاني الحياة الاجتماعية بمنطقة توات.

- الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، للشيخ محمد باي بلعالم، وجاء الكتاب في جزأين، وهو عبارة عن دراسة شاملة لتوات بأقاليمها الثلاثة (قورارة، توات الوسطى، تيدكلت) تاريخياً واجتماعياً وثقافياً واقتصادياً، تطرق فيها المؤلف إلى تكوين المنطقة، وترجمة أعلامها ومؤلفاتهم، وأهم الزوايا ومؤسسيها، والعادات والتقاليد والاحتفالات بالمنطقة، كما تطرق إلى النشاط الاقتصادي من حيث أهم المنتجات الزراعية خاصة النخيل والفقارات.

صعوبات البحث:

لا شك أن أي بحث لا يخلو من عوائق وصعوبات، فقد واجهتنا في إنجاز هذه الدراسة مجموعة من الصعوبات والعقبات أبرزها:

– صعوبة الترجمة ذلك لأن معظم المصادر الخاصة بالدراسة هي باللغة الفرنسية، بالإضافة إلى صعوبة الأسلوب الذي كتب به المستكشفون كتاباتهم، علماً أن هذه الكتابات كتبت بأسلوب القرن التاسع عشر، وبأسلوب غير أكاديمي، كما وظف أصحابها كلمات كانت متداولة محلياً، وهو ما صعب مهمة ترجمة هذه الكتابات إلى اللغة العربية، ورغم أنني استعنت بمختصين في ترجمة هذه النصوص، لكن يبقى العائق الأكبر في نقل المعنى الحقيقي لما يريده المؤلف، خاصة وأن اللغة العربية تعج بالعديد من المصطلحات المترادفة، كما أنه من الضروري أن يكون المترجم على اطلاع ودراية واسعة بأهم المصطلحات التي كانت متداولة في المنطقة خلال القرن التاسع عشر الميلادي.

– الرحالة الذين زاروا المنطقة من جنسيات مختلفة وكل منهم كتب بلغته، فرولفس كتب باللغة الألمانية، ولانج كتب باللغة الانجليزية، ورغم اهتمام الفرنسيين بترجمة مذكرات المستكشفين إلى لغتهم، إلا أنه بقيت بعض المذكرات إلى اليوم بلغاتها الأصلية، خاصة بعض مذكرات الرحالة رولفس، مما تطلب منا جهداً مضاعفاً في ترجمتها من اللغة الألمانية، ناهيك عما تحدثه الترجمة من خلل في المعنى. بالإضافة إلى أن بعض الرحلات كتبها أصحابها باللغة العربية لكن فقد النص العربي ولم يبق سوى النص المترجم إلى الفرنسية، مما استوجب إعادة ترجمته مرة أخرى.

– اختلاف روايات المستكشفين في ذكر بعض التواريخ والأحداث، وانفراد بعضهم في ذكر جملة من الأحداث والأوضاع، وهو ما لا يسمح لنا بمقارنتها ومناقشتها علمياً، وبالتالي التسليم بها.

– قلة المصادر والأبحاث المحلية والكتابات الوطنية التي تناولت تاريخ المنطقة في القرن التاسع عشر، والتي تسمح لنا بمعرفة دقة وصدق معلومات المستكشفين الأوروبيين، حتى تلك الرحلات العربية التي حلت بالمنطقة خلال هذه الفترة كانت جد مختصرة ولم تقدم أي إحصائيات أو نسب يمكن مقارنتها مع ما قدمه المستكشفون.

– صعوبة الإلمام بكل جوانب الموضوع محل الدراسة الذي يتناول رقعة جغرافية شاسعة، فهو يضم ثلاثة أقاليم كبرى (توات الوسطى، قورارة، تيدكلت)، وكل إقليم يحتاج إلى دراسة خاصة، بالإضافة إلى تشعب جوانب البحث اجتماعياً وثقافياً واقتصادياً، وكل عنصر منها يحتاج إلى بحث مستقل، خاصة وأن الفترة الزمنية محددة بالقرن التاسع عشر الذي شهد توافد عدد معتبر من الرحالة

والمستكشفين للمنطقة.

- ضيق الوقت المحدد لانجاز هذا العمل والمحدد بأقل من ثلاث سنوات، وهي فترة زمنية غير كافية، بالإضافة إلى صعوبة التوفيق بين مشاغل العمل ومسؤولية البحث العلمي.

- الأوضاع الاستثنائية التي عرفتها الجزائر ومختلف دول العالم بسبب الوباء العالمي كوفيد 19، والتي أدت إلى حالة الإغلاق التام للمكتبات العامة ودور الأرشيف والمراكز العلمية، والتوقف الشبه التام لوسائل النقل، وذلك لأكثر من سنتين متتاليتين، مما حال بيني وبين الوصول إلى مصادر المعلومة داخل الوطن وخارجه.

وفي الأخير لا أدعي أنني ألممت بكل جوانب البحث وتساؤلاته، بقدر ما أكون قد أسهمت بشكل عام في دراسة أرجو أن تكون نقطة انطلاق لباحثين آخرين لدراسات أكثر عمقاً ودقة، فالموضوع ما زال ميدانه خصباً وينتظر مجهودات أكبر، ووقتاً أطول، وعملاً جاداً لإماطة اللثام عن جوانب مغمورة من تاريخ المنطقة.

كما لا يفوتني في هذا المقام أن أجدد الشكر إلى أستاذي المشرف "أحمد بوسعيد" الذي لم يبخل عليَّ بنصائحه وتوجيهاته، والشكر موصول إلى لجنة المناقشة التي تجشمت عناء قراءة هذه الدراسة وعلى ملاحظاتهم وتوجيهاتهم، التي ستساهم حتماً في استكمال جوانب النقص داخل الأطروحة.

الفصل الأول

خصائص الرحلات والبعثات الاستكشافية بتوات في القرن 19م

المبحث الأول: توات في كتابات الرحالة قبل القرن 19م

المبحث الثاني: كتاباتُ الرحالة العرب عن توات في القرن 19م

المبحث الثالث: سِمات كتابات المستكشفين الأجانب عن توات في القرن 19م

الفصل الأول: خصائص الرحلات والبعثات الاستكشافية بتوات في القرن 19م

إن ظاهرة الرحلة قديمة قدم البشرية ذاتها، فقد عرف الإنسان الرحلة والترحال منذ أقدم العصور، واكتشف عبر الرحلة موطنه الذي منحه مجالاً رحباً للتنقل والارتحال، فمكنه ذلك من ملاحظة انتشار البشر عبر بقاع المعمورة مع تنوع أجناسهم واختلاف أنماط حياتهم وصروف عيشهم. وقد ظلت توات بعيدة عن أعين الرحالة خلال العهود القديمة، وبقيت لقرون عديدة عالماً مجهولاً من قبل الرحالة والمستكشفين الغربيين القدماء، خاصة اليونانيين والرومان والقرطاجيين، ولم يقدم هؤلاء إلا معلومات سطحية محدودة جداً عنها، وخلال العصور الوسطى قدَّم الرحالة العرب والمسلمون أوصافاً مهمة للمنطقة، استفاد منها المستكشفون الأوروبيون مع بداية التوسع الأوروبي في الصحراء الإفريقية.

يُسلط هذا الفصل الضوء على الرحلات الاستكشافية في توات قبل القرن التاسع عشر، خاصة خلال العصر الوسيط والحديث، ثم تحديد أهم الرحلات التي حلَّت بتوات خلال القرن التاسع عشر وقدمت وصفاً للمنطقة، وذلك بالتعريف هؤلاء الرحالة ورحلاتهم، وإبراز مدى قيمة كتاباتهم في التأريخ للمنطقة خلال هذه الفترة، بدايةً بالرحالة الجزائريين ثم الرحالة التواتيين، وأخيراً نستعرض أهم المستكشفين الأوربيين الذي استطاعوا الوصول إلى المنطقة، وسجلوا ملاحظاتهم عنها، وما هي دوافعهم في ذلك؟ وفيما تتمثل قيمة كتاباتهم في التأريخ للمنطقة خلال القرن التاسع عشر؟

المبحث الأول: توات في كتابات الرحالة قبل القرن 19م

أولاً: توات في كتب الرحلات الجغرافية القديمة

وردت إشارات موجزة فقط في الكتب القديمة للرحالة والجغرافيين القدماء لمنطقة توات، وإن كان هؤلاء الرحالة لم يذكروها بهذا الاسم وإنما تلميحاً فقط، وذلك بذكر حدود ومواصفات مطابقة لجغرافية المنطقة وتركيبتها. ولعل أقدم تلميح للمنطقة يعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد حيث كان أول من أورد معلوماتٍ وأوصافاً عن المنطقة هو المؤرخ اليوناني هيرودوت (Hérodot)، حيث وصفها بأنها منطقة خالية وقاحلة، كان يمر بها نهر كبير، كما ذكر أن المنطقة الواقعة جنوب البحر توجد بها وحوش وخلفها لا توجد إلا منطقة قاحلة [1]. كما أن المؤرخ الروماني بلين (pline) تكلم عن أوصاف ومعلومات قريبة مما ذكره هيردوت وذلك خلال القرن الأول ميلادي. كما وردت

[1]- A.G.P Martine, **Les oasis Sahariennes Gourara- Touat- Tidikelt**, Edition de l'imprimerie algérienne, Alger, 1908, P28.

معلومات أخرى عند المؤرخ الإغريقي بتوليمي (Ptolémée) الذي ذكر بعض المدن القديمة في المنطقة، حيث أشار إلى قصور وأنهار قديمة في الصحراء كانت مأهولة بالسكان[1].

ويضيف الجغرافي ابن حوقل خلال القرن 04هـ/ 10م في كتابه صورة الأرض إلى إشارات تدل على المنطقة، من خلال وصفه المناطق الصحراوية الجنوبية للمغرب المجاورة لمنطقة توات قائلاً:"...وبين بلاد السودان وأرض المغرب سكان من البربر ومفاوز وبراري منقطعة، قليلة المياه متعذرة المراعي، لا تسلك إلا في الشتاء" [2]. وفي كتاب مسالك الممالك يصف الاصطخري في القرن 05هـ/ 11م المنطقة بكلام أكثر وضوحاً فيقول: " وأرض المغرب ما كان منها في شرقي بحر الروم بقرب الساحل فتعلوه سمرة، وكلما تباعدوا فيما يلي الجنوب والمشرق ازدادوا سواداً حتى ينتهوا إلى السودان فيكون الناس فيها أشد الأمم سواداً"[3].

وفي وصف آخر للمنطقة لابن عذارى المراكشي يقول: "...ويلي هذه البلاد بلاد الزاب إلى الأسفل، وحدها إلى مدينة تيهرت ويليها بلاد المغرب...وإذا جُزت هذا الجبل فعلى يمينك بلاد السوس الأقصى ببلاد الصحراء إلى السودان..." [4]. أما اليعقوبي في كتابه البلدان فيقدم أوصافاً للصحراء التي بين سجلماسة وصنهاجة قائلا: " ومن سجلماسة لمن سلك متوجها القبلة يريد أرض السودان يسير في مفازة وصحراء مقدار خمسين رحلة ثم يلقاه قوم يقال لهم أنبية من صنهاجة في صحراء ليس لهم قرار يتلثمون بعمائمهم، ولا يلبسون قمصانا إنما يتشحون بثيابهم، ومعاشهم من الإبل ليس لهم زرع ولا طعام"[5].

لم يرد في وصف هؤلاء الرحالة الجغرافيين القدماء اسم منطقة توات بهذا الاسم بصورة صريحة بل كان من خلال الإشارة إلى المنطقة بصورة ضمنية وبعبارات موجزة فقط تدل عليها، ذلك أن تاريخ عمارة المنطقة قديم ويسبق زمن تسميتها بهذا الاسم، ولعل أول من أورد ذكر المنطقة باسمها الحالي هو الرحالة ابن بطوطة في القرن 08هـ/ 14م، ثم توالى ذكرها في كتب الرحالة من بعده.

---

[1]- محمد بن سويسي، **العمارة في منطقة توات تمنطيط نموذجاً من القرن 6هـ إلى 13هـ**، رسالة ماجستير في الآثار الإسلامية، إشراف: عبد العزيز محمود لعرج، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2008/2009م، ص14.

[2]- أبو القاسم بن حوقل، **صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، 1992م، ص83.

[3]- إبراهيم محمد الاصطخري، **مسالك الممالك**، مطبعة بريل، ليدن، 1927م، ص36.

[4]- ابن عذارى المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ط03، تح: كولان وليفي بروفنسال، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م، ج1، ص5.

[5]- أحمد بن أبي يعقوب اليعقوبي، **كتاب البلدان وصف إفريقيا الشمالية**، تح: هنري بيريس، مطبعة بريل، 1890م، ص17.

ثانياً: الرحالة العرب والسبق في العصور الوسطى والحديثة

رغم تنائي المنطقة في الصحراء فإنها لم تكن بعيدة الذكر لدى الرحالة الذين اهتموا بالمسالك والمدن، وذلك للأهمية التي تتمتع بها المنطقة كونها مركزاً مهماً للعبور، فضلاً عمّا أودعه الله فيها من المميزات، حيث أن أول من تعرف على أسرار منطقة توات هم الرحالون والجغرافيون العرب الذين جابوا الصحراء الكبرى طولاً وعرضاً، فصارت كتاباتهم مصدراً أساسياً من مصادر الكتابة عن المنطقة. وأهم هؤلاء الرحالة الذين زاروا المنطقة أو لامسوا حدودها وقدموا وصفاً عنها:

01/ محمد ابن بطوطة[1]:

خرج ابن بطوطة في رحلته من طنجة في متوجهاً إلى المشرق لأداء فريضة الحج سنة 725هـ/ 1324م[2]، ويقول في بداية رحلته: "وكان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة معتمداً حج بيت الله وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام..."[3]. وبعد أداء فريضة الحج توجه إلى أقصى الشرق حتى دخل الصين مروراً بالعديد من المدن الأسيوية، ثم عاد إلى المغرب حتى دخل فاس سنة 750هـ/ 1349م.

وبعد أن أقام بالمغرب مدة عام عاوده الشوق والحنين إلى الارتحال، فقام برحلة ثانية عام 751هـ/ 1350م إلى غرناطة بالأندلس، ثم رجع إلى فاس ليهيئ نفسه لرحلة ثالثة إلى إفريقيا الغربية عام 754هـ/ 1353م، فوصل تمبوكتو ومنها عاد إلى المغرب عن طريق توات، وكتب رحلته بتاريخ 756هـ/ 1356م وسماها بـ"تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار". وهكذا أمضى أكثر من نصف عمره في الترحال بين المدن والبلدان؛ من أجل رؤية عادات الشعوب والأقوام، وليسجل لنا تلك الأحداث التي أصبحت درباً يسلكه كل من أراد المضي في هذا المجال[4].

---

[1]- ابن بطوطة: هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن يوسف اللواتي الطنجي، ولد سنة 703هـ/ 1304م بطنجة، أما ابن بطوطة فهو اسم شهرته الذي لا يزال يعرف به إلى اليوم، ينحدر من أسرة علمية أُتيح لكثير من أبنائها الوصول إلى منصب القضاء والنبوغ في العلوم الشرعية، حفظ القران الكريم وبدأ دراسة الفقه وفقاً للمذهب المالكي، اختار طريق الترحال والتجوال في سن مبكر وهو لم يتجاوز الواحد والعشرين سنة من عمره. أُنظر: حسين مؤنس، **ابن بطوطة ورحلاته تحقيق ودراسة وتحليل**، دار المعارف، القاهرة، 2003م، ص17.

[2]- أحمد رمضان أحمد، **الرحلة والرحالة المسلمون**، ط01، دار البيان العربي للطباعة والنشر، القاهرة، دت،ص370.

[3]- محمد بن عبد الله ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** ، تح: عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1997م، مج01، ص153.

[4]- تفاصيل أكثر حول الرحلة، أُنظر: حسين مؤنس، المرجع نفسه، ص ص16- 30.

أثناء عودته في رحلته الثالثة الشهيرة من بلاد السودان إلى المغرب مر ابن بطوطة بأرض توات في شهري نوفمبر وديسمبر سنة 754هـ/ 1353م، وكان يستهدف الدخول إلى هذه المنطقة، إذ يقول: "واشتريت جملين لركوبي بسبعة وثلاثين مثقالاً وثلث، وقصدت السفر إلى توات" [1]. وقد وصفها بأنها بابٌ من أبواب المغرب وأن الوصول إليها يعتبر دلالة على سلامة القافلة، وإيذاناً بولوج أرض المغرب الأقصى[2]. حيث يقول في حديثه عن توات: "...وقصدت السفر إلى توات ورفعت زاد سبعين ليلة، إذا لا يوجد الطعام بن تكدا وتوات". وكانت أول قرية في توات يحل بها هي بودة [3]. إذ يقول في ذلك"...ثم وصلنا بودا وهي من أكبر قرى توات..."[4].

بالرغم من أن ما جاء به هذا الرحالة كان مختصراً، إلا أنه يعتبر ذا أهمية كبيرة في تدوين تاريخ وجغرافية هذه المنطقة، فيقول ابن بطوطة في وصفه لتوات طبيعياً"... وأرضها رمال وسباخ..." [5]، حيث أن المظهر التضاريسي الغالب على المنطقة هو الرمال باستثناء بعض الواحات المنتشرة هنا وهناك. وبما أن التضاريس صورة عاكسة للمناخ السائد، فان المناخ السائد بالمنطقة وفق وصف بن بطوطة هو المناخ الصحراوي الجاف، الذي يتميز بارتفاع درجة الحرارة صيفاً والبرودة شتاءً مما يجعل المدى الحراري شاسعاً.

كما وصف ابن بطوطة الوضع الاقتصادي لتوات والأحوال المعيشية لسكانها قائلاً في معرض حديثه عنها: "...وتمرها كثير ليس بطيب، لكن أهلها يفضلونه على تمر سجلماسة، ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت، وإنما يجلب لها ذلك من بلاد المغرب، وأكل أهلها التمر والجراد، وهو كثير عندهم يختزنونه كما يختزنون التمر ويقتاتون به، ويخرجون إلى صيده قبل طلوع الشمس، فانه لا يطير إذ ذاك لأجل البرد..."[6].هذا الوصف الذي ذكره بن بطوطة لتوات لأنه دخلها في فصل الشتاء والبرد قارساً، ولم يعبرها في فصل الخريف حيث جني المحاصيل الزراعية. ويعتبر ابن بطوطة أول رحالة عربي يصل توات ويدرجها ضمن كتابته التاريخية.

---

[1]- محمد بن عبد الله ابن بطوطة، المصدر السابق، مج04، ص277.

[2]- حسين مؤنس، المرجع السابق، ص236.

[3]- بودة: كلمة بربرية تعني الحمادة، وهي بلدية تتبع لولاية أدرار وتبعد عن مقر الولاية بـ 28 كلم. أُنظر: الصديق حاج أحمد، **التاريخ الثقافي لإقليم توات**، ط02، منشورات الحبر، الجزائر، 2011م، ص118.

[4]- محمد بن عبد الله ابن بطوطة، المصدر نفسه، مج04، ص277.

[5]- المصدر نفسه، مج04، ص277.

[6]- نفسه، مج04، ص277.

02/ عبد الرحمن ابن خلدون[1]:

إن المتتبع لرحلة بن خلدون يرى أنها تنقسم إلى قسمين كبيرين، الأول: رحلته في بلاد المغرب (المغرب الأدنى، والأوسط، والأقصى، والأندلس)، والثاني: رحلته المشرقية. ففي سنة 753هـ/ 1352م كان انطلاقه من تونس إلى مدن شتى في المغرب الأوسط مثل بسكرة وبجاية، ثم توجه نحو الأندلس ودخل العديد من المدن هناك وبقي إلى غاية سنة 766هـ/ 1364م، ليعود في نفس الطريق إلى بجاية وتلمسان وبسكرة وتخوم الصحراء الجزائرية حالياً. ومنها توجه نحو فاس في المغرب الأقصى سنة 774هـ/ 1372م. ثم عاد إلى الأندلس مرة أخرى ومنها دخل المغرب الأوسط سنة 776هـ/ 1374م ومكث أربع سنوات لتدوين رحلته ثم رحل إلى تونس آخر محطة في رحلته المغربية، قبل الشروع في رحلته نحو المشرق مروراً بمصر التي دخلها سنة 789هـ/ 1386م[2].

يعتبر ابن خلدون ثاني أهم مصدر يشير للمنطقة بعد بن بطوطة بصفة أكثر تفصيلاً، وبما أنه اشتهر بتأسيسه لعلم العمران الذي كان مولعاً به، فقد أورد الأهمية التاريخية لهذا الحيز الجغرافي من حيث العمران، حيث استهوته قصور المنطقة، ويقول في ذلك: "...يسمى وطن توات، وفيه قصور متعددة تناهز المائتين، آخذة من المشرق إلى المغرب، وآخرها من جانب المشرق يسمى تمنطيت[3]، وهو بلد مستبحر في العمران..."[4]، وعلى غرار تمنطيط فقد استهوته مثيلاتها من قصور تيكورارين[5]

---

[1]- ابن خلدون: هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون ينحدر من أسرة مشهورة بالعلم والسياسة، ولد سنة 732هـ/ 1332م بتونس، تلقى تعليمه بجامع الزيتونة، وأمضى أكثر من خمسة وعشرين سنة في طلب العلم، ثم انتقل بعدها للعمل في السياسة والإدارة، حيث تولى الكتابة والوساطة بين الملوك في بلاد المغرب والأندلس ومصر، عاش متنقلاً في مختلف مدن شمال إفريقيا، إلى أن توفي بالقاهرة سنة 808هـ/ 1406م، وخلَّف العديد من المؤلفات أهمها مؤلفه الذي دون فيه رحلته والمعروف باسم "تاريخ بن خلدون". أُنظر: عبد الرحمن بن خلدون، **مقدمة بن خلدون**، دار الشرق العربي، بيروت، 2004م، ص05.

[2]- لمزيد من المعلومات حول رحلة بن خلدون ينظر: عبد الرحمن بن خلدون، **التعريف ببن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً**، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1989م، ص ص84-95.

3- تمنطيط: إحدى بلديات ولاية أدرار، تبعد عنها بـ13 كلم جنوباً. أُنظر: الصديق حاج أحمد، المرجع السابق، ص99.

4- عبد الرحمن بن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في معرفة أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، تح: خليل شحاتة، دار الفكر، بيروت، 2000م، مج07، ص77.

[5]- تيكورارين: كلمة أمازيغية تعني المعسكرات أو المخيمات، وتعرف تاريخياً كذلك بتنجورارين، وحالياً بقورارة، لكن الاسم الغالب عليها هو قورارة، وهي أحد أقاليم توات الكبرى وعاصمته تيميمون، ويقع في الجهة الشمالية لتوات يحده شمالاً ولاية البيض ومن الجنوب إقليم توات الوسطى. يُنظر: الصديق الحاج أحمد، المرجع نفسه، ص79.

فأفرد لها مقطعاً جاء فيه: "...قصور تيكورارين وهي كثيرة تقارب المائة، في بسيط واد منحدر من المغرب إلى المشرق، واستبحرت في العمران وغصت بالسكان"[1].

كما تطرق بن خلدون للطرق التجارية المارة عبر المنطقة مبيناً أهميتها التجارية، حيث بيَّن أن القوافل التجارية المتجهة من المغرب إلى السودان الغربي تمر عبر توات ذهاباً وأياباً، وتحط الرحال بتمنطيط التي اعتبرها حاضرة تجارية إذ يقول: "... ونهجوا الطريق إلى بلد السودان من أعلى تمنطيت"[2]. ويضيف قائلاً: "...وهو محط ركاب التجار المترددين من المغرب إلى بلد مالي من السودان لهذا العهد، ومن بلد مالي إليه..."[3]. ومن الأمور التي استوقفت ابن خلدون طريقة استخراج المياه من باطن الأرض التي وصفها بالغربية والعجيبة، وذلك عن طريق الفقارة [4] التي لم يشاهدها من قبل، حيث يقول: "...وفي هذه البلاد الصحراوية إلى وراء العرق غريبة في استنباط المياه الجارية لا توجد في تلول المغرب،...وهذه الغريبة موجودة قي قصور توات وتيكورارين..."[5].

03/ الحسن الوزان[6]:

قام بعدة رحلات إلى بلدان المغرب الإسلامي وبلاد السودان سنة 910هـ/ 1504م، ثم إلى بلاد المشرق سنة 921هـ/ 1516م، فتوجه إلى القسطنطينية ليتحول منها إلى مصر عبر بلاد الشام، حيث وصل إلى بلاد الحجاز وحج هناك، ثم ذهب إلى تونس سنة 926هـ/1519م، ومنها أبحر عائداً إلى المغرب الأقصى، لكنه وقع في أسر قرصان صقلية في البحر الأبيض المتوسط فاقتاده القراصنة إلى ايطاليا وقدموه هدية إلى البابا ليون العاشر، الذي كان لمس فيه الذكاء والعلم والفكر،

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر، المصدر السابق، مج07، ص77.

[2]- المصدر نفسه، مج07، ص77.

[3]- نفسه، مج07، ص77.

[4]- طريقة لاستخراج المياه الباطنية تنفرد بها منطقة توات. أنظر: محمد بن عمر البوداوي، **نقل الرواة عمن أبدع قصور توات**، تح: مولاي عبد الله سماعيلي، ط1، دار الكلمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015م، ص72.

[5]- عبد الرحمن بن خلدون، المصدر نفسه، مج07، ص78.

[6]- الحسن الوزان: هو الحسن بن محمد الوزان الرحالة المغربي المشهور باسم ليون الإفريقي، ولد بمدينة غرناطة سنة 893هـ/ 1488م، وانتقلت أسرته وهو صغيرا إلى مدينة فاس بعد سقوط غرناطة على يد الأسبان سنة 897هـ/ 1492م حيث سب هناك والتحق بجامع القرويين. وأثناء عودته من تونس سنة 925هـ/ 1519م في إحدى رحلاته وقع أسيراً في يد قراصنة ايطاليين وقدموه هدية لليون العاشر في روما، وهناك تم تنصيره وتسميته بليون الإفريقي، وكلف بتدريس اللغة العربية لرجال الكنيسة، كما تعلم اللغة اللاتينية وألَّف بها عدة كتب منها كتاب "وصف إفريقيا". انتقل إلى تونس 957هـ/ 1550م وعاد إلى الإسلام، وتوفي في نفس السنة . أُنظر: الحسن بن محمد الوزان، **وصف إفريقيا**، ط2، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م، ج01، ص07.

فأحسن استقباله وقرر له معاشاً وهو في سجنه كي لا يهرب، وشجعه على اعتناق الدين المسيحي، وبعد وفاة ليون العاشر عاد إلى تونس وتوفي بها[1].

ذكر الحسن الوزان مروره بتوات في رحلته الأولى إلى بلاد السودان والتي كانت سنة 910هـ/ 1504م، فمر بطريق مراكش عبر الأطلس الكبير وبلاد درعة، ثم اتجه غرباً إلى توات، ومنها إلى صحراء الأزواد مروراً بتغازة ثم إلى ولاته وأروان، ليصل في الأخير إلى تمبكتو[2]. وبعد مرور ثمان سنوات من الرحلة الأولى قام برحلة ثانية ، ويحتمل أنه مر في نفس الطريق. وقد لاحظ الحسن الوزان أن سكان توات إلى غاية تلك الفترة من قبائل الأمازيغ النوميديين، كما وصف الوزان بلد تسابيت[3] بأنه: "إقليم مأهول في صحراء نوميديا،...يضم أربعة قصور، على الطريق المؤدية من فاس وتلمسان إلى مملكة أغدس في بلاد السودان، سكانه فقراء جداً، لا تنبت أرضهم غير التمر وقليل من الشعير، بشرتهم سوداء... "[4]. ويبدو أن هذا الرحالة قد أخطأ في وصفه للسكان بالفقر، فلا يعقل أن توصف المنطقة بالفقر الشديد وهي معبر هام للطرق التجارية، وسكانها يشتغلون التجارة مع بلاد السودان.

كما قدم الوزان وصفاً لإقليم قورارة من حيث القصور ونشاط السكان بقوله: "...تيكورارين منطقة مأهولة في صحراء نوميديا، بعيدة بنحو مائة وعشرين ميلاً عن شرق تسبت،... وحيث يوجد ما يقرب من خمسين قصراً وأكثر من مائة قرية بين حدائق النخيل،... وسكان هذه المنطقة أغنياء لأنهم اعتادوا الذهاب كثيراً بسلعهم إلى بلاد السودان، ثم يذهبون جميعاً..." [5]. حيث يوافق وصفه هذا وصف بن خلدون للمنطقة من حيث عمارتها وتعدد قصورها، كما نلاحظ وصفه للسكان بالغنى بسبب تجارتهم مع بلاد السودان.

---

[1]- عبد القادر زبادية، **دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب والمسلمين**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ت، ص135.

[2]- الحسن بن محمد الوزان، المصدر السابق، ج01، ص171.

[3]- تسابيت: كلمة بربرية تعني المكان المعزول عن الطريق، وهي إحدى بلديات ولاية أدرار وتبعد عن مقر الولاية بـ 60 كلم. يُنظر: محمد باي بلعالم، **الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات**، د.ط، دار هومة، الجزائر، 2005، ج1، ص15.

[4]- الحسن بن محمد الوزان، المصدر نفسه، ج01، ص133.

[5]- المصدر نفسه، ج01، ص134.

04/ ابن مليح السراج[1]:

انطلقت رحلة السراج من مراكش يوم الاثنين آخر شهر صفر عام 1040هـ/ أكتوبر 1630م، متوجهاً إلى درعة ليدخل الصحراء الكبرى حيث دخل توات ومنها إلى فزان، ووصل القاهرة في شوال 1041هـ/ 1631م، ورافق الركب المصري إلى مكة المكرمة التي دخلها في 07 ذي الحجة، وبعد الحج والعمرة دخل المدينة المنورة شهر محرم 1042هـ/ 1632م، وعاد مع الركب التونسي فدخل مصر في شهر صفر، واستمر المسير في صحراء توات ومنها إلى وادي الساورة، ثم درعة وصولا إلى مراكش في شوال 1042هـ/ 1633م[2].

أثناء مرور قافلة السراج في طريق الذهاب دخل توات من أسفلها، وكانت أول محطة له قصر تسابيت في توات الوسطى[3]، وجال بعدة قصور من هذا الإقليم مقدماً وصفاً للعديد من المشاهد التي وقف عندها ويقول في ذلك: " ثم نزلنا لبلاد توات بمدشر يعرف ببني أركان [4]، أول منزلة من البلاد المذكورة بلد طيبة كثيرة الزرع والثمار المختلفة بالجنس والنوع... فأقام الركب بها سبعة عشر يوماً في نعمة شاملة...ثم انتقلنا لمدشر الدغامشة [5]...ثم انتقلنا لبلاد إكسطن [6]..."[7]. هذا في طريق ذهابه،

---

[1]– السراج: هو محمد ابن أحمد بن عبد العزيز القيسي الشهير بالسراج والملقب بابن مليح المراكشي، رحالة من أهل مراكش، لا يُعرف شيء عن تاريخ ميلاده ولا وفاته، ويعتبر من الأعلام المجهولين رغم ذكر اسمه، وقد ذكر محمد الفاسي محقق مخطوط رحلته أنه عربي الأصل، اشتهر برحلته إلى الحجاز إذ تظهر نصوص رحلته أنه كان شيخاً فقيهاً وشاعراً ذا تكوين وثقافة علمية، مطلعاً على كثير من الأخبار وتراجم الرجال. أُنظر: أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي، **أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب 1040– 1042هـ/ 1630– 1633م**، تح: محمد الفاسي، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، فاس، 1968م، ص1.

[2]– العباس بن ابراهيم السملالي، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام** ، تح: عبد الوهاب منصور، ط 2، المطبعة الملكية، الرباط، 1993م، ص ص300-305.

[3]– توات الوسطى: أحد الأقاليم الثلاث المكونة لمنطقة توات، تمتد من أعالي قصور تسابيت شمالاً إلى غاية رقان جنوباً. أُنظر: محمد باي بلعالم، المرجع السابق، ج1، ص9.

[4]– برينكان: أحد القصور التابعة لبلدية تسابيت حالياً. أنظر: نفسه، ج1، ص15.

[5]– الدغامشة: إحدى قصور لمطارفة التابعة لإقليم قورارة، وتعتبر الحد الفاصل بينه وبين إقليم توات الوسطى. أُنظر: مولاي أحمد الطاهري الإدريسي، **نسيم النفحات من أخبار توات ومن بها من الصالحين والعلماء الثقات** ، تح: مولاي عبد الله طاهري، د.ن، الجزائر، 2010م، ص112.

[6]– إقسطن: إحدى قرى إقليم قورارة التابعة لبلدية دلدول. أُنظر: المصدر نفسه، ص112.

[7]– أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي، المصدر نفسه، ص29.

ثم ذكر في عودته طريق تيدكلت [1] قائلاً: "...وسلكنا طريق تيدكلت أسفل بلاد توات...فبلغنا بعد ثلاثة أيام مدشراً صغيراً يقال له إن صالح[2]...فارتحلنا لبلاد تسابيت"[3].

لقد قدَّم ابن مليح وصفاً لبعض من القرى التواتية التي حل بها من حيث المظاهر الطبيعية والاقتصادية والدينية والحضارية، وكان يمكث في كل قرية عدة أيام، واصفاً أهلها بالكرم وحسن الضيافة، وقد ذكر ابن مليح المراحل التي يقطعها الحجاج في أرض توات وعدد المراحل التي تربط توات من الجهة الشرقية والشمالية[4]، وبذلك يعتبر من أهم المصادر التاريخية التي ذكرت المنطقة خلال القرن السابع عشر الميلادي.

04/ أبو سالم العياشي[5]:

قام برحلته في ربيع الثاني عام 1072هـ/ 1661م[6] انطلاقاً من سجلماسة ثم توات وقورارة وورقلة ونفزاوة وطرابلس وأمبابة والقاهرة والسويس وأرض التيه ومغائر شعيب والعقبة السوداء والينبع

---

[1]- تيدكلت: كلمة بربرية تعني كف اليد وهي كناية عن انخفاض المنطقة، وهي أحد الأقاليم الثلاث المكونة لمنطقة توات في أقصى الجنوب الجزائري، تحده هضبة تادمايت من الشمال ومنطقة الهقار من الجنوب، وينقسم الى قسمين شرقي عاصمته عين صالح وغربي عاصمته أولف. يُنَظر: الحاج التومي سعيدان، **سكان تدكيلت القدماء والاتكال على النفس**، دار هومة، الجزائر، 2005م، ص18.

[2]- إن صالح أو عين صالح: اختلفت الروايات حول أصل التسمية والأرجح أنها كلمة بربرية مركبة من قسمين وهما، "إن" وتعني إتجاه، و "صالح" وهو اسم رجل جاء مع الملكة "تينهنان" وخادمتها من تافيلالت، ولما توجها نحو الأهقار بقي هناك وحفر بئراً وبدأت الحياة معه فسميت المنطقة إن صالح أي إتجاه صالح، لكن إشتهرت ب"عين صالح". وهي تتبع إدارياً اليوم لولاية تمنراست وتبعد عنها بـ 658 كلم. أُنظر:

Louis Voinot, **le Tidikelt étude sur la géographie l'histoire**, **les moeurs du pays**, édition jacques gandini, Paris 1908, p48.

[3]- أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي، المصدر نفسه، ص29.

[4]- المصدر نفسه، ص29.

[5]- العياشي: هو أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي، ينتسب لقبيلة آل عياش الأمازيغية، ولد سنة 1037هـ/ 1628م، قرب تافيلالت بالمغرب الأقصى، وقرأ القرآن في البداية على والده، ثم أقبل على شيوخ عصره بشغف كبير يأخذ عنهم مختلف العلوم، وما لبث أن انتقل إلى فاس للأخذ عن علماء القرويين، ثم انتقل إلى المشرق طلباً للعلم سنة 1059هـ/ 1649م. كما أخذ العياشي عن علماء الأزهر وعلماء القدس وعلماء مكة والمدينة المنورة، واتصل بعلماء طرابلس والقيروان ووهران وتلمسان، فأجازهم وأجازوه. توفي سنة 1090هـ/ 1679م، ترك أبو سالم العياشي إرثاً علمياً ثميناً تمثل في العديد من المؤلفات أهمها رحلته التي تعرف بالرحلة العياشية. أُنظر: أبو سالم العياشي، **الرحلة العياشية (ماء الموائد)**، تح: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، ط01، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2006م، مج01، ص29.

[6]- المصدر نفسه، ص67.

وجبل الرمل ورابغ وعقبة السكر، ومر بالظهران والتنعيم ومكة المكرمة والمدينة المنورة، وفي خط العودة مر بغزة، الرملة، القدس، الخليل، دمياط، مصر، الإسكندرية، طرابلس، توزر، بسكرة، وكانت محطة الوصول في شوال 1074هـ/ 1663م[1]. وقد اختار العياشي طريق الصحراء وجاب الواحات مصوراً بذلك جغرافيتها الوعرة، وطيبة ناسها ودماثة أخلاقهم وأوليائهم الصالحين [2]. ودوّن ذلك في رحلته التي تعرف بالرحلة العياشية والتي سماها "ماء الموائد"، وتعتبر من أهم سجلاته العلمية؛ لأنه ضمنها حياته الفكرية والعلمية وتجربته الشخصية كعالم ورحالة.

كانت توات من أهم المحطات التي زارها العياشي ومكث بها حوالي 12 يوماً، فقد دخلها في ربيع الثاني سنة 1072هـ/ 1661م[3]، وأشار إلى أن من أسباب نزوله بتوات ومن معه هو غلاء صرف الذهب بمنطقة تافيلالت فأخروا الصرف إلى توات لأن الذهب فيها أرخص، حيث يقول: "...وسبب إقامتنا في هذه البلاد في هذه المدة أن كثيراً من الحجاج لما غلا صرف الذهب في تافيلالت أخروا الصرف إلى توات، فإن الذهب فيها أرخص ..."[4]. وكانت أول قرية يدخلها تسابيت التي يعتبرها أول عمالة توات، ومكث بها ستة أيام قائلاً في ذلك: "ودخلنا إلى أول عمالة توات،... وأقمنا بها ستة أيام ..."[5].

اعتبر العياشي توات سوقاً رائدة في صرف الذهب والعملات، ذلك ما يؤكده قوله: " وبعنا بها خيلنا وما ضعف من إبلنا، واشترينا ما يحتاج إليه من التمر، وبها من التمر أنواع كثيرة، ووجدنا التمر فيها رخيصاً..."[6]. فالطابع الغالب على هذه البلاد في نظره هو التجارة، لأنها مجمع القوافل الآتية والعابرة إلى مختلف الأصقاع. وقد وصف سكان توات من العوام بأنهم أهل تجارة يعيشون مما يكتسبونه من بيع التمر ذي الأنواع الكثيرة، حيث خالف بن بطوطة في رأيه بشأنهم، وتكلم عن تنوع مذاق التمر وقيمته.

---

[1]- أبو سالم العياشي، المصدر السابق، مج01، ص40.

[2]- مولاي بلحميسي، **الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني** ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص18.

[3]- مبارك جعفري، **العلاقات الثقافية بين توات والسودان الغربي خلال القرن 12هـ**، ط01، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص101.

[4]- أبو سالم العياشي، المصدر نفسه، مج01، ص79.

[5]- المصدر نفسه، ص79.

[6]- نفسه، ص79.

لقد ورد ذكر المنطقة في كتابات العديد من المؤرخين والرحالة المسلمين رغم أنهم لم يزروا المنطقة ومنهم القاضي كعت محمد بن محمد (ت 1002هـ/ 1593م) في مؤلفه "الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار". وأبو فارس عبد العزيز الفشتالي (ت 1031هـ/ 1622م) في كتابه "مناهل الصفا في ذكر مآثر موالينا الشرفا"، والشيخ أحمد بابا التمبكتي (ت 1036هـ/ 1627م) في كتابه "نيل الابتهاج بتطريز الديباج"، والمؤرخ عبد الرحمن السعدي (ت 1063هـ/ 1652م) في كتابه "تاريخ السودان"، وغيرهم.

ثالثاً: توات في كتابات الرحالة المحليين

01/ عبد الرحمن بن عمر التنلاني[1]:

بدأت رحلته من مسقط رأسه بقرية تنيلان [2] وذلك صبيحة يوم الجمعة 10 جمادى الثانية 1188هـ/ 1774م، متوجهاً نحو تمنطيط، ثم إلى زاوية الجديد [3]، ثم زاوية كنته [4] ومنها إلى قرية بوعلي[5]، ثم توجه إلى إقليم تيدكلت، وأول قرية دخلها هناك هي تمقطن [6]، ثم أولف[7]، ثم زاوية أبي

[1]– عبد الرحمن التنلاني: هو أبو زيد عبد الرحمن بن عمر بن محمد بن معروف بن يوسف، ينتهي نسبه إلى سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولد بتنيلان سنة 1121هـ/ 1709م[1]، حفظ القرآن وتعلم الفقه بمسقط رأسه وأخذ عن عدة علماء داخل وخارج الوطن، اشتهر بكثرة رحلاته وتنقلاته طلباً للعلم، كان عالماً حافظاً أدى دوراً مهماً في الحركة العلمية بتوات، حيث تصدى للتدريس بزاوية قصر تنيلان فتتلمذ عليه العديد من الطلبة، توفي رحم الله عام 1189هـ/ 1775م بمصر ودفن هناك. خلَّفَ عدة مؤلفات لا تزال مخطوطة فالخزائن التواتة كان أهمها وآخرها رحلته إلى الحج سنة 1188هـ/ 1774م.أُنظر: عبد القادر بن عمر المهداوي، **الدرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية**، مخطوط بخزانة الوليد بن الوليد، قصر با عبد الله، تيمي، أدرار، ص03.

[2]– تنيلان: أحد قصور توات الوسطى، أسسها أحمد بن يوسف التنلاني في سنة 1078هـ/ 1667م، تقع شمال مدينة أدرار، وتبعد عنها بـ 02 كلم، أُنظر: الصديق حاج أحمد، المرجع السابق، ص114.

[3]– الجديد: تعود لمؤسسها الشيخ سيدي محمد بن عومر، وهي أحد القصور التابعة لدائرة تامست وتبعد عن مقر ولاية أدرار بـ 45 كم جنوباً. يُنظر: محمد باي بلعالم، المرجع السابق، ج1، ص12.

[4]– زاوية كنته: يعود تأسيسها إلى الشيخ سيدي أحمد بن محمد الرقادي، وهي بلدية تتبع لولاية أدرار تبعد 75 كم جنوباً عن مقر الولاية. يُنظر: المرجع نفسه، ج1، ص13.

[5]– بوعلي: يعود تأسيسها إلى أبي علي البرمكي. وهي أحد قصور بلدية زاوية كنته. يُنظر: نفسه، ص13.

[6]– تمقطن: قبيلة بربرية قدمت من بلاد السودان الغربي واستوطنت بالمنطقة، وهي بلدية حالياً تقع إلى الجنوب الشرقي لولاية أدرار. ينظر: الحاج التومي سعيدان، المرجع السابق، ص41.

[7]– أولف: كلمة بربرية مشتقة من "أقلف" التي تعني خلية النحل، وهي بلدية تتبع لولاية أدرار وتبعد عن مقر الولاية بـ 230 كلم، وتعتبر من أهم المدن في إقليم تيدكلت. يُنظر: محمد باي بلعالم، المرجع نفسه، ج1، ص18.

نعامة[1]، ومنها إلى عين صالح،[2] ومنها عبر أودية الصحاري الليبية، حتى دخل القاهرة في شهر شوال، ثم توجه إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج. وبعد أداء المناسك خرج عائداً لبلده حيث وافته المنية وهو في طريق العودة بمصر. وقد دون هذه الرحلة التي جاءت في 13 ورقة وهي محفوظة في العديد من الخزائن التواتية[3]، وتعتبر من أهم مصادر الكتابة التاريخية عن المنطقة في القرن 12هـ/ 18م.

تحتوي الرحلة على مجموعة من الأحداث التاريخية المهمة في الفترة التي كُتبت فيها بالنسبة للمنطقة، من حيث التعريف بسكان المنطقة وأماكن الاستقرار البشري والمسالك الصحراوية من وإلى توات[4]، حيث استطاع أهل توات أن يطوعوا الصحراء لمقتضيات حاجتهم الحياتية، كما أن الوصف الذي يقدمه الشيخ عبد الرحمن التنلاني حول طريق الحج الجنوبي الصحراوي من تمنطيط إلى مكة حيث حدد كل القرى والمدن التواتية التي يمر بها ومدة المكوث بكل قرية (الجديد، زاوية كنته، بوعلي، تمقطن، أولف، عين صالح، ....) [5]، كل ذلك يعطينا فكرة عن الظروف التي يؤدي فيها الحجاج التواتيون هذه الفريضة، ومدى شوقهم إلى زيارة الأماكن المقدسة رغم صعوبة هذا الطريق. كما قدم وصفاً للمكانة الحضارية التي وصلت إليها توات خلال هذه الفترة التي تعتبر الأكثر ازدهاراً في تاريخ توات في نظر الكثير من المؤرخين.

02/ ضيف الله بن محمد بن أُبَّ[6]:

قام برحلة داخل المنطقة انطلق فيها من مسقط رأسه بزاوية كنتة وسط توات مروراً بإقليم تيدكلت موطن آبائه وأجداده، وصولاً إلى قبر والده في مدينة تيميمون بإقليم قورارة، وقد مر بالعديد

---

[1]– زاوية أبي نعامة: تنسب إلى مؤسسها الشيخ امحمد أبي نعامة بن عبد الرحمن الكنتي شيخ ركب الحج، وهي أحدى القصور التابعة لبلدية أقبلي جنوب توات. يُنظر: محمد باي بلعالم، المرجع السابق، ص18.

[2]– محمد عبد العزيز سيدي عمر، **قطف الزهرات من أخبار علماء توات**، دارهومة، الجزائر، 2002م، ص99.

[3]– للمزيد حول الرحلة ذهاباً وأياباً، يُنظر: محمد باي بلعالم، **الغصن الداني في ترجمة وحياة الشيخ عبد الرحمن بن عمر التنلاني**، دار هومة، الجزائر، 2004م، ص ص61- 71.

[4]– أحمد ابا الصافي جعفري، **من تاريخ توات أبحاث في التراث**، ط1، منشورات الحضارة، الجزائر، 2011م، ص457.

[5]– محمد باي بلعالم، الغصن الداني، المرجع نفسه، ص ص62- 65.

[6]– بن أُبَّ: هو سيدي ضيف الله بن محمد بن أُبَّ بن احميدة بن عثمان بن أبي بكر المزمري، ولد في شوال 1128هـ/ أكتوبر 1716م بزاوية كنته، درس على يد والده العالم المشهور محمد بن أُبَّ المزمري، وقد كان صاحب مشورته وورث عنه العلم، جلس للتدريس واشتهر بنبوغه في العلم. توفي في نهاية القرن 12هـ، خلَّف بعض الآثار منها رحلته الشهيرة والعديد من القصائد الشعرية.أُنظر: عبد الله مقلاتي ومبارك جعفري، **معجم أعلام توات**، ط1، منشورات الرياحين، الجزائر، 2013م، ص173.

من القصور بتوات الوسطى [1] فزار بوعلي وسالي [2] وتيمادنين[3] وزاوية الرقاني [4]، ثم دخل إقليم تيدكلت فزار أقبلي [5] وتقرافت[6] وزاوية أبي الانوار [7] وعين بلبال [8]، ثم توجه إلى إقليم قورارة فمر على قصور أفران[9] وأولاد محمود [10] وأوقروت [11] وتيميمون [12]. وبعد زيارة قبر والده عاد إلى مسقط رأسه ماراً بالعديد من القصور منها أسبع [13] وتيمي وتمنطيط [14]. ودون مخطوط رحلته التي سماها: "رحلتي لزيارة قبر الوالد". وكانت الرحلة خلال صائفة سنة 1160هـ/ 1747م[15].

تقدم الرحلة العديد من أخبار أقاليم توات وقصورها المتعددة في جوانبها المختلفة، فهو يقدم لنا صورة حيّة لأهم جوانب الحياة العلمية والاجتماعية والاقتصادية لساكنة المنطقة خلال عصر المؤلف، حيث ذكر في رحلته ما رأى من البلدان والأودية ومجاريها، كما ضمَّنَ رحلته العديد من غرائب الأسفار وأوصاف الناس وطبائعهم والعديد من الفوائد الأدبية والنكت والألغاز، كما قدَّم لنا ترجمات مهمة لكثير من العلماء البارزين في المنطقة خلال هذه الفترة [16]، وبالتالي تعتبر رحلته من أهم وأقدم

---

[1]- ضيف الله بن محمد بن أُبَّ، **رحلتي لزيارة قبر الوالد**، تح: أحمد أبا الصافي جعفري، ط 1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2015م، ج01، ص7.

[2]- سالي: إحدى بلديات أدرار، تبعد عنها بـ 110 كلم جنوباً. يُنظر: مولاي أحمد الطاهري الإدريسي، المصدر السابق، ص82.

[3]- تيمادنين: كلمة بربرية تعني الأمعاء اللاصقة ببعضها البعض، وهي قرية تابعة لبلدية رقان. يُنظر: المصدر نفسه، ص15.

[4]- زاوية الرقاني: أسسها مولاي عبد الله الرقاني (ت 1148هـ/ 1735م)، وهي أحد قصور بلدية رقان. يُنظر، نفسه، ص77.

[5]- أقبلي: أحد قرى إقليم تيدكلت، وهي بلدية تتبع لولاية أدرار وتبعد عن مقر الولاية بـ290 كلم. يُنظر: نفسه، ص73.

[6]- تقرافت: قرية تتبع لبلدية أولف. أُنظر: ضيف الله بن محمد بن أُبَّ، المصدر نفسه، ج1، ص227.

[7]- زاوية أبي الأنوار: وهي أحد القرى التابعة حالياً لبلدية تمقطن. أُنظر: نفسه، ج1، ص232.

[8]- عين بلبال: نسبة لشجر البلبال الموجود بها، وهي قرية صغيرة تابعة حالياً لبلدية تمقطن. أُنظر: نفسه، ج1، ص251.

[9]- أُفران: بلدة تتبع لبلدية المطارفة، وتبعد عن مقر ولاية أدرار بـ100كلم إلى الشمال الشرقي. أُنظر: نفسه، ج1، ص41.

[10]- أولاد محمود: قرية تابعة لبلدية أوقروت. أُنظر: محمد باي بلعالم، المرجع السابق، ج1، ص16.

[11]- أوقروت: أحد أهم مدن إقليم قورارة، وهي بلدية تبعد عن مقر ولاية أدرار بـ120 كلم. يُنظر: المرجع نفسه، ص16.

[12]- تيميمون: ، وهي عاصمة إقليم قورارة، تبعد عن مقر ولاية أدرار بـ200 كلم. أُنظر: نفسه، ص16.

[13]- أسبع: بلدية تابعة لدائرة تسابيت، تبعد عن مقر ولاية أدرار بـ40 كلم. أُنظر: نفسه، ص15.

[14]- ضيف الله بن محمد بن أُبَّ، المصدر نفسه، ج1، ص8.

[15]- الرحلة محققة من طرف الدكتور أحمد ابا الصافي جعفري، وهو أستاذ التعليم العالي بجامعة أدرار، من مواليد سنة 1970م بتامست، له العديد من المؤلفات حول منطقة توات.

[16]- لأكثر التفاصيل حول الرحلة أُنظر: نفسه، ج1.

الشهادات التاريخية العينية لواقع الحياة الاجتماعية والعلمية في منطقة توات خلال القرن 12هـ/ 18م.

03/ القبلاوي الفلاني[1]:

تعتبر رحلة القبلاوي سيرة ذاتية وثق فيها لحياته منذ ولادته، حيث بدأها بذكر ولادته ودخوله للكتاب وحفظه للقران الكريم وكُتب الفقه المالكي، ثم رحلته داخل توات لطلب العلم عند علمائها حيث توجه أولا إلى قرية زاجلو، ثم توجه إلى تيمي، وهو في ذلك يصف القصور التواتية التي حل بها وأحوال ساكنتها ويذكر العلماء الذين قابلهم، ولما كانت سنة 1187هـ/ 1774م[2] بدأ رحلته الحجازية بداية من عين صالح إلى فزان ثم إلى القاهرة وصولاً إلى مكة المكرمة. وبعد أداء المناسك عاد في نفس الطريق إلى توات مبرزاً أهم الأحداث التي صاحبت الرحلة في طريقها إلى البقاع المقدسة [3]. والرحلة مدونة بخط يد الرحالة في ستة صفحات محفوظة بخزانة سليماني علي بقصر ادغاغ. ولم تحقق إلى غاية اليوم.

بما أن الرحلة الأولى التي قام بها الرحالة في المنطقة كانت لطلب العلم فهو يصف الحياة العلمية في توات، حيث يبدأ طالب العلم بالكُتَّاب لحفظ القرآن الكريم في سن صغيرة إذ يقول: "وأن والدي أدخلني الكُتّاب وأنا ابن خمس سنين...ولما بلغت الثامن ختمت القرآن الكريم..." [4].ثم بعد ذلك يتوجه طالب العلم لدراسة كتب الفقه المالكي، بداية بمختصر خليل ورسالة أبي زيد القيرواني والعاصمية وجمع الجواهر في الفقه، وفي النحو نظم الاجرومية وألفية بن مالك وكتاب الجمل [5]، ثم بعد ذلك يتوجه طالب العلم إلى مرحلة ثانية وهي الالتحاق بحلقة أحد العلماء. كما تدلنا الرحلة على الروابط العلمية بين أقاليم توات، فقد بدأ صاحب الرحلة الدراسة في مسقط رأسه بأقبلي أحد قصور

---

[1]- القبلاوي الفلاني: هو الشيخ عبد الله بن أحمد بن مالك الفلاني، يلقب بالقبلاوي نسبة إلى قرية أقبلي التي ولد بها سنة 1113هـ/ 1701م، ختم القران وهو في الثامنة من عمره، ولما بلغ الرابعة عشر من عمر حفظ قواعد المذهب المالكي، ثم توجه بعدها إلى قرية زاجلوا ودرس عند علمائها، ومنها توجه إلى تيمي ودرس عند العديد من المشائخ أهمهم الشيخ عبد الرحمن بن عمر، وفي سنة 1161هـ/ 1748م حصل على إجازة من شيوخه، وتصدى بعدها للتدريس، يعتبر من الأعلام المؤلفين بالقطر التواتي. قام برحلة إلى الحج سنة 1187هـ/ 1774م ، توفي رحمه الله وخلف رحلته التي دون فيها عن حياته ورحلته إلى الحج. أُنظر: أبو عبد الله الفلاني القبلاوي، **رحلة الفلاني القبلاوي**، مخطوط بخزانة مولاي عبد الله سماعيلي، زاوية كنتة، أدرار، ص1.

[2]- المصدر نفسه، ص4.

[3]- نفسه، ص ص3- 5.

[4]- نفسه، ص1.

[5]- نفسه، ص1.

إقليم تيدكلت ثم توجه إلى توات الوسطى لمزاولة طلب العلم عند شيوخها، كما صور بعضاً من الأحوال الاقتصادية في توات خلال هذه الرحلة.

04/ مولاي أحمد بن هاشم التواتي[1]:

انطلقت رحلة بن هاشم من قصر أولاد عمور[2] بتيمي[3] يوم الأحد 20جمادى الأولى 1213هـ/ 1798م، وكان الغرض من الرحلة كما ذكر هو زيارة الموطن الأول لأجداده وهو قصر المستور[4] بسالي، وخلال هذه الرحلة مر بالعديد من القصور في توات الوسطى أهمها: قصر تسفاوت[5] ثم فنوغيل ثم قصر الجديد ثم قصر لحمر[6] ثم زاجلو[7] وزاوية كنتة ثم قصر زاوية الشيخ[8]، ومنها إلى قصر المستور أرض أجداده حيث أقام به شهراً، وفي طريق العودة مر بقصور سالي وقصر تمنطيط، ووصل قصر أولاد عمور يوم 23 ذي القعدة 1213هـ/ 1798م[9] حيث دوَّن رحلته التي لا تزال مخطوطة وهي محفوظة في خزانة أدغاغ وجاءت في خمس صفحات.

رغم أن الرحلة كانت شخصية لزيارة الموطن الأول لأجداد الرحالة في توات بقصر المستور، إلا أنها تحولت إلى رحلة علمية حيث تعتبر من أهم النصوص التوثيقية التي حفظتها خزائن المخطوطات

---

[1]– مولاي أحمد بن هاشم: هو مولاي أحمد بن مولاي هاشم بن مولاي أحمد بن مولاي عبد الرحمن، ولد بقصر أولاد عمور بتيمي، يرجع موطنه الأصلي إلى قصر المستور بسالي، وهو المحطة الأولى لأجداده عند وصولهم توات سنة993هـ/ 1535م، كان والده مولاي هاشم عالماً حيث أخذ عنه ما شاء الله من العلوم حتى عين قاضياً على توات خلفاً لوالده، ولم تذكر المصادر التاريخية التواتية تاريخ ميلاده، قام برحلة سنة 1213هـ/ 1798م لزيارة المستقر الأول لأجداده، وتوفي في 13 رمضان 1253هـ/ 1873م. أُنظر: عبد الله كروم، **الرحلات بإقليم توات دراسة تاريخية وأدبية للرحلات المخطوطة بخزائن توات**، ط خ، دار دحلب، الجزائر، 2007م، ص62.

[2]– أولاد عمور: أولاد عيسى حالياً، وهو أحد قصور بلدية تيمي. أُنظر: مجهول، **تقييد ما اشتمل عليه إقليم توات من الأيالة السعدية من القصور ووثائق أخرى**، المطبعة الملكية، الرباط، 1962م، ص7.

[3]– تيمي: أحد أهم مدن توات الوسطى، وهي بلدية حالياً تبعد عن مقر ولاية أدرار بـ 10 كلم. أُنظر: مولاي أحمد الطاهري الإدريسي، المصدر السابق، ص104.

[4]– المستور: هو أحد قصور توات الوسطى يتبع لبلدية سالي. أُنظر: المصدر نفسه، ص80.

[5]– تسفاوت: أحد قصور توات الوسطى تابع لبلدية بلدية فنوغيل يُنظر: مجهول، المصدر نفسه، ص8.

[6]– لحمر: أحد قصور توات الوسطى تابع لبلدية بلدية تامست. يُنظر: نفسه، ص8.

[7]– زاجلوا: أحد قصور توات الوسطى، يتبع لبلدية زاوية كنته، أُنظر: نفسه، ص8.

[8]– زاوية الشيخ: نسبة إلى الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، وهو أحد قصور بلدية زاوية كنتة. أُنظر: نفسه، ص8.

[9]– مولاي أحمد بن هاشم، **رحلة مولاي أحمد بن هاشم**، مخطوط بخزانة أدغاغ، بلدية أدرار، أدرار، ص2.

التواتية[1]، فقد سجلت الكثير من الأخبار التاريخية عن منطقة توات خاصة القصور التي زارها الرحالة من حيث تاريخ تعميرها من طرف القبائل الوافدة إليها وأنساب سكانها [2]، كما ذكر بعض عناوين المخطوطات التي اطلع عليها أثناء إقامته بهذه القصور، وبالتالي يعتبر شاهداً على الحركة العلمية التي كانت تشهدها المنطقة خلال القرن 12هـ/ 18م.

لقد كان لهؤلاء الرحالة فضلٌ كبير بما سجلوه – بقصد أو بغير قصد– في توفير معارف تاريخية وجغرافية وثقافية عظيمة القيمة، أدت إلى فتح الباب للجغرافيين بوجه خاص ليلجوا الآفاق في رحلات متعاقبة لدراسة المنطقة وتسجيل ملامح تضاريسها المختلفة من صحاري وقفار، والوقوف على ثرواتها وتجارتها وعمارتها وصور العيش فيها، وما إلى ذلك من ألوان العيش البشري.

رابعاً: محاولاتُ الأوروبيين استكشافَ المنطقة في ق18

ظلت منطقة توات في الصحراء الإفريقية الكبرى بالنسبة للأوروبيين عالماً مجهولاً لعدة قرون، وقد بدأ اهتمامهم بها عندما شرعوا في الكشوفات الجغرافية البحرية الاستعمارية خلال القرن الخامس عشر وما بعده، ويأتي في مقدمة الأوروبيين التجار الإيطاليون خاصة الجنويين منهم، فقد قام المغامر الجينوي أنطونيو مالفالنتي (Antonio Malfante) برحلة إلى حوض النيجر عبر توات سنة 1447م، حيث يعتبر أول أوروبي يصل إلى توات في رحلة تجارية نحو بلاد السودان التي عاش فيها أربعة عشر عاماً[3].

وفي أواخر القرن 18م اشتد التنافس الاستعماري بين الفرنسيين والبريطانيين والألمان حول القارة الإفريقية، فشرع البريطانيون والألمان يفدون على إفريقيا مع نهاية القرن 18م، مستفيدين مما كتبه الرحالة العرب عنها، وقد ظلت تلك الرحلات مقتصرة على نهر النيجر وحوض السينغال لمدة ليست بالقصيرة، ولم تكن تلك الرحلات الاستكشافية التي بدت في ظاهرها بعثات علمية سوى مقدمة لإستراتيجية بعيدة المدى هدفها النهائي استعمار المنطقة، ولهذا تأسست جمعيات جغرافية في أوروبا أخذت على عاتقها الإشراف على تلك الرحلات ونشر أخبارها في شكل تقارير[4]، وكانت بريطانيا سباقة في ذلك حيث أسست" الجمعية الإفريقية" (The African Association)

[1]– حليمة سليماني، **الحياة الاجتماعية والثقافية لقصور تيمي من خلال المصادر المحلية 13هـ/ 19م**، أطروحة دكتوراه، إشراف: مبارك جعفري، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة أدرار، 2019/ 2020م، ص322.

[2]– للمزيد حول الرحلة ذهاباً وأياباً أنظر: مولاي أحمد بن هاشم، المصدر السابق.

[3]– مبارك جعفري، المرجع السابق، ص90.

[4]– إسماعيل العربي، **الصحراء الكبرى وشواطئها**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م، ص64.

سنة 1788م لأسباب اقتصادية وسياسية، خصوصا بعد أن فقدت بريطانيا مستعمراتها الأمريكية، فراحت تبحث عن مناطق جديدة في العالم لتستعمرها[1].

تعاقدت "الجمعية الإفريقية البريطانية" سنة 1788م مع الرحالة ليد بارد (Lyd bard)[2] ليقوم برحلة استكشافية لحسابها، من أجل عبور الصحراء الإفريقية عبر وادي النيل إلى أعالي النيجر، لكن الرحالة واجه مغامرة المرض قبل مغامرة الصحراء، فقد مات قبل أن يبدأ رحلته في مصر، وذلك بعد أن أتم استعداده للسفر. ثم جاءت رحلة الميجر هيوتون (Le Major Houghton) الذي كان قنصلا لبريطانيا في مراكش، وقد بدأ رحلته سنة 1790م من مصب نهر غامبيا وتوغل نحو الداخل فانقطعت أخباره وانتهت محاولته بالفشل[3].

قامت جمعية "الدراسات الافريقية للندن" (la Société des Etudes Africaines de Londres) بإرسال رحالة اسكتلندي هو مونغو بارك (mongo park)[4] والذي كلف بجمع معلومات عن نهر النيجر وتتبع مجراه، فانطلق من ساحل غامبيا سنة 1795م[5]، وفي سنة 1797م عاد إلى إنجلترا وكتب يحث الحكومة البريطانية على احتلال هذه المناطق في إفريقيا للاستحواذ على خيراتها وثرواتها، التي لاحظ أنها متنوعة وعظيمة، كما قدَّم في كتابه الذي ألَّفه عن رحلته، أخباراً وملاحظات جغرافية وحضارية حول إفريقيا، ما دفع الحكومة البريطانية للاتصال به، وتدعيم رحلته الثانية، التي بدأها في جانفي 1805 م من غامبيا[6].

[1] - إبراهيم مياسي، **توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري (1881-1912)**، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1996م، ص41.

[2] - ليد بارد (Lyd bard): سائح انجليزي بعثته الجمعية الإفريقية ليقوم برحلة لحسابها ويخترق القارة الإفريقية من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، لكنه توفي قبل أن يبدأ رحلته في مصر ضحية للحمى، بعد أن أتم كل استعداداته للسفر. يُنظر: المرجع نفسه، ص65.

[3] - إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص289.

[4] - مونغو بارك (mongo park): رحالة ومغامر اسكتلندي، كان يشتغل طبيب لكنها لم تشبع طموحه وتطلعاته، بدأ رحلته وعمر لم يتجاوز 25 سنة، سجلَّ نجاحاً ملحوظاً في استكشافه لإفريقيا الغربية، حيث وصل إلى نهر النيجر في سنة 1769م. يُنظر: المرجع نفسه، ص65.

[5] - محمد الصالح حوتية، **توات والأزواد**، جزءان، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007م، ص 492.

[6] - زاهر رياض، **استعمار إفريقيا**، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1965م، ص112.

تعاقدت الجمعية الإفريقية مع متطوع آخر يدعى هورن مان (Horn-men)[1] بين أعوام 1798- 1800م، وقد استعد لهذه الرحلة بمعرفة واسعة بجغرافية إفريقيا وبدراسة أحوال الشعوب والمناطق التي سيتجول فيها، وخصوصاً معرفة اللغة العربية الأكثر انتشاراً في الصحراء، حيث كلِّف بمواصلة استكشافات "مونغو بارك". وفي سنة 1797م وصل إلى القاهرة ومنها بدأ رحلته في شهر سبتمبر 1798م، حيث وصل إلى أطراف نهر النيجر عام 1800م، وبعدما وصل إلى النهر وأكمل استكشافات " بارك"، توفي في تمبوكتو[2].

رغم كثرة الرحلات الاستكشافية الأوروبية وامتدادها وتعدد مساراتها على طول الصحراء الإفريقية الكبرى وتعدد المغامرين، إلا أن الرحلات التي وصلت إلى توات أو سجَّلت طبوغرافيته خلال القرن الثامن عشر تعد قليلة جداً، ذلك لأن رحلات المغامرين الأوروبيين في القرن 18م اقتصرت على محاولات اختراق الصحراء من الجنوب، أي من حوض النيجر وحوض السنغال، وذلك طبيعي بحكم سيطرتهم على مناطق وسواحل إفريقيا الغربية منذ فترة الكشوفات الجغرافية.

لقد حظي البريطانيون بالسبق في التعرف على المنطقة ثم نافسهم في ذلك الألمان، فقد جاب الرحالة الانجليز والألمان مناطق عديدة من الصحراء، لكن الكثير من أولئك المستكشفين لقوا مصرعهم في أعماق الصحراء نتيجة التعب والإرهاق والمرض، أو على يد قبائل الصحراء تعبيراً عن رفضهم لأي دخيل. غير أن ما يلفت الانتباه في تلك الفترة بالذات هو قلة اهتمام الفرنسيين بالصحراء الإفريقية، لكن مع مطلع القرن 19م تغير الحال تماماً، حيث شهد هذا القرن تنافساً حاداً بين البريطانيين والألمان والفرنسيين على حد سواء.

المبحث الثاني: كتاباتُ الرحالة العرب عن توات في القرن 19م

إن ورود منطقة توات في كتابات الرحالة العرب خلال القرن التاسع عشر كانت قليلة جداً، حيث أن الرحالة العرب لم يهتموا بكتابة رحلاتهم، ومنهم من لم يدون ذلك إطلاقاً، فجاءت هذه الفترة منقوصة في العديد من الجوانب الحضارية للمنطقة والتي تحتاج إلى الكثير من البحث.

---

[1] – فريدريك هورن مان (Horn-men): شاب ألماني من أكبر المستكشفين والمغامرين، بدأ رحلته وهو لم يتجاوز من عمره الخامسة والعشرين، سجلَّ كل الأحداث والعقبات التي صادفها منذ بداية رحلته وحتى نهايتها، وتُرجمت رِحلته من الفرنسية إلى الانجليزية. أُنظر: إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص290.

[2] – رجب نصير الأبيض، **طرابلس الغرب في كتابات الرحالة خلال القرن التاسع عشر الميلادي**، ط1، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 2009م، ص59.

أولاً: الرحالة العرب في توات

01/ الحاج ابن الدين الأغواطي[1]:

كانت رحلة الأغواطي بين سنتي (1826- 1829م)، وكتبها سنة 1829م وسماها " رحلة الأغواطي في شمال إفريقيا والسودان والدرعية "[2]، بناءً على طلب "وليام هودسون "[3] مساعد القنصل الأمريكي في الجزائر "وليام شالر" [4] مقابل مبلغ مالي. فأنجز الأغواطي عمله هذا وقبض الثمن من هودسون ذي النزعة الاستشراقية الحريص على جمع معلومات جغرافية وتاريخية ولغوية، حيث يقول هودسون في مقدّمة كتابه: "لقد أعددت ترجمة لرحلة قصيرة في شمال إفريقية قام بها الحاج ابن الدين الأغواطي، وهذه الرحلة كتبها صاحبها بطلب منّي، وقد دفعت له الثمن..."[5].

بدأ ابن الدين رحلته من مسقط رأسه الأغواط [6]، وصولاً إلى الدرعية في شبه الجزيرة العربية، مروراً بالعديد من المناطق الصحراوية، وهو في ذلك يصف القرى والمدن والواحات التي يمر بها أو يسمع عنها ويتكلم عن عادات أهلها[7]، كمدينة عين ماضي وتاقدمت، وجبل عمور، ومتليلي، وواد ميزاب، والقليعة(المنيعة)، وتقرت، وورقلة، وتوات، وشنقيط، وتنبكتو، وغدامس، وقابس، والدرعية،

---

[1]- الأغواطي: يبدو أنه لم يكن معروفاً على مستوى الجزائر في وقته، رغم أن هذا الاسم -ابن الدين- كان موجوداً في المناطق التلية بالجزائر، وينتسب الأغواطي إلى أسرة الشيخ الحاج عيسى الذي قدم من تلمسان واستقر بالأغواط سنة 1698م، وما تزال هذه الأسرة موجودة ومعروفة في الأغواط، ويرجح أنه ولد في نهاية القرن الثامن عشر بمدينة الأغواط ومنها جاء لقب الأغواطي، كما أن اسمه الحاج يدل على أنه أدى مناسك الحج وقد كان كثير الترحال. أُنظر: عمر بن قينة، **اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995م، ص16.

[2]- المرجع نفسه، ج2، ص244.

[3]- وليام هودسون: جاء إلى الجزائر سنة 1825م لكي يساعد شالر في مهمته كقنصل عام لبلاده في الجزائر، وكانت خبرة هودسون باللغات الشرقية هي التي أهلته لهذه المهمة، وقد بقي هودسون في الجزائر إلى سنة 1829م، تعرَّف على الحاج ابن الدين بين سنوات 1825 – 1829م. يُنظر: نفسه، ج2، ص245.

[4]- وليام شالر: سياسي وكاتب ومفكر أمريكي مشهور ولد سنة 1778م، انخرط في بحرية الولايات المتحدة الأمريكية وهو شاب برتبة ضابط بين سنتي 1803- 1808م، ما أعطاه علماً واسعاً وخبرة كبيرة في وصف البلدان جغرافياً وتحديد مواقعها الفلكية بمنتهى الدقة، عين قنصل عام للولايات المتحدة في الجزائر من 1816م إلى 1824م، ونشر شالر كتابه الهام عن الجزائر في مدينة بوسطن سنة 1825م، وعنوانه "مختصر تاريخ الجزائر". للمزيد أنظر: وليام شالر، **مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1816–1824م)**، د ط، تر: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص5.

[5]- أبو القاسم سعد الله، **أبحا ث وآراء في تاريخ الجزائر**، ط خ، دار البصائر، الجزائر، 2007م، ج2، ص249.

[6]- الأغواط: مدينة جزائرية تقع جنوب الجزائر العاصمة، وتبعد عنها بحوالي 400كلم.

[7]- احميدة عميراوي، **قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث**، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، 2005م، ص52.

وجزيرة جربة[1]. وبالتالي جمعت رحلته في مسارها بين الداخل والخارج، وقد حاول أن يعيّن مسالك، ويوضح معالم، ويحدد مسافات بين مناطق ومدن.

كتبت الرحلة من طرف مُؤلفها باللغة العربية في حوالي أربع عشرة صفحة -حسب وليام هودسون- سنة 1829م[2]، وتُرجمت هذه الرحلة من طرف وليام هودسون إلى الإنجليزية سنة 1830م، وقد بقي النص العربي مجهولاً، وهو ما حفّز الدكتور " أبو القاسم سعد الله "[3] لإعادة النص الانجليزي إلى العربية، ونشرها في كتابه " أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر"، حيث يقول: " ...مر عثورنا على هذه الرحلة مراحل لابد من ذكرها، فأثناء مطالعتي لحياة وأعمال القنصل الأمريكي في الجزائر، وليام شالر، وجدت إشارات قادتني إلى حياة خلفِه في المهنة، وهو وليام هودسون، ومن خلال تتبعي لحياة ونشاط هودسون وجدت ما ترجمه من رحلة ابن الحاج الدين الأغواطي..."[4].

يظهر من خلال رحلة الأغواطي التي بين أيدينا، ومن خلال التدقيق في نص الرحلة إن الحاج ابن الدين كان قليل التعلُّم ومعلوماته عن أحوال العصر ضعيفة، كما أن أنه غير ملم بتاريخ الحضارة الإسلامية، وثقافته الدينية ضعيفة حيث نجده في العديد من المواضع يخلط بين الفرق الإسلامية[5]، وبالتالي فإن معارفه غير دقيقة، فمن الواضح أنه كان من المستمعين الذين يسمعون ولا يدققون، يلمون ولا يتخصصون، لكنه كان كثير الاطلاع فكثرة اطلاعه تدل عليها خبرته بالمناطق التي وصفها والتي يؤكد في مناسبات عديدة أنه رأى ما كان يتحدث عنه.

قدَّم الأغواطي في رحلته وصفاً عاماً عن منطقة توات ، حيث ذكر العديد من المدن والقرى التواتية وتكلم عن أوضاعها الاقتصادية، وعن حال الهندسة المعمارية وطريقة بناء السكنات، كما وصف السكان من حيث لونهم ولغتهم ولباسهم والعادات الاجتماعية والتقاليد التواتية، كما حدد المسالك التي تربط بين القرى والمدن التواتية، والطرق التي تربط توات من جهة الشمال وجهة الجنوب مع السودان الغربي، وقد ذكر هودسون أن هذه الرحلة تحتوي على معلومات لم يسبق للأوروبيين أن

---

[1]- الحاج ابن الدين الاغواطي، **رحلة الاغواطي الحاج ابن الدين في إفريقيا والسودان والدرعية** ط خ، تح: أبو القاسم سعد الله، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م، ص86.

[2]- المصدر نفسه، ص ص88- 104.

[3]- أبو القاسم سعد الله: من مواليد 1930م بواد سوف، باحث ومؤرخ ومن رجالات الفكر البارزين، من أعلام الإصلاح الاجتماعي والديني، له سجل حافل بالانجازات من وظائف ومؤلفات وتراجم، عُرِف بلقب شيخ المؤرخين، توفي سنة2013م.

[4]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج2، ص246.

[5]- المرجع نفسه، ج2، ص244.

عرفوها حتى أولئك الذين رحلوا وكتبوا عن إفريقيا [1]. وتكمن أهمية رحلة الأغواطي في أنها رحلة برؤية استطلاعية غلب عليها الجانب الجغرافي التاريخي لمواقع مدن وأحوال الناس ولغاتهم وعاداتهم وتقاليدهم وأزيائهم وغيرها، حيث أنها كنص تاريخي هامة جداً عن الجزائر وتحديداً الحيز الجغرافي محل الدراسة- توات- فهي تحتوي على معلومات اجتماعية واقتصادية وجغرافية قيمة عن المنطقة.

ولأهمية نص الرحلة بالنسبة للأوروبيين سارع الفرنسيون إلى ترجمته وتداوله، حيث كان الفرنسيون أكثر اهتماماً عندئذ بإفريقيا من الأمريكيين، فقد ترجم الجغرافي دافيزاك (d'Avezac) هذه الرحلة من الانجليزية إلى الفرنسية وقرأ الترجمة في جوان 1833م على أعضاء الجمعية الجغرافية الفرنسية في باريس، ثم نشرها في كتابه "دراسات في الجغرافية النقدية" بباريس سنة 1936م[2].

ثانياً: كتاباتُ الرحالة التواتيين عن المنطقة

01/ عبد الرحمن بن إدريس التنلاني[3]:

بدأ الشيخ عبد الرحمن تعليمه الأولي بزاويتهم في تنيلان وهو في سن صغير، وبدأ على عادة أهل توات بافتتاح دراستهم الأولى بحفظ كتاب الله تيمناً به، فحفظ القرآن على يد الشيخ عبد الرحمن بن عمر التنلاني، ثم بعدها درس العلوم الإسلامية الأخرى وفق ما تقتضيه المناهج التعليمية بمنطقة توات، حيث درس صحيح البخاري وشمائل الترمذي وكتاب الشفا للقاضي عياض، وكُتب الفقه المالكي كمتن المرشد المعين لابن عاشر ورسالة أبي زيد القيرواني ومختصر خليل، ثم درس علوم اللغة العربية كالأجرومية وألفية ابن مالك، وأهم العلماء الذين أخذ عنهم العلم في هذه المرحلة الشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمن بن عمر التنيلاني (ت 1233هـ/ 1817م)، ثم أخذ عن العالم المشهور الشيخ سيدي محمد بن أمحمد بن أحميدة الزجلاوي (ت 1212هـ/ 1797م)[4].

ولأنه كانت لديه لهفة لطلب العلم بفنونه المختلفة، فقد درس وسمع لدروس العديد من شيوخ تنيلان وتوات عامة ومنهم: الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن عمر الأموي التنلاني (ت 1221هـ/

[1]- الحاج ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص ص59- 92.

[2]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج2، ص247.

[3]- عبد الرحمن بن إدريس: ولد عام 1181هـ/ 1767م بقصر تنيلان، ونشأ يتيم الأب. أما عن نسبه فهو الشيخ عبد الرحمن بن إدريس بن عمر بن عبد القادر بن أحمد بن يوسف التنلاني، ينتهي نسبه إلى سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهذا هو المحقق والمضبوط في وثائق ومؤلفات العائلة التنلانية. أُنظر: عبد القادر بن عمر المهداوي، المصدر السابق، ص 14/ محمد باي بلعالم، الغصن الداني، المرجع السابق، ص03.

[4]- محمد باي بلعالم، الرحلة العلية إلى منطقة توات، المرجع السابق، ج2، ص184.

1806م)[1]، والعالم عبد الله بن عبد الرحمن بن بعمر التنلاني (ت 1221هـ/ 1806م)، ومن أجل إشباع وطموحاته العلمية اللامحدودة غادر وطنه إلى المغرب الأقصى، ففي سنة 1196هـ/ 1782م سافر إلى فاس في رحلته العلمية خارج الوطن، فأخذ العلم عن جملة من علمائها المشهورين في مختلف التخصصات العلمية والفقهية، على رأسهم الشيخ عبد القادر ابن شقرون (ت 1219هـ/ 1804م)، حيث مكث في المغرب الأقصى لمدة ثمان سنوات حصل خلالها على مجموعة من الإجازات العلمية في مختلف المجالات، وكانت عودته إلى وطنه عام 1204هـ/ 1790م[2].

قام التنلاني برحلة إلى مدينة الجزائر قادماً إليها من مسقط رأسه تنيلان يوم الجمعة 03 شعبان 1231هـ الموافق لـ 28 جوان 1816م، حسب ما يذكر في رحلته، إذ يقول: "فلما قدَّر الله سفري لمحروسة ثغر الجزائر، وكان سفري لها في أوائل شهر شعبان المنير، أحد شهور سنة إحدى وثلاثين ومائتين وألف، خرجت من بلدتنا زاوية تنيلان ثالث الشهر المذكور" [3]، ثم توجه مباشرة إلى تيميمون وأقام بها تسعة أيام، حيث يقول: " وفي ثامنه دخلت بلدة تيميمون وأقمت بها تسعة أيام" [4]. ثم بعدها توجه إلى غرداية مروراً القليعة (المنيعة) ثم متليلي ثم العطف ثم لقرارة، ومنها إلى المدية، ثم البليدة، وصولاً إلى الجزائر (دار السلطان)، حيث دخلها يوم الأربعاء 04 شوال 1231هـ الموافق لـ 29 أوت 1816م، ويقول في ذلك: " فلما قرُب طلوع الفجر مشينا داخلين للجزائر ودخلناها وسط الضحى ذلك اليوم، وهو يوم الأربعاء..."[5].

رغم أن الرحلة لم تُشر إلى منطقة توات إلا في شيء قليل، لأن صاحبها استرسل في وصف الحملة الانجليزية على مدينة الجزائر التي صادفت وصوله إليها يوم الأحد 08 شوال 1231هـ/ 02 سبتمبر 1816م، إلا أنها تعتبر أحد المصادر المهمة في كتابة تاريخ توات خلال القرن التاسع عشر، حيث تميز صاحبها بالموضوعية ودقة التواريخ ووصف الأحداث التي شاهدها، فيقول: " ...فإني ما كتبت ولا نكتب إلا ما شاهدته بعيني، وأخبرني به ثقة..." [6]. وبالتالي فإن هذه الرحلة ورغم طابعها

[1]- محمد عبد العزيز سيد عمر، المرجع السابق، ص104.

[2]- محفوظ بوكراع، **الفرقد الناثر في تراجم علماء أدرار المالكية الأكابر**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2016م، ص154.

[3]- عبد الرحمن بن إدريس التنلاني، **الرحلة إلى ثغر الجزائر**، مخطوط بخزانة كوسام، تيمي، أدرار، ص1.

[4]- عبد الرحمن بن إدريس التنلاني، المصدر السابق، ص1.

[5]- المصدر نفسه، ص5.

[6]- نفسه، ص12.

الأدبي إلا أنها قدَّمت وصفاً دقيقاً للمدن والأماكن التي حلَّت بها، لتكون إحدى المساهمات الجادة بأقلام محلية حاولت تدوين جانب من تاريخ الجزائر.

02/ الحاج عبد القادر بن أبي بكر التواتي[1]:

بعد احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830م وظفت العديد من الجزائريين كجواسيس وعيون لنقل أخبار المناطق التي زاروها، ليسهل عليه دخولها فيما بعد، فجاءت رحلاتهم وفق رغبة سلطات الاحتلال الفرنسي، وكان الحاج عبد القادر التواتي من بين المستهدفين لأداء هذه المهمة، حيث يتبين من خلال رحلته التي بين أيدينا أنه كان ذا ثقافة واسعة وعلى علم بالصحراء ومسالكها، كما أنه كثير الاطلاع فكثرة اطلاعه تدل عليها خبرته بالمناطق التي وصفها[2]، كما أن رحلته كانت بطلب من السلطات الفرنسية التي لمست منه خبرة كبيرة واطلاع واسع على أحوال الصحراء ومعرفةً كبيرةً بطرقها ودرايةً بسكانها وقبائلها وعاداتهم وتقاليدهم، وأنه يمكن أن يمدَّها بمعلومات هامة عن الصحراء لا يستطيع حتى المستكشفين الفرنسيين الحصول عليها.

اتصل الحاج عبد القادر ببعض الضباط الفرنسيين في تقرت، حيث طلب منه أحد الضباط الفرنسيين أن يقوم برحلة عبر الصحراء ويقدم لهم معلومات عنها، وقائمة بأسماء قادة الأهالي للمناطق الصحراوية، وهذا الضابط هو "الرائد بواسان" (commandant Boissonnet)[3]وذلك مقابل مبلغ من المال قدر بـ 500 فرنك فرنسي[4]، فقام برحلته عبر الصحراء والتي بدأت سنة 1266هـ/ 1849م[5]. وانطلق في رحلته من مسقط رأسه توات إلى تقرت ثم إلى قسنطينة أين اشترى بعض

---

[1] – الحاج عبد القادر التواتي: هو الحاج عبد القادر بن أبي بكر بن هيبة الله الشريف التواتي، يعود نسبه حسب ما ذكر في رحلته إلى نسل سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ولم تشر المصادر التاريخية التواتية رغم قلتها إلى تاريخ ميلاده، لكن الأرجح حسب رحلته أنه ولد في مطلع القرن التاسع عشر بإحدى قرى مدينة أولف في إقليم تيدكلت، ويلقب بالتواتي نسبة إلى منطقة توات التي ولد ونشأ بها. أُنظر: عبد الله مقلاتي ومبارك جعفري، المرجع السابق، ص19.

[2] – مبارك جعفري، **مقالات وأبحاث حول تاريخ وتراث منطقة توات**، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2016م، ص19.

3- بواسان(Boissonnet): (1811-1902م) ينحدر من عائلة عسكرية، وهو ضابط مهندس التحق بمدرسة الفنون التطبيقية في عام 1830م، رُقي إلى رتبة ملازم عام 1834م، غادر للعمل في الجزائر عام 1838م، حيث اكتسب بسرعة معرفة جيدة باللغة العربية، تم تعيينه مديرًا للشؤون العربية لمحافظة قسنطينة1844م.للمزيد يُنظر:

http://dictionnairedesorientalistes.ehess.fr/document.php?id=324

[4]- Abd al Kadir Touati, **Le Sahara et le Soudan**, **documents historiques et géographiques**, Tr: l'abbé Bargès, Rouvier libraire-éditeur, paris, 1853, p5.

[5]- Ibid, p7.

اللوازم لرحلته بقيمة 140 فرنك، ثم عاد إلى بسكرة، ومنها إلى تقرت مرة ثانية، ومن تقرت إلى تماسين ثم إلى ورقلة ثم ميزاب فمتليلي، ثم القليعة ثم تيميمون وصولاً إلى أولف حيث دوَّن بها رحلته وفق ما شاهده في صحراء الجزائر حسب ما طلب الرائد بواسان.[1]

واصل الحاج عبد القادر رحلته في الصحراء من توات إلى السودان الغربي، وانطلق من عين صالح، متجهاً إلى إينغر [2] ثم إلى تيط [3]، ومن تيط إلى أقبلي، ومنها دخل نطاق تنزروقت متجهاً نحو الجنوب ماراً بالعديد من القرى وأبار المياه الموجودة عبر الطريق حتى دخل تمبكتو في السودان الغربي، ومنها نحو سيغو وجني التي كانت آخر منطقة يدخلها في رحلته [4]، ليعود بعد ذلك عبر نفس الطريق التي جاء عبرها إلى مسقط رأسه أولف. وهناك دوَّن رحلته والمعلومات التي جمعها وما شاهده خلالها بشكل نهائي، وكان ذلك سنة 1268هـ/ 1851م[5].

رغم أن الرحالة الحاج عبد القادر كتب نص رحلته باللغة العربية إلا أننا لم نعثر للأسف على النص العربي رغم البحث في العديد من الخزائن التواتية، والذي يتوفر بين أيدينا هو النص المترجم إلى اللغة الفرنسية فقط، حيث قام "القس بارجيس" (L'Abbé Barges)[6] بترجمتها إلى الفرنسية، ونشرها في كتاب بعنوان: "الصحراء والسودان" (Le Sahara et le Soudan) في باريس سنة 1853م ليستفيد منها القادة العسكريون الفرنسيون في احتلال المنطقة، بل اعتبرها أنها لا تقل أهمية عن ما كتبه مستكشفون فرنسيون للمنطقة، وذلك لدقتها واختصارها في التعريف بهذه المنطقة التي لا تزال مجهولة عند الأوروبيين، حيث يقول في ذلك: "...الكثير من المعلومات في هذه الوثائق والتي تتعلق بالصحراء الجزائرية وأيضاً السودان، وعلى الرغم من العمل الرائع الذي قام به الجنرال دوماس في

---

[1]- Abd al Kadir Touati, op.cit, pp5-7.

[2]- إينغر: أحد مقاطعات إقليم تيدكلت، وهي دائرة تابعة لولاية عين صالح وتبعد عنها بـ60 كلم. أُنظر: الحاج التومي سعيدن، المرجع السابق، ص39.

[3]- تيط: بلدية تابعة لدائرة أولف وتبعد عنها بـ35 كلم. أنظر: المرجع نفسه، ص42.

[4]- عبد الله مقلاتي ومبارك جعفري، المرجع السابق، ص241.

[5] - Abd al Kadir Touati, Ibid, p21.

[6]- جون جوزيف لياندر بارجيس(Jean-Joseph-Léandre Barges): ولد سنة 1810م بفرنسا في مجتمع مسيحي عميق، كان له اهتمام كبير بحياة الكنيسة، درس اللغة العربية وأتقن مختلف اللغات الشرقية حصل على دكتوراه في علم اللاهوت سنة 1854م، عمل أستاذ اللغة العبرية ثم أستاذ علم اللاهوت في جامعة السوربون، أصبح عميد كلية اللاهوت بباريس سنة 1885م، كان له اهتمام كبير بترجمة عدة دراسات تاريخية من العربية إلى الفرنسية، توفي سنة1896م. أُنظر:
http://bolcodenis.free.fr/jjl_barges.php

هذه المناطق من إفريقيا والعديد من الكتابات الأخرى...يمكنها أن تضاف إلى مجموعة ضيئلة من المفاهيم التي لدينا حول هذا الجزء المثير للاهتمام من الكرة الأرضية"[1].

بالنسبة لدراستنا المتعلقة بتوات فإن الرحلة من الأهمية بمكان حيث تضمّنت معلومات تاريخية وجغرافية مهمة عن المنطقة، ذلك أن صاحب الرحلة يكتب عن منطقته التي وُلد وعاش بها، فهو أدرى بها من غيره، ومعلوماته تكون مؤكدة وأكثر دقة من الرحالة خارج المنطقة الذين زاروا المنطقة وكتبوا عنها، حيث وصف الأوضاع السياسية وهجمات القبائل على القوافل التجارية، كما حدد أماكن الآبار ومصادر المياه التي توجد في الطريق الرابط بين توات والسودان، والمسافات الفاصلة بين المناطق الرئيسية في توات بمسيرة الأيام، وأهم الأسواق التجارية المنتشرة في المنطقة، وأسماء النباتات والحيوانات وحتى الثروات المعدنية، كما ترجم للعديد من الشخصيات التي قابلها في رحلته[2].

استناداً إلى ما سبق يبدو أن صاحب الرحلة كان على إطلاع بأمور الصحراء، عارفاً لبعض اللغات الإفريقية، الأمر الذي أكسب رحلته أهمية كبيرة، فقد جاءت معلوماتها غزيرة في الجانب الاقتصادي، مما أفاد السلطات الفرنسية في التعرف على الموارد الاقتصادية للمنطقة، وإحصاء ما تتوفر عليه من منتجات، ناهيك عما قدمته الرحلة من معلومات تاريخية وجغرافية عن الصحراء الجزائرية.

03/ عبد الرحمن سلكة[3]:

سجلّ عبد الرحمن سلكة حضوره في تاريخ توات من خلال تحريره لدراسة حول تاريخ توات، ولا يُعرف إن كان قد جمع معلومات واسعة عن منطقة توات وأراد أن يدونها في كتاب، أو أن أحد المهتمين الفرنسيين خاصة من الضباط طلب منه إعداد دراسة عن تاريخ المنطقة، كما تكون الدراسة قد جمعت في نهاية القرن 19م، لكنها لم تظهر حتى سنة 1922م متزامنة مع دراسة الضابط مارتان[4]، وكان الفرنسيون مهتمين بهذه المنطقة وكشف تاريخها المجهول وعاداتها وسكانها.

[1]- Abd al Kadir Touati, op.cit, pp 3-4.

[2]- Ibid, pp15-21.

[3]- عبد الرحمن سلكة: لا يُعرف الكثير عن حياته، فلم تشر المصادر التاريخية لتوات إلى تاريخ ميلاده ولا تاريخ وفاته، لكن يبدو من خلال رحلته أنه ولد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بمدينة تيميمون، كما يظهر أنه كان أحد أبناء العائلات الوجيهة في المنطقة حيث تعلّم الفرنسية في أحد المدارس الفرنسية الرسمية، ما أهله للعمل في إدارة المكتب العربي بتوات منذ سنة 1913م، له مؤلف تاريخي باللغة الفرنسية بعنوان "ملخص حول توات". أُنظر: تواتي دحمان ومبارك جعفري، المرجع السابق، ص194.

[4]- مبارك جعفري، العلاقات الثقافية بين توات والسودان الغربي، المرجع السابق، ص21.

تضمنت الدراسة لمحة تاريخية عن أصول السكان وطبقاتهم، حيث ذكر أن من بين دواعي كتابة الدراسة هو التعريف بالحالة العقلية لأهل توات، وأنه يسعى لفهم التركيبة الاجتماعية لفئات المجتمع التواتي[1]، كما تعرفنا الدراسة بعادات وتقاليد السكان والطبقات الاجتماعية ومختلف الأنشطة الاقتصادية من تجارة وحرف، كما تحدث سلكة عبد الرحمن عن علماء توات وعلاقاتهم مع علماء الجزائر[2]. وقد اعتمد في كتابه على المعلومات التي جمعها مشاهدةً ومشافهةً والمعلومات التي جمعها من المخطوطات والوثائق في الخزائن التواتية، وبالتالي يعتبر مؤلفه مهم لا غنى عنه لأي باحث في تاريخ المنطقة خلال القرن التاسع عشر.

المبحث الثالث: سِمات كتابات المستكشفين الأجانب عن توات في القرن 19م

مع حلول القرن 19م ازداد الاهتمام الأوروبي بالصحراء وذلك بعد أن استنفذت أوروبا جميع الوسائل في كسب مناطق استعمارية جديدة، فحظي هذا القرن بحظ لا بأس به من الرحلات الاستطلاعية والبعثات الاستكشافية الأوروبية للمنطقة، وذلك بسب تفطن أوروبا لما تحتويه المنطقة من خيرات، ورغبتها في اكتشاف عالم ما وراء الصحراء الجزائرية وربطها بسكة حديدية للسيطرة على الطرق التجارية.

أولاً: دوافع الاستكشاف الأوروبي للمنطقة:

استهوت الصحراء الجزائرية المستكشفين والمغامرين الأوربيين وأسالت لعابهم، وأصبحت منطلقاً أساسياً في استراتيجيه القوى الأوروبية لاستكمال تحقيق حُلمها القديم والداعي إلى تكوين إمبراطوريات استعمارية، بدءاً من شمال إفريقيا مروراً بالصحراء ووصولاً إلى غرب إفريقيا، ولقد اختلفت دوافع الرحلات فمنها العام المرتبط بالتطورات الحاصلة في أوروبا مثل الثورة الصناعية وانعكاساتها وظهور الجمعيات وتنامي التوسع الاستعماري، ومنها الخاص المتعلق بالمستكشفين أنفسهم كالمغامرة وارتياد المجهول والبحث عن الثراء.

يبدو الدافع العلمي لجمع كم هائل من المعلومات حول الجوانب الإنسانية والعلمية للمنطقة من أبرز المحفزات للمستكشفين، حيث كان الهدف الأساسي من إرسال بعثات استكشافية أوروبية

---

[1]- Abderrahmane Selka, **Notice Sur le Touat**, **population**, **çofs**, **ksours**, **lègendes**, **commerce**, **jindustie**, **agriculture**, **èlvage**, **meurs**, **et coutumes**, Bulletin de la société de géographie d'Alger, Alger, 1922, p523.

[2]- تواتي دحمان ومبارك جعفري، المرجع السابق، ص195.

للمنطقة هو التعرف على هذا المحيط الواسع والمجهول من الرمال الصفراء بواحاته الخضراء هنا وهناك، ومحاولة التعرف على الإمكانات الاقتصادية والبشرية لاستغلالها واستثمارها، ومحاولة استكشاف المظاهر الجغرافية والطبيعة والمناخية والطبوغرافية والطاقة المائية الجوفية، ودراسة المجموعات السكانية وعاداتها وتقاليدها وتاريخها السياسي والحضاري، وأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية [1]، بالإضافة إلى شق الطرقات ومد السكة الحديدية، حتى يسهل على الدول الأوروبية التوسع جنوباً.

كما أن الدافع الاقتصادي لاكتشاف المنطقة كان واضحاً، حيث تفطنت أوروبا إلى ما تحويه الصحراء من خيرات وثروات ورغبتها في اكتشاف عالم جديد (عالم ما بعد الصحراء الجزائرية)، وحاولت الاهتمام بالتجارة الصحراوية ووضع يديها على أهم طرق القوافل التجارية المؤدية إلى السودان الغربي[2]، حيث كانت توات تمثل نهاية قوافل حوض البحر الأبيض المتوسط وبداية قوافل غرب إفريقيا وتشكل ممراً طبيعياً، فظهر الصراع بين القوى العظمى لوضع خطط مستقبلية في الصحراء، ومن الأطراف الفاعلة نجد ألمانيا وبريطانيا وفرنسا حيث ظلت هذه الأخيرة المنافس العنيد لنشاط الإنجليز وتوسعهم الاستعماري خارج أوروبا[3].

لم ينطلق الأوروبيون من فراغ، فقد تأسست عدة جمعيات خلال القرن التاسع عشر كان لها دورٌ كبيرٌ في دعم واحتضان المستكشفين، من خلال تقديم التمويلات اللازمة لبعض المستكشفين والرحالة وتخصيص الجوائز المالية لمن يسبق إلى اكتشاف منطقة ما[4]. وأهم تلك الجمعيات التي ظهرت في أوروبا خلال هذا القرن: "الجمعية الجغرافية بباريس" سنة 1821م، و"الجمعية الجغرافية الملكية بلندن" سنة 1830م، و"الجمعية الألمانية للدراسات الإفريقية" سنة 1878م، فأنشأت فرنسا خمس عشرة جمعية في الفترة الممتدة بين 1873- 1882م. وكانت هذه الجمعيات تتلقف تقارير ورحلات المستكشفين، وتسارع إلى نشرها في المجلات المتخصصة التي كانت تصدر في ذلك الوقت، وأهم المجلات التي ظهرت خلال القرن التاسع عشر "المجلة الجغرافية الباريسية" سنة 1821م، ومجلة "حول

[1]- إسماعيل العربي، **تاريخ الرحلة الاستكشافية في البر والبحر**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م، ص289.

[2]- عبد القادر مرجاني، **السياسة الفرنسية ودور المستكشفين في التوغل في الجنوب الجزائري خلال القرن 19م**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: محمد مجاود، جامعة الجيلالي ليابس، سيدي بلعباس، 2019/ 2020م، ص15.

[3]- محمد الصالح حوتية، المرجع السابق، ص142.

[4]- محمدو بن محمذن، **المجتمع البيضاني في القرن 19م (قراءة في الرحلات الاستكشافية)**، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2001م، ص88.

العالم" سنة 1843م، ثم"المجلة البحرية " سنة 1896م، وقد أصدرت غالبية الجمعيات الجغرافية مجلات خاصة بها[1].

بعد احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830م ظهر الدافع العسكري ضمن برنامجها التوسعي الاستعماري، فقد أدركت السلطات الفرنسية أن الجنوب الجزائري يعد حجر الزاوية لاستكمال مشروعها الاستعماري، حيث أن الثورات التي كانت تندلع في الشمال كانت تجد في الجنوب والواحات عند فشلها معقلاً يفر إليه المجاهدون ليستعيدوا الكرة للهجوم مرة أخرى على الفرنسيين، وعلى هذا الأساس كان لابد على الفرنسيين من إخضاع كل المناطق الصحراوية المتبقية، إلى جانب رغبة فرنسا في استئصال الثورات الشعبية التي كانت تندلع في المنطقة، ومن أهم الثورات التي امتدت في توات ثورة أولاد سيدي الشيخ 1871م[2]، ولما زار الرحالة الألماني "جيرهارد رولفس" المنطقة سنة 1864م، وشاهد بنفسه مدى فعالية ومشاركة أهل الجنوب للشمال أوصى السلطات الفرنسية بنقل حدودها إلى نهاية وادي الساورة، وأنهم لن ينعموا بالهدوء ما لم يستولوا على تلك المنطقة[3].

كما أن التوسع بأقل التكاليف العسكرية والمادية في المنطقة كان حلم الفرنسيين، حيث أن تمكنهم من فرض سيطرتهم على الصحراء الجزائرية سيكون وسيلة لفرض الاستقرار في بقية مستعمراتهم الإفريقية، وهو ما صرح به النقيب هنري وولف (henri wolff) سنة 1844م بقوله: "لن تكون مستعمراتنا الإفريقية هادئة حقيقية إلا حينما يرفرف العلم الفرنسي في الصحراء الكبرى على قصر عين صالح" [4]، حيث بدأت فرنسا تكثف من دراستها لهذه المناطق للتعرف أكثر على جوانبها البشرية والاقتصادية والمائية. وقد لخصت بعثة فلامون (Flamand) المرسلة إلى منطقة تيديكلت سنة 1899م الدوافع التي جعلت فرنسا تسعى للسيطرة على الصحراء الجزائرية، فكتب

[1]- الطاهر موساوي، **الاستكشافات الأوروبية للصحراء الجزائرية خلال القرن 19م**، رسالة ماجستير، إشراف: عبد المجيد بن نعيمة، قسم العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة بشار، 2011/ 2012م، ص22.

[2]- ثورة أولاد سيدي الشيخ: من أشهر المقاومات الشعبية ضد الاحتلال الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري، امتدت مابين 1864- 1881م، تولى قيادتها قبيلة أولاد سيدي الشيخ بفرعيها الشرقي والغربي، ومن أشهر قادتها السي سليمان بن حمزة والسي محمد بن حمزة والسي لزرق بلحاج...، شملت الثورة عدة مناطق في الصحراء الجزائرية، وانضمت إليها عدة قبائل من الجزائر، استمرت لمدة طويلة حيث تعتبر أطول مقاومة ضد الاحتلال الفرنسي في القرن التاسع عشر. ينظر: يحي بوعزيز، **ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين**، ط1، دار البعث، قسنطينة، 1980م، ص ص140- 150.

[3]- إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص77.

[4]- أحمد العماري، **توات في مشروع التوسع الفرنسي بالمغرب من حوالي 1850- 1902م**، ط1، منشورات كلية الأدب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، 1988م، ص85.

فلامون يقول: "من المهم ومن دون تأخير ربط واحة عين صالح بالجزائر العاصمة، وهي الوسيلة العملية الوحيدة للاستعمار وأيضا لكي لا تكون هذه المنطقة ملجأ دائم لإثارة الاضطرابات"[1].

أما الدوافع الخاصة بالمستكشفين أنفسهم فاختلفت باختلاف أصحابها والجهات التي تقف وراءهم، فهناك من كانت تدفعه دواعي دِينية للقيام برحلته واضعاً على عاتقه التبشير بعقيدته عبر المزيد من البقاع المكتشفة، ومنهم من كان يقوده الفضول المعرفي وخدمة العلوم والجغرافيا إلى محاولة ملء الفراغات التي كانت آنذاك تميز المناطق الداخلية من القارة الإفريقية، وهناك من كانت تدفعه المغامرة نحو ارتياد المجهول واكتشاف الغريب والخروج عن المألوف، ومنهم من كان يحركه البحث عن مصادر الثروة والمال ويدفعه السعي إلى تحصيل المكاسب المادية من وراء المتاجرة أو للحصول على جائزة، ومن بينهم من كانت تغريه نُزعَة سياسية استعمارية فيسعى إلى ارتياد مناطق جديدة خدمة لتجارة بلده أو سعياً إلى جمع المعلومات المختلفة عن المناطق المزُورَة، تمهيداً للسيطرة عليها وإخضاعها تطبيقاً للمقولة الشهيرة "يجب معرفة الناس للسيطرة عليهم وقيادتهم"[2].

وإذا كانت هذه العوامل المختلفة شجعت الاستكشاف فإن العراقيل والصعاب التي واجهها المستكشفون وهم يحاولون الوصول إلى المنطقة كانت أكبر، فمنها ما هو طبيعي مرتبط بالموقع ومعالم السطح والمناخ القاسي، ومنها ما هو ثقافي بشري مرتبط بالدين واللغة مما جعل الكثير منهم يتظاهرون باعتناق الإسلام مدَّعين بأنهم من أصول عربية إسلامية.

ثانياً: البعثات والرحلات العلمية الأوروبية في توات خلال القرن 19م

لقد تعدَّد المستكشفون للمنطقة من جميع أنحاء أوروبا وتباينت جنسياتهم، وأمام كثرة الرحلات الاستكشافية الأوروبية خلال القرن التاسع عشر في الصحراء الجزائرية سنقف عند الرحالين والمستكشفين الذين وصلوا منطقة توات أو مروا من خلالها واستطاعوا العودة إلى بلدانهم وسجلوا وصفاً عن المنطقة في مؤلفاتهم، سواء كانوا مبعوثين من طرف حكوماتهم أو مغامرين، وسواء كانوا عسكريين أو مدنيين، بإبراز معلومات عن حياتهم ومستواهم الثقافي والفكري فضلاً عن أهم محطات التوقف والطرق التي سلكها كل واحد من الرحالين وهو يجوب المجال التواتي، وذلك حسب التسلسل الزمني لهذه الرحلات، وقد كانت بريطانيا سبَّاقة في ذلك سنة 1825م، لكن سرعان ما تزعمت فرنسا زمام الاستكشاف في المنطقة خاصة بعد احتلالها للجزائر سنة 1830م.

[1]- عبد القادر مرجاني، المرجع السابق، ص 14.

[2]- محمدو بن محمذن، المرجع السابق، ص83.

01/ غوردن لانج Gordon Laing:

رحالة اسكتلندي ولد سنة 1793م اشتهر برحلاته الاستكشافية داخل إفريقيا، توجه بأمر من وزير المستعمرات البريطانية اللورد باترست (Lord Bathurst) لاكتشاف تمبكتو عن طريق طرابلس، فغادر لندن في فبراير 1825م إلى طرابلس التي دخلها في 14 جويلية، وبها تزوج إبنت القنصل البريطاني وارنجتون (waringhtun)[1]، وبعد يومين ترك زوجته وتوجه إلى غدامس التي وصلها في سبتمبر، ومنها توجه إلى عين صالح التي دخلها في ديسمبر وقام بعدة جولات بالمنطقة ليغادرها في 10 جانفي 1826م متوجهاً عن طريق أقبلي نحو تمبكتو فوصلها يوم 18 أوت 1826م، وغادرها في 22 سبتمبر لكونه مسيحياً غير مرغوب فيه، وفي الطريق اغتيل بـ "أروان" قرب تمبكتو يوم 26 سبتمبر 1826م، وتم حرق جميع أوراقة ومذكراته [2]. ولم يبقى بين أيدينا سوى تلك الرسائل التي بعث بها إلى المسؤولين البريطانيين في طرابلس والتي نشرت في مجلة " Quarterly Review".

دخل لانج عين صالح يوم 03 ديسمبر وقضى بها حوالي خمسة أسابيع، ورغم قصر مدة إقامته بها، بسبب التهديدات والمخاطر الأمنية التي لاحقته، وباعتبار أنها محطة عبور فقط، إلا أنه زودنا بمعلومات مهمة عن المنطقة، فمن خلال تلك الرسائل التي بعث بها يقدم تقريراً وافياً حول رحلته [3]، حيث نجد معلومات ثرية عن هذا البلد وعادات السكان وطبائعهم وسلوكهم نحوه، وانطباعاته الشخصية في الحوادث المختلفة التي شهدها في هذه المنطقة الغريبة عنه، كما قدم معلومات جغرافية مهمة من حيث الموقع الفلكي والجغرافي للمنطقة، وأهم المسالك والطرق التي تصل عين صالح بغيرها من المناطق المجاورة.

يعتبر لانج أول مستكشف أوروبي تطأ أقدامه أرض توات خلال القرن التاسع عشر، ويظهر من خلال تلك الرسائل التي بين أيدينا أن هذا المغامر كان يتمتع بالصفات الذهنية اللازمة للمستكشف، والتي أهمها العقل الباحث المتحري، كما يتبين أنه بحاثة ومتقصي ماهر يحسن جمع

---

[1]- P. Vuillot, **L'exploration du Sahara étude historique et géographique**, Augustin Challamel, paris, 1895, P02.

[2]- عبد الجليل التميمي، **بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، الجزائر- تونس- ليبيا من 1816 إلى 1871**، ط1، الدار التونسية للنشر، تونس، 1972، ص263.

[3]- اتيليو موري، **الرحالة والكشف الجغرافي في ليبيا منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى الاحتلال الايطالي** ، تع: خليفة محمد التليسي، ط1، مكتبة الفرجاني، طرابلس، 1971م، ص ص38-39.

الأخبار والمعلومات، بالإضافة إلى تمتعه بموهبتين يحتاج إليهما كل مستكشف ناجح هما الشجاعة والتصميم، ولا شك أنه استغل في رحلته مواهبه إلى أقصى حد ليحظى بالشهرة التي كان يصبو إليها.

02/ رونييه كاييه René Caillié:

ولد سنة 1800م بمقاطعة دو سيفر(Deux Sèvres) بفرنسا من أسرة فقيرة[1]، وبعد تعلمه القراءة والكتابة عكف على مطالعة الرحلات والتي كانت تحتل كل أوقات فراغه وتثير خياله وولّدت فيه حب الاستكشاف، يعتبر أول المغامرين الفرنسيين الذين توغلوا في أعماق الصحراء [2] فكانت أول رحلة له نحو السنغال سنة 1816م وهو صغير لم يتجاوز 16 سنة، ويعتبر أول أوروبي يزور مدينة تمبكتو، وقدم لفرنسا معلومات جغرافية وحضارية هامة عن المناطق التي مر بها [3]، وبعد عودته إلى فرنسا كرمته الجمعية الجغرافية الباريسية يوم 05 ديسمبر 1828م بالجائزة الكبرى بمبلغ 10.000فرنك، كما حصل على وسام الشرف الاستحقاقي وبقي بفرنسا حتى وفاته سنة 1838م[4]. أرَّخ لرحلته في كتابين بعنوان: "يوميات رحلة إلى تمبكتو وجَنِّي في وسط إفريقيا" "Journal d'un voyage Tombouctou et Jenné dans l'Afrique central". و "رحلة مسلم كاذب عبر إفريقيا" "Voyage d'un Faux Musulman a Travers l'Afrique"

انطلقت رحلته الأولى من فرنسا سنة 1816م على متن باخرة "لالوار" (La Loire) التي توجهت إلى السنغال، وحاول أن يصل إلى تمبكتو، لكنه تعرض لمصاعب جمة بسبب عدم تلقيه دعماً حكومياً، فقفل راجعاً إلى فرنسا ليغادرها مرة أخرى إلى السنغال في نهاية سنة 1818م، لكنه لم يجني من سفره الطويل والشاق سوى الإرهاق حيث أصيب بمرض الملاريا، فعاد إلى فرنسا لقضاء فترة استراحة ونقاهة استمرت إلى غاية سنة 1824م ليعود للمرة الثالثة إلى السنغال[5].

---

[1]- René Caillié, **Voyage d'un Faux Musulman a Travers l'Afrique**, Eugène Ardant Editeurs, Paris, Sans Date, P41.

[2]- إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المرجع السابق، ص69.

[3]- جوزفين كام، **المستكشفون في إفريقيا**، تر: السيد يوسف نصر، دار المعارف، القاهرة، 1983، ص144.

[4]- Jomard A.M, **Notice Historique sur la Vie et les Voyages de René Caillé**, Bulletin de la Société de géographie, 2 série, T10, Paris, 1838, PP330-358.

[5]- إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص47.

قرر كاييه أن يقوم برحلة عبر الضفة اليمنى لنهر السنغال بين سنتي (1824- 1825) وعاش مدة مع البدو في هذه المناطق مدعياً بأنه مسلم ومن أصل عربي، وتعلم لغتهم وبعض آيات القرآن الكريم[1]، وقام بعدة محاولات للوصول إلى تمبكتو بين سنتي (1825- 1828م) لكنه فشل بسبب تعرضه لعدة مصاعب، وفي يوم 20 أفريل 1828م وصل تمبوكتو ومكث بها 14 يوم[2]، ليغادرها يوم 04 ماي 1828م مع قافلة متجهة إلى إقليم مراكش فعبر منطقة توات في شهر جويلية، ومنها توجه إلى فاس عبر تافيلالت، ثم دخل طنجة يوم 07 سبتمبر 1828م، ومنها توجه إلى طولون قبل نهاية السنة[3].

لما غادر كاييه تمبكتو يوم 04 ماي 1828م متجهاً إلى طنجة مر مع قافلته بالطريق المار عبر منطقة توات التي دخلها في شهر جويلية [4]، واستقر في مدينة تيمي عاصمة إقليم توات الوسطى، وسجّل ملاحظات وأنجز رسومات ومخططات عن المنطقة وقدّم للمصالح الفرنسية المختصة معلومات جغرافية وانتربولوجية هامة عن المنطقة ساعدتها فيما بعد في عملية احتلال منطقة الجنوب الغربي للجزائر عامة وتوات خاصة، ومهّدت للتوسع الفرنسي في الصحراء الإفريقية وكشفت لها أسرار هذه الأصقاع[5].

تعتبر رحلة كاييه أول رحلة فرنسية مهمة بالجنوب الغربي الجزائري، بما حصلت عليه من معلومات جغرافية وحضارية عن المنطقة، ولعل أول ذكر لمنطقة توات كان في هذه الرحلة ولم ترد إشارات عن هذه المنطقة من قبل لدى أي مستكشف فرنسي، فقد انخراط في حياة المجتمع واعتنق الدين الإسلامي ظاهرياً وتعلّم القرآن واللغة العربية، كما اعتبرت الجمعية الجغرافية الباريسية اكتشافه ذا قيمةً كبيرةً وانجازاً ضخماً حيث نال بذلك الجائزة الكبرى التي بلغت 10آلاف فرنك، لكن لم تقدم لنا هذه الرحلة معلومات ذات أهمية حول توات باعتبار أنها كانت محطة عبور كما أنها لم تدم طويلاً.

---

[1]- René Caillié, op.cit, p186.

[2]- ELIKA M'Bokoto, **Des Missionnaires aux Explorations**, **les Européens en Afrique**, A.B.C, Paris, 1877, p62.

[3]- محمدو بن محمذن، المرجع السابق، ص161.

[4]- إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص47.

[5]- إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المرجع السابق، ص69.

03/ لجنة الاكتشاف العلمي للجزائر (Comité des découvertes scientifiques en Algérie):

يوم 14 أوت 1837م أسست وزارة الحربية الفرنسية لجنة علمية سُميت "لجنة اكتشاف الجزائر العلمي"[1]، متكونةً من مختلف الباحثين المتخصصين في العديد من المجالات (الآثار، الجغرافيا، الاثنوغرافيا، الصحة، التاريخ والنظم...) وأغلبهم كان من العسكريين. وكانت الخطة هي أن يذهب هؤلاء العلماء إلى الجزائر في مدة محددة ويكتبوا حصيلة بحوثهم، على أن تنشر هذه البحوث على نفقة الدولة الفرنسية [2]، وقد وقعت اتصالات مع إدارة الجزائر لتسهيل مهمة اللجنة والتنسيق بين أعضائها والسلطات المحلية، لاسيما وأن الاحتلال ما يزال في أوله وما تزال المقاومة تمنع الأعضاء من التوغل في البلاد ومعرفة كل أجزائها[3]، واهتمت وزارة الحربية باختيار الأشخاص الأكاديميين والباحثين وقد وصل عددهم إلى 21 عضو. وحلَّ أعضاء اللجنة بالجزائر في خريف 1839م، ولكن لم يبدأ عملها إلا في ربيع 1840م، وحُددت لها مهلة عامين ونصف لانجاز أعمالها وبالتالي كان عليها أن تقدم أعمالها للنشر سنة 1842م[4].

حلّت اللجنة بالجزائر وبدأت أبحاثها حيث ركز كل عضو في اللجنة على منطقة من الجزائر، وقد نتج عن أعمال هذه اللجنة العلمية طبع ونشر العديد من المؤلفات والمجلات والدوريات شملت مختلف النواحي المتعلقة بالجزائر والجزائريين، وبالرجوع إلى بعض أعمال هؤلاء الأعضاء رأينا ما قام به أ.كاريت (A.Carette)[5] الذي كان ضابطاً في الجيش الفرنسي وعضواً باللجنة العلمية لمدينة الجزائر[6]، حيث نشر دراسةً عن الجزائر في العديد من الجوانب كالتاريخ والجغرافيا والآثار وقدم وصفاً

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م، ج6، ص80.

[2]- احميدة عميراوي، المرجع السابق، ص49.

[3]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ج01، ص20.

[4]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع نفسه، ج6، ص83.

[5]- أ.كاريت (A.Carette): ولد في 1808م بفرنسا ودخل إلى المدرسة المتعددة التقنيات سنة 1828م، وساهم مساهمةً فعّالة في ثورة جويلية 1848م، ثم انضم إلى الهندسة العسكرية للجيش الفرنسي، شارك في عدة حملات في الجزائر، قام بالعديد من الأبحاث التاريخية التي تخص إفريقيا الشمالية، عضو اللجنة العلمية خلال سنوات 1840-1841-1842م التي كونتها وزارة الحرب الفرنسية لاكتشاف الجزائر ومعرفة أحوال أهلها. يُنظر: عبد النور غرينة، **الأوراس في الكتابات الفرنسية إبان الفترة الكولونيالية 1840- 1939م**، مذكرة ماجستير، إشراف: ميلود زيدان، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2009/ 2010م، ص58.

[6]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، المرجع نفسه، ج1، ص22.

لسكان الجزائر وديانتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وبدأ كتابه الذي يندرج ضمن سلسلة العلوم التاريخية والجغرافية بمدخل عن أقسام المعرفة الجغرافية، وهو الجزء الأول من السلسلة المطبوعة بأمر من الحكومة الفرنسية[1]. وقد خصص جزءاً منه لمنطقة توات حيث تطرق للطرق التجارية التي تربط توات بغيرها من الجهات، وبالرغم من أن أعماله كانت مليئة بالحقد على العرب والمسلمين وتكاد تخلو من الروح العلمية، إلا أنها تعتبر جزءاً معرفياً من الأبحاث يمكننا الاستعانة بها في دراستنا هذه.

04/ أوجين دوماس Eugene Daumas:

ولد جوزيف أوجين دوماس يوم 04 أكتوبر سنة 1803م في ديلمور بسويسرا، التحق بالخدمة العسكرية سنة 1822م بفرنسا كملازم مساعد، ووطئت أقدامه التراب الجزائري سنة 1835م، حيث عُين قنصلاً لدى الأمير عبد القادر خلال فترة (1837-1839م)، تعلَّم اللغة العربية وأتقنها بسهولة فائقة وعمَّق ثقافته عن الجزائر خاصةً فيما يتعلق بالناحية الغربية والجنوب الغربي، وفي سنة 1841م عينه الجنرال بيجو على رأس المكاتب العربية وهو الذي شجَّعه على اكتشاف الصحراء الجزائرية، ثم عُين سنة 1850م مديراً لشؤون الجزائر بوزارة الحربية، ثم مستشاراً للدولة الفرنسية سنة 1852م ونائباً في مجلس شيوخها. توفي سنة 1871م، وخلَّف عدة مؤلفات عن الجزائر والصحراء أهمها كتاب "الصحراء الجزائرية" (Le Sahara Algerien) 1845م، والصحراء الكبرى (Le grand désert) 1848[2].

قام دوماس برحلة استكشافية عظيمة في ربوع الصحراء الجزائرية قادماً إليها من مدينة الجزائر بين سنتي 1843- 1845م بتشجيع من الجنرال بيجو، حيث قام باستكشاف الجنوب الشرقي للجزائر أولاً ثم توجه إلى الجنوب الغربي لاستكشافه، وقد حرص على جمع شهادات موثقة من عدد كبير من الجزائريين عن الصحراء وسكانها وعاداتهم وطرق عيشهم، واستطاع أن ينسج رحلة متخيلة عن الصحراء انطلاقاً من تلك الروايات، ضمنها تعريفاً بمراحل الرحلة وأهم محطاتها، ووصفاً دقيقاً للمسالك التي تمر عبرها، ومن بينها منطقة توات[3].

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج6، ص 85.

[2]- دوك دي دوماس، **الصحراء الجزائرية**، تر: فوزية قندوز عباد، غرناطة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م، ص10.

[3]- للمزيد حول الرحلة يُنظر:

Eugene Daumas, **Le Sahara Algérien "études Géographique**, **Statistique**, **et Historique sur la région au sud des établissements Français**, Langlois Leclercq, Paris, 1845, pp15-90.

لقد جمع دوماس بين العمل العسكري والفكري، فهو ضابط ورحالة وكاتب، استطاع خلال ممارسة مهامه أن يضع نظاماً جماعياً لجمع معلومات دقيقة عن الأهالي الجزائريين مما سمح له بتطوير كتاباته التي جاءت بطريقة تحليلية [1]، فقد استطاع أن يتغلغل في أوساط المجتمع الصحراوي وأن يعرفه عن قرب من حيث العادات والتقاليد وطرق التفكير والمأكل والملبس، وحدد مواطن قوته وضعفه، واستعمل كل تلك الخبرة والمعارف في تحقيق أهداف دولته الاستعمارية [2]. فقد خصص في كتابه "الصحراء الجزائرية" عدة صفحات لوصف منطقة توات مقدماً وصفاً طبيعياً وجغرافياً للمنطقة وحدودها الجغرافية، مبرزاً ما تحتويه المنطقة من سكان وقبائل واصفاً حياتهم الاجتماعية والدينية وعاداتهم وتقاليدهم.

وعليه تعتبر كتابات دوماس عن المنطقة من أهم المصادر التي لا يمكن لأي باحث في تاريخ توات خلال القرن التاسع عشر الاستغناء عنها، و تكمن أهمية الرحلة في كون صاحبها وصل إلى الصحراء في وقت مبكر نسبياً، إذ يعد أول عسكري فرنسي يصل إلى المنطقة بعد احتلال فرنسا للجزائر، وعاش في الصحراء مدة طويلة فاختلط بالسكان وتعرّف على حياتهم اليومية بشكل مباشر، فعاد بمعلومات غزيرة عن العديد من المناطق التواتية وأنشطة سكانها ونمط حياتهم، ورغم أن مؤلفاته كثيرة في هذا المجال إلا أنها تحتوي عدة مغالطات يجب التنبه إليها، فلم تخلو كتاباته من إعطاء صورة سيئة عن سكان الصحراء من خلال وصفهم بأوصاف ذميمة.

05/ الجنرال كافينياك Général Cavaignac:

ولد لويس ايجان كافينياك يوم 15 أكتوبر 1802م بباريس، أبوه "باتيست كافينياك" حاكم عام سابق للجزائر، وهو أحد طلبة المدرسة المتعددة الفنون والعلوم بفرنسا تميز منذ صغره بالنبوغ والعبقرية، وقد حصل على رتبة ملازم أول في أكتوبر 1827م حتى وصل إلى رتبة جنرال، وفي سنة 1848م أصبح حاكماً عاماً للجزائر ثم رئيساً لمجلس الوزراء في نفس السنة، وهي السنة التي خسر فيها الانتخابات الرئاسية، توفي يوم 28 أكتوبر 1857م بفرنسا[3].

[1]- عثمان حساني، **البيئة الاجتماعية والاقتصادية للصحراء الجزائرية من خلال تقارير الأجانب في القرنين 18 و19م**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر إشراف: تلمساني بن يوسف، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2006/ 2007م، ص51.

[2]- Eugene Daumas, op.cit, pp 209-215.

[3]- Narcisse Faucon, **Livre d'Or De L'Algerie**, éditeurs Librairie Algérienne et Coloniale, Paris,1889, p156.

كُلفت خلال سنة 1847م بعثت الجنرال كافينياك بمعرفة ما تحتويه الصحراء الجزائرية من معلومات علمية لخدمة المشروع الفرنسي للتوسع فيها، حيث انطلقت بعثته من تلمسان في افريل 1847م باتجاه الضاية [1]، ثم تحولت إلى منطقة الغور، وبلغت الشط الشرقي يوم 16 افريل، وهي المنطقة الفاصلة بين التل وبداية الصحراء، وفي نهاية افريل استكشف جبال الأطلس الصحراوي وقصور جنوب الغرب الوهراني وواحاته ودخل واحة عسلة في 22 افريل، وفي 05 ماي دخل عين الصفراء، ومنها شق طريقه جنوباً نحو توات التي لامس حدودها في نهاية شهر ماي 1847م [2]، وقد اعتمد خلال توغله في المنطقة على كتابات المستكشف "أ. كاريت".

تطرّق كفينياك من خلال بعثته إلى التعريف بمسالك الصحراء التي لم يسبق للأوروبيين الوصول إليها، ثم حاول أن يحقق ما يريده المعمرين الفرنسيين الذين هم في حاجة إلى ربط الصلة بالصحراء من أجل تلبية المتطلبات التجارية [3]، حيث يقول في ذلك: "إن ازدهار الجزائر في مستقبلها ومصالحها التجارية العليا مرتبطان بمعرفة الطرق الكبرى التي تتبعها القوافل، والبحث عن وسائلها لجلبها إلى أراضينا أو على الأقل تزويدها بمنتجاتنا، وأخيراً بتحديد أقصر وأسهل طرق اتصال ببلاد السودان" [4]. وقد أعجب كافينياك بالصحراء الجزائرية، وتمكن من دراسة ووصف الشطوط والمرتفعات التي اجتازها، ودعَّم كتاباته برسومات وخرائط لمسالك رحلته، وأشار إلى الطرق التي تربط الجزائر ببلاد السودان وتمر عبر توات، كما حدد أهم المواد التي تصدر إلى توات وتستورد منها [5]. ورغم أن بعثته كانت عسكرية ولم تدم إلا مدةً قصيرةً لم تتجاوز الشهرين إلا انه سجلّ معلومات تخص السكان ومظاهر السطح وأشكال الحكم ونشاط التجارة الصحراوية بين التل و الصحراء و السودان.

ولأن حملة كفينياك كانت ذات أهداف علمية فقد اصطحب معه مجموعة من العلماء والمتخصصين في الاختصاصات العلمية، الذين تمكنوا من جني فوائد عظيمة من هذه الرحلة، من

---

[1]- عبد القادر مرجاني، المرجع السابق، ص35.

[2]- Félix Jacquot, **Expédition du Général Cavaignac dans le Sahara Algérien en Avril et Mai 1847**, Gide Baudry libraires éditeurs, paris, 1849, p 202.

[3]- سميرة انساعد، **الصحراء الجزائرية في عيون الرحالة الفرنسيين خلال القرنين 19و20م "تسجيل فوتوغرافي أم تخيلي"**، مجلة الدراسات، ع2، ديسمبر 2012م، ص22.

[4]- Félix Jacquot, op.cit, p 200.

[5]- محمد هقاري، **دور سكان منطقة الأزجر والهقار في مقاومة الاستعمار الفرنسي أثناء الحرب العالمية الأولى**، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ورقلة، ع24، جوان 2016م، ص27.

بينهم جاكو فليكس (Félix Jacquot)[1] الذي استطاع بخبرته التاريخية والتأليفية أن يؤلف كتاباً دوَّن فيه أخبار حملة القائد كافينياك في الصحراء، جمع فيه ملاحظات عن الطبيعة والجيولوجيا والاثنوغرافيا والمناخ والنبات، والمراحل التي تفصل توات عن غيرها من المناطق المجاورة، حيث ذكر أن هذه الرحلة تتضمن كشفاً لمنطقة صحراوية جديدة، ومثيرة وغريبة في أشيائها، وتعريفاً بمسالك لم يسبق لأوروبي الوصول إليها، كما أنها تقدم فائدة كبيرة للمعمرين، الذين هم في حاجة إلى ربط الصلة بالصحراء لتنشيط التجارة فيها وربطها مع المناطق المجاورة[2].

وخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر كثَّف الفرنسيون نشاطهم الاستكشافي في صحراء الجزائر، ففي سنة 1855م قدَّمت الجمعية الجغرافية بباريس مبلغ 6000 فرنك للذي يقوم برحلة من الجزائر إلى السنغال أو بالاتجاه المعاكس بشرط أن يمر بمدينة تمبكتو ويأتي بمعلومات جديد حول هذا الطريق.

06/ لويس دو كلومب Louis De Colomeb

مستكشف وضابط عسكري فرنسي ولد سنة 1823م، تخرج من المدرسة العسكرية بسان سير برتبة ملازم سنة 1944م، درس اللغة العربية واهتم بدراسة لهجة التوارق، عمل بالمكاتب العربية في الجزائر بمعسكر ثم وهران والبيض من 1844 إلى 1870م[3]، شغل منصب قائد أعلى على منطقة البيض بداية من سنة 1853م، ثم قائداً أعلى بمنطقة الأغواط سنة 1860م، كلف بعدة مهام عسكرية في الجنوب الجزائري، ترقى في الجيش الفرنسي حتى بلغ رتبة جنرال سنة 1864م، ثم مفتشاً عاماً للجيش سنة 1872م، تقاعد سنة 1888م، وتوفي سنة 1902م[4].

---

[1]- فليكس جاكو: طبيب ومستكشف وكاتب فرنسي ولد سنة 1819م بفرنسا، عمل طبيباً عسكرياً وجراحاً ثم أستاذاً مجازاً في تخصص الأمراض المعدية، كما كان محرراً في مجلة Gazette الطبية بباريس، انتقل إلى الجزائر سنة 1945م وشارك سنة 1847م في حملة كافينياك في الصحراء الجزائرية، استطاع تأليف سرد وثائقي مدعوم برسومات أنجزها شخصياً عن هذه الحملة بعنوان "حملة الجنرال كافينياك في الصحراء الجزائرية"، يعد أول طبيب يدرس علم الأمراض الصحراوية، وهو من الأوائل بعد الجنرال دوماس (Daumas) الذين وصفوا بصفة جيدة الصحراء الوسطى الجزائرية ، سنة 1948م عاد إلى فرنسا وعمل طبيباً عسكرياً في علم الأوبئة، توفي شاباً سنة 1857م عن عمر يناهز 38 سنة بعد إصابته بمرض التيفوس. أُنظر:

P.Huard, p.Lefebvre, J.L.Plessis, **François-Félix Jacquot** (**1819- 1857**), Société Française d' histoire de la médecine, paris, 1983, pp403-410.

[2]- Félix Jacquot, op.cit, pp330-334.

[3]- الطاهر موساوي، المرجع السابق، ص40.

[4]- Narcisse Faucon, op.cit, p160.

كانت بداية اهتمام الضابط دو كولومب بالصحراء عام 1854م لما كان نقيباً في الجيش الفرنسي وقائداً لدائرة البيض، حيث كُلف ببعثة علمية عسكرية لاستكشاف منطقة حوض وادي الناموس، رافقه فيها الطبيب ماريس (Docterur Marès) الذي أسندت له مهمة جمع معلومات جيولوجية ومناخية، وتم أثناء هذه الرحلة استكشاف جنوب شرق المغرب من شط تيغري وصولاً إلى فقيق[1].

وفي سنة 1857م اهتم الضابط دو كولومب بالاستكشاف الفعلي للصحراء، حيث بدأ في مطلع شهر جانفي رحلة للجنوب الغربي الجزائري لاستكشاف قصور قورارة وتوات وتيدكلت[2]، بعدما أخد الإذن من الجنرال دوريو (Durrieu) قائد شعبة معسكر، فاتصل بالخليفة "سي حمزة" زعيم أولاد سيدي الشيخ وبعض رجال الشعانبة ليستدل على الطريق الأسهل إلى الجنوب، واستغرقت الرحلة 45 يوماً وصل خلالها إلى قورارة وتوات الوسطى [3]، وكان الهدف منها التعرف على الواحات وطرق القوافل التجارية. نشر نص الرحلة سنة 1860م ضمن المجلة الجزائرية والاستعمارية بعنوان: "مذكرة عن واحات الصحراء والطرق المؤدية اليها" (Notice sur les oasis du Sahara et les routes qui y conduisen,).

تكتسي مذكرات دوكولومب أهمية كبيرة بالنسبة لدراستنا هذه، فقد عرف فيها هذا الضابط بقصور إقليمي قورارة وتوات والوسطى، وعاداتها وتقاليدها وأنشطتها الاقتصادية من خلال ما شاهده، كما وصف أهم الطرق والمسالك التي تتبعها القوافل التجارية نحو توات، ومن خلال هذه الدراسة التي أجراها حول المنطقة اقترح دو كولومب أن يتم تأسيس مجموعة من المراكز التجارية على الجانب الشمالي من الصحراء إلى الأغواط والبيض الهدف منها ربط توات بهذه المراكز وإقامة نظام تجاري صحراوي[4].

---

[1]- ناصر الدين سعيدوني ومعاوية سعيدوني، **الصحراء الجزائرية من خلال التقارير الفرنسية في أواسط القرن التاسع عشر (نصوص مختارة مترجمة مع نبذ عن حياة ونشاط أصحابها)**، ط1، البصائر الجديدة، الجزائر، 2019م، ص454.

[2]- أندري نوشي وآخرون، **الجزائر بين الماضي والحاضر**، تر: اسطنبولي رابح ومنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م، ص385.

[3]- Louis de Colombe, **Explorations des Ksour et du Sahara de la Province d'Oran**, Imprimerie Du Gouvernement, Alger, 1858, P10.

[4]- أندري برنانت، **الجزائر بين الماضي والحاضر**، تر: رابح اسطنبولي وعاشور منصف، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م، ص ص388-389.

07/ فيكتور كولونيو Victor Colonieu:

ولد فيكتور مارتن كولونيو سنة 1826م بفرنسا، جُند في الجيش الفرنسي برتبة ملازم، ثم أرسل إلى الجزائر سنة 1947م، تعلم اللغة العربية وترقى إلى رتبة نقيب ، عين في الدائرة العسكرية لمنطقة البيض، وفي سنة 1879م أصبح جنرالاً، قام برحلة لاستكشاف الجنوب الغربي الجزائري سنة 1860م بهدف إبرام علاقات تجارية مع سكان توات وقورارة للظفر بتجارة بلاد السودان، توفي سنة 1902م[1]، ولم تنشر مذكراته الا بعد ثلاثين عاما من رحلته وذلك ضمن مجلة الجمعية الجغرافية بباريس بين سنتي 1892- 1894م، ووضع لها عنوان: "رحلة إلى قورارة وأوقرووت 1860" (Voyage au Gourara et à l'Auogurout 1860).

في نوفمبر 1860م قام القائد كولونيو (Colonieu) والملازم بوران (Borin) برحلة استكشافية لقصور قورارة وتوات[2]، رفقهم فيه "سي بوبكر" ابن الخليفة "سي حمزة" زعيم أولاد سيدي الشيخ، فانضما إلى القافلة السنوية التي تنطلق من دائرتي سعيدة والبيض لجلب التمور من قورارة مقابل بيع الحبوب والأغنام[3]، حيث اجتمعت عناصر هذه القافلة بالأبيض سيدي الشيخ ، وضمت حوالي 2.200 رجل و 1.400 امرأة وطفل، وأكثر من 10.000 جمل وحوالي 16.000 رأس من الغنم[4].

تحركت القافلة من الأبيض سيد الشيخ نحو الجنوب في أواخر شهر نوفمبر 1860م برفقة فرقة عسكرية تتشكل من 220 فارساً مسلحاً تحت قيادة كولونيو، واتبعت مسلك دو كولومب سنة 1857م، فوصلت إلى واحة سيدي منصور أول قصور قورارة مطلع شهر ديسمبر، وكان الهدف من هذه الرحلة تأكيد الحضور الفرنسي من خلال إبرام علاقات تجارية مع سكان توات وقورارة [5]، وفتح طريق تمبكتو، فقد حمل الفرنسيون معهم عينات من منتجاتهم لعرضها هناك.

---

[1]- p.Vuillot, op.cit, p71.

[2]- Vallat Gustave, **A la Conquête du Continent Noir**, **Missions Militaires et Civiles de 1892 à 1900**, **Inclusivement**, **d'après des Documents Officiels**, J. Lefort Imprimeur Editeur, Paris, 1901, p34.

[3]- احميدة عميراوي وآخرون، **السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية 1844–1916**، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، 2009م، ص69.

[4]- Victor Colonieu, **Voyage au Gourara et à l'Auogurout 1860**, Bulletin de la Société de géographie, 1 Trimestre, 7 Série, T13, Paris, 1892, p57.

[5]- Ibid, p85.

وقد شاع في الصحراء بأن فرنسا وجهت حملة عسكرية لاحتلال منطقة توات [1]، لذلك كانت أبواب القصور الجنوبية تغلق في وجه كولونيو حتى يبتعد عن أسوارها، وعند وصول القافلة إلى تيميمون مركز إقليم قورارة يوم 07 ديسمبر، فإن جماعة القصبة لم تفتح أبوابها للقافلة حتى ابتعد الضابطان الفرنسيان إلى مسافة مشي يومين على الأقل [2]، فغادرا إلى أوقرووت وتاورسيت وتيمي، ليجدا نفس الاستقبال أينما حلا، لذلك قررا ألا يذهبا أكثر من ذلك فتراجعا إلى الشمال باتجاه واحة الأبيض سيدي الشيخ مطلع سنة 1861م[3].

ورغم فشل المحاولة الاستكشافية لكولونيو الذي أغلقت في وجهه أبواب قصور قورارة، نظراً للطابع التجاري والعسكري للرحلة وخشية تجارة قورارة من فقدان دورهم كوسطاء في تجارة الصحراء، إلا أنه استطاع التعرف على إقليم قورارة، حيث قدم معطيات قيمة عن طبيعة المنطقة وثرواتها وسكانها وأنشطتهم الاقتصادية ومواقفهم السياسية وانتماءاتهم الطرقية، كما فصَّل في النشاط التجاري من خلال الحديث عن السلع والأسعار ومناطق التبادل.

وتجدر الإشارة إلى أن قافلة كولونيو تعتبر أضخم بعثة عسكرية فرنسية تصل منطقة توات في ذلك الوقت، فبالإضافة إلى العدد الكبير من الفرسان المسلحين، ضمت هذه القافلة عشرات الجمال المحملة بالبضائع والمؤن، ذلك أن الهدف المعلن للرحلة هو هدف تجاري.

08/ جيرهارد رولفس Gerhard Rohlfs:

ولد يوم 14 أبريل عام 1831م[4]، بالقرب من مدينة بريم، بدأ شبابه جندياً في سن السادسة عشر، ثم توجه إلى دراسة الطب فحصل على الدكتوراه، لكن ميوله إلى المغامرة جعله يعمل طبيباً في صفوف القوات الأجنبية خارج الحدود بعد أن وصل فرنسا عبر سويسرا، قضى ست سنوات في الجزائر سمحت له بتعلم العربية والتعرف على عادات وتقاليد الأهالي، كان حلمه أن يحصل على الجائزة التي أعلنت عنها الجمعية الجغرافية في باريس سنة 1855م باكتشاف الطريق الرابط بين الجزائر والسنغال[5]، بعد سنواته الست في الجزائر توجه إلى المغرب الأقصى سنة 1861م. لُقب بـ "قاهر

---

[1]- Vallat Gustave, op.cit, p36.

[2]- إبراهيم مياسي، **الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1834-1934م**، دار هومة، الجزائر، 2005م، ص 413.

[3]- p.Vuillot, op.cit, p 73.

[4]- إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المرجع السابق، ص ص89- 92.

[5]- جيرهارد رولفس، **عبر إفريقيا**، تر: عماد الدين غانم، منشورات مركز الدراسات الإفريقية، سبها، دت، ج01، ص19.

الصحراء". توفي يوم 2 جوان 1896م[1]، تاركاً مذكراته المفصلة بعنوان: "رحلات واستكشافات في الصحراء" (Voyages et explorations au Sahara).

قام رولفس بأربع رحلات لاستكشاف الصحراء الجزائرية بين سنوات (1862- 1867م)، حيث غادر اللفيف الأجنبي الفرنسي في الجزائر سنة 1861م متجهاً في رحلته الأولى نحو المغرب الأقصى حيث تعلَّم اللغة العربية وتظاهر بالإسلام واستقر في شمال البلاد [2]، وفي عام 1862م غادر طنجة في رحلة ثانية باتجاه درعة وتافيلالت ثم فقيق فوهران، لكن بسبب محاولة اغتيال تعرض لها أجبرته على التراجع إلى طنجة [3]. وفي عام 1864م انطلق في رحلة ثالثة من طنجة عبر تافيلالت ومنها وصل إلى وادي الساورة وبني عباس ثم واحات توات متنكراً في ملابس السكان الأصليين، مدعياً أنه طبيب تركي حيث دخلها في أوت 1864م رفقة إحدى القوافل[4].

اخترق رولفس توات من غربها إلى شرقها وكان أول قصر يدخله هو تسابيت يوم 13 أوت 1864م، ومر بالعديد من قصور توات الوسطى وتيدكلت التي دخل عاصمتها عين صالح يوم 17 سبتمبر[5]، حيث كان يريد السفر إلى تمبكتو لكن لم يتمكن من ذلك بسبب خوفه من الاغتيال وبقي بعين صالح شهراً ونصف، إلى أن اكتشف أمره فاضطر للذهاب لطرابلس في رحلته الرابعة يوم 29 أكتوبر 1864م، وعاد بعدها إلى أوروبا [6]. ثم كانت له رحلات أخرى من طرابلس إلى إفريقيا السوداء سنوات 1866م، 1868م، 1869م ليكون بذلك أول رحالة أوروبي يعبر إفريقيا الغربية من ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى ساحل غانا جنوباً.

1- جيرهارد رولفس، المصدر السابق، ج1، ص20.

2- Gerhard Rohlfs, **Meein erster Aufenthalt in Marokko und Reise studlich vom Atlas durchdie Oasen Draa und Tafilet** ,Verlag von J.Kuhtmann's Buchhaudlung, Bremen, 1873, PP30-33.

3- احميدة اعميراوي وآخرون، المرجع السابق، ص69.

4- Louis Voinot, op.cit, p83.

5- Bernard Saffroy, **chronique du Touat**, Centre de Documentation Saharienne, Ghardaia, p09.

6- للمزيد حول رحلة رولفس في توات، أُنظر:

V.A. Malte Brun, **rèsumè Historique et Gèographique de l'exploration de Gerhard Rohlfs Au touàt et a in-çàlah d'après le Journal de ce voyageur**, Challamel Ainé Librairé éditeur, paris, 1866.

لم يتميز رولفس من بين المستكشفين بأنه ضرب رقماً قياسياً في التجوال داخل المجال التواتي في القرن التاسع عشر، وطول مدة الإقامة مع التواتيين التي دامت شهرين ونصف، والتنقل داخل مجالهم فحسب، بل نجح أيضاً إلى حد ما في الاندماج في المجتمع التواتي، وهو أمر لم يكن ليتحقق له لو لم يتظاهر باعتناق الإسلام ويطلق على نفسه أسم "الحاج عبد المالك"، متقمصاً شخصية رجل تركي مسلم، ويباشر تعلم اللغة العربية والدين الإسلامي.

تعد مذكرات رولفس وثيقة مهمة في التأريخ لمنطقة توات خلال القرن التاسع عشر حيث تُقدم معلومات غاية في الأهمية حول المنطقة، فقد نجح في اختراق الصحراء الكبرى من المغرب الأقصى حتى ليبيا عبر الصحراء الجزائرية، ويكون بذلك أول رحالة أوروبي يصل إلى عين صالح ويقدم وصفاً للأوروبيين عنها يعتبر هو أول وصف عن المدينة يصل العالم قبل احتلال الفرنسيين لها في نهاية القرن التاسع عشر [1]، وبحكم إتقانه للدارجة المحلية وتنكره في زي صحراوي والتمويه الذي كان يقوم به دائماً، ومكوثه بعين صالح عاصمة إقليم تيدكلت لمدة شهر ونصف، الأمر الذي سمح له بأن يحصل على معلومات هامة ودقيقة حول توات لم تتوفر لغيره من الأوروبيين استفاد منها الفرنسيون في احتلالهم للمنطقة، حيث أعدَّ تقارير استكشافية مفصلة حول الأوضاع الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية للمنطقة، وقد وجدت هذه التقارير تقييماً إيجابياً لدى الفرنسيين ما جعل الجمعية الجغرافية في باريس تمنحه الميدالية الذهبية[2].

رغم أن الرحلة قدَّمت معلومات كثيرة عن المنطقة حيث كان صاحبها يُدقق في وصف البلاد جغرافياً ويذكر كل كبيرة وصغيرة عن مختلف مجالات الحياة، متبعاً منهجاً يعتمد فيه تسجيل المشاهدات حسب الأيام، إلا أنه تبقى يكتنفها الكثير من الغموض من ناحية الدوافع والأهداف، فالمشقة والتعرض للهلاك في الكثير من الأحيان يجعل الرحلة أبعد ما تكون بهدف علمي أو من أجل الحصول على جائزة الجمعية الجغرافية، فالأوصاف الجغرافية والإثنية الدقيقة التي تضمنتها مذكرات رولفس تدل على أنها تصلح لتكون وثائق ذات طابع عسكري الهدف منها هو التوسع والسيطرة على المنطقة، فقد أفادت رحلاته السلطات الفرنسية كثيراً في معرفة المنطقة وسهلت لها احتلالها مطلع القرن العشرين.

---

[1]- ريمون فيرون، **الصحراء الكبرى**، تر: جمال الدين الدناصوري، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1963م، ص111.

[2]- جيرهارد رولفس، **رحلة إلى الكفرة**، تر: عماد الدين غانم، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 2000م، ص29.

09/ بول صوليييه paul solleillet:

ولد بول صوليييه بنيم الفرنسية يوم 29 أفريل 1842م، وقضى سنوات صغره في أفينيون، ومنذ طفولته كانت له رغبة كبيرة في حب السفر والمغامرة والترحال إلى الأماكن المجهولة خاصة في إفريقيا، حيث بدأ منذ سنة 1866م التعرُّف على عادات وتقاليد سكان الجزائر ولغتهم ودرس كتب التاريخ والجغرافيا حول المنطقة [1]. انخرط في الجيش الفرنسي سنة 1870م في اختصاص مشاة، يعتبر من أشهر المستكشفين الفرنسيين حيث قام بعدة رحلات إلى إفريقيا بين سنوات (1871- 1878م) بطلب من السلطات الفرنسية. تُوفي يوم 10 سبتمبر 1886م[2] مخلفاً مجموعة من المؤلفات أهمها رحلته إلى عين صالح، "رحلة بول صوليييه من الجزائر العاصمة إلى واحة عين صالح" (Voyage de paul solleillet d'Alger a L'oasis d'in-Salah).

قام صوليييه بثلاث رحلات خلال حياته، كانت الأولى (1866-1867م) زار فيها تونس والجزائر تعلَّم خلالها اللغة العربية ودرس بعض آيات القران، وسجل عادات وتقاليد السكان[3]، والثانية كانت بين سنتي (1872- 1874م) من الجزائر العاصمة إلى عين صالح والتي تعتبر من أشهر رحلاته وكلفته بها المؤسسة العسكرية وغرفة التجارة لاستكشاف الطرق التجارية بين الجزائر وعين صالح، والثالثة كانت سنة 1878م من باريس إلى إفريقيا الوسطى لمعرفة الطرق التجارية الموجودة في الناحية الغربية لنهر النيجر[4].

الرحلة التي تهمنا هي رحلته الثانية التي بدأها من مرسيليا في 16 سبتمبر 1872م إلى الجزائر العاصمة، وفي أفريل 1873م تحصل على مهمة من غرفة التجارة بالجزائر لاكتشاف الطريق من الجزائر إلى عين صالح، فانطلق من مدينة الجزائر يوم 29 ديسمبر 1873م عبر طريق الجلفة والأغواط ودخل غرداية يوم 29 جانفي 1874م ثم توجه إلى ورقلة ثم إلى متليلي[5]، وفي يوم 16 فيفري بدأت رحلته من متليلي إلى عين صالح، وكانت بعثته تتكون من ستة وعشرين شخصاً وعشرة جمال وثلاثة

---

[1]- إبراهيم مياسي، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري، المرجع السابق، ص59.

[2]- Narcisse Faucon, op.cit, p280.

[3]- Gros Jules, **Paul Soleillet en Afrique**, Maurice Drhyfous éditeur, Paris, 1888, pp7-10.

[4]- Gabriel Gravier, **Voyage a Sègou 1878-1879 Rédige d'après Les Notes Et Journaux De Voyage De Soleillet**, Challamel Ainé, Paris, 1887, p10.

[5]- p.Vuillot, op.cit, p126.

خيول[1]، وفي 06 مارس 1874م دخل قصر مليانة [2] لكنه استقبل استقبالاً غامضاً، فأرسل إلى الحاج عبد القادر باجودة رئيس واحة عين صالح رسالة من الغرفة التجارية، فردَّ عليه أنه إذا لم يغادر تيدكلت بأقصى سرعة فستكون عقوبته الموت، فقفل عائداً إلى الجزائر ولم يستكمل رحلته[3].

رغم أن صولييه لم يسمح له بالدخول إلى عين صالح، إلا أنه قد دوَّن في كتابه الكثير من الملاحظات الهامة عن هذه المدينة وما جاورها من حيث مختلف الجوانب الجغرافية والجيولوجية والتجارية خاصة حول هضبة تادمايت، وقد سار صولييه في تدوين رحلته على منوال رولفس (Rohlfs) فسجل مشاهداته يومياً، ذاكراً في غالب الأحيان اتجاه تنقلاته وتوقيتها، غير أنه لم يرسم خريطة للمنطقة أو خط سير رحلته.

كما عرَّف بالقبائل التي تسكنها وأصولهم وتاريخهم ومعيشتهم وطرق تجارتهم ورؤسائهم. فقد نبَّه السلطات الاستعمارية إلى أهمية مسالك القوافل التجارية العابرة للصحراء وربطها بمستقبل فرنسا عن طريق التقارير التي كان يرسلها إلى الغرفة التجارية بالجزائر[4]. حيث كان حلمه الوصول إلى المناطق الواسعة والمغلقة في إفريقيا متخذاً من عين صالح مرحلته الأولى للتوغل نحو السودان الغربي، ويقول عن رحلته للمنطقة: "اليوم أبدأ الرحلة الاستكشافية الحقيقية، حيث سأتواجد في أصقاع ليست معروفة كثيراً، وسوف اجتاز أرضاً لم تطأها قدم أوروبي..." [5]، ويلخص كرافيي (Gravier) نتائج رحلة صولييه قائلاً: لقد عاد هذا الرحالة من رحلته إلى عين صالح بفكرة مد السكة الحديدية العابرة للصحراء، ... وبما أن جميع مستضيفيه قد أصبحوا أصدقاء له، فإن الطريق التي اختطها بقيت مفتوحة أمام مواطنيه"[6].

---

[1]- إبراهيم مياسي، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري، المرجع السابق، ص59.

[2]- مليانة: قصر يتبع للساهلة يسكنه أهل عزي والزوى، يبعد عن عين صالح حوالي 10 كلم. أُنظر: الحاج التومي سعيدان، المرجع السابق، ص36.

[3]- تفاصيل أكثر حول رحلة بول صولييه في المنطقة. أُنظر:

Paul Soleillet, **Voyage de Paul Soleillet d'alger a l'oasis d'In Salah**, Rapport de Chambre commerce d'Alger, Alger, 1875.

[4]- p.Vuillot, op.cit, p126.

[5]- Paul Soleillet, **L'Afrique Occidental e** «**Algerie**, **Mzab**, **Tidikel**», Avignon, Imprimerie De F Seguin Ainé, Paris, 1877, p205.

[6]- Gabriel Gravier, **Voyage de p**. **Soleillet a l'Adrar**, **decembre 1879-mai 1880**, E. Cagniard, Paris, 1881, p62.

إن المعلومات التي قدمها صولييه عند وصفه للمنطقة فيما يخص أصول السكان وتاريخهم تحمل الكثير من التناقضات والأخطاء، كما لقيت الكثير من الانتقادات من طرف المؤرخين والمستكشفين الذين زاروا المنطقة بعده [1]. وقد تضمنت الرحلة معلومات دقيقة عن الجوانب التجارية والجيولوجية للمنطقة، وعرّفت بالتركيبة الاجتماعية للسكان ونمط الحكم عندهم والتعامل فيما بينهم وأهم الإثنيات العرقية الموجودة بالمنطقة، مما يجعلها ذات أهمية كبيرة بالنسبة للدراسة الحالية، لكن يجب التعامل معها بحذر شديد.

10/ مرسال بالات Marcel Palat:

مستكشف فرنسي ولد سنة 1756م، اشتغل ضابطاً في الفرقة العسكرية لوهران ونظراً لحبه للغة العربية استطاع استيعابها، فعُين ملحقاً للمكتب العربي بسعيدة، كانت له رغبة كبيرة في استكشاف الصحر، وفي سنة 1885م أرسلته فرنسا في حملة استكشافية للصحراء الجزائرية [2]، انطلق في رحلته من مدينة الجزائر إلى قورارة وتوات التي دخلها سنة 1886م، ومنها توجه بعدها إلى تيدكلت، وفي الطريق تعرض للاغتيال بين عين صالح وعين بلبال في 21 فيفري 1886م [3]، لكن مذكراته وصلت إلى فرنسا ونشرت تحت عنوان: "يوميات السفر والمراسلات" (Journal de route et correspondance).

التقى بالات في باريس "سي حمزة" خليفة أولاد سيدي الشيخ، فحدثه عن رغبته في القيام برحلة في أعماق الصحراء لاستكشافها، فوعده بأن يقدم له العون للقيام بهذه الرحلة على أن يرافقه شخصياً إلى غاية عين صالح [4]. في أوت 1885م انتقل بالات إلى مدينة الجزائر، وغادرها متوجهاً إلى سعيدة ثم توجه إلى البيض مرفوقاً باثنين من الأهالي، ومنها توجه إلى القليعة التي دخلها في 11 سبتمبر، غير أن "سي حمزة" عدل عن مرافقته، وكلف رجلاً من عائلته يدعى "العربي ولد النعيمي" بمرافقته إلى غاية قورارة، أين سيلتقي بأحد قادة أولاد سيدي الشيخ يدعى "سي قدور"، والذي سيتكفل بمرافقته إلى تيدكلت [5].

---

[1]- Louis Voinot, op.cit, p84.

[2]- Narcisse Faugon, op.cit, p428.

[3]- Bernard Saffroy, op.cit, p9.

[4]- p.Vuillot, op.cit, pp121-222.

[5]- Michel Antar, **Chauvauchées d'un Futur Saint-Cyrien à Travers les Ksours et Oasis Oranais**, Collection Hetzel, Paris, 1907, p101.

غادر بالات القليعة في 03 ديسمبر متوجهاً إلى توات عبر إقليم قورارة الذي دخله يوم 12 ديسمبر، وبقي في قصر سموتة إلى يوم 22 جانفي 1886م ينتظر قدوم "سي قدور" الذي بعث ابنه "سي محمد" نيابة عنه [1]، وبعد تجوله في قصور قورارة مدة أربعين يوماً توجه بعدها إلى تيدكلت لاستكشاف عين صالح، وفي الطريق تعرض للاغتيال بين عين صالح وعين بلبال في 21 فيفري 1886م. وبذلك يكون بالات قد استكشف الطريق الرابط بين البيض وعين صالح، كما تعرف على مدن وقصور وواحات هذا الطريق، وعرف نوع النشاط التجاري الذي يتميز به، وأهم السلع والأسعار المتداولة بالمنطقة.

وفي سنة 1887م أراد المغامر الفرنسي **"كاميي دولس"** (**Camille Douls**)[2] تكرار تجربة بالات (Palat) لاستكشاف الصحراء، فاستكشف منطقة تندوف في رحلته الأولى، فتحدث عنها ووصف أهلها[3]، وفي سنة 1888م كُلِّف بمهمة رسمية لربط مراكش بتمبكتو عن طريق توات وتافيلات[4]، فاخترق توات قادماً إليها من المغرب عبر وادي الساورة، في نفس الطريق الذي سلكه رولفس (Rohlfs)، فاستكشف واحة رقان، ثم توجه إلى أولف ومنها إلى أقبلي للانطلاق منها إلى تمبكتو، لكن في طريقه بين أولف وأقبلي تم اغتياله في فبراير 1889م من قبل رجلين من رجال التوارق، قبل أن يكمل مهمته[5].

---

[1]- الطاهر موساوي، المرجع السابق، ص31.

[2]- كاميي دولس (**Camille Douls**): مستكشف فرنسي ولد سنة 1864م، كان مهتماً بالعلوم الطبيعية واستكشاف إفريقيا، قام بعدة رحلات فيما بين 1887م و1889م باتجاه صحراء المغرب والصحراء الغربية جنوب المغرب الأقصى وصحراء الجزائر، وكان يسافر متنكراً في زي عربي، ويُسمي نفسه الحاج عبد المالك وفي طريقه ما بين أولف وواحة أقبلي تم اغتياله من قبل رجلين من رجال التوارق الذين قبلوا مرافقته إلى تمبوكتو مقابل مكافأة مالية أثناء تواجده بأولف، وكان اغتياله في فبراير 1889م قبل أن يكمل مهمته وعمره إذ ذاك خمس وعشرون سنة. أُنظر:

Jean Charles Humbert, **Forts et Bordjs de l'Extrême Sud**, **Sahara**, **Algérie** (**1892-1903**), Éditeur Calvisson, Paris, 1993, p91.

[3]- Camille Douls, **Voyage d'Exploration à Travers le Sahara Occidental et le Sud Marocain**, Bulletin de la Société de géographie, 7 Série, T 9, Paris, 1888, pp437-455.

[4]- Camille Douls, **Voyage dans le Sahara Occidental et le Sud Marocain**, Imprimerie de Espérance Cagniard, Rouen,1888, p42.

[5]- Augustin Bernard et N. Lacroix, **la Pénétration Saharienne** (**1830-1906**), Imprimerie Algérienne, Alger, 1906, pp101-102.

11/ لويس فوانو Louis Voinot:

عسكري ومستكشف ورسام خرائط فرنسي ، ولد بليون يوم 04 ديسمبر1869م، انخرط في الجيش الفرنسي كمتطوع برتبة ملازم سنة 1888م، وبطلب منه أرسل إلى الجزائر سنة 1898م، وأدى خدمته العسكرية كلها بإقليم تيدكلت في منطقة توات، شارك في الحملة العسكرية التي قادها "فلامند" (Flamand) على عين صالح في 29 ديسمبر 1899م[1]، وخلال أحد المعارك سنة 1900م أصيب بجروح وتلقى وسام الشرف، وفي سنة 1902م تم نقله إلى القاعدة الصحراوية بتيدكلت فجال في مختلف المناطق الصحراوية، وفي سبتمبر 1906م انتقل إلى المكتب العربي بمغنية، تمَّ نقله إلى المغرب حيث رُقي من قائد إلى لواء المكتب العربي بوجدة، وبعدها عاد إلى الألزاس ثم اللورين، وفي سنة 1925م عاد إلى مراكش وبقي هناك حتى حصوله على التقاعد سنة 1930م. توفي بفرنسا يوم 20 جويلية 1960م[2]، وترك العديد من المؤلفات أهمها: "تيدكلت دراسة في جغرافية وتاريخ وعادات البلاد" (le Tidikelt étude sur la géographie l'histoire, les moeurs du pays).

بما أن فوانو أدى خدمته العسكرية في إقليم تيدكلت نهاية القرن التاسع عشر، وتنقل في العديد من المناطق الصحراوية وكرَّس حياته في كتابة تاريخ المنطقة، وبالتالي تعد شهادته من أهم الشهادات الأجنبية التي أرخت لتاريخ المنطقة واصفةً أحوالها الطبيعية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، حيث يعرفنا بالخصائص الجغرافية للمنطقة مبرزاً أهم التجمعات السكانية وعادات وتقاليد المنطقة في نهاية القرن التاسع عشر[3]. وإذا كان فوانون قد خصص كتابه لجزء من منطقة توات وهو إقليم تيدكلت، فإن وصفه في كثير من الأحيان لا يقتصر على تيدكلت فقط بل يتعداه إلى أغلب المناطق التواتية. وبالتالي يعتبر مصدراً مهماً في تاريخ المنطقة خلال هذه الفترة.

لم يكن فانو مبعوثاً من طرف السلطات الاستعمارية ولم يكتب عن المنطقة بأمر من السلطات الفرنسية، حيث أعتمد في تدوينه لتاريخ المنطقة على المصادر المحلية والأجنبية والروايات الشفهية والملاحظات العينية، وبالتالي فإن كتابته تكون أقرب إلى الصدق من كتابات سابقيه من المستكشفين

[1]- Louis Voinot, op.cit, p1.

[2]- أمحمد جعفري، **الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بتدكلت خلال القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي**، أطروحة دكتوراه، تاريخ الجزائر المعاصر، إشراف: عبد الرحمن بعثمان، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة أدرار، 2019/ 2020م، ص14.

[3]- Louis Voinot, op.cit, pp 5-39.

الأوروبيين، بالإضافة إلى نقده لكتابات العديد من المستكشفين الذين سبقوه إلى المنطقة. لكن يبقى سبب اهتمامه بتاريخ وجغرافية المنطقة مجهولاً، مما يستوجب نقداً لكل المعلومات التي ذكرها.

خلاصة الفصل الأول

من خلال ما تم عرضه في مباحث هذا الفصل الأول يتبين لنا العمق التاريخي لمنطقة توات بدليل ورود وصفها في كتابات الرحالة منذ القدم، حتى وإن لم يتكلموا عنها بصورة صريحة في كتاباتهم بل بصورة ضمنية ذلك لأنها تدخل ضمن في الإطار الجغرافي للصحراء الإفريقية الكبرى، ولعل أول الرحالة الذين تكلموا في كتاباتهم بصورة صريحة عن منطقة توات هو الرحالة المغربي ابن بطوطة في رحلته الحجازية التي مرَّ خلالها بالمنطقة خلال القرن 8هـ/ 14م، ثم توالى ذكرها في العديد من كتابات الرحالة بعده كابن خلدون والوزان وابن مليح والعياشي مع تحديد مميزاتها الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية.

وخلال القرن الثامن عشر قدَّم الرحالة المحليين وصفاً لتوات من خلال تدوينهم لرحلاتهم في المنطقة، ومن أبرز هؤلاء الرحالة عبد الرحمن بن عمر التنلاني والشيخ سيدي ضيف الله بن أُبَّ وأبو عبد الله القبلاوي ومولاي احمد بن هاشم، كما شهد هذا القرن عدة محاولات من الأوروبيين خاصة البريطانيين منهم للوصول للمنطقة، إلا أنَّ معظم محاولاتهم باءت بالفشل حيث لقيَ العديد من المستكشفين الأوروبيين مصرعهم في أعماق الصحراء نتيجة التعب والإرهاق والمرض.

لم تخلُ كتابات الرحالة العرب وخاصة التواتيين في القرن التاسع عشر من تقديم وصف للمنطقة، ومن أهمهم الحاج ابن الدين الأغواطي وعبد الرحمن بن إدريس التنلاني والحاج عبد القادر بن أبوبكر التواتي وعبد الرحمن سلكة. لكن ما ميز هذا القرن هو وصول العديد من المستكشفين الأوروبيين خاصة منهم الفرنسيين للمنطقة تباينت مراميهم وتعددت بواعث مقصدهم، ومن أهم هؤلاء المستكشفين الأوروبيين كاييه ودوماس وصولييه ورولفس.

ولقد وجِدت في كثير من كتابات الرحالة الأوروبيين مادة خصبة تعرِّف ببعض جوانب الحياة الحضارية في منطقة توات كما رآها هؤلاء، مع ضرورة الاعتراف بأن فضل هذه الكتابات لا ينكر، فقد كانت شاهدةً على مراحل زمنية قديمة ربما لا نجد من الكُتَّاب المحليين من نقل أحداثها وبعض ما ميزها على الصعيد الاجتماعي، وحتى إن وجِدوا فإن الحقيقة لا تتضح إلا بالكشف عن جميع أوجه الشيء المدروس ومقارنته بموضوعية وحكمة . كما تسمح للباحث بمقارنتها مع ما عرفه أبناؤها وتناقلته أجيالهم، وخصوصاً ما تعلق بالعادات والتقاليد ذات المرجعية الإسلامية.

الفصل الثاني

المجتمع التواتي بعيون الرحالة والمستكشفين في القرن 19م

المبحث الأول: النظرة إلى الشخصية والمجتمع التواتيين

المبحث الثاني: القصور التواتية ساكنتها ويومياتها

المبحث الثالث: المستوى المعيشي وآفات المجتمع

الفصل الثاني: المجتمع التواتي بعيون الرحالة والمستكشفين في القرن 19م

اهتم المستكشفون الفرنسيون بالجانب الاجتماعي للصحراء الجزائرية عامة وتوات خاصة، وذلك من خلال دراسة وفهم المجتمع التواتي، والكشف عن بنيته، وفهم أصوله وجذوره بغرض السيطرة عليه والتحكم فيه، وقد غاص هؤلاء المغامرون الأوروبيون في أوساط المجتمع التواتي ودققوا في تركيبته ولغته وعاداته، ولم يتركوا شاردة ولا واردة إلا تحدثوا عنها وسجلوا ذلك في تقاريرهم. وبغض النظر عن الهدف من هذه الدراسات ورغم وجود تباين كبير بينها إلا أنها تعطي صورة تكاد تكون معبرة عن واقع المجتمع التواتي خلال القرن التاسع عشر. كما أشار الرحالة والباحثين المحليين إلى العديد من الخصائص الاجتماعية للمنطقة.

هذه الصورة التي نستمدها من خلال ال كتابات التي تركها هؤلاء المستكشفون سنستعرضها خلال هذا الفصل بدءاً بفئات المجتمع والتباين الطبقي بينهم، وتعداد السكان والعلاقة بينهم، وتباين لغاتهم ولهجاتهم، والنظام الاجتماعي والقضائي الذي يحكمهم، وأهم الصفات الاجتماعية التي شدَّت انتباه المستكشفين. كما يتطرق هذا الفصل إلى الحياة اليومية داخل القصور التواتية من عمران وعادات وتقاليد، وإبراز دور المرأة ومكانتها في المجتمع، وفي الأخير إبراز المستوى المعيشي والصحي للمجتمع التواتي، وما هي أهم الآفات الاجتماعية التي سجلها المستكشفون؟ وما مدى التزامهم بالموضوعية في ما كتبوه عن هذا الجانب؟

المبحث الأول: النظرة إلى الشخصية والمجتمع التواتيين

أولاً: البنية الاجتماعية الديمغرافية للمجتمع التواتي

01/ فئات المجتمع وطبقاته:

مرت منطقة توات بعدة مراحل تاريخية عرفت فيها استيطان عناصر ومجموعات سكانية مختلفة، فتكوَّن المجتمع التواتي من خليط أجناس استقرت بالمنطقة عبر تاريخها الطويل، ونظراً لتعدد مرجعيات ومعايير التصنيف فقد تعددت التقسيمات، فهناك من يرى أنها أربع فئات اجتماعية هي: الأشراف والأحرار والحراطين والعبيد، وهناك من يضع تقسيماً آخر من خمس فئات وهي: الأشراف والمرابطين وعرب الخلط والحراطين والعبيد، وهناك من يقسمهم إلى فئتين: فئة خاصة تضم الكبراء والأعيان وشيوخ القبائل والمقاطعات والأشراف والمرابطين والقضاة وكبار التجار؛ وفئة عامة تضم أصحاب المواشي والمزارعين من فئة الحراطين والحرفيين والعبيد. وسوف نحدد التصنيف الذي لقي شبه إجماع من طرف المستكشفين الأوروبيين والرحالة المحليين.

أ- **الأشراف**[1]: تتربع هذه الفئة على قمة الهرم الاجتماعي التواتي ، وتمتع بمكانة سامية نظير انتسابها إلى البيت النبوي، و تنقسم إلى قسمين القسم الأكبر ينتسب إلى الأسرة العلوية [2] والقسم الآخر إلى الأسرة الإدريسية[3]، وتتفق معظم الدراسات على أنهم قدموا إلى توات من شمال بلاد المغرب [4]، وهم يتواجدون في كل أقاليم توات، لكن أكبر نسبة منهم توجد في توات الوسطى، وباعتبار نسبهم الشريف فقد حظوا بمكانة مرموقة داخل المجتمع التواتي وخارجه [5]، وقد حرص الناس على التقرب منهم والتبرك بهم، وعادة ما ينادى الرجل منهم بلقب "مولاي" ثم يتبعه الاسم بعد ذلك، كما تنادى المرأة بـ "لالة" ثم تتبع بالاسم[6].

يقوم الأشراف بالفصل في النزاعات والخصومات التي تحدث بين القبائل التواتية، ويلجأ إليهم الناس لحل مشاكلهم وخصوماتهم، ويؤكد سلكة أن الأشراف يأنفون عن ممارسة أي عمل لاعتقادهم أن ذلك يحط من قيمتهم ومكانتهم في المجتمع، وقد خصص لهم رؤساء القبائل التواتية نصيب من المال إكراماً لهم ولنسبهم الشريف [7]. وكان لهم خلال القرن التاسع عشر علاقة وثيقة مع الأسرة الحاكمة بالمغرب الأقصى، حيث كانت تُبعث لهم الهدايا والعطايا من قبل المخزن، ففي سنة 1828م

---

[1]- Gerhard Rohlfs, **Voyages et Explorations au Sahara**, **tome1**, **Draa– Tafilalet– sud oranais– Touat– Tidikelt– Rhadamès 1861– 1864**, tr: Jaques Debetz, Centre d'Études sur L'Hstoire du Sahara, paris, 2001, p237.

[2]- نسبة إلى مولاي علي الشريف بن مولاي الحسن بن أبي بكر بن علي بن مولاي الحسن بن مولاي إسماعيل بن مولاي القاسم بن محمد بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم. أُنظر:

Lewis Watin, **origines peuples Touat par les romans populaires dans le pays**, Géographique Society Bulletin, l'Algérie et l'Afrique du Nord, l'année 10, triple-seconde, 1905, p216.

[3]- نسبة إلى إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم. أنظر: Ibid, p215.

[4]- فرج محمود فرج، **إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين** ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977م، ص22.

[5]- Louis de Colomb, **Notice sur les oasis du Sahara et les routes qui y conduisen**, Revue algérienne et colonial, Tome 03, Paris, 1860, p303.

[6]- روس إ.دان، **المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي 1881– 1912**، تر: أحمد أبو حسن، مطبعة المعرف الجديدة، الرباط، 2006م، ص45.

[7]- Abderrahmane Selka, op.cit, p522.

بعث السلطان المغربي هدية وزعت على الأشراف العلويين والأدارسة [1]. كما كان الأشراف يمثلون جماعة مستقلة داخل الجماعة التواتية، ويتولى تسيير شؤونهم ومصالحهم أحد رؤسائهم الذي يختارونه من بينهم[2].

ب- المرابطون: ينتسب المرابطون[3] إلى جد مرابط أو سلالة عالمة اختص أحد أجدادها بضريح من الأضرحة التي لا تزال قائمة إلى حد الآن، وبركة الجد المرابط سارية في كافة أعضائها[4]، وهذا ما يمدها بمزيد من الاعتزاز والتمييز عن الآخرين، وهم يتمتعون بمكانة مرموقة و باحترام وتوقير من جميع سكان توات[5]، ويرجع ذلك إلى انتماء بعضهم إلى أسر وبيوتات علمية أو تأسيسهم للزوايا وتقديم خدمات اجتماعية وعلمية، ويمثلون الفئة الثانية في السلم التراتيبي للمجتمع التواتي.

لا يخلو قصر من قصور توات من وجود ضريح ولي صالح يحرص سكان توات على الاحتفال بذكراهم السنوية، وذلك بإقامة الوعدة وتقديم الصدقات [6]، وكان سلاطين المغرب يرسلون في طلب البيعة من أهل توات خاصة من المرابطين [7]. كما تمتعت فئة المرابطين المؤسسين للزوايا بمكانة مميزة نظير تمتعها بموارد اقتصادية هامة وظفتها في خدمة المجتمع التواتي مما جعلها ملاذاً للسكان في خصوماتهم، وذكر فوانو (Voinot) أن المرابطين أسسوا العديد من القصور التواتية منها قصر المطارفة[8] بالساهلة التحتانية عام 1810م بعين صالح، ومن أهم قبائل المرابطين التي استقرت بتوات قبيلة أولاد الشيخ بن عبد الكريم المغيلي[9].

---

[1]- A.G.P. Martin, **Quatre siècles d'histoire Marocaine au Sahara de 1504 à 1902**, **au Maroc de 1894 à 1912 d'après archives et documentations indigènes**, Librairie Félix Alcan, Paris, 1923, pp135- 141.

[2]- فرج محمود فرج، المرجع نفسه، ص46.

[3]- المرابطون: يطلق هذا الاسم في توات والصحراء الشرقية والغربية على سلالة المرابطين، أي المنتسبين إلى آباء صالحين من الصحابة – كعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان- فمن دونهم من سكان الرباطات الذين رابطوا في سبيل الله للجهاد والعبادة والاعتكاف، وكانت هذه الرباطات مقامة في الثغور والحدود. يُنظر:مولاي احمد الطاهري الإدريسي، المصدر السابق، ص58.

[4]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p303.

[5]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p237.

[6]- Abderrahmane Selka, op.cit, p553.

[7]- A.G.P. Martin, Quatre siècles d'histoire, op.cit, p119.

[8]- المطارفة: أحد قصور الساهلة التحتانية التابعة لعين صالح وتبعد عنها بـ 10 كلم. أُنظر: مولاي احمد الطاهري الإدريسي، المصدر نفسه، ص66.

[9]- Louis Voinot, op.cit, p54.

ج- الأحرار (العامة) [1]: ينحدر أفراد هذه الفئة من آباء وأمهات أحرار ذو ي أصول بربرية أوعربية توافدت على المنطقة واستقرت بها عبر فترات متفاوتة، وذكر كافينياك (Cavaignac) أن سكان الصحراء الجزائرية ينقسمون إلى قسمين هما: العرب والبربر، كما أن هذين الشعبين مختلف ان عن بعضهما البعض، إضافة إلى أن البربر هم سكان القصور، والعرب هم سكان الخيام[2].

ج-1/ العرب: يعد العنصر العربي الأكثر وجوداً في المنطقة رغم وصولهم المتأخر إليها، وهم ثاني شريحة استقرت بالمنطقة بعد البربر، حيث وصلوا في السنوات الأولى التي أعقبت الفتح الإسلامي لبلاد المغرب[3]، وهاجرت العديد من القبائل العربية إلى الواحات الصحراوية، ولما وجدوا الإقليم آمناً وصالحاً للسكن وملائماً لطبيعة معيشتهم مكثوا به. وتوافدت القبائل العربية على المنطقة في فترات متباعدة وتعددت بطونها، وأهم هذه القبائل قبيلة المعقل[4]، قبائل بني هلال[5]، قبيلة كنتة[6]، الخنافسة[7]، المحارزة[8]، أولاد طلحة، أولاد غانم، أولاد ملوك، وغيرهم[9].

1- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p237.

2- Félix Jacquot, op.cit, p267.

3- Victor Colonieu, **Voyage au Gourara et à l'Auogurout 1860**, Bulletin de la Société de géographie, 1 Trimestre, 7 Série, T14, Paris, 1893, p63.

4- المعقل: قبيلة عربية تنسب للمعقل بن الحارث بن كعب بن جلد بن مذدح، من القبائل العربية التي هاجرت من بلاد الجزيرة العربية واستوطنت شمال إفريقيا، ملكوا قصور الصحراء مثل قصور السوس غرباً، ثم توات ثم بودة ثم تمنطيط، ثم واركلان ثم تسابيت ثم تيكورارين شرقاً، يُنظر: ابن خلدون، كتاب العبر، المصدر السابق، ج6، ص78/ أبو العباس أحمد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تح: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954م، ج2، ص159/ عمر رضا كحالة، **معجم قبائل العرب القديمة والحديثة** ، دار العلم للملايين، بيروت، ج 3، ص1123/ حمداتي شبيهنا ماء العنين، **قبائل الصحراء المغربية أصولها- جهادها- ثقافتها**، المطبعة الملكية، الرباط، 1998م، ص ص105- 125.

5- قبائل بني هلال: قبائل عربيه هاجرت من مصر إلى بلاد المغرب. للمزيد أُنظر: عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر، المصدر نفسه، ج6، ص179/ عمر رضا كحالة، المرجع نفسه، ج3، ص1221.

6- قبيلة كنتة: قبيلة عربية شهيرة تتواجد بالصحراء الكبرى من موريتانيا والنيجر وجنوب الجزائر. للمزيد أُنظر: بول مارتي، **كنتة الشرقيون**، تر: محمد محمود ولد ودادي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، 1985م، ص19.

7- الخنافسة: من القبائل العربية ذات قوة وسلطة، كانوا يقيمون بقصورهم المتواجدة جنوب قورارة. أُنظر:
Eugene Daumas, op.cit, p287/ Victor Colonieu, Ibid, p94

8- المحارزة: قبيلة عربية من بني عامر تنسب لشيخها علي بن مسعود المحرزي الذي قدم من تونس إلى تينركوك بغية نشر العلم والمعرفة. أُنظر: Ibid, p94

9- محمد بن عبد الكريم التمنطيطي، **درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام** ، مخطوط بخزانة سيدي عبد الله البلبالي، كوسام، أدرار، ص8.

يرى فولنو (Voinot) أن العرب تميزوا بانشغالهم بالتجارة، والكثير منهم كانوا يعرفون القراءة والكتابة، وليست لهم القدرة والرغبة في خوض المعارك والحروب، ولا يشتغلون بالأعمال اليدوية التي تبدو في نظرهم من الأمور المنحطة التي لا ترقى بمقامهم [1]، وهذا على الرغم من الظروف المعيشية المزرية التي كان يعيشها الكثير منهم، وهو نفس الرأي الذي ذهب إليه سلكة عبد الرحمن[2]، وهكذا تميزت يومياتهم بميلهم إلى الكسل والخمول بدلاً من العمل وكسب الرزق.

ج-2/ البربر[3]: يُعتبرون السكان الأوائل لمنطقة توات حسب ما أشارت إليه جل المصادر التاريخية، حيث ذكر ابن خلدون أن البربر هم أقدم سكان المنطقة، وهم السكان الأوائل لبلدان المغرب العربي كله[4]، كما أوضح كافينياك (Cavaignac) أن السكان الأصليين هم البربر حيث سكنوا شمال إفريقيا منذ عصور ما قبل التاريخ[5]، ويتشكل البربر في توات من الزناتة والطوارق.

- الزناتة [6]: هم أقدم القبائل التي استوطنت بلاد المغرب وإفريقيا [7]، حيث يؤكد كولونيو (Colonieu) بأنهم استوطنو ا توات قبل دخول الإسلام بسنوات طويلة [8]، وكانوا أهل ملك ومكانة وعز وجاه، ومن أهم قبائلهم مغراوة وبني يفرن وجراوة[9]، استوطنوا بتوات وشيدوا فيها قصوراً عمرانية متعددة[10]، واستقرت معظم القبائل الزناتية في إقليم قورارة لقربه من الجهات الشمالية التي

1- Louis Voinot, op.cit, p61.

2- Abderrahmane Selka, op.cit, p523.

3- البربر: أصل البربر من الناحية التاريخية مفقود، فهناك من يعتبر أن البربر قدموا من اليمن القديم إلى قارة أفريقيا عبر البحر، وهناك من يرى أنهم من أصل كنعاني من ولد كنعان بن حام بن نوح، وكلمة بربر أطلقها الرومان على الأجانب وتعني المتوحشين أو الهمجيين البدائيين. للمزيد أُنظر: عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر، المصدر السابق، ج 6، ص8/ عبد العزيز الفشتالي، **مناهل الصفا في ذكر موالينا الشرفا**، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1972م، ص73/ إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المرجع السابق، ص194/ شارل أندري جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، تر: محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1983م، ج1، ص66- 82.

4- عبد الرحمن بن خلدون، المصدر نفسه، ج6، ص04/ أبو العباس أحمد الناصري، المصدر السابق، ج1، ص31.

5- Félix Jacquot, op.cit, p268.

6- الزناتيون: هم بنو زناتة واسمه (جانا) بن يحيى بن صولات بن ورساك بن ضري بن رحيك بن مادغش بن بربر. أُنظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر نفسه، ج7، ص2.

7- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p303.

8- Victor Colonieu, op.cit, T14, p64.

9- مبروك قارة، **تاريخ المدن والقبائل بالجزائر**، ط3، مطابع رويغي، الأغواط، 2018م، ص ص69-70.

10- أبو العباس أحمد الناصري، المصدر نفسه، ج3، ص173.

اضطرت للهجرة منها بعد ما دالت عليها الأيام، ثم انتشرت بعد ذلك في نواحي توات الوسطى وتيدكلت[1]، كما يضيف كولونيو (Colonieu) أنهم مستقرين حيث تمثل الصناعة نشاطهم الرئيسي[2]، ولا تزال العديد من القصور تحمل أسماء زناتية رغم انحسار المد الزناتي عنها. ومن القبائل البربرية التي استقرت بالمنطقة قبيلة لمتونة الصرهاجية التي بنت قصر تيلوت بتمنطيط[3].

وبداية من القرن 04هـ/ 10م توافدت على توات مجموعة كبيرة من القبائل الزناتية استقرت أول الأمر بمنطقة بودة [4]، ثم انتشروا على حواف واد مسعود ووادي قاريت ووادي مقيدن، حيث شيدوا القصور التي لا تزال آثارها باقية وآهلة بالسكان إلى يومنا هذا وحملت أسماءهم مثل: تاخفيفت وتازولت وتيط وغيرها من التسميات البربرية. وكان اقتصادهم يعتمد أساساً على الفلاحة ثم التجارة[5]، فغرسوا النخيل والحبوب، واعتمدوا في سقي مزروعاته على وادي قير، وبعد جفافه قاموا بحفر الفقارات لاستخراج المياه الجوفية.

– **التوارق[6]**: وصفهم الأغواطي بقوله: "...أناس أشداء، ولهم بشرة شديدة البياض وهم يستعملون الإبل للركوب، وطعامهم من اللحم والحليب فقط، وليس لهم حبوب إطلاقاً... يصلون واقفين، وهم يتلثمون بلثام من القطن، ولا يأكلون أو يشربون بحضور الناس، ويقومون بغزوات أو جولات في السودان ويعودون بعدها بالعبيد وغيرهم من البضائع... " [7]. وهو نفس الوصف الذي قدمه رولفس

---

[1]- Eugène Daumas, op.cit, p276/ Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p303.

[2]- Victor Colonieu, op.cit, T14, p69.

[3]- محمد الطيب بن عبد الرحيم (ابن بابا حيدة)، **القول البسيط في أخبار تمنطيط**، تح: فرج محمود فرج، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977م، ص16.

[4]- عبد العزيز الفشتالي، المصدر السابق، ص73.

[5]- A.G.P. Martin, Les Oasis Sahariennes, op.cit, p68.

[6]- التوارق: أختلف المؤرخون في تسميتهم بهذا الاسم، فمنهم من قال بأنهم سموا بالتوارق نسبة إلى طرقهم للصحراء، ومنهم من قال أن سبب التسمية هو انتسابهم إلى طارق بن زياد، ومنهم من يرى بأن التسمية نسبة إلى قبيلة "تارغا" إحدى قبائل البربر القاطنة بالصحراء. وتوارق توات من ذرية تينهنان. للمزيد أُنظر: محمد سعيد القشاط، **التوارق عرب الصحراء الكبرى**، ط2، مطابع اديتار، سردينيا، 1989م، ص ص 27- 29/ حسن مرموري، **التوارق بين السلطة التقليدية والإدارة الفرنسية في بداية القرن العشرين**، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2010م، ص ص47- 53/
Henri Duveyrier, **Les Touareg du Nord**, Editeur Challamel Ainé, Paris, 1864, pp01-20.

[7]- الحاج ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص98.

(Rohlfs)[1]، ويضيف كلاماجرون (Clamagron)[2] بأنهم أكثر جرأة وإقداماً وحباً للقتال، حيث تمركزوا بالمناطق التي لا يستطيع العرب الوصول إليها[3].

عُرف الطوارق بكثرة حِلِّهم وترحالهم ، وعادة ما يخرجون للرعي في فصل الصيف [4]، بالإضافة إلى اشتغالهم بالتجارة مع السودان وعدم اهتمامهم بالزراعة وخدمة الأرض [5]. واقتصر وجودهم في توات خلال القرن التاسع عشر على إقليم تيدكلت تقريباً[6]، ومن الفروع التي كانت موجودة بتيدكلت "طوارق البيض"، يقيمون في أكواخٍ صغيرةٍ مصنوعةٍ من أغصان الأشجار [7]، ولا تزال آثارهم باقية إلى يومنا هذا من خلال النقوش والرسومات الصخرية الموجودة بمختلف المعالم الأثرية [8]، ويوجدون حالياً في العديد من القصور بإقليمي تيدكلت وتوات الوسطى.

د- الحراطين[9]: تعود أصولهم إلى السودان الغربي، وظهرت هذه الفئة نتيجة التزاوج بين فئة الأحرار والجواري (العبيد)، أو نتيجة تحرير العبيد الذين كبروا في السن [10]. ويتواجدون في كل القصور التواتية دون استثناء ويشكلون نسبة معتبرة في المجتمع التواتي، كما لاحظ كولونيو (Colonieu) أن هذه

---

[1]- جيرهارد رولفس، عبر إفريقيا، المصدر السابق، ص112.

[2]- كلاماجرون: رحالة فرنسي زار الجزائر ما بين 17 مارس إلى 04 جوان 1873م، وكتب عنها كتاب: "الجزائر انطباعات رحلة" وصف فيه العديد من المدن الصحراوية. أُنظر: أمحمد جعفري، المرجع السابق، ص55.

[3]- J.J Clamageran, **L'algérie Impressions de Voyage 17 Mars- 4 Juin 1873**, Librairie Germer Bailliere, Paris, 1874, p172.

[4]- Eugene Daumas, op.cit, P293.

[5]- Henri Bissuel, **Le Sahara français**, Editeur, Adolphe Jourdan. Libraire, Alger, 1889, pp 40-42.

[6]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p303.

[7]- Paul Soleillet, L'Afrique Occidental, op.cit, p261/ Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p237.

[8]- Louis Voinot, op.cit, p63.

[9]- اختلف المؤرخون حول أصل تسميتهم فهناك من يرى بأنها مشتقة من الحراثين أي العمل في الحرث والزراعة، ومنهم من يرى أنها مشتقة من كلمتين حر وثاني، أي الأحرار من الدرجة الثانية بعد نعت البربر والعرب بالحر الأول. أُنظر: أبو العباس أحمد الناصري، المصدر السابق، ج7، ص58/ فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص34/ Lewis Watin, op.cit, p209 Martin, Les Oasis Sahariennes, op.cit, p212/ Abderrahmane Selka, op.cit, p523.

[10]- Paul Soleillet, Ibid, p253/ Gerhard Rohlfs, Ibid, p237/ Abderrahmane Selka, Ibid, p523/ Lewis Watin, Ibid, p209/ Eugène Daumas, Ibid, p276/ Victor Colonieu, op.cit, T14, p63.

الفئة أقل مكانة من باقي الفئات السابقة رغم أهميتها العددية ، ويتوقف هذا المستكشف عن الأدوار التي تلعبها هذه الفئة في الإنتاج مبرزاً خبرتهم في زراعة الأراضي وحفر الفقارات وصيانتها والدِّباغة والبناء والصناعة الطينية وغيرها من الأعمال [1]، أما نساؤهم فيشرفن على مختلف الأعمال المنزلية من طهي وتنظيف بالإضافة إلى مساعدة الرجال في البساتين[2].

هـ– العبيد: هم الرقيق المجلوبون من السودان الغربي خاصة من مالي والنيجر والسنغال ، والذين يباعون في أسواق توات، ويشكلون آخر طبقة في الهرم الاجتماعي التواتي وأقلها حظاً [3]، فهم مسخرون للأعمال الشاقة عند أسيادهم كحفر الفقاقير والبناء ورعي الحيوانات. أما عن أصولهم فقد ذكر سلكة أنهم من قبائل الفولان والبامبارا والمانيقو والبوبو والهوسا والسرفو والفوتا [4]. وضمن حديثه عن العبيد ذكر بالات (Palat) أن عيشهم ولباسهم غير كافٍ، فغذا وؤهم التمر فقط ولباسهم رثّ[5]. وكان العبيد يتعرضون للإساءة والتعذيب والاستغلال من أغلب شرائح وأفراد المجتمع [6]، وشكلت هذه الشريحة الاجتماعية عدداً معتبراً داخل المجتمع التواتي نتيجة نشاط تجارة العبيد في أسواق توات خلال القرن التاسع عشر ، ولم تقتصر ظاهرة الرق على المجتمع التواتي بل أنها تسود كل المجتمعات المجاورة، أما اليوم فقد اختفت هذه الفئة تقريباً وارتقى معظمهم إلى فئة الحراطين.

يبدو أن المستكشفين الأوروبيين ينطلقون من خلفية عنصرية، فهم يعتقدون أن أصحاب البشرة البيضاء أفضل من أصحاب البشرة السوداء، وهذا ما يومئ إليه الرائد كولونيو (Colonieu) متحاملاً على التواتيين بقوله: "إن التواتيين لا يدركون الشعور الإنساني فبالنسبة لهم الإنسان الأسود لا يساوي الإنسان الأبيض، لأن الله لم يعطه اللون ولا الشكل الأنيق مثل الرجل الأبيض، بمعنى أن

---

[1]- Victor Colonieu, op.cit, T14, p65.

[2]- Henri Schirmer, **le Touat**, **étude de géographie physique et économiqu**, Annales de géographie, T4, N1, 1892, p408.

[3]- Paul Soleillet, L'Afrique Occidental, op.cit, p260/ Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p237/ Victor Colonieu, Ibid, T14, p63/ Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p53.

[4]- Abderrahmane Selka, Ibid, p524.

[5]- Marcel Frescaly (Lieutenant Palat), **Journal de route et correspondance**, G.charpentier et cie, èdieurs, Paris, 1886, p233.

[6]- Henri Bissuel, op.cit, pp53-54.

الله أراد أن يجعله خادماً له"[1]. إن هذا الكلام عار عن الصحة، فالمجتمع التواتي ينطلق من قيم إسلامية لا فرق فيها بين الناس إلا بالتقوى، فرغم كون المجتمع طبقياً إلا أن روح المؤاخاة والتعاطف والتكافل الاجتماعي كانت تسود بين أفراده، فحاجة كل طرف إلى الآخر دفعتهم إلى التعاون والتكافل فيما بينهم في الأفراح والأحزان تجسيداً لمبادئ الدين الإسلامي الحنيف.

02/ التعداد السكاني:

كتب الكثير من الرحالة والمبعوثين والباحثين خاصة الفرنسيين عن عدد سكان توات في القرن التاسع عشر، لكن من يدرس ذلك يقف على التباين والتضارب بينهم حول العدد الحقيقي لسكان المنطقة، لأن تلك الإحصائيات التي قدموها كانت إما تقديرات شخصية أو معلومات شفهية مقدمة من طرف سكان المنطقة ، وفي ظل غياب إحصاءات شاملة فإننا مرغمون على استغلال المعطيات التي قدمها هذا المستكشف أو ذاك عن هذه الفئة أو تلك، وهي معطيات جزئية وتقريبية.

وكان للقائد دو كلومب (De colomb) السبق في هذا الميدان إذ أنه أول من سجل إحصاءات عن سكان توات، ففي سنة 1857م يقدِّر هذا الضابط عدد سكان التواتيين بـ 300.000 نسمة[2]، وفي سنة 1861م ذكر الرائد كولونيو (Colonieu) أن عدد سكان توات الوسطى وقورارة فقط 100.000 نسمة[3]. كما قدَّرهم بالات (Palat) سنة 1886م بـ 300.000 نسمة[4]. وأعاد كولونيو تقديم إحصائيات أخرى سنة 1880م قدَّر فيها عدد سكان توات بـ 250.000 نسمة[5].

أما الرائد د يبورتي (Deporter) فقدَّر عددهم في سنة 1890م بـ 191.301 نسمة موزعين على حسب الأقاليم والفئات الاجتماعية كما يلي: توات الوسطى 95.008 نسمة (الشرفاء 10.081، الأحرار 34.076، الحراطين 33.227، العبيد 17.624)، قورارة

---

[1]- Jules Cambon, **Documents pour servir à l'étude du Nord-Ouest africain Les Oasis De LES L'extreme- sud Algerien**, tome 03, Publisher G.G.A, service des affaires indigènes, Alger, 1897, p177.

[2]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p302.

[3]- Victor Colonieu, **Voyage au Gourara et à l'Auogurout 1860**, Bulletin de la Société de géographie, 1 Trimestre, 7 Série, T15, Paris, 1894, p435.

[4]- Marcel Frescaly (Lieutenant Palat), op.cit, p248.

[5]- Victor Colonieu, **Le tracé central du chemin de fer Trans-Saharien**, Langres Imprimerie De E.Luuillier, paris, 1880, p23.

73.546 (الشرفاء 2.762، الأحرار 39.772، الحراطين 17.913، العبيد 13.099)، تيديكلت 22.747 (الشرفاء 1.532، الأحرار 10.797، الحراطين 6.224، العبيد 4.194)[1]. وبعد سنة أي 1891م قدم الرائد "هنري بيسويل" (Bissuel) إحصائيات قريبة من هذه، فقدر عددهم بـ 198.000 نسمة موزعين كالتالي: توات الوسطى 100.000 نسمة (الشرفاء 10.081، العرب 25.506، الزناتة 8.750، الحرا طين 33.227، العبيد 17.624)، وقورارة 75.000 نسمة(الشرفاء 2762، العرب 16.416، الزناتة 23.356، الحراطين 17.913، العبيد 13.099)، أما تيدكلت 23.000 نسمة (الشرفاء 1.532، العرب 10.537، الزناتة 60، الطوارق 200، الحراطين 6.224، العبيد 4.194)[2].

يقدم سباتييه (Sabatier) خلال نفس السنة 1891م إحصائيات مبالغاً فيها، فقدَّر عدد سكان توات بـ 298.173 نسمة موزعين كالتالي: إقليم توات الوسطى 120.971 نسمة (الشرفاء 10.080، الحراطين 33.267، الأحرار 60.000، العبيد 17.624)، وإقليم قورارة 141.252 نسمة (الشرفاء 2.762، الحراطين 17.913، الأحرار 107.478، العبيد 13.099)، إقليم تيدكلت 35.950 (الشرفاء 1.532، الحراطين 6.224، الأحرار 24.000، العبيد 4.194)[3]. كما أشارت تقارير نشرت في فرنسا إلى تقدير عدد السكان سنة 1895م بـ 120.000 نسمة[4]، في حين قدرتها تقارير أخرى سنة 1897م بـ 225.000 نسمة موزعين كالتالي (توات الوسطى 120.000، قورارة 80.000، تيدكلت 25.000)[5].

يبدو أن هذه الأرقام غير صحيحة مبنية على تكهنات وتقديرات سطحية خلال القرن التاسع عشر وليست على إحصائيات دقيقة، وإذا كنا نشك في دقة تلك المعطيات ونتساءل في الوقت نفسه عن مدى مشروعية الركون إليها، فإنها في حد ذاتها وبغض النظر عن صحة أرقامها تدل على توفر

1- V. B. Deporter, **La Question du Touat au Sahara Algérien**, **Gourara-Touat-Tidikelt**, Imp Fontana, Alger, 1891, pp16- 42.

2- Henri Bissuel, op.cit, p49.

3- Camille Sabatier, **Touat**, **Sahara**, **Soudan**, **étude géographique**, **politique et militaire**, société d'Editions scientifiques , Paris, 1891, p163.

4- François Rebillet, **es relations commerciales de la Tunisie avec le Sahara et le Soudan**, Imprimerie Berger- levrault, nancy, 1895, p28.

5- Jean Hess, **L'extrème-sud algérien et le touat**, Annales de Géographie, T6, N26, 1897, pp147-168.

المنطقة على كثافة سكانية معتبرة، إذ يجب ملاحظة رأي رولفس (Rohlfs) الذي يعتبر الوحيد الذي سافر على طول توات فهو أكثر قدرة من أي مستكشف آخر على تقدير عدد السكان، لكنه لم يفعل ذلك فق د نشر سنة 1893م تقريراً قال فيه:" لا نستطيع أن نعطي تقديراً دقيقاً لعدد السكان، ولكن يجب أن نلاحظ فقط بأن توات وقورارة وتيديكلت، كان من الواجب أنها أكثر سكاناً إذا أخذنا بمبدأ الهجرة كل سنة بين الجزائر والمغرب"[1].

في مطلع القرن العشرين و بعد احتلال المنطقة سنة 1900م عُقد اجتماع بين الضباط الفرنسيين في الجزائر، وفي هذا الاجتماع قدم الضابط فلاماند (Flamand) عرضاً عن المنطقة قدر فيه عدد سكان توات عامة بـ 155.000 نسمة، وبعد سنتين فقط أي سنة 1902م قدَّمت فرنسا إحصائيات جديدة قدرت فيها عدد السكان بـ50.000 نسمة[2]. وخلال نفس الفترة (مطلع القرن العشرين) قدر فـوانو (Voinot) عدد سكان تيدكلت بـ 8.830 نسمة، منهم 5.200 من البيض و3.630 من السود[3]، في حين يرى عبد الرحمن سلكة أن عدد سكان توات الوسطى يقدر بـ 15.482 نسمة[4]. أما مارتان (Martin) فقدم إحصائيات من خلال التقارير الفرنسية سنة 1906م قدَّر فيها عدد سكان توات عامة بـ 49.101 نسمة موزعة على حسب الفئات الاجتماعية (الشرفاء 4.336، المرابطين 8.023، العامة 12.956، الحراطين 19.412، العبيد 4.374)[5].

يظهر جلياً الاختلاف الكبير بين المستكشفين الأوروبيين في تقدير عدد سكان توات، حيث تباينت إحصاءاتهم تبايناً كبيراً، فأكبر عدد قُدم لعدد السكان كان 300.000 نسمة وأقل رقم قُدم هو 49.101 نسمة، ولعل هذا الرقم الأخير هو الأقرب إلى الواقع لأنه جاء بعد فترة احتلال فرنسا للمنطقة وإحصائها لعدد السكان. ومع أن هذه الإحصائيات ليست دقيقة إلا أنها تمدنا بمعلومات هامة عن الحجم الديمغرافي لكل فئة في المجتمع التواتي ونصيب كل إقليم من السكان، حيث تشير كل الإحصائيات إلى أن أكبر إقليم من حيث عدد السكان هو إقليم توات الوسطى يأتي بعده إقليم

---

[1]- Jules Cambon, op.cit, p181.

[2]- أحمد العماري، المرجع السابق، ص ص31-32.

[3]- Louis Voinot, op.cit, p55.

[4]- Abderrahmane Selka, op.cit, p528.

[5]- A.G.P. Martin, Les Oasis Sahariennes, op.cit, pp218-219.

قوراراة في المرتبة الثانية، وأقل الأقاليم من حيث الكثافة السكانية هو إقليم تيدكلت، وهذا راجع إلى طبيعة الاستقرار البشري، فإقليم تيدكلت يغلب عليه البدو الرحل بخلاف الإقليمين الآخرين.

أما بالنسبة للفئات الاجتماعية فنلاحظ من خلال الإحصائيات المقدمة أن أكبر فئة من حيث النسبة العددية هي فئة الأحرار التي بلغت نسبتها حوالي 40% وأقل فئة هي فئة الشرفاء التي لم تتجاوز نسبتها في معظم الإحصاءات 8% رغم كونها في أعلى هرم طبقات المجتمع. ومهما يكن من أمر فإن التعداد السكاني الذي قدَّمه الباحثون الفرنسيون أريد به إحداث خلل اجتماعي بين طبقات المجتمع، ويبدو أن هذا رغبة من الفرنسيين في استقواء طبقة على أخرى، لأنهم ينطلقون من خلفية عنصرية.

03/ اللغات واللهجات:

انطلاقا من التنوع العرقي الذي شهدته توات كانت هناك عدة لغات ولهجات يتحدث بها السكان بالمنطقة، ووجدت في توات خلال القرن التاسع عشر أربع لغات محلية هي:

أ- اللغة العربية: يعتبر اللسان العربي هو الأصل في منطقة توات مثل غيرها من مناطق الجزائر [1]، فاللغة العربية هي الأكثر استعمالاً في كل مجالات الحياة، وهي لغة الكتابة ولغة التعليم ولغة التبادل التجاري في المنطقة [2]، واختلطت بعدد كبير من الكلمات الأجنبية عنها فأصبحت تعرف باللهجة التواتية[3]. وكانت هي اللغة التي تستعملها جميع الأجناس في المنطقة وليست حكراً على العرب فقط[4]، ولا تزال اللغة العربية هي المسيطرة إلى غاية اليوم في كل الأقاليم التواتية.

ب- الزناتية: وهي من فروع اللغة الأمازيغية، وسميت بالزناتية نسبة إلى قبيلة زناتة التي سكنت منطقة توات[5]، وأشار الأغواطي إلى أن هذه اللهجة تستخدم في إقليم قورارة بكثرة وذلك لانتشار قبائل زناتة بهذا الإقليم[6]. كما ذكر صوليبه (Soleillet) أنه وجدها بإقليم تيدكلت وذلك لوجود بعض

---

[1]- Abderrahmane Selka, op.cit, p529/ Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p303.

[2]- Victor Colonieu, op.cit, T14, p79.

[3]- أحمد جعفري، **اللهجة التواتية الجزائرية، معجمها، بلاغتها، أمثالها، حكمها، وعيون أشعارها**، ط1، منشورات الحضارة، الجزائر، 2014م، ص16.

[4]- Eugène Daumas, op.cit, p276.

[5]- Victor Colonieu, op.cit, T14, p79.

[6]- الحاج ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص94.

السكان الزناتيين في هذا في الإقليم[1]، وهو نفس الأمر الذي ذكره دوماس (Daumas)[2]. وتسمى هذه اللغة محلياً بـ (الشلحة)[3]، وتعتبر من أقدم اللغات التي كانت ولازالت سائدة بالمنطقة حيث أن العديد من أسماء القصور والنخيل والأدوات بأسماء زناتية[4]، لكنها تعاني اليوم انحساراً وتراجعاً كبيراً، ويكاد يقتصر وجودها على إقليم قورارة.

ج- التيفيناغ[5]: تستخدم هذه اللغة لدى طوارق توات، ويؤكد دو كولومب (de Colomb) أن استعمالها اقتصر على إقليم تيدكلت لوجود الطوارق في هذا الإقليم فقط خلال القرن التاسع عشر[6]، ولاحظ الرحالة أبو بكر التواتي انتشار هذه اللهجة بين توارق المنطقة وأن لها حروفاً للكتابة ضمَّنها في كتابه[7]، كما شاهد رولفس (Rohlfs) كتابة بلغة التوارق على صخرة داخل مغارة بتسابيت[8]. ويرى الرحالة الألماني مالتسان (maltsan)[9] أن هذه اللغة التي تعرف بـ "تماشيك" هي اللغة البربرية الوحيدة التي احتفظت بكتابتها، وأهم ما يميزها أنها تكتب من جميع الاتجاهات من اليمين إلى اليسار والعكس ومن الأعلى إلى الأسفل والعكس[10]. ولا تزال هذه اللهجة متداولة إلى غاية اليوم لدى الطوارق في المنطقة.

---

[1]- Paul Soleillet, L'Afrique Occidental, op.cit, p253.

[2]- Eugène Daumas, op.cit, p276.

[3]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p302.

[4]- Victor Colonieu, op.cit, T14, p79.

[5]- من أقدم اللغات التي عرفتها البشرية، ويختلف الباحثون حول أصولها وبداياتها الأولى، وينحصر وجود هذه اللهجة لدى التوارق بالصحراء الإفريقية الكبرى. أُنظر: عبد القادر جامي، **من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى**، تر: محمد الأسطي، ط1، دار المصراتي، طرابلس، 1978م، ص ص180- 182.

[6]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, Ibid, p303.

[7]- Abd al Kadir Touati, op.cit, p07.

[8]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p208.

[9]- رحالة ألماني ولد سنة 1826م، زار الجزائر عدة مرات بين سنوات 1852- 1860م، وتعلم اللغة العربية واختلط بالسكان، ثم زار عدة بلدان عربية مثل تونس وليبيا والمغرب والحجاز، وعاد إلى ألمانيا وكتب مذكراته عن تلك المناطق، توفي سنة 1874. أنظر: هاينريش فون مالتسان، **ثلاث سنوات في غربي شمال إفريقيا**، تر: أبو العيد دودو، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط خ، 2009م، ج1، ص ص5-7.

[10]- المصدر نفسه، ج1، ص79.

د- التكروري: يتحدث الزنوج والعبيد فيما بينهم بلغة تسمى التكرورية أو السودانية [1]، ويتكلم بها العبيد الذين تم جلبهم من السودان الغربي ولا يتكلم بهذه اللغة غيرهم في المنطقة [2]. ويبدو أنها لغة الهوصا أو إحدى اللهجات المتداولة في السودان الغربي. ولم يبقى أي أثر لهذه اللغة اليوم.

هناك تداخل كبير في عناصر السكان، فلا يمكن أن نعتبر كل العناصر التي تنطق الأمازيغية بأنها أمازيغية والعكس، حيث تستخدم العربية في اللقاءات العامة، أما الأسواق فتختلط فيها اللهجات، ويُعبِّر هذا التداخل عن التمازج التام بين عناصر المجتمع التواتي.

ثانياً: النظام الاجتماعي والقضائي:

منذ استقرار القبائل البربرية والعربية في منطقة توات وتشكل المجتمع التواتي، وجد السكان التواتيون أنفسهم مجبرين على التهيكل في إطار العلاقات بين أفراد المجتمع، وفي ظل غياب السلطة المركزية نتيجة بعد المنطقة عن سيطرة الدويلات المتغلبة في الصحراء احتفظت المنطقة بطابعها القبلي[3]، فكان النظام السائد في الصحراء الجزائرية وتوات خاصة حتى القرن التاسع عشر هو نظام الجماعة[4] والذي رغم بساطته فإنه كان يضمن للسكان حياة منتظمة وشعوراً بالأمن والطمأنينة في حياتهم، لضمان استمرار الحياة وسط هذه الصحراء الموحشة [5]، حيث أدى هذا النظام إلى تماسك المجتمع والتفافه حول شيخ يحكمه ، لذلك نجد الكثير من الرحالة والمستكشفين الأوروبيين يزعجهم ذلك فتحدثوا عنه في مؤلفاتهم.

أشار دوماس (Daumas) إلى أن نظام الجماعة يسود كل القرى والقصور التواتية قائلاً: "تحكم تيميمون كمدن توات جماعة من وجهاء المدينة المنحدرين من أحيائها المختلفة، ويرأسهم أكثرهم تأثيراً"[6]. ويخبرنا صولييه (Soleillet) أن توات تشكل إتحاداً منفصلاً عن كل السلط

---

[1]- Victor Colonieu, op.cit, T14, p79/ Lewis Watin, op.cit, p210.

[2]- Abderrahmane Selka, op.cit, p529.

[3]- غوردن لانج، **رسالة إلى النقيب ي. سابين** ، ضمن كتاب "رحلتان عبر ليبيا"، تر: دار الفرجاني، ط 1، مكتبة الفرجاني، طرابلس، 1974م، ص351.

[4]- لوسيان فيفر، **الأرض والتطور البشري**، تر: محمد السيد غلاب، ط 1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2015م، ج2، ص72.

[5]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p304.

[6]- Eugène Daumas, **Le grand désert**, **ou Itinéraire d'une caravane du Sahara au pays des Nègres**, Imprmerie et librairie centrales de napoléon chaix, paris, 1848, p70.

الموجودة في المنطقة فيقول:" كانت توات تشكل اتحاداً كونفدرالياً مستقلاً" [1]، كما شاهد أن عين صالح تُدار من طرف الجماعة وهو نفس الأمر الذي تسير به كل قرى المنطقة حيث يقول: "تدار عين صالح مثل جميع المراكز التواتية من قبل شيخ الجماعة" [2]، وهو نفس الأمر الذي شاهده لانج (Laing) حيث ذكر بأن لكل قرية شيخ يحظى بالاحترام من قبل الجميع [3]. وعند زيارة رولفس (Rohlfs) لتمنطيط قال عنها: "هذه المدينة وواحاتها تشكل واحة مستقلة سياسياً، تحكمها الجماعة وشيخها"[4]. أما بالات (Palat) فيتحدث من جانبه عن الجماعة التواتية مشيراً إلى أنها من المميزات الأساسية للمنطقة حين يقول:"من السمات المميزة للمنطقة إدارة كل قرية من قبل شيخ وراثي يشرف على جماعة مكونة من أعيان المنطقة" [5]، وهو ما يؤكده فوانو (Voinot) بقوله: "في كل قصر هناك رجل أو اثنان معروفين بالحكمة والحماسة ...وتجمع كبار الأقاليم يسمى الجماعة"[6].

تتشكل الجماعة التواتية من أعيان وأكابر مختلف قصور توات، حسب ما يبرزه دو كولومب (de Colomb) بقوله: "قائد الجماعة يساعده اثنان أو ثلاثة" [7]، مكونين بذلك مجلساً يضم شيخ القبيلة وعالمها وقاضيها وأصحاب المال فيها وأشرافها، فإن كانوا في مرتبة من الشرف والنسب الواحد دخل في مجلس الجماعة أكبرهم سناً، أو من يتفقون عليه لزيادة فضل فيه كشجاعة وكرم ونحوها من الصفات التي تقدم الرجل على أقرانه في زمانه، مما له أثر في اتخاذ القرارات الصائبة عند وقوع المشكلات [8]، فهي هيئة ذات طابع تشاوري، يخول لها النظر في كُبريات الأمور الطارئة في المنطقة. ويكون على رأس الجماعة شيخ شيوخ القصور الذي يُختار من القصر صاحب الرياسة الذي كان عادة أكثر قصور توات حركية وتحضراً وأنماها اقتصادياً، حيث يجتمع عليه أعيان القوم لتنصيبه على رأس الجماعة[9].

---

[1]- Paul Soleillet, L'Afrique Occidental, op.cit, p253.

[2]- Ibid, p253.

[3]- غوردن لانج، رسالة إلى جيمز باندينال، المصدر السابق، ص340.

[4]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p207.

[5]- Marcel Frescaly (Lieutenant Palat), op.cit, p252.

[6]- Louis Voinot, op.cit, p106.

[7]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p304.

[8]- Victor Colonieu, op.cit, T14, p80.

[9]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, Ibid, p50.

من صلاحيات الجماعة إعلان الحرب ودراسة شروط السلم، بالإضافة إلى حفظ النظام الداخلي، والنظر في احتياجات الفقراء، كما يعالج مجلس الجماعة الذي يجتمع بصفة دورية جميع شؤون الفائدة العامة[1]، ويستفيض دوماس (Daumas) في الحديث عن مهام الجماعة التواتية قائلاً: "...تعدل بين الناس وتسوي بينهم لكنها لم تصدر حكماً بالإعدام، فالقاتل يدفع الدية لعائلة الضحية أربعمائة 400 دورو، ويُعرض السارق في أحد الأماكن العمومية ويضرب حتى يعترف بجرمه ويعيد المسروق. وعندما يجرح أحدهم بآلة حادة تعين الجماعة أحد الأعضاء لمعاينة حالة الجرح وتطبيق غرامة على الفاعل، وهناك آلة قياس الدم فالجرح من الدرجة الأولى يغرم 02 دورو ودرجتين 04 دورو وهكذا"[2]، ويضيف كولونيو (Colonieu) أن: "الجماعة لها سلطة كافية لقمع الجرائم والجنح، عقوبة القتل القصاص، عقوبة الزنا والاغتصاب الجلد، عقوبة السرقة الغرامة والجلد..."[3]. وبالتالي كان للجماعة التواتية سلطة تنفيذية كذلك حيث أسهمت في تنظيم شؤون المجتمع التواتي بما لها من سلطة مادية ومعنوية.

من العوامل التي ساعدت التواتيين على تنظيم حياتهم واستقرارها وجود هيئات قضائية تسهر على حل مشاكلهم ونزاعاتهم الاجتماعية والاقتصادية، حيث يوجد القاضي في معظم القصور والمدن التواتية، ويتم اختياره من قبل شيوخ المقاطعة[4]، ويحل مكانه في القرى البعيدة عن المدن الكبرى شيخ البلدة أو مجلس الجماعة[5]، وقد استمد القضاء أحكامه من الشريعة الإسلامية. ونظراً لما يمثله منصب القاضي من أهمية سياسية ودينية فأن قاضي توات كان يُعتبر أعلى سلطة قضائية ومقره في مركز الإقليم، كما أن القضاة المعينين كانوا من أشهر العلماء في ذلك الوقت[6]، وكانت تعقد الجلسات القضائية في مجالس خاصة، وبعض الأحيان تعقد في المساجد وذلك بحضور المتخاصمين، وللقاضي كتاب يسجل فيه كل القضايا والأحكام التي يصدرها بعد استشارة غيره من الفقهاء[7].

---

[1]- Marcel Frescaly (Lieutenant Palat), op.cit, p252.

[2]- Eugène Daumas, Le grand désert, op.cit, p71.

[3]- Victor Colonieu, op.cit, T14, p80.

[4]- Ibid, p80.

[5]- Louis Voinot, op.cit, p106.

[6]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p305.

[7]- عبد العزيز البلبالي، **غنية المقتصد السائل فيما وقع في توات من القضايا والمسائل** ، مخطوط بخزانة بن عبد الكبير، المطارفة، أدرار، ص623.

يُشترط لتولي منصب القضاء شروطٌ لابد من توفرها في من يتولى هذا المنصب من أهمها: أن يكون ذا مستوى علمي رفيع، مُلماً بالمسائل الدينية من فقه واجتهاد على مذهب الإمام مالك [1]، وصاحب سمعة حسنة وسلوك حميد حتى يرضى عنه الجميع [2]، عدلاً مجتهداً عارفاً بعادات وتقاليد مجتمعه مُقدراً لخصوصياته وميزاته، متمكناً من لغات السكان حتى يكون حريصاً على الاستماع لأصحاب الشكاوي الذين لا يحسنون اللغة العربية [3]. كما خضع منصب القاضي في توات للتوريث بداية من القرن 11هـ/17م، حيث تداول هذا المنصب قضاة عائلتين عريقتين مشهورتين بالعلم هما: عائلة البكريين بتمنطيط منذ القرن 11هـ/17م، ومع مطلع القرن 13هـ/19م انتقل القضاء إلى الأسرة البلبالية بتيمي التي سيطرت على الخطة القضائية طيلة القرن 13هـ/19م[4]، فتداولها اثنان من شيوخها هما: سيدي محمد بن عبد الرحمن البلبالي[5]، ثم ابنه محمد عبد العزيز[6] من بعده[7].

من مهام القاضي النظر في المسائل الشرعية كالطلاق والنفقة والإرث والحلال والحرام[8]، والفصل في المنازعات التي تحدث في البيع والشراء، وتوثيق العقود من ملكية وتحبيس وغيرها ، كما يبحث في الشكاوي والدعاوي التي تعرض عليه، والمتعلقة بالغش والسرقة والقتل والضرب، ويتولى أيضاً الإشراف على الموازين والمكاييل بالأسواق العامة، ويسهر على تطبيق القوانين الشرعية، إذ كانت كل الأسواق العامة والحوانيت التجارية تخضع لرقابته[9]، وتبعاً لذلك يصدر القاضي عقوبات تختلف حسب الحالة ودرجة الجريمة حصرها دوكولومب (de Colomb) في: "الغرامة، الجلد، التقييد بحبل في عمود

[1]- عبد العزيز البلبالي، المصدر السابق، ص616.

[2]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص57.

[3]- محمد بن عبد الكريم التمنطيطي، **جوهرة المعاني فيما ثبت لدي من علماء الألف الثاني،** مخطوط بالخزانة البكرية، تمنطيط، أدرار، ص12.

[4]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p305.

[5]- هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن البلبالي المعروف بسيد الحاج، تولى القضاء سنة 1795م، توفي سنة 1828م أُنظر: محمد بن عبد الكريم التمنطيطي، المصدر نفسه، ص45.

[6]- تولى القضاء بعد وفاة والده سنة 1828م إلى غاية وفاته سنة 1845م. أُنظر: نفسه، ص46.

[7]- عبد الرحمن بعثمان، **القضاء في منطقة توات ما بين القرنين 17و18م**، أطروحة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، إشراف: محمد بن عمر، جامعة وهران01، 2016/2015م، ص116.

[8]- Victor Colonieu, op.cit, T14, p80.

[9]- محمد أعفيف، المرجع السابق، ص189.

وسط الساحة، النفي" [1]، وفي نفس الصدد يضيف كولونيو (Colonieu) أن بعض القضايا الشرعية مثل الزواج والطلاق يفصل فيه أئمة المساجد فقط [2]. ولا يفوتنا أن ننوه بأن القاضي التواتي يضطلع القاضي بمهام متعددة أخرى منها الإمامة والتدريس، فقد كان معظم قضاة توات أئمة في المساجد ومدرسين يقصدهم طلاب العلم من مختلف الأصقاع نظراً للمكانة العلمية التي تمتعوا بها[3].

يتمتع القاضي في توات بمكانة سامية ومرموقة ، فهو يحظى باحترام وتقدير جميع الناس، نظراً لأن الشخصيات التي تولت هذا المنصب تعد من أشهر رجال العلم والدين، وتنحدر من أسرة كبيرة شريفة أو مرابطة ذات نفوذ قوي لدى الأوساط التواتية، الأمر الذي دفع مشايخ توات ورؤسائها إلى رضاهم التام عنهم[4]. ومن خلال تتبع الشخصيات التي تولت منصب القضاء بتوات يتبين لنا أنهم جميعاً علماء فضلاء، راسخين في العلم محبين للعدل عاملين على تحقيقيه، مما يدل على أن العدالة كانت قائمة بتوات رغم غياب سلطة مركزية بالمنطقة.

ثالثاً: القيم الاجتماعية في نظر المستكشفين الأوروبيين:

تجلت في كتابات الأوروبيين الكثير من القيم الاجتماعية التي يمتاز بها الصحراويون عامة والفرد التواتي خاصة، مما جعل سلوكهم محل استغراب من المستكشفين الأوروبيين ، لأن هذه الصفات الحميدة لم تكن معهودة في مجتمعهم الأناني الذي يقدس الذات الفردية، بعكس الفرد الصحراوي الذي يؤثر غيره على نفسه ولو كان به خصاصة، تطبيقاً لسلوكه القويم وتعاليم مبادئ دينه الإسلامي، واستعرض الرحالون الأوروبيون العديد من تلك الصفات والقيم.

أهم الصفات الاجتماعية التي شدت أنظار المستكشفين تديُّن المجتمع التواتي وحُسن خلقه، وقد أشار إلى هذه الجوانب كل من زار الم نطقة، حيث يقول الأغواطي عن أهل توات : "وهم مسلمون صادقون يؤدون الصلاة، ويدفعون الزكاة، ويقرؤون القرآن" [5]، كما لاحظ لانج (Laing) بأن الإسلام هو الدين الوحيد لدى السكان [6]، أما دوماس (Daumas) فقد نال المجتمع التواتي إعجابه لتميزه بالأخلاق الحميدة وعدم اختلاط الرجال بالنساء وغض البصر قائلاً: "إنهم يمتازون

---

[1]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p304.

[2]- Victor Colonieu, op.cit, T14, p80.

[3]- محمد بن عبد الكريم التمنطيطي، المصدر السابق، ص45.

[4]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص45.

[5]- الحاج ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص93.

[6]- غوردن لانج، رسالة إلى جيمز باندينال، المصدر السابق، ص340.

بأخلاق حميدة..."[1]. مضيفاً أن : "أهل توات يطبقون الشريعة المحمدية في كل شعائرهم يصلون ويصومون ويتوضئون ويتشهدون ويختتنون،... يقرأون القرآن" [2]، كما وصفهم رولفس (Rohlfs) بأنهم قوم مسالمون يحبون الغرباء ويحترمون رجال الدين [3]، وكذلك ديبورتي (Deporter) يذكر في تقريره أكثر من مرة تمسك أهل توات بدينهم الإسلامي[4]. وأشار كولونيو (Colonieu) إلى تمسك التواتيون بصلاتهم وشعائرهم الدينية، ويضيف قائلاً: "نحن نعلم نبل أخلاقهم" [5]، ويسير دو كولومب (de Colomb) في المنحى نفسه مؤكداً: "أن تعاليم القرءان محترمة هنا ويحافَظ عليها في صفائها الأصلي أكثر مما هو سائد لدى المسلمين حول البحر المتوسط"[6].

إلى جانب تدين أهل توات امتازوا كذلك بالكرم، ويصور الرحالة كلاماجرون (Clamageran) كرم الجزائريين عامة بقوله: "كرمهم يمتاز بنوع من العظمة والفخامة، ويترك أثراً بالغاً في الغريب...، وهم يُكرسون هذه القيم في نفوس أبنائهم، بل حتى البسيط منهم يتصف بمثل هذه الصفات الرائعة"[7]. كما أن تقديم الضيافة للغريب تأخذ لدى المجتمع البدوي الصحراوي عموماً بُعداً عقدياً وتكتسيها هالة من القداسة، يتسابق إليها الوجهاء والأثرياء والفقراء[8].

ويعتبر الكرم من العادات البارزة في حياة التواتيين ، فقد حلَّ الرحالون والمستكشفون ضيوفاً على التواتيين فكانوا محل ضيافة هؤلاء السكان الذين قاسموهم الطعام والشراب، ومن الطبيعي أن يهتم أولئك الأوروبيون بوصف الكرم والضيافة عند التواتيين، إذ يطالعنا دوماس (Daumas) بوصف لكرم أهل توات قائلاً أنهم: "كرماء مضيافون، يتسابقون لإكرام الغريب" [9]، كما عبَّر لانج

---

[1]- Eugène Daumas, le Sahara Algérien, op.cit, p326.

[2]- Ibid, p277.

[3]- Gerhard Rohlfs, **Reise durch Marokko**, **Uebersteigung des grossen Atlas**, **Exploration der Oasen von Tafilet**, **Tuat und Tidikelt**, **und Reise durch die grosse Wüste über Rhadames nach Tripoli**, Druck von Hedarlch Freses, Bremen, 1868, p97.

[4]- V. B. Deporter, op.cit, pp20-40.

[5]- Victor Colonieu, op.cit, T14, p74.

[6]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p312.

[7]- J.J Clamageran, op.cit, p175.

[8]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص36.

[9]- Eugène Daumas, Ibid, P325.

(Laing) عن شعوره بالسرور لما لاقاه من حسن الاستقبال عند سكان عين صالح، وأشاد بكرم شيخها الذي استقبله بقوله: "...هذا بيتي لك على الرحب والسعة، وهذا ولدي يرافقك أنّى ترغب، وأرجو أن تعتبر البلد بلدك، وان تسأل ما طاب لك..." [1]، ويضيف رولفس (Rohlfs) بأن السكان يستقبلون المسافرين بترحاب كبير ولا يطلبون مقابلاً لكرمهم سوى الدعاء من الضيوف[2].

يصاحب الكرم حُسن الضيافة لدى سكان توات، إذ يتحدث دوماس (Daumas) عن معاملة الصحراويين للضيوف مشيراً إلى أنه كان موضع حفاوة أثناء رحلته عبر الصحراء الجزائرية قائلاً: "غالباً ما يتكون الدوار من سبع أو ثمانِ خيام للضيافة، تنصب من طرف أعيان الدوار" [3]، أما عن توات فيؤكد دو كولومب (de Colomb) أنه شاهد في كل قصر: "ثلاثة منازل كبيرة مفتوحة للأجانب، لهم مأوى وطعام وفير" [4]، ويزودنا كولونيو (Colonieu) بمعلومات عن كيفية استقبال التواتيين للضيوف مشيراً إلى أن مدة الضيافة تدوم ثلاثة أيام في كل القصور التواتية[5].

وكانت الضيافة تحتوي على أفخم الأطباق لدى المجتمع التواتي من مأكولات ومشروبات، إذ لا يخفي دو كولومب إعجابه من نظام الضيافة المعمول به حينئذ مبرزاً أن: "الأطباق المقدمة للضيوف جيدة وتحضر بكميات معتبرة، حيث تتفانى العائلات في تحضيرها" [6]، وقد عايش رولفس (Rohlfs) خلال تنقلاته في توات كرم الوفادة فتحدث عنها بإسهاب في غير موضع من رحلته، وذلك ما يبرزه عن الكرم الذي لقيه من طرف سكان أول قصر يدخله من توات وهو عريان الراس [7] حتى انبهر مرافقوه من ذلك ، ويزودنا هذا الرحالة بمعلومات عن كيفية استقبال التواتيين لضيوفهم إذ يقول: "فبمجرد ما عرف السكان أننا قادمون من وزان قدموا التمر الرطب والحليب والسمن الجيد والكسكس بكثرة، وكان رفاقي سعداء جداً بهذا الاستقبال وصمموا على البقاء" [8]، ويمضي هذا الرحالة في حديثه مؤكداً العناية التي منحها له قائد قصر لمحارزة بسالي "سيدي محمد بلحبيب"، الذي

[1]- غوردن لانج، رسالة إلى هانمر وارنجتون، المصدر السابق، ص336.

[2]- Gerhard Rohlfs, Reise durch Marokko, op.cit, p102.

[3]- Eugène Daumas, le Sahara Algérien, op.cit, p85.

[4]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p45.

[5]- Victor Colonieu, op.cit, T14, p81.

[6]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p307.

[7]- عريان الراس: أحد قصور بلدية تسابيت التي تبعد عن مقر ولاية أدرار 60 كلم جهة الشمال. أُنظر: تقييد ما اشتمل عليه إقليم توات، المصدر السابق، ص6.

[8]- Gerhard Rohlfs, Ibid, p98.

استأجر له جمالاً لمواصلة رحلته[1]. ويؤكد صوليييه (Soleillet) المعلومات التي أوردها أسلافه عن كرم الضيافة مشيراً إلى عادة تقديم القهوة للضيوف: "...أحضروا لنا ضيافة من التمر والماء والقهوة"[2].

بالإضافة إلى تدين أهل توات وكرمهم وحُسن ضيافتهم، امتازوا بالطيبة وحسن المعاملة مع الأجانب والغرباء ومسالمة الجيران، ويخبرنا الرحالة لانج (Laing) عن ذلك قائلاً: "الناس من نوعية ممتازة، فهم مهذبون ويميلون للنظام ويتسمون بالدماثة" [3]، وهذا ما جعلهم عرضة للنهب والسلب والغارات المتكررة من القبائل المجاورة التي تعتمد على الغارات في العيش[4]، مثل الغارة التي شنتها قبائل البرابرة على قورارة سنة 1835م، حيث استولى جيش ضخم على تيميمون فقتلوا عدد كبير من السكان ونهبوا أموالهم وممتلكاتهم[5]، والهجوم الذي شنته قبيلة الغنانمة على عين صالح سنة 1861م بجيش قوامه 100 فارس، لكنها فشلت بسبب المقاومة الشرسة التي قام بها السكان بقيادة الحاج عبد القادر باجودة، الذي تصدى لهم بـ 18 فارس و30 جندي، فهزمهم شر هزيمة[6].

وقد لمس كل الرحالة الذين زاروا توات طيبة أهلها ومسالمتهم، حيث أشاد رولفس (Rohlfs) بالمعاملة الحسنة التي لقيها من السكان حتى بعد اكتشافهم أنه غير مسلم، فوصفهم بأنهم قوم مسالمون وعبَّر عن شعوره بالارتياح بين السكان الذين عاش في وسطهم مدة معتبرة وتجوَّل في العديد من القصور التواتية [7]، وأقرَّ ذلك صراحة في قوله: "سكان توات مسالمين مقارنة بالقبائل المحيطة بهم، معروفين بكرمهم وولائهم ونزاهتهم، وأقر أنني لم أتعرض للسرقة خلال تواجدي بينهم..."[8]، وهو نفس الأمر الذي ذكره دوماس (Daumas) الذي ذكر بأن علاقة التواتيين مع جيرانهم يسودها الوئام رغم الكره الشديد بينهم [9]، كما أثنى ديبورتي (Deporter) في تقريره على

---

[1]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p215.

[2]- Paul Soleillet, L'Afrique Occidental, op.cit, p266.

[3]- غوردن لانج، رسالة إلى جيمز باندينال، المصدر السابق، ص340.

[4]- كانت توات عرضة للنهب والسلب من قبل العديد من قبائل البرابر والطوارق المجاورة لاعتمادهم على الغارة كنوع من نظامهم الاقتصادي، وكثيراً ما كان يترتب على ذلك التدمير والنهب لقصور التواتيين. أُنظر: Deporter, op.cit, pp35-40

[5]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p39.

[6]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p235.

[7]- Gerhard Rohlfs, Reise durch Marokko, op.cit, p150-157.

[8]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, Ibid, p219.

[9]- دوك دي دوماس، المصدر السابق، ص362.

معاملة التواتيين ومسالمتهم لجيرانهم وطيب قلوبهم قائلاً: "أنهم مسالمون مع الجيران، طيبو القلب،..."[1]، ويبوح المستكشف كولونيو (Colonieu) بنفس الإحساس عن سكان توات قائلاً أنهم: "طيبون ومضيافون، وليسوا انتقاميين... صادقون جداً في علاقتهم التجارية أو الودية..."[2].

يعد التكافل الاجتماعي من أبرز السمات المميزة للمجتمع التواتي، وبالرغم من أن المجتمع طبقي إلا أن روح المؤاخاة والتعاطف والتكافل الاجتماعي تسود أفراده كأنهم أسرة واحدة[3]، فالجماعة التواتية موحدة في العادات والتقاليد، ذات قيم اجتماعية وأخلاقية ثابتة نابعة من تعاليم الدين الإسلامي الذي حث على التضامن بين الناس من أجل بناء مجتمع متوازن[4]، وقد ساهم الكثير من الأغنياء في تقديم مساعدات للمعوزين والمحتاجين، فكانت الأسر الغنية تزود الأسر الفقيرة بالتمر والحبوب عندما تنتهي مؤونتها. و ضمن حديثه عن التكافل داخل المجتمع التواتي يؤكد دوماس (Daumas) أن الجماعة التواتية تأخذ كل عام نصيباً من التمور والحبوب -بعد الحصاد- من الأغنياء وتوزعها على فقراء المنطقة وفق تعاليم الدين الإسلامي[5]. وهذا الأمر ليس بالغريب عن منطقة توات خلال هذه الفترة نظراً لوجودها بعيدة في قلب الصحراء، وتمسك سكانها بالأصول الإسلامية الصافية .

المبحث الثاني: القصور التواتية ساكنتها ويومياتها

أولاً: العمارة التواتية في القصور والقصبات:

ينقسم سكان توات كغيرهم من سكان الصحراء إلى بدو وهم الرحل الذين يسكنون الخيام المصنوعة من أغصان النخيل[6]، ويعتمدون على حياة الرعي في تأمين معاشهم[7]، وحضر وهم

---

[1]- V.B. Deporter, op.cit, p46.

[2]- Victor Colonieu, op.cit, T14, p75.

[3]- Abderrahmane Selka, op.cit, p551.

[4]- بهية بن عبد المومن، **الحياة الاجتماعية بإقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين (18-19م)**، رسالة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، إشراف: محمد بن معمر، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2005/ 2006م، ص72.

[5]- Eugene Daumas, Le grand désert, op.cit, p72.

[6]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p238/ Victor Colonieu, op.cit, T13, p94.

[7]- Pual Soleillet, **Exploration du sahara Centrale Avenir De La France En Afrique**, Challamel Ainé Librairé éditeur, Paris, 1876, p94.

المستقرون بالمدن والقرى يسكنون القصور[1] والقصبات[2] ويعيشون على الزراعة والتجارة[3]، لكن خلال القرن التاسع عشر تقلص عدد البدو الرحل بسبب تدهور مستواهم المعيشي جراء ندرة الأمطار وقلة المراعي مما أدى إلى القضاء على معظم الثروة الحيوانية، فتخلى العديد منهم عن حياة البدو واتجهوا صوب المدن والقرى للبحث عن فرص أحسن للعيش واتخذوا حياة الحضر التي أصبحت تحقق لهم الأمن والاستقرار[4].

عُرفت ظاهرة القصور في توات منذ استقرار القبائل الزناتية بالمنطقة حسب ما أشار له ابن خلدون عند وصفه توات بقوله: "...اختطوا في تلك المواطن القصور والأطم... تسمى وطن توات"[5]. وخلال الهجرات العربية للمنطقة أُسست عدة قصور لكثرة المتوافدين على المنطقة، وسُميت القصور المؤسَّسة باسم القبيلة النازلة بها أو باسم المؤسِّس، وكل قصر مُحاط بجدران وأحياناً بسور محاط بخندق[6]، يمكن ملئه بالماء في حالة الخطر، وهذا دليل على قلة الأمن في تلك المناطق ، وقد شاهد كولونيو (Colonieu) قصور تيميمون كلها محاطة بأسوار خارجية منيعة مربعة أو مستطيلة الشكل، تقام على الأضلاع الأربعة لكل قصر أبراج مراقبة من ثلاث طوابق بطول يتراوح من 08 إلى 10 أمتار[7]، وذلك للحراسة وقت الخطر، وبها أبواب تغلق ليلاً وتفتح نهاراً[8].

---

[1]- القصر: القصر في الصحراء هو شكل من أشكال التجمعات البشرية تضم العديد من المنازل والأسر التي يجمعها تقارب وتشابه أنماط العيش، وهو نموذج حيوي لمجموعة التقاليد السائدة بين سكان تلك المنطقة. أُنظر: محمد بن سويسي، المرجع السابق، ص37.

[2]- القصبة: هي عبارة عن سورٍ عالٍ في مستوى طبقتين أو ثلاث، مربعة أو مستطيلة الشكل مع أبراج ركنية تصلها أسوار محاطة بخندق خارجي وقد تكون مرتبطة بالقصر أو بدونه، لأن كل عائلة لها مكانة اجتماعية واقتصادية محترمة تستطيع بناء قصبة، وكل القصبات لها أسماء خاصة حيث تحمل اسم صاحبها. يُنظر: أحمد العماري، المرجع السابق، ص18.

[3]- Félix Jacquot, op.cit, pp262-265.

[4]- عبد العزيز راسمال، **البداوة والجماعات المستحدثة دراسة سوسيو- انتربولوجية حول قبيلة المجاذبة بالجنوب الوهراني**، أطروحة دكتوراه في علم الاجتماع، إشراف: محمد السويدي، جامعة الجزائر، معهد علم الاجتماع، 1986م، ص228.

[5]- عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص68.

[6]- الحاج ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص94.

[7]- Victor Colonieu, op.cit, T13, p89.

[8]- colonel d'Eu, **In-Salah et le Tidikelt**, **journal des opérations ; suivi d'une Instruction sur la conduite des colonnes dans les régions sahariennes**, Librairie Militaire R.chapelot et Ce Imprimeurs èditeurs, paris, 1903, p103.

تستأثر العائلات التي لها مكانة محترمة بسكنى القصبة، فالقصبة تُعبِّر عن مركز اقتصادي واجتماعي لسكانها، وتكون ملكاً لعائلة خاصة أو عائلات من الطبقة العليا، وتُعد حصناً منيعاً ضد الاعتداءات الخارجية[1]، وهي ذات أبراج وشُرفات من خلالها يستطيع السكان الدفاع عن أنفسهم ببنادقهم، أو عن طريق رمي الحجارة من خلالها[2]. أما القصر فهو الذي يسكن فيه بقية السكان من مختلف العناصر، ويكون ملتصقاً بالقصبة ويحتوي على مساكن الطبقة العامة من مزارعين وحرفيين وحراطين وعبيد، ويختلف دور القصبة بالنسبة للسكان البربر أو العرب[3].

اهتم الرحالون والمستكشفون بوصف المباني التواتية، وأجمع هؤلاء الأوروبيون أن التواتي يبني بيته من الطوب الأحمر المصنوع من الطين والتراب المجفف تحت أشعة الشمس [4]، ويجعل سقفه وأبوابه من خشب وسعف النخيل[5]، ويتميز البيت بصغر حجمه فلا يزيد طوله عن 8 أمتار وارتفاعه عن 4 أمتار[6]، مُظلم، أبوابه صغيرة تُغلق بأقفالٍ تسمى محلياً بـ "أفكر" [7]، ويتكون من عدة غرف منها غرفة النوم، وغرفة الاستقبال، والرحبة وهي غرفة مفتوحة الأعلى تؤمن عنصر الإضاءة والتهوية، وفيها سلم يقود إلى السطح الذي يستغل في فصل الصيف الممتد لستة أشهر، وبيت الماعز الذي يُتَّخذ مأوى للحيوانات الأليفة، وغرفة مخصصة لتخزين المؤونة، والمطبخ يتم الطهي فيه باستعمال الحطب ويخرج منه الدخان عبر عمود يصعد إلى السطح، بالإضافة إلى دورة المياه التي تقام عادة فوق المنازل بغرض

1- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p39.

2- Karl Suter, **Etude sur la Population et l'habitat d'une région du Sahara Algérien** :**le touat**, extrait de revue de géographie alpine, Année 1953, pp463-465.

3- نور الدين بن عبد الله، **قصور منطقتي توات الوسطى والقورارة، دارسة أثرية عمرانية ومعمارية أنموذجية**، أطروحة دكتوراه في علم الآثار، إشراف: عبد العزيز لعرج، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2009/ 2010م، ص58.

4- Paul Soleillet, L'Afrique Occidental, op.cit, p264/ Marcel Frescaly (Lieutenant Palat), op.cit, p237/ Eugene Daumas, Le grand désert, op.cit, p61/ Louis Voinot, op.cit, p117/ Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p236/ Victor Colonieu, op.cit, T13, p89/ Louis de Colomb, Notice sur les oasis, Ibid, p39.

5- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, Ibid, p39.

6- Paul Soleillet, Ibid, p264.

7- Louis Voinot, Ibid, p117.

تجميع الفضلات في الأسفل [1] . وتجدر الإشارة إلى أن جميع البيوت مفروشة بالرمل الأصفر الناعم الذي يتم تغييره باستمرار للحفاظ على نظافة البيت[2].

أما عن طريقة تخطيط المدن فكانت كلها ذات طابع واحد، فالساحة الواسعة تتوسط البلدة تسمى محلياً (الرحبة)[3]، ولا تخلو من مسجد أو زاوية، وتتخللها مسالك وطرقات ضيقة، وتقسم من الداخل إلى أحياء سكنية [4]، يخصص كل حي لأفراد القبيلة الواحدة، وتحيط بالبلدة بساتين النخيل التي تُخفِّف من شدة الرياح وتُلطف الجو وتقلل من درجة الحرارة [5]، يحيط بها سور خارجي ضخم في أعلاه شُرفات تعطيه مظهراً جمالياً ، له باب خشبي كبير يعرف محلياً بـ (فم لقصر) يغلق ليلاً ويفتح صباحاً، ويُقام على أضلاعه الأربعة أبراج للمراقبة والحراسة[6].

لقد تحكمت عدة عوامل في البنية العمرانية للمنطقة، منها العوامل الطبيعية المتمثلة في ارتفاع درجة الحرارة صيفاً، ولهذا شُيدت البنايات بمادة الطين باعتبارها أكثر مقاومة للحرارة [7]، وكانت درجة حرارة البيت صيفاً منخفضة وتقل درجة برودته في فصل الشتاء، وبذلك كيَّف التواتيون أنفسهم مع طبيعة الصحراء وقسوة مناخها ، وبالعوامل الاجتماعية خاصة ما تعلق منها بإكرام الضيف ما جعل كل بيت تكون به غرفة خاصة بالضيوف، والعوامل الأمنية المتعلقة بغزو العصابات للمنطقة بين الحين والآخر مما اضطر السكان لبناء القصبات للتحصن بها [8]، وبناء أسوار خارجية تحيط بالقصور، كما أنها تعتبر امتدادا للعمارة الإسلامية وذلك حين حفر الرسول صلى الله عليه وسلم الخندق بالمدينة المنورة من الجهة الشمالية[9].

---

[1]- A.G.P. Martin, Les oasis sahariennes, op.cit, p353.

[2]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p317.

[3]- Ibid, p45.

[4]- Victor Colonieu, op.cit, T13, p89/ Gerhard Rohlfs, Reise durch Marokko, op.cit, p104.

[5]- مبارك قبابلة، **تطور أساليب ومواد البناء في العمارة الصحراوية** ، رسالة ماجستير في علم الآثار، إشراف: صالح بن قربة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2009/ 2010م، ص16.

[6]- Victor Colonieu, Ibid, p89.

[7]- الحاج ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص ص93- 94.

[8]- Eugene Daumas, le Sahara Algérien, op.cit, P292/ Victor Colonieu, Ibid, p90.

[9]- أحمد جعفري، **العمارة الإسلامية في أقاليم توات تاريخها ونمط أشكالها هندستها ومواد بنائها وأبعادها القيمية** ، مجلة التراث، هيئة أبو ظبي للثقافة والإعلام، السنة 10، ع 115، مارس 2009م، ص ص122- 132.

كان التواتيون في فصل الصيف لا يمكثون في بيوتهم لارتفاع درجة الحرارة، ويقضون معظم أوقاتهم في البساتين أو فوق أسطح المنازل [1]، كما كان تساقط الأمطار يؤدي إلى هدم وتساقط البنايات والقصور والتي ما تلبث أن تتهاوى بعد طلوع الشمس . وقد استرعت انتباه المستكشفين الأوروبيين بساطة وسائل العمران التواتي وعايشوا خوف السكان من العوامل الطبيعية، إذ يتحدث بالات (Palat) عن ذلك قائلاً: "يعيش السكان في منازل مبنية من الطوب، وعند هطول الأمطار يسقط نصفها ويخرب، لذا فالسكان يخافون من المطر مثلما يطلبه سكان الجزائر" [2]، ويضيف كولونيو (Colonieu) أن العواصف التي تهب بين الحين والآخر على المنطقة تسبب أضراراً كبيرة بالبنايات، لكن سرعان ما يقوم السكان بترميمها[3].

وبالنسبة لإدارة القصور التواتية فهي ليست بالعملية المعقدة ولا تتطلب عدداً كبيراً من الموظفين، إذ يؤكد دو كولومب (de Colomb) أن مسؤول القصر يساعده ثلاث أشخاص هم: "الوقّاف، البرّاح، كيال الماء" [4]، فالوقّاف هو رجل الشرطة في البلدة، مكلّف بحراسة البوابة الرئيسية للقصر فيفتحها ويغلقها في الساعات المحددة، كما يستقبل الضيوف ويسكنهم في بيوت الضيافة، وفي حالة الخطر يقرع الطبول لتحذير السكان، أما البرّاح فهو المنادي العام الذي يعمل على إيصال أوامر ورغبات مسؤول القصر إلى السكان في ظل غياب وسائل الدعاية والإعلام، كما يقوم بتنفيذ الأحكام الصادرة في حق الجناة ما جعله محل احترام سكان القصر [5]، أما كيّال الماء فمهمته جد حساسة إذ يقوم بتوزيع مياه الفقارة على المالكين، ويقيس ماء الفقارة في بداية كل موسم، كما يضطلع بفك النزاعات التي تحدث على إثر ذلك [6]. ولعله من المفيد التأكيد أن هذه الوظائف كانت متوارثة في نفس العائلات داخل كل قصر، ويأخذ هؤلاء الموظفين أجرهم من التبرعات التي يقدمها السكان عادة ما تكون مما تنتجه البساتين من تمر وحبوب.

---

[1]- Gerhard Rohlfs, Reise durch Marokko, op.cit, p107/ Victor Colonieu, op.cit, T14, p73.

[2]- Marcel Frescaly (Lieutenant Palat), op.cit, p237.

[3]- Victor Colonieu, Ibid, T13, p89.

[4]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p307.

[5]- Ibid, p308.

[6]- Gerhard Rohlfs, Reise durch Marokko, Ibid, p114/ Victor Colonieu, Ibid, T14, p81.

أما عن عدد القصور التواتية فقد تعددت الروايات واختلفت، حيث عدها ابن خلدون بـ 200 قصر خلال القرن 8هـ/14م إذ يقول: "وطن توات به قصور عديدة تناهز المائتين آخذة من الغرب إلى الشرق..."[1]. وهو نفس الرقم الذي أوردته بعض الدراسات المحلية في القرن 11هـ/17م[2]، وخلال القرن التاسع عشر قدرها صوليبه (Soleillet) بـ أكثر من 300 قصر قائلاً: "تحتوي توات على 300 إلى 400 بلدة أو قرية صغيرة ..."[3]. وهو نفس الرقم الذي نجده عند بالات (Palat) ودوماس (Daumas) وكولونيو (Colonieu) حيث عدها الأول بـ 350 قصراً[4] والثاني بـ 360 قصراً[5] والثالث بـ 320 قصراً[6]، كما عدها الرحالة أبو بكر التواتي بـ 400 قصراً[7].

ثانياً: الصراع بين القصور التواتية

انقسمت قصور توات على نفسها إلى قسمين متصارعين حدثت بينهما فتنة كبيرة أدت إلى حرب ضروس يجهل سببها وأهدافها [8]، سميت بحرب "يحمد وسفيان" [9]، ونتج عنها حقد كبير بين الطرفين، وفي ذلك يقول البكري: " فصارت عداوة يحمد وسفيان مختصة بالبلاد التواتية، والعجب كل العجب أن تجد بلدين مختلطي النخيل والمرافق بحيث يسمع كل واحد نداء مؤذن الآخر، ويتعصب

---

[1]- عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر، المصدر السابق، مج07، ص77.

[2]- محمد بن عبد الكريم التمنطيطي، درة الأقلام ، المصدر السابق، ص01.

[3]- Paul Soleillet, L'Afrique Occidental, op.cit, p253.

[4]- Marcel Frescaly (Lieutenant Palat), op.cit, p248.

[5]- دوك دي دوماس، المصدر السابق، ص361.

[6]- Victor Colonieu, Le tracé central du chemin, op.cit, p23.

[7]- Abd al Kadir Touati, op.cit, p19.

[8]- Victor Colonieu, op.cit, T14, p82/ Lewis Watin, op.cit, p214/ Eugene Daumas, le Sahara Algérien, op.cit, p282.

[9]- يحمد وسفيان: المصطلحان اشتقا من (أحمد وسفيان)، كناية عن زعيمي الإيمان والشرك، فاسم أحمد دلالة على الرسول صلى الله عليه وسلم، أما سفيان فللدلالة على أبي سفيان زعيم المشركين قبل إسلامه، واستخدم المصطلحان للدلالة على الحرب الدائرة بين قبائل توات، وأصل التسمية يعود للخطاب الذي أرسله أحد القادة إلى السلطان المغربي يخبره فيه باشتداد الحروب بين قبائل الصحراء وإغارة بعضها على بعض، مثل الحروب التي دارت في صدر الدعوة المحمدية بين النبي أحمد صلى الله عليه وسلم وأبي سفيان، وحكمة التشبيه ليعظم الأمر على السلطان، فيسعى إلى وأد الفتنة قبل استفحالها، وقيل أنها جاءت من الصراع بين علي ومعاوية، وهناك من يرى أنها من قبيلتين هما يحس وسفيان وتم تحريف الاسم الأول إلى يحمد. أُنظر: محمد بن عبد الكريم التمنطيطي، المصدر نفسه، ص17/ عبد الحميد البكري، **النبذة في تاريخ توات وأعلامها من القرن التاسع الهجري إلى القرن الرابع عشر**، ط2، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007م، ص45/ Abderrahmane Selka, op.cit, p530 Lewis Watin, Ibid, p214 /A.G.P. Martin, Quatre siècles d'histoire, op.cit, p124

واحد لفئة يحمد والآخر لفئة سفيان. والأعجب منه يجتمع الشخصان لم ير أحد منهما الآخر قط، فإذا أخبره أنه من فئة سفيان كرهه أشد الكراهة حيث كان هو من فئة يحمد ولعمري إن ذلك لعداوة شيطانية ونار ظلمانية"[1]، ووصل الأمر إلى طلب كل طرف المساعدة ضد عدوهم فتحالفت فئة يحمد مع عرب ذوي منيع[2] والطوارق، بينما تحالفت فئة سفيان مع عرب الغنانمة[3] والشعانبة[4].

لم تحدد المصادر التاريخية بداية هذه الحرب الأهلية بين القبائل التواتية، لكنها كانت مُشتدة بشكل كبير خلال القرن التاسع عشر [5]، حيث قُسمت توات إلى مقاطعات وأحلاف متحاربة وانخرطت كل القبائل التواتية في صف يحمد أو صف سفيان[6]، فكثرت الهجمات من كل طرف على الآخر، ولا تكاد تنتهي إلا بتفقير أحدهما للآخر "فلا يتركون للناس سوى عيونهم للبكاء"[7]. ويصف بالات (Palat) هذا الصراع بقوله: "كل منطقة توات منقسمة إلى يحمد وسفيان. الطرف الأول (يحمد) ينتمي إليه جميع العرب تقريباً، والثاني (سفيان) ينتمي اليه الزناتة...لا تمر سنوات دون تبادل القتال بين الطرفين، الأحمديون أكثر عدداً، لكن السفيانيون أكثر شجاعة"[8].

وقد شغل هذا الصراع حيزاً مهماً في اهتمامات المستكشفين الأوروبيين، ونكتفي في هذا المجال باستشهاد للرحالة رولفس (Rohlfs) الذي ينقل عن سكان تسابيت، أن قصر برينكان السفياني تعرض لهجوم سنة 1848م من طرف سكان قصر تيمي الأحمدي، وكان ذلك بمساعدة الحاج عبد القادر باجودة شيخ عين صالح، حيث كان هذا الأخير ينتمي لنفس الصف، فتم محاصرة القصر لمدة 24 يوماً من طرف هذا التحالف [9]، وأدت المعركة إلى العديد من القتلى، وقطعت نصف أشجار

---

[1]- محمد بن عبد الكريم التمنطيطي، درة الأقلام، المصدر السابق، ص17.

[2]- ذوي منيع: قبيلة عربية تنسب إلى الحاج عبد الكريم مناع بن أمحمد بن إبراهيم المعقلي، توجد مواطنها قي العبادلة وتاغيت. يُنظر: أحمد بن خالد الناصري، المصدر السابق، ج07، ص58.

[3]- الغنانمة: قبائل عربية عدنانية تنسب إلى عبد الله بن غطفان وهم من القبائل الرحل، يتواجدون بإقليم فقيق، تقع قصورهم على طريق الذهاب والإياب من إقليم توات وإليه. يُنظر: عمر رضا كحالة، المرجع السابق، ج03، ص893.

[4]- الشعانبة: قبائل عربية عدنانية، توافدوا على شمال إفريقيا واستقروا في ورقلة ومتليلي والقليعة ثم في بعض القصور التواتية. يُنظر: Eugene Daumas, Le Sahara Algérien, op.cit, pp308-314.

[5]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p320.

[6]- أهم القصور التابعة ليحمد: قصور تيمي، سبع، تامست، أنجزمير،...الخ. وأهم القصور التابعة لسفيان: بودة، تمنطيط، بوفادي، غرميانو، زاوية كنته،...ألخ. للمزيد أُنظر: Victor Colonieu, op.cit, T14, pp84-86.

[7]- Abderrahmane Selka, op.cit, p530.

[8]- Marcel Frescaly (Lieutenant Palat), op.cit, p248.

[9]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p205.

نخيل برينكان، وهدمت العديد من الفقارات، وبذلك انهزمت بريكان شر هزيمة، ولوحظ كومة من عظام الخيول المقتولة أمام هذا القصر في نهاية المعركة [1]. يُستفاد من هذه الشاهدة أن الصراع بين الصفين في القرن التاسع عشر كان يشهد تحالفات داخل الصف الواحد للقيام بأعمال عسكرية مشتركة، كما أن الصراع كان يستمر لأيام طويلة ويؤدي إلى خسائر بشرية واقتصادية كبيرة.

ويزودنا مارتان (Martin) في كتاباته التي جمعها من وثائق محلية بالعشرات من النماذج عن الاعتداءات التي وقعت بين الطرفين خلال القرن التاسع عشر [2] _لا يسعنا المجال للتطرق إليها-. ويظهر من خلالها إلى أنه لم يسلم أي قصر من الهجوم والتخريب للممتلكات والفقارات وإحراق البساتين، كما أنها أدت إلى المئات من الضحايا من كلا الطرفين [3]، وحلّت بذلك أزمات اقتصادية عانى من جرائها جميع سكان المنطقة [4]. كما كان لهذا الصراع تأثيرٌ كبيرٌ على الحياة الاجتماعية إذ ترسخ الكره والعداء بين القبائل التواتية [5]، ورغم اتفاقيات السلام التي كانت تعقد من حين لآخر ويتفق فيها الجميع على عدم العودة إلى الصراع، ويحتكمون إلى كتاب الله ويتفقون على أن يكونوا يداً واحدة في السراء والضراء وأن يوحدوا جهودهم وقواهم لمواجهة الأخطار الخارجية [6]، لكن كل مرة تُضرب تلك الاتفاقيات عرض الحائط ويعودون للصراع مرة أخرى.

هكذا فإن حرب يحمد وسفيان عمقت الصراعات الداخلية وأسهمت في تشكيل بنية قبلية وسياسية داخل المجتمع التواتي، وكان من نتائج هذه الحرب كذلك حدوث أزمة اقتصادية واجتماعية حادة بالمنطقة جراء طول فترات القتال، وما رافق ذلك من انشغال السكان عن الأنشطة الاقتصادية، وتحطم وسائل الإنتاج، وإنهاك للقوى المنتجة داخل المجتمع.

استمر هذا الصراع إلى أن احتلت فرنسا منطقة توات وفرضت سيطرتها عليها مطلع القرن العشرين[7]، ولا زالت ملامح الصراع العنيف بين أهل توات ماثلة إلى اليوم في عادات وتقاليد أهل

---

[1]- Gerhard Rohlfs, Reise durch Marokko, op.cit, p101.

[2]- A.G.P Martin, Quatre siècles d'histoire, op.cit, pp125-203.

[3]- من أمثلة ذلك الهجوم الذي قامت به قبائل قصر سبع الأحمدية على قبائل قصر المحارزة السفيانية سنة 1847م، وقتل في هذه المعركة أربع مائة وخمسون شخصاً. أُنظر: Ibid, p166

[4]- Eugene Daumas, le Sahara Algérien, op.cit, p283/ Victor Colonieu, op.cit, T14, p84.

[5]- لوسيان فيفر، المرجع السابق، ج2، ص72.

[6]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, pp321-322.

[7]- تواتي دحمان وآخرون، **الثورة التحريرية في أقاليم توات**، دار الشروق، الجزائر، 2008م، ص22.

توات خاصة في رقصات البارود الفلكلورية حيث تصطف فرق قصور يحمد موجهة بنادقها صوب قصور سفيان وتطلق البارود في السماء[1]، وهذا ما يبين مدى الكره الشديد الذي استحكم في قلوب الناس بسبب هذا الصراع.

لعله من المفيد أن نشير إلى إن دراسة السكان استهدفت سبر أغوار المجتمع التواتي لمعرفة مكنوناته ونقاط ضعفه، تمهيداً لإخضاعه، وفي هذا الإطار عزف المستكشفون الأوروبيون على وتيرة الصراعات العرقية، فقد بالغ الفرنسيون في التركيز على تفكك المجتمع والاضطرابات السائدة داخله، وعجز الهيئات المحلية عن توفير الأمن والاستقرار؛ كل ذلك لتهيئة الرأي العام الفرنسي بتقبل غزو المنطقة وتحمل ما يتطلبه ذلك من خسائر مادية وبشرية.

ثالثاً: المرأة مكانتها ودورها في المجتمع

المرأة هي نواة المجتمع وأساسه، وبرزت المرأة التواتية في المجتمع كغيرها من النساء في العالم الإسلامي، فقد كرم الإسلام المرأة بأن جعلها مربية الأجيال، وربط صلاح المجتمع بصلاحها، فكانت لها مكانة سامية ومرموقة، وحظيت في إقليمها بالاحترام والتقدير، وشاركت إلى جانب زوجها في بناء الأسرة وتأسيسها، وعملت على تطور وتقدم منطقتها من خلال الحرف والصناعات التي كانت تقوم بها، وبذلك نالت مكانة أعلى من نظيراتها في الجزائر[2].

تتمتع المرأة التواتية بالنفوذ والسلطة والحرية [3]، فقد كانت ذات حزم وقوة وشدة، وحظيت بجميع حقوقها من حرية اختيار الزوج، وحرية التصرف في مالها وممتلكاتها، فهي تملك السلطة الكلية على زوجها، ولها الحق في اشتراط ما شاءت من الشروط أثناء عقد نكاحها، وإذا لم يلتزم الزوج بجميع شروطها لها أن تملك نفسها وتحفظ كرامتها [4]. والشريفة لا تنكح إلا شريفاً أو حراً من نفس طبقتها ومستواها الاجتماعي والاقتصادي [5]، ولا تنكح من هو أقل منها نسباً ومكانةً من عامة الناس، وذلك وفق مبدأ التكافؤ الذي يخضع للنظام الطبقي للمجتمع.

الجدير بالذكر أن المرأة كانت تتولى أمور زوجها، فهي تقوم محله وتتصرف في كل شؤونه واختصاصاته اليومية، دون أن تأخذ رأيه ومشورته، فهو تابع لرأيها ولا يتصرف في شيء دون أن ينال

---

[1]- الصديق حاج أحمد، المرجع السابق، ص52.

[2]- Marcel Frescaly (Lieutenant Palat), op.cit, p230.

[3]- غوردن لانج، رسالة إلى هانمر وارنجتون، المصدر السابق، ص336.

[4]- عبد العزيز البلبالي، المصدر السابق، ص81.

[5]- بهية بن عبد المؤمن، المرجع السابق، ص104.

موافقتها ورضاها، فتباشر كل أعمال وأشغال زوجها الزراعية مثل الحرث والحصاد وما إلى ذلك [1]. كما كانت تتولى الإنفاق على أولادها، ومن مبررات ذلك هو غياب الرجل عن البيت وسفره المتكرر لفترة طويلة قد تتجاوز السنة في الكثير من الأحيان، سواء في رحلات حجية أو تجارية أو علمية، مما يجعل المرأة تتولى تسيير شؤون البيت، وشاركت المرأة التواتية إلى جانب الرجل في كسب العيش [2]، فاشتغلت في الحرف اليدوية ومارست العديد من الصناعات داخل بيتها [3]، وكان غزل ونسج الصوف والقطن من الأعمال التي تباشرها يومياً نساء الفئة المتوسطة والفقيرة [4]. وتمتعت المرأة الشريفة والحرة باتساع الأملاك، فملكت البساتين والدور والعبيد، وحظيت بمكانة مرموقة عالية.

يعتبر الاهتمام بشكل المرأة ومظهرها الخارجي أهم شيء بالنسبة لها، فكانت تتفنن في إبراز جمالها وإظهار زينتها [5]، وفي هذا الصدد يعرب كفينياك (Cavaignac) عن إعجابه بجمال المرأة الصحراوية قائلاً: "النساء في الغالب قصيرات بعض الشيء ، أسنانهم بيضاء ومرتبة جداً، عيونهم سوداء وحادة ، القلائد الأساور والخواتم على الذراعين والساقين ، رموش العين مصبوغة باللون الأسود" [6]، وضمن حديثه عن النساء التواتيات لم يخفِ لانج (Laing) اندهاشه من جمالهن بقوله: "...وقد أنعم الله عليهن بالمباهج الجمة: فالأعين سوداء حادة، والأسنان بيضاء جميلة، والبشرة تميل إلى السمرة، والشعر أسود لامع كشعر السمور" [7]، ولا يشذ دوماس (Daumas) عما ذهب إليه أسلافه في وصفه لِلمرأة التارقية يقول: "نساؤهم لا يخفين وجههن، وهن جد جميلات و أكثر بياضاً مثل المسيحيات" [8].

في نفس السياق يطالعنا رولفس (Rohlfs) بوصف للمظهر الخارجي للمرأة التواتية أثناء حضورها احتفالاً موسمياً بقوله: "عدد النساء كان كبير اً جداً، وكن يرتدين كل ما يملكن، حلقاتهن الفضية، الأصداف، قطع معدنية، وكثيرات كان لهن قطع من المرجان الأحمر، وجوههن مطلية بالرموز

---

[1]- Marcel Frescaly (Lieutenant Palat), op.cit, p229.

[2]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p312.

[3]- Victor Colonieu, op.cit, T14, p73.

[4]- عبد العزيز البلبالي، المصدر السابق، ص109.

[5]- Eugene Daumas, le Sahara Algérien, op.cit, p278.

[6]- Félix Jacquot, op.cit, p279.

[7]- غوردن لانج، رسالة إلى جيمز باندينال، المصدر السابق، ص340.

[8]- Eugène Daumas, **Mœurs et Coutumes l'Algérie**, **Tell- Kabylie- Sahara**, Librairie de L.Hachette, paris, 1853, P364.

الملونة، وكانت ضمنَهن مَن هي في منتهى الأناقة بوضعها قطعة مرجان صغيرة على أنفها، مما أثار الغيرة لدى بقية النساء "[1]. ويضيف أن ما أثار دهشته واستغرابه هو السمنة المفرطة للنساء في عين صالح، واعتبارها مظهراً من مظاهر الجمال بالنسبة للرجال، فالمرأة السمين ة هي الجميلة في أعينهم [2]، كما يتحدث دو كولومب (de Colomb) من جانبه عن اهتمام النساء التواتيات بشعرهن الذي يعد من مظاهر الجمال لديهن قائلاً: "تعتني النساء كثيراً بشعرهن الذي يتميز بجمال كبير"[3].

يظهر من شهادة هؤلاء المستكشفين أن النساء التواتيات لم يكن على حجاب شرعي خاصة أيام المناسبات حيث تستباح الزينة للرجل والمرأة على حد السواء، فتتزين المرأة بحليها المختلفة وترتدي أجمل ثيابها. لكن يبدو الأمر مبالغ اً فيه، حيث يُعرف عن المرأة التواتية ميلها إلى الاحتشام كما أن العلاقات الغرامية والعاطفية لم تكن معروفة في المنطقة، أضف إلى ذلك أن المجتمع كان يكره المرأة التي تكثر الخروج إلى الأماكن العامة لغير سبب، والتساؤل المطروح لماذا عرَّج هؤلاء المستكشف ون على وصف المظهر الخارجي للمرأة شكلاً ولوناً بدقة متناهية؟ ولماذا تم تشبيههن بالمسيحيات لوصف جمالهن؟ وما علاقة الدين بالجمال؟

رابعاً: العادات والتقاليد والاحتفالات الاجتماعية:

شهدت توات خلال القرن التاسع عشر ممارسة العديد من العادات والتقاليد الاجتماعية ، معظمها مستمد من تعاليم الدين الإسلامي، كما عرفت المنطقة طقوساً احتفالية في المناسبات الدينية والشعبية لا يزال العديد منها يمارس إلى غاية اليوم، فأصبحت بذلك موروثاً ثقافياً لدى أفراد المجتمع، وتوجّهنا كتابات المستكشفين إلى العديد من العادات المتعلقة بأفراح وأحزان المجتمع، تراوحت موقفهم منها بين الاستحسان والاستهجان، ونظراً لكثرتها سنقتصر على أهمها:

01/ عادات الزواج:

لا يختلف الزواج في توات عن بقية المجتمع الجزائري، ذلك أنه يستمد من القر آن الكريم والسنة النبوية تعاليمه وشروطه، فقد وردت عدّة آيات تُرغب المسلمين في الزواج منها قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً**﴾ [4]. ومن مقدمات الزواج أن تكون هناك خِطبة، حيث أذن الشرع بذلك وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن

[1]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p210.

[2]- Ibid, p237.

[3]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p318.

[4]- سورة الروم، الآية 21.

ينظُر الخاطب لمخطوبته بقوله للمغيرة بن شعبة : " **انْظُرْ إِلَيْهَا فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا** "[1]. ومن عادات الخطوبة في المجتمع التواتي خلال القرن التاسع عشر أن يبعث الرجل أحد والديه لطلب يد الفتاة، وفي حال الموافقة يتم العقد بين أهل العروسين بحضور بعض أعيان القصر [2]. كما كان يُسمح للخاطب في توات بزيارة خطيبته في بيت أهلها، كما يمكنه مشاركة أهلها في الوجبات اليومية[3].

أما الصداق فكان مُيسراً ويدفع معظمه في شكل عروض ذهب وفضة ، وينقل دوماس (Daumas) أن صداق بنت رئيس جماعة تيميمون "محمد بن المهدي " كان كالتالي: " 100 دورو، خادمة سوداء، خلاخل وأساور من فضة، 02 من الحائك الرقيق، أحذية من فاس، 40 قصعة قمح، 20 قصعة شعير، 06 أواني من الزبدة، سرغينا (نوع من العطور)، كحل، عطور" [4]. وتتفاوت قيمة المهور حسب إمكانيات الأفراد ومستواهم المعيشي وطبقتهم الاجتماعية، فالأغنياء يدفعون مهوراً مرتفعة، بخلاف الفقراء الذين لا يسمح لهم وضعهم المادي بذلك [5]، ويتراوح عموماً بين 50 إلى 500 فرنك بالنسبة للبيض، ومن 05 إلى 15 فرنك للسود[6]. والعُرف السائد في المنطقة أن الصداق لا يدفع كاملاً عند الدخول وإنما يدفع منه القليل والكثير يؤخر[7].

بعد الانتهاء من إعداد جهاز العروس يتم تحديد موعد الزفاف، وتقام الولائم لمدة ثلاثة أيام يتم فيها دعوة كل أعيان القصر ، وبعد الانتهاء يبرِم الإمام عقد الزواج بحضور ولي الزوج والزوجة والشهود، وتُزين العروس من قبل النساء بأدوات الزينة من كحل وسواك وعطور، ثم ينطلق موكب العروس في السير وفي مقدمته أصدقاء العائلة على وقع طلقات البارود وزغاريد النساء[8]. أما العريس فيؤخذ إلى المسجد ويلبس لباسه الأبيض ويُسلَّمُ له سيفٌ [9]، ويُشيَّع إلى بيته برفقة زملائه وهم يقرؤون

[1]- أخرجه الترمذي في سننه، كتاب النكاح، باب "ما جاء في النظر إلى المخطوبة" حديث رقم1078، ص397.

[2]- Abderrahmane Selka, op.cit, p551.

[3]- Ibid, p551.

[4]- Eugene Daumas, Le grand désert, op.cit, p73.

[5]- Abderrahmane Selka, op.cit, p551.

[6]- Louis Voinot, op.cit, p111.

[7]- عبد العزيز البلبالي، المصدر السابق، ص55.

[8]- Eugene Daumas, Ibid, p74.

[9]- فسر أهل توات هذه الظاهرة بأنها تطرد الأرواح الشريرة عن الزوجين، كما فسرها البعض الآخر أن الزوج من خلال حمله سيفه يبين لزوجته بأنها محمية ومصانة من جميع الأخطار. أنظر: Abderrahmane Selka, Ibid, p551

البردة. ليتواصل بعد ذلك حفل الزفاف أسبوعاً كاملاً، وثلاثة أيام بالنسبة لفئتي الحراطين والعبيد على وقع الرقص والأغاني[1].

من الأعراف السائدة بتوات أن الزواج يكون بين الأقارب، فالعائلات التواتية تحرص على بقاء علاقات المصاهرة في نطاق العائلة، كما أن هذه العلاقات تتبع التصنيف المادي والعرقي، وفي هذا السياق يؤكد رولفس (Rohlfs) أن الأشراف يتزوجون فيما بينهم فقط ولا ينكحون من هم أقل منهم مستوى، والعرب يتزوجون مع المرابطين فقط، والحراطين والعبيد يتزوجون فيما بينهم، ونادراً ما يتزوج الطوارق مع باقي الفئات الأخرى [2]. ومن العادات في توات أن الرجال لا يتزوجون من المرأة الضعيفة ولا المريضة التي لا تقوى على إنجاب الأطفال [3]. أما تعدد الزوجات فكان قليلاً رغم جوازه شرعاً[4]، وذلك لعدم سماح المرأة التواتية للرجل بالتزوج عليها، كما أن الفقر وتدني المستوى المعيشي من الأسباب التي جعلت التعدد نادراً جداً فالزوج لا يستطيع أن يُعيل أكثر من أسرة واحدة[5].

02/ ازدياد المولود والختان:

إذا أنجبت العائلة الجديدة تكون فرحة الأسرة كبيرة، فتقام احتفالات داخل الأسرة، لكنها أقل حماسةً من تلك الموجودة في الشمال رغم أن العادات معظمها مشتركة [6]، فبعد انتشار الخبر يأتي الناس لمباركة الوالدين بقولهم مبروك [7]، ومن العادات أن تطلق طلقة بارود تفاؤلاً بأن يكون شجاعاً، ويقوم والد الطفل بإقامة الأذان في أذن المولود، وفي اليوم السابع أي يوم العقيقة أو ما يعرف محلياً بـ (السبوع) يُقام احتفالٌ يستدعى إليه أعيان القصر لوضع اسم للمولود، وعادة ما يسمى الطفل باسم جده لأبيه، وفي بعض الأحيان يسمى باسم أحد علماء المنطقة أو أحد أوليائها الصالحين، ولا يحلق رأسه إلا بعد مرور أربعين يوم اً، ويقتصر طعامه خلال الأشهر الأولى إلى جانب حليب أمه على طحين التمر، وبعد مرور عامين يفطم الطفل ويصبح يتغذى على فرينة التمر المطبوخة في الزبدة[8].

---

[1]- Abderrahmane Selka, op.cit, p551.

[2]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p237.

[3]- Eugene Daumas, Le grand désert, op.cit, p75.

[4]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p311.

[5]- Abderrahmane Selka, Ibid, p551.

[6]- Ibid, p551.

[7]- Louis Voinot, op.cit, p111.

[8]- Ibid, p111.

من العادات المتأصلة لدى السكان وتعبر على تمسكهم بالفطرة والسنة النبوية "الختان"، أو ما يعرف محلياً بـ (الزيانة) أو (الطهارة) وغالباً ما يتم للطفل ما بين السنة الخامسة والعاشرة من عمره[1]، إذ أن الطفل يتنظف، ويلبس لباساً خاصاً بالختان، وتوضع له الحنة والكحل، ويُعقم بالكبريت الأخضر لكي لا يصيبه مكروه، وبعد ذلك يأتي المكلف بالختان أو ما يُعرف بـ (لمعلم) ويطلب قصعةً مملوءة بالرمل الصافي النظيف وصحناً به البيض المطبوخ في الماء، ويقال للصبي: أنظر أعلى للسقف، فيملؤون فمه بالبيض حتى لا يصرخ بالبكاء من شدة الألم، وبعد مرور أسبوع ينظف موضع الختان بالزجاج المسحوق أو زيت الزيتون[2].

03/ الوفاة والحداد:

رافقت الجنائزَ كثيرٌ من العادات الدينية أو الاجتماعية والتي اختلفت من إقليم لآخر، كما أن هذه العادات كانت في كثير من الأحيان محل جدل شرعي من حيث مشروعيتها من عدمه . فمن عادات توات أنهم كانوا يوصون قبل حدوث الوفاة بعشاء القبر[3]، وقد شارك رولفس (Rohlfs) خلال إقامته بعين صالح في عملية تجهيز ميت ودفنه فوصفها قائلاً: "...وعندما أتموا غسله، قاموا بلفه بقطعة قماش من القطن، قمنا بحمله إلى المقبرة صباحاً ورافقنا القليل من الناس، والكل يردد (لا إله إلا الله، محمد رسول الله)، ووضعوه في القبر على جانبه الأيمن، غطيناه بالحجارة ووضعنا فوقه التربة،...وعند الانتهاء من عملية الدفن قاموا بالدعاء، وهكذا تتم عملية الدفن في كامل الشمال الإفريقي"[4]، وتقام ليلة الوفاة مأدبة عشاء طلباً للبركة والرحمة على روحه تعرف محلياً بـ (السلكة) يقدِّم فيها أهله الكسكس واللحم[5]، وتستمر مدة العزاء ثلاثة أيام يتواصل خلالها بكاء النساء وصياحهن، وكل من يأتي للعزاء يتم رمي التراب خلفه عند مغادرته بيت الميت دون أن يلتفت إلى الوراء[6]، وهي عادات لا تجد لها أصل في الدين الإسلامي.

من العادات المتصلة بالجنائز أن تضع المرأة المتوفَّى عنها زوجُها قطعة من الفضة في فمها وتقوم بِعَضِّها كلما جاء أحد لتعزيتها، وبعد مرور أربعة أيام تربط الأرملة على رأسها قطعة من كفن زوجها،

[1]- Louis Voinot, op.cit, p111

[2]- أمحمد جعفري، المرجع السابق، ص137.

[3]- عبد العزيز البلبالي، المصدر السابق، ص57.

[4]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p240.

[5]- Louis Voinot, op.cit, p112.

[6]- Gerhard Rohlfs, Ibid, p241.

ولا تتكلم مع أحد خاصة من صلاة العصر إلى المغرب [1]، ويستمر ذلك مدة أربعة أشهر وعشرة أيام وهي مدة العدة الشرعية. وبانتهاء فترة العدة تغتسل المرأة وتتزين وترتدي ثياباً جديدة، وتؤخذ إلى مكان يسمى "حفرة الحزن" لتدفن هناك قطعة الكفن التي كانت تضعها على رأسها ، وتعود إلى بيتها آخر اليوم وأمامَها امرأة تضرب على إناء منبهة الناس بقولها: "أهربوا امرأة أتمت عدتها هي آتية، ابتعدوا من طريقها، تجنبوا رؤيتها خشية شر يصيبكم"[2]. ويُزعم أن من رآها من الرجال حالة خروجها من بيتها يصاب بمصيبة، وإن كانت امرأة متزوجة فقدت زوجها، وما إلى ذلك من الخرافات.

04/ استقبال وتوديع الحجاج:

كان لسكان توات عادات وتقاليد اجتماعية راسخة ومتوارثة عبر الأجيال في تأدية الركن الخامس في الإسلام، من حيث الاستعداد له، وتوديع الحجاج، وحفاوة الاستقبال. خلال القرن التاسع عشر كانت المسافة بين توات والبقاع المقدسة تُقدر بعام وربع بين الذهاب والإياب على ظهور الجمال، فعندما يقترب موعد الذهاب يبعث شيخ الركب [3] إلى قصور توات من يسجل أسماء الراغبين في الذهاب لزيارة بيت الله الحرام حاملاً علماً ويرافقه فرقة الطبل، وعندما يحين موعد الانطلاق يجتمع الراغبون في الذهاب عند مسجد القصر ليودعوا بالمدائح الدينية وأهازيج فرقة البارود[4]، وعادة ما تنطلق الرحلة المباركة بداية شهر ربيع الثاني بعد حضور احتفالات المولد النبوي الشريف بتوات حسب ما نقله الرحالة الفلاني قائلاً: "وخرجنا من عين صالح ضحى يوم الاثنين الموفى أحد عشر ربيع الثاني"[5].

يستعرض الرحالة دوماس (Daumas) لحظة تجمع وفود الحجيج وانطلاق قافلتهم بعين صالح، حيث أكد أن القافلة كانت مكونة من مختلف القبائل رجالاً ونساءً وشيوخاً وأطفالاً وعبيد اً،

[1]- Abderrahmane Selka, op.cit, p552.

[2]- Ibid, p552.

[3]- شيخ الركب: هو الذي يقود قافلة الحجيج وتجتمع عنده الوفود في كل موسم، ويتميز بمميزات وخصائص حميدة تؤهله لذلك مثل الحكمة والأمانة والمكانة الاجتماعية...، وتولى هذه المهمة الشيخ أمحمد أبي نعامة بأقبلي منذ سنة 1138هـ/ 1726م ثم تولاها أبناؤه من بعده. للمزيد أُنظر: أحمد بوسعيد ، **ركب الحج الجزائري خلال العهد العثماني (1518-1830م) دراسة تاريخية واجتماعية من خلال الرحلات الحجازية** ، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: محمد حوتية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة أدرار، 2018/2017م، ص 70- 75.

[4]- Victor Colonieu, op.cit, T15, p433.

[5]- الفلاني القبلاوي، المصدر السابق، ص02.

يلبسون أفضل ملابسهم ويحملون الأعلام الصغيرة[1]، وقبل الفجر بدأت القافلة بالمسير بحوالي 2000 جمل على شكل مجموعات من 100 إلى 150 جمل، يسمى قائدها بأمير الركب، والتقى بأهل عين صالح وهم فرحين مرددين بعض الأغاني والأهازيج مع قرع الطبول والقرقابو، ومن هذه الأهازيج التي يذكرها الأهالي والحجاج والمرابطون عند مصادفتهم موسم الحج[2]:

- الأهالي: أيا حجاج بيت ربي شفتو نبي الله.
- الحجاج: نعم شفناه وخليناه في بيت ربي يصلي ويقرا كتاب الله.
- الطلبة وعلماء الدين: سيدنا إبراهيم خليل الله سيدنا موسى كليم الله سيدنا عيسى روح الله سيدنا محمد رسول الله.
- الحجاج: نعم تركنا مالنا نعم تركنا أولادنا لرؤية محمد رسول الله.

هاته الأهازيج والكلمات تعبر عن شوق الحجاج وشغفهم لزيارة البقاع المقدسة، التي تعني أن الارتباط الديني كان قوياً جداً بين السكان وقافلة الحجيج.

05/ زيارة الأولياء الصالحين:

هي تظاهرة اجتماعية دينية تقام عادة كل سنة بمناسبة ذكرى وفاة عالم أو ولي صالح، يرتبط موعدها بالتقويم القمري أو الشمسي والمواسم الفلاحية، ويراعى في موعدها أن يكون موسم جني التمور أو موسم الحصاد[3]، واشتهرت توات بالعديد من أضرحة الأولياء الصالحين التي تقام لها زيارات سنوية[4]، وكانت مقصداً للزوار من شتى أرجاء الوطن كزيارة مولاي عبد الله الرقاني برقان. ومن العادات التي تُصاحب الزيارة قراءة القرآن وتلاوة بعض الأذكار، بالإضافة إلى ممارسة بعض الطقوس مثل طلاء الضريح بالطين الأبيض، وتقديم الهبات والنذور، كما تُقام أنشطة فلكلورية مثل الطبل والقرقابو والبارود[5]، ويقدم السكان وجبات للزوار تكون عادة من الكسكس واللحم.

شاهد رولفس (Rohlfs) خلال تجواله في قصور توات احتفالاً محلياً كبيراً في مدينة تيمي بمناسبة موسم إحياء زيارة أحد الأولياء الصالحين بالمنطقة يسمى "مولاي المهدي" فاسترسل في

[1]- Eugene Daumas, Le grand désert, op.cit, p112.

[2]- Ibid, p113.

[3]- Edmond Doutté, **Notes sur l'islâm magribin**, **les marabouts**, Ernest leroux èditeur, paris, 1900, p93.

[4]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p214.

[5]- Louis Voinot, op.cit, p107.

وصف هذا الاحتفال مبدياً دهشته وانبهاره منه بقوله: "...على الساعة الرابعة بعد الظهيرة كل الرجال يحملون السلاح يصطفون على دقات الطبول أمام مدخل المدينة بأسلحتهم ...، وكانوا كلهم مسلحين ويلبسون أحسن الثياب، مروا من قصر إلى آخر إلى غاية المكان الذي دفن فيه الولي خارج الواحة، كل الحاضرين اصطفوا...ثم تفرقوا مجموعات صغيرة لممارسة الرقصات الحربية بإطلاق البارود دون توقف، بينما النساء يشجعونهم بالزغاريد ..."[1]. هذا الوصف ينطبق على معظم الاحتفالات التي يقيمها سكان توات بمناسبة زيارة الأولياء الصالحين، والتي لا تزال تقام إلى غاية اليوم في العديد من القصور التواتية.

06/ الاحتفال بالأعياد الدينية:

ترتبط الأعياد الدينية بالأشهر القمرية، وكان التواتيون يحتفلون بهذه المناسبات كغيرهم من سكان العالم الإسلامي، وذلك بتقديم الصدقات وإنهاء الخصومات والنزاعات وصلة الأرحام وتبادل الزيارات. فبحلول شهر رمضان الكريم يحرص التواتيون على أداء صلاة التراويح بالمسجد، ومن العادات السائدة في هذا الشهر أن يمر البراح عبر شوارع القصر وقت السحور وهو يضرب الدف لإيقاظ السكان وإعلامهم بدخول وقت السحور [2]، ويحصل مقابل ذلك على حصة من التمر يأخذها بعد خروج شهر رمضان[3].

بعد الإعلان عن رؤية هلال شهر شوال توزع زكاة الفطر على مستحقيها، ويستعد السكان لاستقبال عيد الفطر السعيد بارتداء أحسن الثياب، ويخرجون فرادى وجماعات مكبرين ومهللين للصلاة في المصليات، وبعد الانتهاء من الصلاة يتصافح الجميع ويتم التسامح بين المتخاصمين . ومن العادات التي دأب عليها السكان صلة الأرحام، وتبادل الزيارات حيث يطوفون على أهلهم وأقاربهم وكبار السن لتهنئتهم بالعيد. وإذا كان عيد الأضحى يتوجه المصلون بعد المصافحة والتسامح إلى بيوتهم لذبح الأضحية لمن كان في استطاعته ذلك، إقتداءً بسنة سيدنا إبراهيم عليه السلام، ويقدم جزءاً من الأضحية إلى الفقراء والمساكين[4].

---

[1]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p208.

[2]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p307.

[3]- Louis Voinot, op.cit, p107.

[4]- عز الدين جعفري، **أطلس العادات والتقاليد بمنطقة توات**، أطروحة دكتوراه في التراث اللامادي الجزائري، إشراف: شعيب مقنونيف، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان، 2018/2017م، ص ص101-105.

من المواسم التي كان التواتيون يحرصون عليها كغيرهم من سكان العالم الإسلامي، الاحتفال يوم عاشوراء المصادف للعاشر من شهر محرم، وهذا بإقامة العديد من الطقوس الاجتماعية والدينية [1]، كالصيام والتصدق على الفقراء والمساكين وإخراج الزكاة التي تسمى محلياً ب (العُشُر)، وتبادل الزيارات بين الأهل والأقارب وتقديم الهدايا للصبيان وإكرام الضيف، ومن العادات التي تقام ما يعرف ب (بيانو)، وتكون الاحتفالية الكبرى بهذا اليوم بقصر تمنطيط، بتقديم رقصات الفلكلور بحضور جموع غفيرة من مختلف المناطق لما في هذا اليوم من الخير والبركة[2].

جرت عادة سكان توات أن يحتفلوا بالمولد النبوي الشريف على غرار سكان الجزائر عامة، وكانت الاحتفالات تنطلق من بداية شهر ربيع الأول عبر كافة القصور التواتية بقراءة القصائد الوترية في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ما يعرف محلياً ب (البشير)، وفي ليلة الثاني عشر منه يُقام حفل كبير في إحدى زوايا كل قصر يتم خلاله تلاوة المدائح الدينية، وفي المساء تقام أنشطة فلكلورية حسب عادات كل قصر، وقد صادف الرحالة رولفس (Rohlfs) بتسابيت احتفالات المولد النبوي الشريف فشاهد رقصات البارود طيلة الليلة[3]، كما يؤكد دوماس (Daumas) من جانبه أن احتفالات المولد النبوي تتم بأُبهة عظيمة وبمجموعات كبيرة تحمل كل واحدة علمها [4]. وتستمر الاحتفالات إلى غاية 18 من ربيع الأول المعرف ب (السبوع)، ومن الرقصات الشعبية خلال هذه المناسبة البارود والحضرة وإيشو وأهليل والطبل وقرقابو وبوهاروس [5] وغيرها من الإيقاعات الشعبية التي كانت تمارس في مختلف المناسبات الاجتماعية.

المبحث الثالث: المستوى المعيشي وآفات المجتمع

أولاً: المأكل والملبس:

01/ المأكل:

يُشكل الطعام أحد أهم مظاهر الحياة الاجتماعية للسكان، وكان التواتيون يعتمدون في وجباتهم اليومية من غذاء وشراب على المنتجات الزراعية المحلية، والتي تعد المورد الأساسي في عيش السكان، فإنتاج التمور والحبوب من قمح وشعير وبعض الخضروات واللحوم والألبان كان يغطي

---

[1]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p313.

[2]- محمد الطيب بن الحاج عبد الرحيم (ابن بابا حيدة)، المصدر السابق، ص20.

[3]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p204.

[4]- Eugene Daumas, le Sahara Algérien, op.cit, p288.

[5]- للمزيد حول هذه الرقصات الشعبية، أُنظر: عز الدين جعفري، المرجع السابق، ص ص144- 153.

معظم الحاجات الغذائية، بالإضافة إلى جلب العديد من المواد الغذائية من خارج المنطقة، وعلى العموم اختلفت نوعية الطعام المتناول حسب طبقات المجتمع فطعام الأغنياء يختلف عن طعام الفقراء، وطعام سكان البدو عن سكان الحضر، مع العلم أن المستوى المعيشي كان متدنياً عند معظم العائلات التواتية، حيث كانت تعتمد معظمها على التمر فقط كغذاء أساسي.

يعتبر اللحم الغذاء الأساسي للبدو الرحل لاعتمادهم في نشاطهم الاقتصادي على الرعي وتربية المواشي من جمال وأغنام وماعز [1]، أما شرابهم فهو الألبان خاصة لبن الناقة والماعز [2]، ويُصنع من اللبن الزبدة والجبن والسمن. لكن خلال القرن التاسع عشر لم تعد الحياة الرعوية توفر للبدو الرحل ما كانوا يحتاجون إليه من متطلبات يومية، فهم لا يستطيعون تربية نسبة كبيرة من المواشي نظراً لقلة تساقط الأمطار مما أدى إلى قلة المراعي [3]، فأصبحت حياتهم جد قاسية وصعبة وكان الجوع حليفهم، وتدهورت أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية مما اضطرهم أحياناً إلى أكل جلود الحيوانات بعد ذبحها[4]. وقد أدى ذبح الجمال لتوفير اللحوم إلى نقص أعدادها ما جعل السكان يجلبون الخرفان والماعز من الشمال واللحوم المجففة من السودان الغربي لسد العجز والنقص، فاضطرت على إثر ذلك معظم القبائل الرعوية إلى ترك حياة البدو واتجهوا نحو المدن للعمل في الزراعة والتجارة[5].

أما بالنسبة لسكان الحضر فإن التمر هو الغذاء الأساسي حيث يتناول يومياً مرتين أو ثلاثة، بالإضافة إلى الكسكس[6] المصنوع من الشعير أو القمح بعد طحن كل منهما وتحويله إلى دقيق، ففي معرض حديثة عن غذاء التواتيين يؤكد لانج (Laing) أن التمر: "يعتبر الجانب الرئيسي من طعام السكان"[7]، ويظهر تقرير المستكشف دو كولومب (de Colomb) أهمية التمر عند التواتيين سواء

---

[1]- Paul Soleillet, L'Afrique Occidental, op.cit, p269/ Eugene Daumas, le Sahara Algérien, op.cit, p277.

[2]- Félix Jacquot, op.cit, p276.

[3]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p318/ Abderrahmane Selka, op.cit, p550.

[4]- Louis Voinot, op.cit, p114.

[5]- A.G.P. Martin, Les oasis sahariennes, op.cit, p356.

[6]- الكسكس: يسمى محلياً بالعيش وهو من الوجبات الرئيسية في المنطقة، يتم تحضيره بطريقة فريدة في توات من قبل النساء حيث يؤتى بدقيق القمح أو الشعير ويلقى فوقه الماء والملح ويفتل براحة اليد حتى تتشكل حبيبات صغيرة، ثم يتم تفويره في قدر كبير ويجفف في الشمس لعدة أيام. أُنظر: Marcel Frescaly (Lieutenant Palat), op.cit, 275.

[7]- غوردن لانج، رسالة إلى جيمز بانديال، المصدر السابق، ص340.

كانوا ففقراء أو أغنياء، مشبهاً إياه بالخبز الذي يمثل الغذاء الأساسي عند الأوروبيين إذ يقول: "التمر هو الغذاء الأساسي لجميع السكان، الفقير والغني،... والتمر هو أساس الأطباق، كما هو حال الخبز بالنسبة لنا"[1].

في نفس السياق يؤكد بالات (Palat) أن التمر والكسكس يمثلان الغذاء الأساسي للسكان بقوله: "الطعام يكاد يكون من التمر للطبقة الفقيرة، الأغنياء يأكلون أنواع الكسكس المطبوخ ممزوج بالعدس والتوابل..."[2]، ولا يشذ دوماس (Daumas) عما ذهب إليه أسلافه قائلاً: " أما عن نوع الوجبات التي يستعملونها فهم يأكلون التمر المفور والذي يسقى به الكسكس..." [3]. وينحو الرحالة رولفس (Rohlfs) المنحى نفسه مبرزاً أن التمر والحليب والكسكس والسمن يعتبر الوجبة الأساسية للسكان إذ يتم تناولها بكثرة، وتُقدم للضيوف كذلك [4]، مؤكداً أنه شاهد عائلات في تيدكلت يمثل التمر غذائها الوحيد لعدة أشهر متتالية[5].

من الطبيعي أن تكون أغلب المأكولات تعتمد على ما ينتجُ محلياً في البساتين داخل مجتمع يعتمد على الزراعة مصدراً أساسياً للحياة، وتحضر الوجبات يومياً من قبل النساء في البيوت [6]، وأشهرها: "السفوف" الذي يصنع من التمر المجفف بعد تكسيره في المهراز وتضاف له الكليلة، بالإضافة إلى "المردود" الذي يشبه الكسكس كثيراً إلا أنه غليظ الحب، كما تعتبر "الكسرة" و"الخبز" من الوجبات المحببة للسكان حيث يتم طهيها على الجمر ويضاف إليها اللحم والخضر، وكثيراً ما يتم استعمالها كوجبة مفضلة في المناسبات [7]. أما اللحم فكان لا يتوفر إلا على موائد العائلات الميسورة التي تهتم بتربية المواشي، وعادة ما يتم تناول اللحم مملح اً ومجففً ولا يتناول طازجاً إلا قليلاً [8]، أما الفقراء فلا يأكلون اللحم إلا في المناسبات والأعياد.

---

[1]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p318.

[2]- Marcel Frescaly (Lieutenant Palat), op.cit, 235.

[3]- Eugene Daumas, Le grand désert, op.cit, p63.

[4]- Gerhard Rohlfs, Reise durch Marokko, op.cit, p98.

[5]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, pp222-223.

[6]- Victor Colonieu, op.cit, T14, p74.

[7]- Louis Voinot, op.cit, p114.

[8]- Marcel Frescaly (Lieutenant Palat), Ibid, p235.

من الوجبات الغذائية التي شاع عند التواتيين تناولها وأثارت استغراب واشمئزاز الأوروبيين ودهشتهم هي أكل الجراد، فقد شاهد رولفس (Rohlfs) أن جراد أكبر حجماً عن ذلك المتواجد في ألمانيا، ويتم اصطياده وتحضيره كوجبة غذائية، مستعرضاً هذه الطريقة بقوله: "يتم شواءه على النار، ويؤكل مع قليل من الملح والبهار بعد نزع الرأس والأحشاء والأجنحة" [1]، مضيفاً في ذات السياق أن التوارق يحضرونه بطريقة مختلفة حيث: "يتم تحميره ثم طحنه، بعد ذلك يخلط مع التمر المطحون"، ويواصل حديثه: "أن هذا سيكون مقززاً لدى الأوروبيين"[2].

وبخصوص الخضر والفواكه فيستهلك التواتيون منها ما يتم إنتاجه في حقولهم وبساتينهم، ورغم قلتها فإنها كانت تفي بحاجاتهم الضرورية، وأهم الخضر التي يستهلكونها البصل والجزر واللفت والقرع و الجلبان والفلفل[3]. أما الفواكه فكان التمر يعتبر الفاكهة الرئيسة، بالإضافة إلى ما يُنتج محلياً مثل العنب والرمان والبطيخ والتين [4]. أما شرابهم المفضل فهو الشاي الصيني الذي يعد أكثر المشروبات استهلاكاً في معظم المناطق الصحراوية [5]، وقد لاحظ دو كولومب (de Colomb) أن التواتيين يخلطونه بالنعناع المنعش ما يعطيه نكهة خاصة، ويضيف أن استهلاكه يقتصر على الفئات الغنية دون الفقيرة[6]، حيث يتم تناوله أربع مرات في اليوم في الصباح وبعد الغذاء وفي المساء وبعد العشاء [7]. ويقدم عادة في المناسبات والاحتفالات، وهو من المواد التي تجلب من بلاد السودان.

يتناول التواتيون يومياً وجبتين أساسيتين، الأولى وجبة الفطور التي يتم فيها تناول التمر واللبن، والثانية وجبة العشاء يأكل فيها التواتيون الكسكس والفطائر المصنوعة من الشعير والقمح [8]، ويتم طهي وتناول الوجبات في الأواني المصنوعة من الطين مثل القدور والطواجين، وتستعمل القلة لتبريد الماء[9]. وعلى العموم كانت الوضعية الاجتماعية للتواتيين خلال القرن التاسع عشر جد صعبة

1- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p250.

2- Ibid, p250.

3- Abderrahmane Selka, op.cit, p550.

4- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, Ibid, p219/ Abderrahmane Selka, Ibid, p550.

5- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, Ibid, p265.

6- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p315.

7- Louis Voinot, op.cit, p115.

8- A.G.P. Martin, Les oasis sahariennes, op.cit, p351.

9- Abderrahmane Selka, Ibid, p549.

فالأغلبية منهم فقراء لا تتوفر لهم حاجياتهم الضرورية من الأكل والشرب، لكن مظاهر التكافل الاجتماعي بين الأغنياء والفقراء كانت سائدة في المجتمع، حيث يوزع الأغنياء التمر على الفقراء قبل حلول موسم جمع التمور.

ضربت توات خلال القرن التاسع عشر فترات قحط ومجاعة نتيجة عوامل طبيعية أو أمنية، مثل اجتياح الجراد أو الجفاف أو الأوبئة والأمراض أو بسبب حملات الغزو المتكررة، ما تسبب في هلاك كثير من السكان. ففي سنة 1861م أصابت المنطقة أزمة اقتصادية حادة بسبب الرياح الحارة [1] التي أتلفت المحاصيل الزراعية، مما أدى إلى مجاعة بالمنطقة، وفي سنة 1864م كان رولفس (Rohlfs) شاهداً على حدوث مجاعة بعين صالح ناجمة عن تأخر وصول قافلة محملة بالحبوب لأكثر من 15 يوماً[2]، بسبب اعتراضها من طرف قطاع الطرق، مصرحاً في نفس السياق أنه هو نفسه كاد أن يعاني بسبب: "الكثير من الضيوف الذين يأتون إلي كل يوم من أجل الأكل " [3]، وتكررت المجاعة خلال سنة 1865م بسبب اكتساح الجراد للمنطقة [4] مما تسبب في أزمة اقتصادية حادة، وأدت هذه المجاعات إلى عدد كبير من الضحايا خاصة من الفقراء فكانت جثث القتلى مُلقاة في الأزقة والشوارع، وأصبحت وجوه الناس شاحبة[5].

02/ الملبس:

اللباس ثقافة شعبية فشكله ولونه ومادة صنعه تتحكم فيها عوامل اجتماعية وطبيعية، إذ يختلف لباس الأغنياء عن لباس الفقراء، ولباس الأسياد يختلف عن لباس العبيد، ورغم أن اللباس في منطقة توات يختلف حسب الإقليم والطبقات الاجتماعية إلا أن هناك تقارباً كبيراً بينهم[6]، فاللون المحبوب في هذه الأوساط كان اللون الأزرق لأنه اللون الذي يروق للنظر ولا يتعب العين، كما كان اللون الأبيض مشهوراً في الأوساط الصحراوية، لأنه يعكس أشعة الشمس ويجلب البرودة والانتعاش للجسم، وكان اللباس يصنع من المنتوجات الصوفية والقطنية المحلية [7]، ويستعرض الرحالة الأغواطي لباس سكان

---

[1]- Bernard Saffroy, op.cit, p09.

[2]- Jules Cambon, op.cit, p183.

[3]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p242.

[4]- Bernard Saffroy, Ibid, p09.

[5]- A.G.P. Martin, Les oasis sahariennes, op.cit, p364.

[6]- Victor Colonieu, op.cit, T14, p78/ colonel d'Eu, op.cit, p106.

[7]- غوردن لانج، رسالة إلى جيمز بانديناال، المصدر السابق، ص340.

توات بقوله : "...وهم يلبسون الثياب الصوفية والقطنية" [1]، ويمضي في حديثه ذاك قائلاً: "ويلبس السكان ثياباً من الساي الأسود ومن الصوف"[2].

أجمعت المعلومات المختلفة التي ساقها الرحالون الأجانب الذين عبروا توات خلال هذه الفترة أن الرجل التواتي يرتدي بدلة متكونة من سروال وعباءة مصنوعة من القماش "الساي"، ويضيف الأغنياء برنوساً ليقيهم قساوة البرد، ويضعون على رؤوسهم شاشاً أو قبعة، في حين يرتدي الفقراء قميصاً من القطن فقط وسروالاً سيئاً ولا يضعون على رؤوسهم شيئاً وتبقى مكشوفة [3]، وينقل الحاكم العام الفرنسي في الجزائر جول كامبون (Jules Cambon) 1897م وصفاً عاماً عن لباس سكان قورارة بقوله: "...يرتدي الرجال والنساء عادة الأقمشة القطنية المصبوعة باللون الأزرق، وهذا ينطبق على عموم التواتيين، ويرتدي العبيد والزنوج والحراطين سراويل وقندورة تتميز بالخشونة، وفي بعض الأحيان ملابس لتغطية عورتهم فقط" [4]. أما التوارق فيلبسون ملابس بيضاء ويلفون رؤوسهم بشاش أبيض أو أسود يغطي كل الوجه ولا يظهر إلا العينين[5]، وسبب ذلك حماية وجوههم من أشعة الشمس ومن الزوابع الرملية التي تهب على المنطقة معظم الأوقات[6].

فيما يخص الأحذية فهي خفيفة عبارة عن نعال أو بلاغي دون أربطة تغطي الرجل كلها مصنوعة من ليف النخيل[7]، بل أن معظم السكان لا يلبسون شيئاً في أرجلهم فكانوا حفاة القدمين ، وعلى خلاف ذلك يلبس التوارق أحذية طويلة وضيقة مصنوعة من الجلد غالباً [8]. ويكاد دو كولومب (de Colomb) ينفرد عن نظرائه بالحديث عن حلاقة الشعر عند التواتيين ويزودنا بمعلومات عن هذه الطريقة بقوله: "يحلق بعض الرجال نصف رؤوسهم مرة في الشهر، بينما يحلق بعضهم الرأس كله ويتركون خطاً من الشعر في وسط الرأس من الجبهة إلى الرقبة"، ويتابع هذا المستكشف حديثه عن

[1]- الحاج ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص93.

[2]- المصدر نفسه، ص94.

[3]- Marcel Frescaly (Lieutenant Palat), op.cit, p43/ Eugene Daumas, le Sahara Algérien, op.cit, p278/ Victor Colonieu, op.cit, T14, p79.

[4]- Jules Cambon, op.cit, p231.

[5]- غوردن لانج، رسالة إلى ر.ويلموت هورتون، المصدر السابق، ص338.

[6]- Paul Soleillet, L'Afrique Occidental, op.cit, p259/ Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p238.

[7]- Louis Voinot, op.cit, p114.

[8]- Gerhard Rohlfs, Ibid, p238.

طريقة الحلاقة عند الأطفال: "...أما الأولاد فتترك لهم باقة من الشعر أعلى الأذن اليمنى تسمى بالقطاية، عوض قمة الرأس"[1].

وبالنسبة للباس المرأة فيختلف حسب الطبقة الاجتماعية، إذ يؤكد كولونيو (Colonieu) أن المرأة ذات الطبقة الاجتماعية الأولى ترتدي فوق اللباس إزاراً تلفه فوق كامل جسدها وتثبته حول الخصر بواسطة حبل حتى لا يسقط ، ويكون فضفاضاً لا يبدي عورتها يسمى محلياً "الحايك"[2]، كما ترتدي الخمار المصنوع من القماش الأسود "الساي" المجلوب من السودان وسعره مرتفع جداً [3]، وبخصوص لباس نساء الحراطين والعبيد فهو عبارة عن عباءة رديئة الصنع من القماش أو الصوف[4].

وعن الحلي يخبرنا لانج (Laing) أن: "النساء تحب البهرج والزينة والحلي الثمينة"[5]، كما أشار رولفس (Rohlfs) من جهته إلى أن النساء يرتدين خلاخل مصنوعة من الفضة وأصداف قطع معدنية[6]، ويسير كولونيو (Colonieu) في النهج نفسه مضيفاً أن النساء: "يرتدين أيضاً أساور القدم واليد المصنوعة من العاج والخشب والنحاس والفضة والذهب، بالإضافة إلى الأقراط المتدلية الضخمة والثقيلة جداً"[7]. هذا بالنسبة لنساء الطبقة الميسورة الحال، أما نساء الطبقة الاجتماعية الدنيا فيشير فوانو (Voinot) إلى أنهن يرتدين أسورةً مصنوعةً من الزجاج[8]. كما أن النعال لا تختلف عن التي يلبسها الرجال، وأغلب النساء يمشين حافيات.

يظهر لنا من خلال شهادات الرحالين والمستكشفين حول لباس وطعام سكان منطقة توات أن المستوى المعيشي للتواتيين خلال القرن التاسع عشر تميز ببساطة المأكل والمشرب والملبس، الذي تحكمت فيه الظروف الطبيعية للمنطقة الصحراوية عامة ، والتي لا تسمح إلا بتأمين عيش الكفاف للسكان، ورغم الفوارق الاجتماعية بين الأغنياء والفقراء ألا أن هذه الفوارق لم تكن تظهر إلا في المناسبات الاجتماعية والأعياد الدينية.

1- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p317.

2- Victor Colonieu, op.cit, T14, p78.

3- Abderrahmane Selka, op.cit, p548.

4- Marcel Frescaly (Lieutenant Palat), Ibid, p234.

5- غوردن لانج، رسالة إلى جيمز باندينال، المصدر نفسه، ص340.

6- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p210.

7- Victor Colonieu, Ibid, p79.

8- Louis Voinot, op.cit, p114.

ثانياً: الأمراض والأوبئة وثقافة المجتمع في علاجها

أدت الظروف المناخية والمعيشية الصعبة للسكان مع قلة الغذاء وعدم تنوعه في توات إلى ضعف جسم الإنسان، الذي أصبح مهدداً بمختلف الأمراض، وتُحيلنا كتابات الرحالة وتقارير المستكشفين بخصوص الوضع الصحي إلى انتشار أمراض متنوعة، إذ يخبرنا الرحالة رولفس (Rohlfs) بأنه شاهد كل أنواع الأمراض بالمنطقة [1]، وينحو دو كولومب (de Colomb) المنحى نفسه مؤكداً أن: "الأمراض متفشية بكثرة، خاصة خلال الشهور الأولى من الصيف" [2]. كما أن ممارسة الطب الشعبي كانت منتشرة بشكل كبير لعلاج المرضى، إذ يجزم دوماس (Daumas) في هذا السياق أن أطباء توات لديهم علاج لجميع أنواع الأمراض الموجودة بالمنطقة [3]. وقد استخدم في العلاج مستخلصات الأعشاب والمعادن التي توفرها البيئة الصحراوية ويتم تحضيرها بوسائل بسيطة، حيث تُقدم للمريض في شكل مرهم أو سائل.

تُعد أمراض العيون الأكثر انتشاراً بين السكان وذلك بسبب الغبار والرياح العاتية، مما تسبب في انتشاره ا بين مختلف الفئات، وأهم هذه الأمراض الرمد الحبيبي (Trachome) وهو التهاب الملتحمة الذي تؤدي في الغالب مع تقدم العمر إلى العمى [4]، خاصة وأن المرضى لا يلجؤون إلى العلاج إلا بعد فوات الأوان، وأحسن دواء يُستعمل للوقاية من التهاب العيون هو الإثمد [5]. لقوله صلى الله عليه وسلم: " اكْتَحِلُوا بِالإِثْمِدِ؛ فَإِنَّهُ يَجْلُو البَصَرَ، وَيُنْبِتُ الشَّعْرَ"[6] فهو يرطب العين ويبردها، ويشترط فيه نظافة المكان والوسائل، مع نظافة الشخص الذي يقوم بإعداد الإثمد. كما أشار رولفس (Rohlfs) إلى استخدام دواء آخر يسمى (الطملة) "thomela"[7] وهو عبارة عن معدن منتشر في المنطقة بشكل كبير ويستخدم لعلاج عدة أمراض أخرى منها التهاب الحلق ومرض الزهري[8].

1- Gerhard Rohlfs, Reise durch Marokko, op.cit, p168.

2- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p318.

3- Eugene Daumas, Le grand désert, op.cit, p84.

4- P. Devors, **Le Touat**, **étude géographique et médicale**, Institue Pasteur, d'Alger, TXXV, N3-4, 1947, p255.

5- Gerhard Rohlfs, Ibid, p168.

6- أخرجه الترمذي في سننه، حديث رقم 530، ص286.

7- Gerhard Rohlfs, Reise durch Marokko, Ibid, p168.

8- Henri Bissuel, op.cit, p32.

من الأمراض المتفشية في توات أمراض المعدة التي استغرب رولفس (Rohlfs) من انتشارها بكثرة في المنطقة[1]، رغم زهد السكان في الأكل والشرب، كما أن مياه الشرب في المنطقة عبر الآبار مفيدة جداً لصحة المعدة، إذ يصرح لانج (Laing) أنه استفاد كثيراً من شرب مياه هذه الآبار المشبعة بالصودا ما جعل معدته مقاومة لعدة أمراض[2]. ويُرجع دو كولومب (de Colomb) سبب أمراض المعدة إلى العادات الغذائية السيئة للسكان[3]، مثل الإفراط في شرب الشاي لأنه يمتص الرطوبة من الجسم، وأكل خبز القمح الصلب الثقيل على المعدة، وأكل لحم البقر لعدم تناسبه مع البيئة التواتية الحارة، كل ذلك يؤدي إلى تكدس الفضلات في المعدة، كما أن أكل التمر النيئ يؤدي إلى التهاب المعدة والأمعاء الذي انتشر بكثرة وأصبح يؤدي إلى العديد من الوفيات. ويعالج هذا المرض حسب رولفس بدواء يسمى الونكل (l'ouankal) أو المنكل (menkel)[4] وهو معدن يوجد بالمنطقة يتم إذابة كمية صغيرة منه في الماء وشربه[5]، وكما يُعالج مرض التخمة عن طريق التقيؤ وذلك بشرب كميات معتبرة من الماء الساخن المملح مع التهييج باستعمال الأصبع أعلى الحلق[6].

تشير العديد من كتابات الرحالة إلى انتشار أمراض الكسور في العظام والتي كانت منتشرة بكثرة نتيجة تسلق أشجار النخيل، إذ يخبرنا دوماس (Daumas) نقلاً عن بعض التواتيين أن شابًّا سقط من أعلى النخلة كُسر في ساقه، فقدَّم وصفة الطب الشعبي التي يستخدم فيها معجون يتكون من أُح البيض ودقيق القمح ومسحوق الحناء، ويوضع على مكان الكسر في شكل جبيرة ويلف بقطعة من القطن ويثبت بعصي النخيل، وفي اليوم السابع تنزع الجبيرة ويتم كيه بالنار[7]، حيث يستطيع في اليوم الثامن والعشرين المشي على قدميه، ويعترف هذا المستكشف بكفاءة الأطباء التواتيين في طريقة معالجة الكسور التي يحالفها النجاح دائما[8]. كما عالج رولفس (Rohlfs) –الذي كان يدعي أنه طبيب– العديد من أمراض الكسور والرضوض والأورام في عين صالح عن طريق الكي بالنار

---

[1]- Gerhard Rohlfs, Reise durch Marokko, op.cit, p168.

[2]- غوردن لانج، رسالة إلى النقيب ي. سابين، المصدر السابق، ص351.

[3]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p318.

[4]- Gerhard Rohlfs, Ibid, p168.

[5]- Henri Bissuel, op.cit, p32.

[6]- عبد الرحمن بعثمان، **الصناعات الدوائية والطب الشعبي بمنطقة توات خلال القرنين 12 و13 الهجريين دراسة من خلال الوثائق المحلية المخطوطة**، المجلة الجزائرية للمخطوطات، مج16، ع01، 2020م، ص ص7- 22.

[7]- Eugene Daumas, Le grand désert, op.cit, p83.

[8]- Ibid, p84.

والحجامة، مشيراً إلى أن الطبيب الفعال عند سكان توات هو من يشعرهم بالألم عند العلاج، فكان كثيراً ما يستعمل هذا العلاج لنزع البثور، ما جعله محبوباً لدى السكان [1]. وجدير بالذكر أن هذا العلاج لا يزال مستمراً إلى غاية اليوم، فلا يكاد يخلو قصر من قصور توات من طبيب شعبي لعلاج الكسور والكي بالنار أو الحجامة.

كما يتحدث رولفس (Rohlfs) عن شيوع أمراض الصدر والروماتيزم بشكل كبير في توات، وكثيراً ما تؤدي الأورام الروماتيزمية بالسكان إلى الشلل التام [2]، وهي ناتجة عن نزلات البرد نتيجة البرودة الموسمية بسبب الفارق الكبير في المدى الحراري بالمنطقة خاصة في فصل الصيف حيث تصل درجة الحرارة في النهار أكثر من 40 درجة بينما يكون الليل بارداً [3]، ويخبرنا المستكشف لانج (Laing) وهو المزود بترمومتر لقياس درجات الحرارة أن البرد وصل إلى درجة التجمد يوم 03 نوفمبر بعين صالح [4]، بالإضافة إلى تأثير الرياح القوية التي تؤدي إلى الاختناق وضيق التنفس.

انتشرت في توات بعض الأمراض والأوبئة المعدية، ومنها مرض الجذري الذي يعتبر الأكثر انتشاراً في المناطق الصحراوية والأكثر فتكاً بالسكان، وقد انتشر نتيجة غياب النظافة وندرة المياه وصعوبة نقلها إلى البيوت [5]، ولأن هذا المرض متنقل كان يتم علاجه عن طريق تلقيح الشخص المصاب بالفيروس من خلال إجراء جراحة في يده بين الإبهام والسبابة، وبالتالي تصبح إمكانية تنقل الفيروس ضعيفة جداً [6]. ومن الأوبئة المتنقلة حمى الملاريا (Paludismes) التي أصابت المنطقة في العديد من السنوات بسبب تلوث مياه الفقارات [7]، وتجمع المياه الراكدة بالسبخات ومياه الأحواض الزراعية، وكانت حشرة البعوض سبباً في نقل العدوى بين السكان، مما أدى إلى ظهور عدة بؤر للمرض، ومات بسببه عدد هائل من السكان، حيث نتج عنها في بعض السنوات وفاة سكان قصر بأكمله [8]. بالإضافة إلى أوبئة معدية أخرى مثل التيفوئيد والتيفيس وغيرها.

---

[1]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p232.

[2]- Ibid, p222.

[3]- Henri Schirmer, op.cit, p406.

[4]- غوردن لانج، رسالة إلى هانمر وارنجتون، المصدر السابق، ص331.

[5]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p318.

[6]- Eugene Daumas, Le grand désert, op.cit, p85.

[7]- Louis de Colomb, Ibid, p318.

[8]- Jules Cambon, op.cit, p238.

يُعتبر العلاج الروحاني من أهم طرق العلاج الشهيرة في توات خاصة إذا كان المرض نفسياً، ويشير دوماس (Daumas) إلى أن هذه الطريقة تعتبر لدى العديد من السكان أفضل من الطرق الأخرى التي تستخدم فيها المستخلصات الطبيعية[1]، ومن جانبه يؤكد بالات (Palat) – الذي كان يدعي أنه طبيب– أن التواتيين يفضلون الطب الروحاني الذي يقوم على الرقية الشرعية، فكل المرضى الذين زاروه طلبوا منه ذلك وقد كان يلبي طلباتهم [2]، ويمضي هذا المستكشف في وصف هذا العلاج مشيراً إلى أنه يكون عن طريق قراءة بعض آيات القرآن الكريم ، مما يؤدي إلى تحسن الحالة النفسية للمريض، وقد تكتب الآيات القرآنية في ورقة وتوضع في إناء ويصب عليها الماء ثم يشربه المريض[3].

يظهر من خلال ما سبق أن وجود المنطقة ضمن منا خ جاف جعلها مطية لعدة أمراض التهابية، فالبرودة الموسمية والحرارة المرتفعة خاصة في الصيف والرياح القوية التي تشهدها المنطقة أثرت على الوضع الصحي للسكان، بالإضافة إلى أن نقص الغذاء والعادات الاستهلاكية السيئة زاد من تعقيد هذا الوضع. وقد كان العلاج تقليدياً فقط وغاب الطب الحديث، كما كان الأطباء يملكون علاجاً لكل الأمراض، ولا تزال إلى الآن تشتهر عائلات تواتية بالطب الشعبي وحققت الكثير من النجاحات، حيث لا يخلو أي قصر من قصور توات من طبيب للعلاج بالكي أو جبر الكسور باستخدام مواد محلية بسيطة.

ثالثاً: الآفات والمفاسد الاجتماعية المُعاينة من قِبَل المستكشفين

لم يخل المجتمع التواتي – كغيره من المجتمعات الكبيرة الصحراوية أو غيرها– من بعض السلبيات والآفات الاجتماعية بسبب قلة الوعي وانتشار الجهل، وقد حملت نظرة المستكشفين الأوروبيين للمنطقة خلال القرن التاسع عشر نظرة سوداوية عن المجتمع التواتي العربي الإسلامي، كان الهدف منها تشويه صورته وقطع الصلة بينه وبين المجتمع الجزائري، حيث حاول الأوروبيون إسقاط واقع أوروبا على واقع المجتمع الصحراوي، هذا ما جعلهم يرون بعض العادات التي كان يعتبرها السكان ترفيها عن النفس أنها مفاسد اجتماعية.

تعتبر آفة التدخين التي انتشرت في توات بشكل واسع من أخطر الآفات الاجتماعية بسبب الإفراط في استعماله لدى فئة عريضة في المجتمع التواتي، حيث يبالغ دوماس (Daumas) في اتهام

[1]- Eugene Daumas, Le grand désert, op.cit, p85.

[2]- Marcel Frescaly (Lieutenant Palat), op.cit, p255.

[3]- Ibid, p219.

التواتيين بأنهم أصحاب نزوات فالجميع حسب قوله يستهلك التبغ المخدر لدرجة أن أحدهم يقول: "أعطني تبغاً أصبح لك عبداً" [1]. ويتم استنشاق عشبة التبغ بالأنف بعد الطحن والسحق أو تدخن كحشيش، وعن طريقة تدخينه يصرح بالات (Palat) أن السكان يدخنونه في أنابيب خاصة أو في عظمة خروف مُعدَّة لذلك [2]، ويسير كولونيو (Colonieu) في المنحى نفسه مؤكداً أنه شاهد هذا الأنبوب يمر من فم إلى فم بين المدخنين[3].

وفي نفس الصدد سجل رولفس (Rohlfs) خلال تجواله بالبلاد التواتية أن السكان يزرعون العفيون على مساحات واسعة جداً، ويستهلكونه بكثرة، لاسيما شمال المنطقة[4]، مُعرباً عن دهشته من حالة الإدمان التي وصل لها بعض السكان حين يقول: "طلب مني أحد المسنين مترجياً أن أعطيه القليل من العفيون لأنه لم يأكل شيء منذ ثلاثة أيام، وبدون عفيون لا يمكنه الأكل والشرب ولا العمل، باختصار كان غير قادر على فعل شيء..."[5]. ويبدو أن الدراسات المحلية خلال القرن التاسع عشر أكدت هذا الأمر، فقد أشارت نوازل الغنية إلى انتشار ظاهرة التدخين وزراعة التبغ بشكل كبير في توات[6]. ويظهر أن العلماء اختلفوا حول حكمها الشرعي وتباينت فتاو اهم حولها، ثم أن هذه الظاهرة لم ينفرد بها المجتمع التواتي بل هي ظاهرة شائعة.

يؤمن بعض سكان توات بالشعوذة والطلاسم بشكل كبير، وهي عبارة عن تمائم مكتوبة على أوراق صغيرة مربعة ومغلقة في أكياس من الجلد مربوطة في العنق أو في الذراع [7]، يعتقد السكان أنها تقيهم من الأمور الضارة كالجن والعين ووجع الرأس وغيرها [8]، وهناك من يعلق عظام الحيوانات على جدران بيوتهم وبساتينهم لنفس الغرض [9]. ومن الآفات التي انتشرت في المجتمع التواتي خلال هذه الفترة السحر، حيث كان السحرة يقومون بنبش القبور وأخذ قطعة من جسد الميت وخلطها مع

---

[1]- Eugene Daumas, Le grand désert, op.cit, p64.

[2]- Marcel Frescaly (Lieutenant Palat), op.cit, p237.

[3]- Victor Colonieu, op.cit, T14, p74.

[4]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p221.

[5]- Ibid, p213.

[6]- عبد العزيز البلبالي، المصدر السابق، ص160.

[7]- Eugene Daumas, Ibid, p63.

[8]- غوردن لانج، رسالة إلى جيمز باندينال، المصدر السابق، ص340.

[9]- Louis Voinot, op.cit, p108.

اللحم اليابس وذلك لتكوين سحر الحب أو التفرقة [1]. وهذا دليل على ضعف الوازع الديني لدى بعض فئات المجتمع، حيث لا تزال تمارس هذه الظواهر في المجتمع التواتي، وقد حارب علماء الإسلام هذه التصرفات المشينة التي كرسها الاستعمار الفرنسي وغض الطرف عنها.

أشار العديد من المستكشفين الأوروبيين إلى انتشار السفور والدعارة في المجتمع الصحراوي والتواتي خاصة، إذ يقول كفينياك (Cavaignac): "تخرج المرأة الصحراوية مكشوفة...تأتي النساء بالاتفاق مع أزواجهن يمارسون الدعارة" [2]. ونفس الأمر نجده عند الأغواطي الذي يشير إلى انتشار العلاقات الغرامية والعاطفية فيصف نساء الصحراء بقوله: "...ونساؤهم يذهبن إلى السوق غير محجبات، كما يظهرن في البساتين، ويشيع بينهن الخنا [3] كثيراً" [4]، كما أشار دوماس (Daumas) إلى ذلك بقوله: "...الناس مولعون بالحب، نادراً ما تتزوج الفتاة وهي عذراء، حيث أنه من بين الاحتفالات المتعلقة بالزواج أن يستعرض قميص فض البكارة للجميع في الأماكن العامة " [5]، وذلك لاستعراض قوة الرجل حسب زعمهم، و يواصل هذا الرحالة في وصفه لمرأة التارقية قائلاً: "...نساؤهم سافرات الوجوه" [6]، وهي نفس الملاحظة التي ذكرها بالات (Palat) [7] ودو كولومب (de Colomb) [8]، وأشار لها صوليبه (Soleillet) كذلك عند زيارته لعين صالح [9]، وفي نفس الصدد يشبِّه رولفس (Rohlfs) النساء الأرامل والمطلقات اللاتي شاهدهن في قرى وقصور توات بنساء بيوت الدعارة عند المسيحيين، لقلة تحفظهن [10].

---

[1]- Louis Voinot, op.cit, p110.

[2]- Félix Jacquot, op.cit, p280.

[3]- يقصد الأغوطي بالخنا اللقاء الذي كان يجمع بين الفتى والفتاة للتفاهم حول الزواج على مرأى من الجميع في المناسبات الاجتماعية والمواسم وفي الطرقات العامة، وكان مقتصراً على بعض العائلات فقط. أُنظر: أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص260.

[4]- الحاج ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص96.

[5]- Eugene Daumas, Le grand désert, op.cit, p63.

[6]- Ibid, p364.

[7]- Marcel Frescaly (Lieutenant Palat), op.cit, p230.

[8]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p311.

[9]- Paul Soleillet, L'Afrique Occidental, op.cit, p259.

[10]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p241.

يبدو أن هذا الحكم تعسفي يريد من خلاله رولفس (Rohlfs) الطعن في شرف النساء التواتيات وعفتهن، كما أنه وقع في التناقض حيث أشار في الكثير من المرات إلى عفة النساء إذ يقول: "هنا الفاحشة قليلة جداً عند المسلمين، بخلاف المسيحيين"[1]، كما أن دوماس (Daumas) وقع في نفس التناقض، حين ذكر أن سكان توات متمسكون بالدين الإسلامي قائلاً: "أهل توات يطبقون الشريعة الإسلامية بكل شعائرها..."[2]، وهذا يتعارض مع تلك الأوصاف التي وصف بها المرأة التواتية، ومن جهة أخرى فإن استعراض قميص فض البكارة و إن كان عادةً سيئة ودليلاً على ضعف الوازع الديني عند بعض السكان، إلا أنه يعتبر عندهم دليلاً على شرف المرأة، عكس ما يدعيه دوماس الذي يبدو أنه جانب الصواب في ذلك.

تعتبر السذاجة وتصديق الخرافات والاعتقاد بها من العادات السيئة المنتشرة بكثرة بالمجتمع التواتي نتيجة انتشار الجهل، حيث يتم خداع السكان بسهولة وذلك لإيمانهم بالخرافات والمغيبات بشكل كبير، فيتم استغلالهم من طرف بعض فئات المجتمع [3]. ومن أمثلة ذلك أن يدعي شخص ما في زمن الوباء أنه مبعوث من طرف الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي يأمرهم بالصدقة بهدف تهدئة غضب الله عليهم. كما يدعي آخر أنه مبعوث من طرف الولي الصالح الذي مات قبل قرون، ليأخذ منهم بعض الحاجات مثل الشاي والسكر والقمح وغيرها، وإذا تم تجاهل هذا الأمر فلن يرضى عنهم الولي الصالح، والسكان يلبون كل ما يطلب منهم، وتتكرر هذه الأمور بكثرة [4]. ويذكر فوانو (Voinot) أن المرابطين بعين صالح كانوا يعتقدون أنه إذا وقع لهم نزاع مع أي عربي، يذهبون إلى قبة سبعين صالح بن عزي ويدعون عليه قائلين:"ياسبعين صالح بن عزي أعطيه مصيبة" فيسقط العربي مريضاً في حينها[5].

من العادات السيئة المنتشرة بالمنطقة التبذير وعدم الاستعداد للمستقبل، حيث يصل بالسكان إلى درجة الإهمال والتهور، فالمستقبل بالنسبة لهم غير مهم م ا دام الحاضر أحسن ولا يدخرون شيئاً لمستقبلهم، فيعملون على توفير حاجياتهم اليومية ولا يحسبون حساباً ليوم الشدة، ويردد الناس في

---

[1]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p241.

[2]- دوك دي دوماس، المصدر السابق، ص363.

[3]- Eugene Daumas, Le grand desert, op.cit, p63.

[4]- Abderrahmane Selka, op.cit, p553.

[5]- Louis Voinot, op.cit, p116.

ذلك مقولة: "أعطني فطوري سأتخلى لك عن عشائي" [1]. ويدعي السكان عن جهل بأن الله موجود فهو يرزق المخلوقات الصغيرة ولن ينساهم ويتناسون بأن الله لعن البذخ والتبذير، ويعتقدون أن الإنسان آيل للموت والفناء فلا ضرورة للتوفير والتفكير في المستقبل، ويذكُر التواتي ون أنفسُهم بأن هذه التصرفات اللامسؤولة هي من أدت إلى حدوث مجاعات بالمنطقة في العديد من السنوات لأن السكان لا يدخرون شيئا للمستقبل، فعندما تكون جائحة تؤدي إلى مجاعة يضطر السكان لأكل سعف النخيل لسد الجوع[2].

إضافة إلى الكثير من المعتقدات الخاطئة التي لا أساس لها في الدين، حيث يطالعنا الرحالة رولفس (Rohlfs) أنه خلال تنقلاته في منطقة توات لفت انتباهه عدة عادات إسرائيلية قرأها في الكتاب المقدس ولا علاقة لها بالدين الإسلامي [3]، وهي نفس الملاحظة التي سجلها سلكة عن تمنطيط، حيث ذكر أن بعض العادات اليهودية لازالت منتشرة بالمنطقة[4]، ونظراً لتداخل هذه العادات مع العادات الإسلامية لم يعد السكان يهتمون بها، وهو ما يؤكده ف وانو (Voinot) في قوله: "...فالعادات الفاسدة متفشية في المجتمع حتى أصبح الرجال والنساء لا يُعيرونها أي اهتمام" [5]. لكن هذه الآفات والمعتقدات الخاطئة التي انتشرت بفعل الجهل؛ بدأت في الاضمحلال والاختفاء بفضل الإصلاحات التي قام بها علماء المنطقة، ولم يبق منها إلا القليل لدى بعض فئات المجتمع.

خلاصة الفصل الثاني

يتضح لنا من خلال ما ورد خلال هذا الفصل أن الرحالة والمستكشفين الأوروبيين ركزوا على دراسة المجتمع التواتي أكثر من غيرهم من التواتيين، حيث بينت تقاريرهم وكتاباتهم أن المجتمع التواتي يشهد طبقيةً في تكوينه، فحددوا تلك الشرائح الاجتماعية المتشكلة أساساً من: الأشراف والمرابطين والأحرار والحراطين والعبيد. كما قدموا أرقاماً وإحصاءات متفاوت لعدد سكان المنطقة خلال القرن التاسع عشر حسب الفئات الاجتماعية والأقاليم، والتي تبين أن المنطقة كانت آهلة بالسكان. كما لاحظوا أن هناك تبايناً لغوياً بالمنطقة رغم أن اللغة العربية هي اللغة السائدة إلا أن العديد من اللغات واللهجات كانت مستعملة مثل: الزناتية والتيفيناغ والسودانية.

---

[1]- Abderrahmane Selka, op.cit, p553.

[2]- Ibid, p554.

[3]- Gerhard Rohlfs, Reise durch Marokko, op.cit, p100.

[4]- Abderrahmane Selka, Ibid, p551.

[5]- Louis Voinot, op.cit, p104.

رغم هذا التفاوت الطبقي والتباين اللغوي بالمنطقة إلا أنه لم يكن مدعاة للتفرقة، حيث كان نظام الجماعة التواتية هو السائد ويحظى باحترام الجميع، بالإضافة إلى وجود القضاء الإسلامي الذي ساهم في إقامة عدالة اجتماعية. وقد لاحظت عيون المستكشفين الأوروبيين العديد من القيم الاجتماعية التي يتميز بها المجتمع التواتي عن غيره من المجتمعات مثل التدين والكرم وحسن الضيافة والتكافل الاجتماعي.

تؤكد كتابات المستكشفين الأوروبيين والرحالة المحليين أن العمارة التقليدية في توات اختلفت عن غيرها من المناطق، حيث كان النمط العمراني السائد في القصور والقصبات متأثراً بعدة عوامل طبيعية واجتماعية ودينية وأمنية. كما شهدت المنطقة صراعاً داخلياً مريراً بين القصور التواتية التي انقسمت إلى صفين متصارعين هما يحمد وسفيان، واستمر هذا الصراع إلى نهاية القرن التاسع عشر. كما تكلم الأوروبيون عن مكانة المرأة التواتية ودورها داخل المجتمع، حيث نالت حقوقها وكانت عنصراً فاعلاً في المجتمع التواتي، لكن ركز هؤلاء المستكشفون على المظهر الخارجي للمرأة ومقارنتها بالمرأة الأوروبية. وقد حافظ المجتمع التواتي على عاداته وتقاليده الاجتماعية التي توارثها جيلاً عن جيل في المناسبات والأعياد الدينية.

يتبين لنا أن أكل التواتيين كان من الإنتاج المحلي حيث مثَّل التمر الغذاء الأساسي للسكان، كما أن اللباس كان في معظمه من القطن والصوف حتى يتماشى مع مناخ الصحراء، مما يدل على أن المستوى المعيشي كان متدنياً لدى فئة كبيرة من المجتمع التواتي. أما عن الجانب الصحي فقد شهدت المنطقة انتشار العديد من الأمراض والأوبئة الفتاكة التي قضت على الكثير من السكان، وقد عالج السكان تلك الأمراض بما يتوفر لهم من أعشاب طبية. كما لم تخلُ نظرة المستكشفين عن المجتمع من السوداوية، فقد شخصوا العديد من الآفات الاجتماعية التي يريدون من خلالها النيل من المجتمع التواتي والحط من قدره، وقطع الصلة بينه وبين المجتمعات الإسلامية.

الفصل الثالث

الحياة الثقافية في توات خلال القرن 19م

المبحث الأول: المؤسسات الثقافية وموارد تمويلها

المبحث الثاني: طرائق التعليم التواتي وخصائصه

المبحث الثالث: أشهر المصنفين ومجالات التصنيف

المبحث الرابع: الطرق الصوفية في توات

الفصل الثالث: الحياة الثقافية في توات خلال القرن 19م

عرفت منطقة توات انتعاشاً فكرياً وثقافياً بداية من القرن 9هـ/ 15م، حيث توافد عليها علماء من عدة مناطق إسلامية فوجدوها أرض أمن واطمئنان فاستوطنوا بها متأثرين ومؤثرين في من حولهم، بالإضافة إلى ازدهار الحركة التجارية بالمنطقة لوقوعها في مفترق طرق القوافل التجارية القادمة من كل الجهات، فنشطت تجارة الكتب والمخطوطات، هذا ما أدى إلى ازدهار الحركة العلمية والأدبية وحرص الناس على طلب العلم والمعرفة فصار منهم العلماء والقضاة، واستمر هذا الازدهار الثقافي إلى غاية القرن 13هـ/19م الذي شهد حركة ثقافية شملت مختلف العلوم والفنون، وبرز بها مجموعة من العلماء ذاع صيتهم داخل توات وخارجها. ولأن هذا القرن تميز بانتشار الزوايا وعلماء التصوف فإن كتابات الأوروبيين انصرفت إلى هذا الجانب، ولا يكتمل الأمر إلا بالرجوع إلى المصادر والدراسات التاريخية المحلية لإعطاء صورة متكاملة عن الحياة الثقافية بالمنطقة.

سأتناول في هذا الفصل المؤسسات والمراكز الثقافية التي ساهمت في تنشيط الحركة العلمية بالمنطقة، والمتمثلة في الكتاتيب والمساجد والمدارس والزوايا وخزائن المخطوطات الواردة في كتابات المستكشفين الأوروبيين والرحالين المحليين، بالإضافة إلى المراحل والخصائص التي تميز بها التعليم التواتي في تلك الفترة مما يبرز لنا المكانة العلمية للمنطقة، ومما يدل على ازدهار الحياة الثقافية خلال القرن التاسع عشر هو تلك المصنفات التي تركها العديد من علماء هذا القرن في مختلف المجالات العلمية والتي لا يزال العديد منها حبيس خزائن المخطوطات، وختاماً أسلط الضوء على الحياة الروحية التي لقيت اهتماماً كبيراً من طرف المبعوثين الفرنسيين، مبيناً أهم الطرق الصوفية التي انتشرت بالمنطقة مع إبراز دورها في الحراك الثقافي، منتقداً هذه الأقلام الفرنسية.

المبحث الأول: المؤسسات الثقافية وموارد تمويلها

المؤسسات الثقافية هي مواطن النشاط الثقافي والعلمي، فالعلم يحتاج إلى أمكنة لكي يؤدى فيها، فلا بد للعالم من محل يؤدي فيه وظيفته المتمثلة في نشر العلم والمعرفة، وكانت توات عبر تاريخها الإسلامي تتوفر على عدة مرافق ثقافية لم يكن يخلو منها قصر من القصور التواتية، وكان لها الفضل في انتشار التعليم وازدهار الثقافة بالمنطقة، ويعتبر القرن التاسع عشر من أهم الفترات التي عرفت انتشار هذه المراكز الثقافية التي تمثلت في:

01/ الكتاتيب[1]:

الكُتَّاب عبارة عن حجرة صغيرة لتعليم الصبيان تكون مجاورة للمسجد أو بعيدة عنه أو غرفة في منزل تبنى خصيصاً للتعليم القرآني وتعتبر أدنى مؤسسة في التعليم الإسلامي [2]، وتعد من أبرز مؤسسات التعليم وأهمها عند المسلمين لارتباطها بتربية وتثقيف النشء ، ظهر الكُتَّاب عند المسلمين منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وانتشر مع انتشار الإسلام في مختلف البلدان ، حيث ظهر بالمغرب في النصف الثاني من القرن الأول للهجرة [3]، وخلال العهد العثماني شهد الكُتَّاب انتشاراً واسعاً في كل القطر الجزائري، وقد أشار إلى ذلك أبو القاسم سعد الله الذي سماها بالمدارس الابتدائية بقوله: "كثرت المدارس الابتدائية حتى كان لا يخلو منها حي من الأحياء في المدن ولا قرية من القرى في الريف، إنها كانت منتشرة حتى بين أهل البادية والجبال النائية"[4].

يُعد الكُتَّاب من أقدم المراكز التعليمية في توات، ويعرف محلياً بـ "أقربيش" [5]، يلتحق به الصبي عندما يبلغ سن التمييز الذي عادة ما يكون بين سن الرابعة والخامسة من العمر وهو ما ذكره الفلاني القبلاوي عن نفسه إذ يقول: "...وأن والدي أدخلني الكُتَّاب وأنا ابن خمس سنين"[6]. يقوم بالتدريس في الكُتَّاب المؤدب أو المعلم المعروف محلياً بـ "الطالب" [7]، الذي يعمل عل تلقين الأطفال القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن الكريم وبعض النحو [8]، وكانت هذه المؤسسة منتشرة بشكل كبير في كل القصور التواتية خلال القرن التاسع عشر فلا يكاد يخلو منها قريةٌ أو قصرٌ، حيث شاهد فوانو

---

[1]– الكُتَّاب: من الفعل كَتَبَ الشيء يكتبه، والجمع الكتاتيب والمكاتب، موضع تعلم الصبيان. أُنظر: ابن منظور، **لسان العرب**، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ج1، ص ص698-699.

[2]– محمد بن سحنون، **كتاب أدب المعلمين**، تح: محمود عبد المولى، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص64.

[3]– أحمد أبو العباس الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى وعلماء افريقية والأندلس والمغرب** ، تح: محمد حجي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م، ج8، ص156.

[4]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج1، ص274.

[5]– أقربيش: مصطلح زناتي الأصل يعني المدرسة القرءانية، ويعرف في بعض المناطق التواتية بـ "المحضرة" وفي أماكن أخرى بـ "الجامع". أُنظر: الصديق حاج أحمد، المرجع السابق، ص45.

[6]– أبو عبد الله الفلاني القبلاوي، المصدر السابق، ص1.

[7]– Victor Colonieu, op.cit, T14, p75.

[8]– Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p232.

(Voinot) أن الآباء من كل الفئات الاجتماعية يأخذون أبناءهم إلى الكتاتيب التي تشهد انتشاراً واسعاً بالمنطقة[1].

تمثلت أدوات الدراسة في "اللوح" الخشبي، و"القلم" وهو وسيلة الكتابة يتخذ من القصب الجاف، و"الدواة" وهي مداد الكتابة القابل للمحو بواسطة الماء والطين الأبيض [2]، ويفرش الكُتَّاب غالباً بالحصير الذي يجلس عليه الصبيان متربعين حول معلمهم ، وأول ما يبدأ به الصبي هو تعلم الحروف والكتابة والقراءة، ثم حفظ القرءان وتجويده، يقول الفلاني القبلاوي في ذلك: "...ولما بلغت سبع سنين ودخلت الثامن ختمت القرءان الكريم وجمعته" [3]، ثم يعلمهم المؤدب مبادئ علوم الدين واللغة حيث يضيف الفلاني القبلاوي قائلاً: "...وابتدأت قراءة الأجرومية والألفية وحفظتهما وأنا ابن عشر سنين وستة أشهر" [4]. أما عن نظام الدراسة فإن الدوام اليومي يبدأ من الصبح حتى الظهر يتخلله وقت للراحة لتناول وجبة الغذاء ثم يعودون للدراسة بعد أذان العصر، وهناك عطلة يوم الأربعاء مساءً والخميس وصباح الجمعة، وتعطل الدراسة في الأعياد والمناسبات الدينية[5].

أما عن مصادر تمويل الكتاتيب فإنها تقوم على التبرعات النقدية التي يقدمها التلاميذ للمعلم في المناسبات الدينية وأيام العطل [6]، كما يأخذ المعلمون هدايا من آباء الصبيان عند إتمامهم حفظ القرءان تسمى محلياً بـ "أفستوح" [7]، بالإضافة إلى الهدايا التي يقوم التلاميذ بتقديمها لمعلميهم وقت الحصاد، وفي بعض المناطق يُمنحُ المعلمُ بستاناً ونصيباً من الماء[8]. لم تشر كتابات المستكشفين إلى عدد الكتاتيب في المنطقة، لكنها أجمعت على أنه لا يخلو منها أي قصر أو قرية، إذ يقول دوماس (Daumas) عن سكان الصحراء: "لكل حي مسجده ومدرسته حيث يدرس معلمو القرءان

---

[1]- Louis Voinot, op.cit, p126.

[2]- Ibid, p126.

[3]- أبو عبد الله الفلاني القبلاوي، المصدر السابق، ص1.

[4]- المصدر نفسه، ص1.

[5]- Louis Voinot, op.cit, p126.

[6]- كمال السيد أبو مصطفى، **جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي**، مركز الاسكندرية للكتاب، الاسكندرية، 1996م، ص113.

[7]- أفستوح: ما يقدم للمعلم كلما أكمل المتعلم حزباً من القرءان الكريم، ولا يكون إلزامياً إلا إذا أكمل المتعلم الربع من القرءان، وعليه يصبح تقديم أفستوح للمعلم إلزامياً أربع مرات طيلة الفترة التعليمية للمتعلم. أُنظر: عز الدين جعفري، المرجع السابق، ص182.

[8]- Louis Voinot, Ibid, p127

القراءة والكتابة وعلوم الدين" [1]، ومن الدلائل على وجود الكُتَّاب خلال هذه الفترة أن الكثير من أبناء المنطقة وصلوا إلى مرحلة متقدمة في العلم مع صغر سنهم[2]، ولابد أنهم التحقوا بالكُتَّاب ليتعلموا مبادئ الكتابة والقراءة حتى يصلوا هذه المكانة.

رغم ما لهذه المؤسسات من أهمية ثقافية وتعليمية فإن المستكشفين الأوروبيين قد قصروا بخصوص الحديث عنها، شأنهم مع غيرها من المؤسسات التعليمية التواتية الأخرى من زوايا ومدارس قرآنية ومكتبات.

02/ المساجد:

مثَّل المسجد المؤسسة التعليمية الأولى عند المسلمين حيث تزامن ظهوره بظهور الإسلام، فلم يكن مقرّاً للعبادة فقط بل كان يقوم مقام المدارس والمعاهد التي تدرس فيها مختلف العلوم كالقرءان والحديث والآداب والعلوم العقلية، ويجتمع فيه أصحاب المصالح العامة والخاصة، وتعقد فيه عقود الزواج والتجارة[3]، فهو كما يقول أبو القاسم سعد الله: "منشط الحياة العلمية والاجتماعية، وهو قلب القرية في الريف...وهو الرابطة بين أهل القرية والمدينة أو الحي لأنهم يشتركون جميعاً في بنائه، كما كانوا جميعاً يشتركون في أداء الوظائف فيه" [4]. وتوات كغيرها من الحواضر الإسلامية عرفت انتشار هذه المؤسسة الدينية والتعليمية منذ الفتوحات الإسلامية، فقد كانت الدراسة في المسجد تبدأ بعد إنهاء الدراسة بالكُتَّاب لأن جل العلماء كانوا يتحاشون تعليم الصبيان في المساجد[5].

تحيلنا شهادات الرحالين والمستكشفين الذين زاروا توات خلال القرن التاسع عشر إلى كثرة المساجد في توات باعتبارها مؤسسة تعليمية تثقيفية، فلا تجد قرية أو حيّاً إلا وفيه مسجدٌ يعتبر ملتقىً للمصلين ومكاناً للأنشطة العلمية والاجتماعية، إذ يخبرنا الرحالة الأغواطي أنه شاهد: "في توات عدد كبير من المساجد...والسكان فيها يقرؤون" [6]، كما يؤكد دوماس (Daumas) من جهته أنه يوجد

---

[1]- Eugene Daumas, le Sahara Algérien, op.cit, p74.

[2]- عبد العزيز البلبالي، المصدر السابق، ص3.

[3]- Victor Colonieu, op.cit, T14, p80.

[4]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج1، ص244.

[5]- لأن الإمام مالك رضي الله عنه قال: "لا أرى ذلك يجوز لأنهم لا يتنظفون من النجاسة، ولم ينصب المسجد للتعليم". أُنظر: كمال السيد أبو مصطفى، المرجع السابق، ص115.

[6]- الحاج ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص94.

في كل حي مسجد يعلم القراءة والكتابة وعلوم الدين [1]، وهو نفس الأمر الذي شاهده فوانو (Voinot) حيث يقول: "وفي كل قصر يوجد مسجد" [2]، أما الرحالة رولفس (Rohlfs) فكان كلَّما دخل قرية تواتية إلا وأشار إلى انتشار المساجد فيها، فيقول عن برينكان: "المدينة بها ثلاثة مساجد"[3]، وعندما دخل أدرار قال: "أدرار بها مسجدان"، وعندما وصل تمنطيط قال عنها: "توجد بها خمسة مساجد"[4].

أما عن هندستها المعمارية فلم تكن تختلف عن بقية المنازل فلا زخرفة ولا مآذن بها حسب ما أشار له رولفس (Rohlfs) بقوله: "المساجد كلها دون مآذن ودون زخرفة هندسية" [5]، وعند ما دخل أحد مساجد أدرار قال عنه بأنه سيء للغاية [6]، ونفس الأمر ذكره فوانو (Voinot): "المسجد مبني مثل نوعية المنازل الأخرى في البلاد فلا توجد به لا أقمشة ولا زخارف، فالجدران عارية تماما " [7]، وفي نفس الصدد يؤكد دو كولمب (de Colomb) أن مساجد توات عبارة عن مصليات فقط، مشبهاً أيها بالقلاع الإقطاعية في أوروبا[8].

لعبت المساجد بتوات دوراً هاماً في الحياة الثقافية فلم تكن ملتقى للمصلين فقط؛ بل مكان للأنشطة العلمية والاجتماعية [9]، فكان المسجد مركزاً للعلماء ومقصداً لطلاب العلم وعقدت فيه المجالس المتعددة والحلق المتنوعة، وبذلك ساهم في تخريج العديد من العلماء الذين كان لهم دور بارز في التصدي للاستعمار ومنهم من أدى رسالته في وظيفة القضاء والفتوى [10]. أما عن موارد تمويل المساجد فكان السكان هم من يتولون الإنفاق عليها [11]، حيث جرت العادة أن يخصص فلاحو

[1]- Eugene Daumas, le Sahara Algérien, op.cit, p74.

[2]- Louis Voinot, op.cit, p107.

[3]- Gerhard Rohlfs, Reise durch Marokko, op.cit, p100.

[4]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p208.

[5]- Ibid, p203.

[6]- Gerhard Rohlfs, Reise durch Marokko, Ibid, p104.

[7]- Louis Voinot, Ibid, p107.

[8]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p46.

[9]- Victor Colonieu, op.cit, T14, p80.

[10]- عبد السلام الأسمر بلعالم، **الحياة الفقهية في توات خلال القرنيين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين**، أطروحة دكتوراه في العلوم الإسلامية، إشراف: سعيد فكرة، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2016/2015م، ص94.

[11]- أندري نوشي وآخرون، المرجع السابق، ص382.

القصر حزمة من الحطب للمسجد، كما أن هناك من أوقف ممتلكات على المسجد يستفيد منها الإمام، وخصص التواتيون داراً للإمام تسمى "دار الجامع"، وفي بعض المناطق يخصص بستان للمسجد يسمى "جنان الجامع"[1].

03/ المدارس[2]:

المدرسة هي المكان الذي يتلقى فيه المرء المعرفة غير المسجد أو الزاوية، وبذلك تشمل المكان المستقل عن المسجد والمكان الموجود في محيط زاوية حبسها صاحبها في سبيل الله وليس هو الكتاتيب التي عنيناها سابقاً، ويدخل في معنى المدرسة حلقات التدريس التي يعقدها العالم في محل ما بصفة منتظمة، ويدخل في معناها أيضاً الهيكل الذي يشيده العالم ويخصصه لإلقاء دروسه فيه [3]، ورغم أن المسجد كان هو المركز الأول في التعليم زمن الرسول صلى الله عليه وسلم وزمن الصحابة إلا أنه مع حلول القرن 5هـ/11م ظهرت المدارس كمؤسسة تعليمية في المشرق الإسلامي، ثم انتقل هذا النظام إلى المغرب الإسلامي خلال القرن 8هـ/14م بعدما كان النشاط التعليمي ينحصر في الكتاتيب والمساجد[4].

أما في توات فلم يظهر فيها هذا النظام إلا في العصر الحديث، حيث كانت الكتاتيب تسمى المدارس القرآنية[5]، فقد عرف عن علماء توات أنهم كانوا يخصصون مواضع من ممتلكاتهم أو من تبرعات أهل الإحسان فيبنون فيها مدارس لنشر العلم يتولون فيها التعليم بأنفسهم، تفد عليهم فيها الطلبة لتحصيل العلم [6]، وكانت معظم تلك المدارس تشتمل على غرف لسكنى الطلاب الغرباء وللراحة في أوقات الفراغ ولخزن الأمتعة، ولا يسكن بالمدرسة إلا من بلغ عشرين سنة فما فوقها وأخذ العلم ودرسه بقدر وسعة، ويحضر مجلس العلم وتلاوة القرءان صباحاً ومساءً[7].

---

[1]- محمد أعفيف، المرجع السابق، ص91.

[2]- المدارس: جمع مدرسة، من دَرَسَ يدرس الشيء إذا عفا، ودرسته الريح إذا تكررت عليه، ودرس الكتاب يدرسه إذا قرأه. أُنظر: ابن منظور، المرجع السابق، ج6، ص79.

[3]- عبد السلام الأسمر بلعالم، المرجع السابق، ص95.

[4]- عبد العزيز فيلالي، **تلمسان في العهد الزياني**، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2006م، ج2، ص324.

[5]- زينب سالمي، **الحركة العلمية في إقليم توات خلال القرون 08-10 هجرية**، مذكرة ماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي، إشراف: مبخوت بودواية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2012/2011م، ص55.

[6]- أندري نوشي وآخرون، المرجع السابق، ص382.

[7]- كمال السيد أبو مصطفى، المرجع السابق، ص117.

أشارت كتابات الرحالين والمستكشفين إلى انتشار المدارس في توات خلال القرن التاسع عشر إذ يقول دوماس (Daumas): "أهل توات لهم مساجد ومدارس أين يوجد الطلبة الذين يقرأون القرءان ويشرحونه..."[1]، وذكر عبد الرحمن سلكة بعض المدارس العلمية التي تأسست في هذه الفترة أهمها: مدرسة بني تامرت [2] التي أنشأها الشيخ محمد عبد الكريم البلبالي [3] عندما انتقل بعد سنة 1245هـ/1829م من مسقط رأسه قصر ملوكة [4] إلى بني تامرت فاحتضنه أهلها وفتحوا له مدرسة تسمى "دار القراءة" كانت محجَّ ومزارَ طلاب العلم، فتخرج على يديه عدد هائل من التلاميذ [5]، بالإضافة إلى المدرسة التي أنشأها الشيخ عبد الله بن أحمد الحبيب البلبالي [6] في قصر كوسام [7] سنة 1278هـ/1861م[8]، وتولى فيها التدريس رفقة أخيه الشيخ أحمد بن أحمد الحبيب البلبالي [9]، وقد كانت من أنشط المدارس العلمية قصدها الطلاب من كل أنحاء توات[10].

---

[1]- دوك دي دوماس، المصدر السابق، ص363.

[2]- بني تامرت: أحد قصور بلدية تيمي، يقع إلى الجهة الشرقية لتيمي على بعد02 كم.

[3]- الشيخ محمد عبد الكريم البلبالي: هو محمد عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن محمد بن عبد المالك البلبالي، ولد بقصر ملوكة في مطلع القرن 13هـ/19م وتتلمذ على يد الشيخ محمد بن عبد الرحمن البلبالي وابنه الشيخ سيدي محمد عبد العزيز، ارتحل بعد سنة 1245هـ/1829م إلى بني تامرت حيث ساهم في بروز هذا القصر كمركز علمي، توفي سنة 1288هـ/1871م. أُنظر: عبد القادر بن عمر المهداوي، المصدر السابق، ص4.

[4]- ملوكة: أحد قصور بلدية تيمي يقع غربها ويبعد عنها بـ03 كلم.

[5]- Abderrahmane Selka, op.cit, p536.

[6]- عبد الله بن أحمد الحبيب بن محمد بن عبد الله البلبالي: ولد بملوكة عام 1250هـ/1834م وأخذ العلم عن أبيه سيدي أحمد الحبيب، ولما تضلع في العلوم قصد كوسام فأنشأ فيها المدرسة الكوسامية سنة 1278هـ/1861م، تولى خطة القضاء بالديار التواتية عام 1328هـ/ 1909م، تخرج على يده عدد من العلماء منهم المؤرخ سيدي محمد بن عبد الكريم البكراوي، توفي سنة 1329هـ/1910م. أُنظر: محمد بن عبد الكريم التمنطيطي، جوهرة المعاني، المصدر السابق، ص8.

[7]- كوسام: أحد قصور بلدية تيمي، يبعد عن مقر الولاية ب03كلم ناحية الغرب.

[8]- Abderrahmane Selka, Ibid, p536.

[9]- احمد بن احمد الحبيب بن محمد بن عبد الله البلبالي: ولد بملوكة سنة 1248هـ/1832م، أخذ العلم عن أبيه سيدي أحمد الحبيب، انتقل إلى كوسام رفقة أخيه عبد الله وتصدر للتدريس، تخرج على يديه علماء أفذاذ منهم القاضي عبد الرحمن بن عبد الله البلبالي، تولى خطة القضاء في أوائل القرن 14هـ وتوفي سنة 1319هـ/1901م. أُنظر: محمد بن عبد الكريم التمنطيطي، المصدر نفسه، ص8.

[10]- Eugène Daumas, Le grand désert, op.cit, p97.

تجدر الإشارة إلى أن هناك مدارس تأسست قبل القرن التاسع عشر وواصلت عملها خلال هذا القرن، مثل مدرسة تمنطيط التي تأسست في القرن 12هـ/18م[1]، كما سجل دوكولمب (de Colomb) أن مدرسة ملوكة التي تأسست خلال القرن 11هـ/17م تُخرج عدداً كبيراً من أكفأ الطلبة والقضاة بالمنطقة[2]. لكن هذه الكتابات لم تشر إلى عدد المدارس بتوات خلال هذه الفترة، ربما يعود ذلك لكثرتها وانتشارها داخل القصور التواتية مما يصعب تقديم إحصاءات دقيقة عنها.

04/ الزوايا[3]:

عرفت الزوايا انتشاراً كبيراً ببلاد المغرب الإسلامي منذ القرن 5هـ/11م[4]، وظهرت في منطقة توات خلال القرن 6هـ/12م، حيث سعت الزاوية منذ ظهورها إلى تقديم تعليم شرعي في أغلب الأحيان لطلبتها ومريديها، وكانت لها ملاحق خاصة للتعليم مثل المكتبات التي كانت تحتوي على أمهات الكتب في مختلف العلوم خاصة الدينية[5]. تشير الدراسات التاريخية المتخصصة في الزوايا إلى الدور الكبير الذي لعبته الزوايا التواتية في نشر العلم بتوات وخارجها، إذ كانت مقصد العلماء وطلاب العلم والمريدين من مختلف الجهات.

يستفاد من شهادات الرحالين والمستكشفين الأوروبيين الذين زاروا توات في القرن التاسع عشر أن توات كان بها عدد كبير من الزوايا[6]، منها على سبيل الذكر للحصر: الزاوية الكنتية التي أسسها الشيخ أحمد بن محمد الرقاد الكنتي سنة 999هـ/1590م[7] وكانت تعج بطلاب العلم من توات

---

[1]- Abderrahmane Selka, op.cit, p538.

[2]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p46.

[3]- الزوايا: جمع زاوية من زوى الشيء يزويه زيّا إذا نحاه، ومنه زوى الله عني الشر إذا صرفه ونحاه، وزويت الشيء قبضته وجمعته، والزاوية من البيت ركنه. أما اصطلاحاً: هي مؤسسة إسلامية عبارة عن مجموعة من البيوت مختلفة الأشكال تشتمل على مكان مخصص للصلاة وغرفة لتلاوة القرءان وتعليم العلوم العربية والإسلامية وغرف أخرى لسكن الطلبة وإيواء المسافرين وعابري السبيل أُنظر: شعبان عبد العاطي عطية وآخرون، **المعجم الوسيط**، ط4، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2004م، ص408/ صلاح مؤيد العقبي، **الطرق الصوفية والزوايا بالجزئر تاريخها ونشاطها**، ط.خ، دار البصائر، الجزائر، 2009م، ص203.

[4]- بلغ عدد الزوايا على مستوى القطر الجزائري 349 زاوية خلال القرن 19م. وقد صنفت الزوايا إلى صنفين رئيسيين: الأولى مكلفة بإيواء الفقراء والمساكين والضيوف وعابري السبيل والإصلاح بين الناس، والثانية مهمتها تعليم العلم وتحفيظ القرآن الكريم. أُنظر: محمد نسيب، **زوايا العلم والقرآن بالجزائر**، مطبعة النخلة، الجزائر، 1989م، ص31.

[5]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج1، ص268.

[6]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, pp214-215.

[7]- Lewis Watin, op.cit, p239.

وخارجها خاصة من بلاد السودان الغربي [1]، والزاوية التي أسسها الشيخ بن عبد الكريم المغيلي ببوعلي[2]، والزاوية البكرية بتمنطيط التي تأسست على يد الشيخ البكري بن عبد الكريم سنة 1117هـ/1705م وكان لها دور هام في تخريج عدد كبير من العلماء [3]، بالإضافة إلى زاوية سيدي عمر بن صالح بأوقروت، وزاوية تينيلان التي تأسست سنة 1058هـ/ 1648م على يد الشيخ أحمد بن يوسف الونقالي [4] والتي تعدَّت شهرتها الآفاق وقصدها طلبة العلم من كل أرجاء توات [5]، وزاوية شيخ الركب النبوي بأقبلي التي أسَّسها الشيخ محمد بن عبد الرحمان أبو نعامة سنة 1130هـ/1718م والتي كان يجتمع فيها ركب الحجيج القادم من السودان الغربي والمغرب [6]، وغيرها.

أدَّت الزوايا التواتية دوراً بارزاً في الحركة العلمية لما وفرته لطلبة العلم من مأوى ومسكن، ويعود لها الفضل في انتشار التعليم بتوات خاصة بين العائلات الفقيرة، حيث وجد العلماء والطلبة من يعينهم على أعباء الحياة والتفرغ للعلم وعدم الاشتغال بأمور أخرى، فقد عملت على تحفيظ القرءان الكريم ومختلف العلوم الشرعية دون إهمال مختلف العلوم الأخرى [7]، مما ساهم على تقليص الفوارق التعليمية بين السكان وأدى إلى تخريج العديد من العلماء والفقهاء والمتصوفة، إلى جانب ذلك اعتبرت هذه الزوايا بمثابة مخازن ودواوين للكتب والمخطوطات في مختلف العلوم وهذا بفضل اهتمام الشيوخ بالعلم والنسخ والنقل والتأليف [8]. كما كان لكل زاوية أوقاف كثيرة عقارية ومنقولة فلا يكاد يخلو قصر أو بلدة من بساتين ومياه أوقفت على المسجد والزاوية [9]، فكان الناس يميلون بأوقافهم وأفعالهم الخيرية للزاوية أكثر من الكُتَّاب والمسجد والمدرسة.

---

[1]- Abderrahmane Selka, op.cit, p543.

[2]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p38.

[3]- Ibid, p47.

[4]- Bernard Saffroy, op.cit, p7.

[5]- Eugène Daumas, Le grand désert, op.cit, p97.

[6]- Louis Voinot, op.cit, p62.

[7]- مريم بخدا، **أعلام العائلة التنلانية ودورهم العلمي بإقليم توات خلال القرنين (11-12هـ/17-18م)**، مذكرة ماجستير في التاريخ المغاربي عبر العصور، إشراف: خير الدين شترة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أحمد دراية، أدرار، 2012/ 2013م، ص27.

[8]- V. B. Deporter, op.cit, p37.

[9]- مبارك جعفري، العلاقات الثقافية، المرجع السابق، ص134.

05/ خزائن المخطوطات[1] (المكتبات)

الكِتاب بما يحتويه من علم يعد من الأسس التي يقوم عليها رقي الأمم والشعوب، لهذا اهتم التواتيون بمكتباتهم وحرصوا على تزويدها بكل ما يقع تحت أيديهم من الكتب، فاشتهرت توات بكثرة خزائنها مما أعطى دفعاً قوياً لحركة التعليم وشجع على الاهتمام بالعلم، وكثر المريدون والطلاب وازدهرت حركة التأليف والاستنساخ [2]. وقد شهدت المنطقة خلال القرن 13هـ/19م والقرن الذي سبقه (القرن 12هـ/18م) حركة علمية واسعة غذتها ظاهرة الاستنساخ والتأليف، فنمت الخزائن وزاد عدد المخطوطات فيها[3]، وصارت حالة الاستنساخ أشبه بالطباعة العصرية في يومنا هذا، يضاف إلى ذلك وقف بعض المؤلفين كتبهم لصالح المدارس والزوايا والمساجد لينتفع بها طلبة العلم[4].

من أهم خزائن المخطوطات المشهورة في توات خلال القرن التاسع عشر على سبيل الذكر لا الحصر نجد: في إقليم توات الوسطى الخزانة البكرية بتمنطيط [5] التي تأسست في القرن 9هـ/15م على يد الشيخ ميمون بن عمر، وتُعد من أقدم وأغنى مكتبات المنطقة حيث كانت تضم حوالي 3000 مخطوط[6]، وخزانة كوسام التي تأسست سنة 1278هـ/1860م على يد سيدي عبد الله بن أحمد الحبيب البلبالي وتضم في رفوفها ما يزيد عن 250 مخطوط[7]، وخزانة سيدي حيدة ببودة [8] التي تأسست في القرن 12هـ/18م على يد الشيخ سيدي محمد بن المبروك الجعفري وتضم 300 مخطوط

---

[1]- المراد بكلمة (خزانة) في لسان سكان مناطق الجنوب الجزائري وكذا المغرب الأقصى المكتبة الشعبية التي تحتوي على عدد من الكتب المخطوطة سواء كانت هذه الخزانة داخل القصر أو في المسجد أو في بيت من البيوت. أُنظر: صالح بوسليم، **لمحة عن مراكز المكتبات والخزائن الشعبية للمخطوطات في توات جنوب غرب الجزائر خلال القرنين 12- 13 للهجرة**، دورية كان التاريخية، السنة3، ع9، سبتمبر 2010م، ص ص41-48.

[2]- صالح بوسليم، المرجع نفسه، ص ص41-48.

[3]- تشير الإحصاءات إلى أن عدد خزائن المخطوطات في توات بلغ نهاية القرن 19م ومطلع القرن 20م ما يزيد عن 100 خزانة ومكتبة محلية بها قرابة 20.000 مخطوط. أُنظر: أحمد أبا الصافي جعفري، من تاريخ توات، المرجع السابق، ص189.

[4]- مبارك جعفري، العلاقات الثقافية، المرجع السابق، ص138.

[5]- Abderrahmane Selka, op.cit, p538.

[6]- في سنة 1244هـ/1828م قسمت المكتبة بين أفراد العائلة البكرية، فكانت في تمنطيط خزانة الشيخ سيدي أحمد ديدي وخزانة الشيخ سيدي الحاج محمد القاضي وخزانة الشيخ محمد الصالح. أُنظر: صالح بوسليم، المرجع نفسه، ص ص41-48.

[7]- حليمة كحلاوي، **الحياة الثقافية بتوات الوسطى خلال القرنين (12-14هـ/18-20م)**، مذكرة ماجستير في التاريخ الثقافي والاجتماعي المغاربي عبر العصور، إشراف: محفوظ رموم، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة أحمد دراية، أدرار، 2016/2015م، ص195.

[8]- Abderrahmane Selka, Ibid, p539.

في شتى أنواع العلوم، وخزانة ملوكة[1] التي تأسست في القرن 12هـ/18م علي يد الشيخ محمد بن عبد الرحمن البلبالي وتضم ما يقارب 900 مخطوط، واعتبرت أكبر خزانة كتب في المغرب العربي[2]، وغيرها من الخزائن.

أما إقليم قورارة فمن أهم خزائنه نجد: خزانة لمطارفة التي تأسست في القرن 11هـ/17م من طرف العائلة الراشدية وتضم حوالي 800 مخطوط[3]، والخزانة التي أسسها الشيخ سيدي بلقاسم بتيميمون في القرن 10هـ/16م وتضم أكثر من 100 مخطوط[4]. وبالنسبة لإقليم تيدكلت فأهم خزائنه خزانة زاوية الشيخ سيدي امحمد أبي نعامة بأقبلي التي تأسست خلال القرن 7هـ/13م وتعتبر من أشهر خزائن الإقليم من حيث مخطوطاتها كمّاً ونوعاً إذ تضم 400 مخطوط في شتى المجالات والفنون، وخزانة المخطوطات للفلانيين ببلدة ساهل بأقبلي التي أسست من طرف محمد الحسن بن مالك الفلاني خلال القرن 12هـ/18م وتضم أزيد من 220 مخطوطاً[5].

تعد خزائن المخطوطات أداة هامة من الأدوات التعليمية التي ساعدت الطلاب على التحصيل العلمي في توات، فكان دورها بارزاً في نشر العلم وشحذ أذهان العلماء والمدرسين وفوائدها كانت عامة. علماً أن أغلب المدارس والزوايا تواجدت بها خزائن الكتب والمخطوطات لتكون عوناً للطالب على فهم الكم العلمي الذي يتلقاه، خاصة وأن اقتناء الكتب كان يكلف مبالغ باهضة[6]، حالت دون امتلاكها من قبل الأغلبية، كما أنها تعتبر في الوقت ذاته مؤسسة علمية وثقافية مكملة لدرس الأستاذ (الشيخ)، فتيسر للطالب نهل العلوم من مصادرها والاحتكاك بالعلماء والشيوخ القائمين عليها لفك الالتباسات وتعميق المعارف بغية الاستزادة في طلب العلم[7].

يجب الإشارة إلى أن هذه الخزائن تنامت مقتنياتها بفضل العلماء الذين عرفتهم المنطقة على مر العصور؛ إذ كانوا يتخذون من الزوايا والكتاتيب والمساجد محطات لنشر العلم والمعرفة واستنساخ

---

[1]- Abderrahmane Selka, op.cit, p536.

[2]- Eugène Daumas, Le grand désert, op.cit, p97.

[3]- عبد الكريم عوفي، **مراكز المخطوطات في الجنوب الجزائري، إقليم توات نموذجاً**، مجلة آفاق للثقافة والتراث، مركز جمعية الماجد والتراث، ع34، دبي، جويلية 2011م، ص ص113-130.

[4]- صالح بوسليم، المرجع السابق، ص ص41-48.

[5]- محمد باي بلعالم، **إرشاد الحائر إلى معرفة قبيلة فلان في جنوب الجزائر**، د.ن، الجزائر، 2007م، ص68.

[6]- بشار قويدر وحساني مختار، **فهرس مخطوطات ولاية أدرار**، مطبعة عمار قرفي، باتنة، 1999م، ص27.

[7]- صالح بوسليم، المرجع نفسه، ص ص41-48.

المخطوطات، لذلك يمكن القول أن وجود هذه الخزانات والمكتبات كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بوجود الزوايا التي انتشرت في كل توات [1]. كانت المخطوطات التي تعج بها الخزائن بعضها ذات إنتاج محلي من تأليف أصحاب الخزائن وبعضها كان يجلب من خارج توات، وشاعت ظاهرة الاستنساخ في توات، حيث كان العلماء حريصين على جمع الكتب ونسخها بأنفسهم لندرتها وقيمتها المعرفية[2]. ولا تزال هذه المكتبات تؤدي دورها إلى اليوم، لكن جل الإنتاج الفكري والأدبي والديني قد ضاع من خزائن أقاليم المنطقة الثلاثة بفعل عوامل الطبيعة القاسية، بالإضافة إلى عملية النهب أثناء اقتحام الاستعمار الفرنسي للمنطقة مع مطلع القرن 20م.

المبحث الثاني: طرائق التعليم التواتي وخصائصه

أولاً: مراحل التعليم

تقوم المؤسسات التعليمية التي ذكرناها بوظيفة تعليمية ووظيفة اجتماعية، لكن مهمتها الأساسية تعليمية، ولا يتم هذا الأمر دفعة واحدة ولا في وقت واحد، وإنما يمر بمراحل يتدرج فيها طالب العلم من مستوى إلى آخر، والمتتبع لحالة التعليم التواتي يجده يمر بثلاث مراحل هي:

01/ المرحلة الأولى:

تتم في الكُتَّاب؛ ويمكن أن نسميها مرحلة التعليم الابتدائي أو القاعدي، وكان الصبي يدخل الكُتَّاب عند بلوغه سن التمييز [3]، ويعتبر التحاق الصبي بالكُتَّاب حدثاً مهماً في توات، فيرتدي أحسن الملابس ويوضع له الكحل في عينيه والطيب على جسده، ويُقام له حفلٌ يحضر فيه أهله التمر والحليب والخبز الرقيق المحلي والمأدوم بالسمن، ويدعى لتلك المائدة رجال القرية في مقدمتهم تلاميذ الكُتَّاب[4]، ويخط له شيخه الآيات الأخيرة من سورة الإسراء، ثم يكتب الحروف العربية- أ، ب، ت،...- على لوحه، بعد ذلك يتناول الحاضرون اللوح ليكتب كل واحد منهم حرفاً من الحروف الهجائية تبركاً بهم[5]، وبذلك يعتبر الصبي تلميذاً رسمياً في هذا القسم.

يحضر الصبي معه لوحه الخشبي والقلم المصنوع من القصب والمحبرة، وأول ما يبدأ به الطفل في الكُتَّاب هو تعلم الحروف الهجائية، ثم ينتقل إلى حفظ القرءان الكريم ابتداء من سورة الفاتحة ثم

[1]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج5، ص371.
[2]- حليمة كحلاوي، المرجع السابق، ص200.
[3]- أبو عبد الله الفلاني القبلاوي، المصدر السابق، ص1.
[4]- بهية بن عبد المومن، المرجع السابق، ص131.
[5]- محمد باي بلعالم، الرحلة العلية، المرجع السابق، ج1، ص263.

المعوذتين، وهكذا يتدرج عبر سوره إلى أن يختمه [1]، ومن العوائد الموجودة في الكتاتيب التواتية الإملاء والتكرار، فالإملاء يسمى محلياً بـ "الفتوى" وهو أن يجلس الصبي بالقرب من شيخه ويملي عليه الثمن أو الربع من القرآن، ويجمع المعلم في كل يوم بعد صلاة المغرب والانتهاء من قراءة الحزب اليومي طلبته في حلقة ويقرأ لهم الحزب الأخير من القرءان، ثم يقرأ لهم بعض المتون الفقهية [2]، ويخبرنا فوانو (Voinot) أن التعليم في هذه المرحلة لم يكن مختصاً بالصبيان الذكور دون الإناث، بل إنه كان شاملاً للجنسين معاً حيث لا توجد مدارس خاصة للإناث[3].

كان الآباء حريصين على تلقي أبنائهم هذه المرحلة الأولى من التعليم، فيأخذ الولي ابنه إلى الكُتَّاب ويتركه بيد المعلم الذي يجبره على التعلم حتى يختم القرآن الكريم [4]، والذكي من الصبيان من يختمه دون سن العاشرة، ويخبرنا أحد علماء القرن 13هـ/19م وهو الشيخ الحاج محمد بن عبد الرحمن البلبالي [5] عن مبدأ تلقيه كتاب الله قائلاً: "فلما منّ الله علينا بتشبث همتنا من وقت وضع التمييز فينا حين طفولتنا وقبل مناهزة الاحتلام المؤدي لعدم تكليفنا برهة من الزمان بمحبة قرآنه الكريم ابتدأناه ونحن في سن سبع سنين أو أقل على مقرئنا ... سيدي عبد الله بن إبراهيم بن سيدي الحاج علي ... فافتتح لنا اللوح بحروف: أ. ب. ت . ث بحسب بداية الصبيان ثم بالتهجي، إلى أن وصلنا سورة الجمعة وهو يسبح، وابتدأنا بالحفظ منه إلى أن ختمنا القرآن بسورة البقرة كله بحفظه على ظهر قلب على حسب قراءة الصبيان، ثم بدأنا من البقرة بالربع إلى أن ختمناه أيضاً ثم صعدنا معه كذلك ثم طرحنا اللوح"[6].

عندما يُتمُّ الصبي حفظ القرءان الكريم يقام له حفل تكريمي يسمى محلياً بـ "السلوك"، فيدعى إليه أهل القرية ورجال الفتوى وأئمة المساجد، ويزين الشيخ لوح الطفل بآيات قرآنية، وتُطلى يداه

[1]- عبد العزيز البلبالي، المصدر السابق، ص2.

[2]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص86.

[3]- Louis Voinot, op.cit, p127.

[4]- Ibid, p127.

[5]- هو الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر المعروف بسيد الحاج البلبالي ولد سنة 1144هـ/1731م، كان شيخاً عارفاً مجتهداً ملازماً للتدريس والمطالعة، لازم الشيخ أبا زيد سيدي عبد الرحمن بن عمر فأخذ عنه علماً جماً، تولى قضاء الجماعة بتوات، ثم انتقل إلى مدرسة الشيخ امحمد بن عبد الله الأدغاغي، أخذ عنه شيوخ أجلة منهم ابنه أبو فارس عبد العزيز والشيخ أحمد الحبيب البلبالي والشيخ سيد المامون بن مبارك البلبالي، انتخب مسائل الغنية وقرر كثيراً منها، توفي سنة 1244هـ/ 1828م. أُنظر: محمد بن عبد الكريم التمنطيطي، جوهرة المعاني، المصدر السابق، ص ص30-31.

[6]- عبد العزيز البلبالي، المصدر نفسه، ص2.

ورجلاه بالحناء ويلبس لباساً جديداً، ثم يجلس في مكان عال ويأتي المهنئون لتهنئته [1]. وعندما يفرغ المعلم من تعليمهم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم [2]، يعلمهم مبادئ علوم الدين واللغة وبعض الأحاديث النبوية بما يناسب سن وفهم هذه الفئة [3]. كان من المتعين بعد انتهاء التلميذ من تلك المرحلة الأولى التي يتلقى فيها المبادئ الأولية في الكُتَّاب أن ينتقل إلى المرحلة الثانية أو الأعلى، حيث يتلقى العلم في إحدى دور العلم الأخرى وهي المسجد والزاوية والمدرسة.

02/ المرحلة الثانية:

يلتحق فيها طلبة العلم -بعد إتمام مرحلة الكُتَّاب- بإحدى المؤسسات التعليمية السابقة قد تكون المسجد أو المدرسة أو الزاوية لمواصلة تعليمهم الثانوي على يد الشيوخ الذين يقومون باختيارهم، فيكون التعليم في هذه المرحلة أكثر تخصصاً وانضباطاً [4]، ومعظم الطلبة يفضلون التوجه صوب الزاوية لتكملة الدراسة، حيث يستفيد الطلبةُ القادمون من مسافات بعيدة من الإطعام والمبيت وفق نظام داخلي، فالزاوية أدَّت دوراً فعالاً في التعليم وإعانة الضعفاء من الفقراء والمعوزين [5]. ويتولى التعليم في هذه المرحلة فقيه الزاوية أو إمام المسجد أو شيخ المدرسة[6]، وهذا ما أشار له الفلاني بقوله: "...فأتيت قرى زاجلوا فقرأت على عالمها محمد بن العالم، ...وتوجهت لتينيلان ...وعكفت على القراءة عند أبي زيد سيدي عبد الرحمن بن بعمور"[7].

عند التحاق الطالب بالمدرسة الفقهية يقام له حفل يدعى له إخوانه الطلبة، وبعد اختيار الطلبة للشيوخ يجلسون لأخذ العلم، وتختلف طريقة إلقاء الدروس من مؤسسة تعليمية إلى أخرى ومن معلم إلى آخر[8]، فقد يعقد المعلم مجلساً لطالب واحد يقصده من أجل القراءة عليه، وفي بعض المؤسسات الأخرى يكون مجموعة من الطلبة يتلقون دروسهم على يد شيخ، وفي هذه الحالة يعقد المجلس في

[1]- فرج محمد فرج، المرجع السابق، ص86.

[2]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p232.

[3]- مبارك جعفري، **الحياة العلمية في إقليم توات وانعكاساتها جنوب الصحراء خلال القرن 12هـ/18م**، رسالة ماجستير في الدراسات الإفريقية، إشراف: محمد صالح حوتية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2008/2009م، ص91.

[4]- مبارك جعفري، العلاقات الثقافية، المرجع السابق، ص127.

[5]- زينب سالمي، المرجع السابق، ص61.

[6]- Victor Colonieu, op.cit, T14, p75.

[7]- أبو عبد الله الفلاني القبلاوي، المصدر السابق، ص1.

[8]- محمد باي بلعالم، الغصن الداني، المرجع السابق، ص9.

المسجد أو في صحن المدرسة أو الزاوية أو داخل القسم، ويكون الطلبة على هيئة دائرة وشيخهم يتوسطهم[1] . وتبدأ الدراسة من صباح كل يوم حتى منتصف النهار، أما الفترة المسائية فتبدأ بعد صلاة العصر وتستمر حتى وقت صلاة المغرب، ماعدا أيام العطل مثل يومي الخميس والجمعة وأيام الأعياد والمواسم الدينية[2].

يعيد الطالب في هذه المرحلة من التعليم حفظ القرءان الكريم، ثم يدرس قواعد اللغة والنحو والصرف والبيان والعروض والمنطق، والعلوم الدينية من حديث وتفسير وفقه على مذهب الإمام مالك، ويدرسون أيضاً الفرائض والحساب والتصوف [3]، وتكون الدراسة على شكل حلقات علمية متصلة ومتسلسلة أو ما يعرف بالوقفات [4]، حيث يقوم الطالب بقراءة جزء من أحد المتون المدروسة في الفقه أو في قواعد اللغة، ثم يتدخل الشيخ بما ينبغي من تصحيح للمتن وحل للمشكل وإيضاح للمقفل، حتى يتصور الطالب مسائل ذلك المتن، وغالباً ما يعتمد الشيخ على أحد الشروح المتداولة بالمنطقة، فينتقل الشيوخ بطلبتهم من السهل إلى الأصعب سواء في الفقه أو العقيدة أو التفسير أو النحو، وفي نهاية الشرح يفتح الشيخ باب النقاش مع الطلبة، ويستمر ذلك طيلة أيام الأسبوع[5].

لم تكن الفترة الدراسية خلال هذه المرحلة من التعليم محددة بسنة دراسية أو سنتين، وإنما تبقى مفتوحة المدة، وذلك لاختلاف المواهب والاستعدادات من طالب لآخر، كما لم يكن التعليم خاضعاً لمقررات دراسية معينة أو منهج تعليمي موحد بين كل المناطق، وفي نهاية هذه المرحلة يكون الطلبة قد بلغوا تحصيلاً علمياً يؤهلهم للقيام بمهام التدريس والإمامة بالمساجد والزوايا [6]. وبنجاح الطالب في دراسته يقام له حفل تكريمي تقرأ فيه بردة المديح، ويرتدي المتخرج في هذا اليوم أفخر الثياب وأجملها، ثم يجلس في مكان عال ويأتي المهنئون لتهنئته، وبعد انتهاء الحفل يُودعه زملاؤه وشيخُه ليعود إلى بلده وأهله[7].

[1]- بهية بن عبد المومن، المرجع السابق، ص134.

[2]- Louis Voinot, op.cit, p126.

[3]- محمد عبد العزيز سيد عمر، المرجع السابق، ص10.

[4]- الوقفات: هي ما يقف عنده الشيخ في الدرس ليكمله في درس الغد، وقد يكلف أحد الطلبة ليذكره بمكان التوقف في متن أو فقه...الخ إلى غاية إتمام الكتاب أو المتن. أُنظر: زينب سالمي، المرجع السابق، ص61.

[5]- محمد الصالح حوتية، المرجع السابق، ص248.

[6]- مولاي أحمد الطاهري الإدريسي، المصدر السابق، ص53.

[7]- فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص87.

03/ المرحلة الثالثة:

تعد هذه المرحلة أكثر تخصصاً لا يحصل عليها إلا قليلاً من الطلبة ميسوري الحال، فهي مرحلة التنقل وشد الرحال لطلب العلم، وقد أدرك أهل توات مدى أهمية الرحلة من أجل طلب العلم وتحصيل شتى فنونه، متمثلين قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مَنْهُومَانِ لا يَشْبَعَانِ طَالِبُ عِلْمٍ وَطَالِبُ دُنْيَا "[1]، لذا نجدهم كغيرهم ممن خاض غمار العلم قد اهتموا بهذا النوع من الرحلات فسجلوا حضورهم بقوة في هذا الميدان، حيث كانت العادة الجارية بين طلاب العلم وأهله أن يقوم الطالب بالدراسة على أهل بلده، ثم يرحل إلى المراكز العلمية المتواجدة في قطره قصد الاستزادة من العلم والتوسع فيه [2]، قبل أن يتوجه إلى الحواضر العلمية الخارجية مثل فاس، تلمسان، القاهرة، تمبكتو...الخ[3]، للتضلع في مختلف العلوم ومعرفة الغريب والنادر منها كعلم القراءات وعلم الكلام ومعرفة المذاهب الأخرى من غير المذهب المالكي الذي كان سائداً في منطقة توات.

إن المطالع للمصادر التاريخية الخاصة بالمنطقة يجدها قد سجلت لنا عدداً لا يستهان به من تنقلات طلبة العلم بين منطقة توات وغيرها من الحواضر العلمية بغرض الإفادة، فقد برع أبناء المنطقة في طلب العلم والتفاني فيه والتوجه إلى العلماء للأخذ، ممتثلين قول العلامة ابن خلدون: "إن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم،... فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشائخ ومباشرة الرجال"[4]، وهو ما أشار إليه الرحالة أبو عبد الله الفلاني الذي بعد أن أتم دراسته في المرحلة الأولى والثانية في تيدكلت طلب من والده التوجه إلى توات الوسطى للاستزادة في العلم، فحط الرحال بزاجلوا وتينيلان وأدغا فدرس على مشائخ المنطقة[5].

تحدثنا المصادر عن عدد غير قليل من أعلام القرن 13هـ/19م الذين انتقلوا في مرحلة الطلب من محل آخر داخل أقاليم توات طلباً للعلم أمثال: الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر البلبالي الذي كانت بداياته في طلب العلم بمسقط رأسه بملوكة، فلما بلغ أشده رحل إلى تنيلان ليدرس على يد الشيخ أبي زيد عبد الرحمن بن عمر التنلاني (ت 1189هـ/ 1775م)، والشيخ المأمون بن

---

[1]- رواه الطبراني في الكبير، حديث رقم: 1026.

[2]- أبو عبد الله الفلاني القبلاوي، المصدر السابق، ص1.

[3]- أحمد أبا الصافي جعفري، **الحركة الأدبية في أقاليم توات من القرن 7هـ حتى نهاية القرن 13هـ**، ط1، منشورات الحضارة، الجزائر، 2009م، ج2، ص144.

[4]- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص614.

[5]- أبو عبد الله الفلاني القبلاوي، المصدر نفسه، ص1.

مبارك التنيلاني[1] الذي حفظ القرءان وأخذ مبادئ اللغة والفقه على يد والده بمسقط رأسه بقصر برينكان في تسابيت، ثم رحل إلى ملوكة ليأخذ عن الشيخ محمد بن عبد الرحمن البلبالي، والشيخ محمد بن عبد الله الجوزي[2] الذي زاول تعليمه الأولي بأولاد سعيد بقورارة ثم انتقل لمواصلة تعليمه عند الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن عمر التنيلاني [3] (ت 1233هـ/1818م)، والشيخ أحمد يوسف بن عبد الكريم الجوزي[4] الذي تلقى مبادئ العلم عن والده بقورارة ثم رحل إلى مجلس الشيخ عبد الرحمن بن عمر التنيلاني، وغيرهم كثير[5].

لم يقتصر أهل توات في طلب العلم على التنقل بين المراكز العلمية الداخلية، بل تَطلَّعت أنظارهم إلى الحواضر المجاورة، فشدوا الرحال إليها قصد الاستزادة والاستفادة من علمائها، ورغمَ من أنهم تفقهوا وأخذوا بقسط وافر من العلم على أشياخهم في إقليمهم العامر، إلا أنهم تحملوا المشاق وآثروا الارتحال عن البقاء في سبيل طلب العلم[6]. ومن أعلام توات في القرن 19م الذين تنقلوا إلى الحواضر المجاورة لطلب العلم نجد: الرحالة عبد الرحمن بن إدريس التنيلاني الذي درس على شيوخ بلده وبعدها رحل إلى فاس للأخذ عن علمائها، ثم عاد إلى توات ليساهم في الحياة العلمية هناك [7]،

---

[1] – هو الشيخ المأمون بن مبارك بن محمد البلبالي، ولد سنة 1217هـ/1802م، أخذ عن عدة شيوخ منهم محمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر البلبالي، كان من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء، توفي سنة 1276هـ/1859م. أُنظر: محمد باي بلعالم، الرحلة العلية، المرجع السابق، ج1، ص49.

[2] – الشيخ محمد بن عبد الله بن الجوزي: ولد بقصر أولاد عبد اللي بأولاد سعيد حيث زاول تعليمه الأولي وحفظ القرءان بزاويتها، ثم انتقل لمواصلة تعليمه عند الشيخ محمد بن عبد الرحمن التنيلاني وحصل على إجازة منه، عاد إلى مسقط رأسه ليتولى منصب قضاء قورارة سنة 1233هـ/1817م، قام برحلة إلى الحج سنة 1263هـ/1847م، توفي سنة 1269هـ/1853م. أُنظر: مولاي التهامي غيتاوي، **القول الميمون في تاريخ قورارة وعلماء تيميمون**، مؤسسة البلاغ للنشر والدراسات والبحوث، الجزائر، 2013م، ص ص110-123.

[3] – محمد الفاطمي، **البيوتات العلمية بقورارة إبان القرنين 11و12 الهجريين، دراسة توصيفية**، نور نشر، د.ب، 2019م، ص58.

[4] – هو الشيخ أحمد يوسف بن عبد الكريم الجوزي، ولد بقصر أولاد القاضي بتيميمون فأخذ مبادئ العلم عن والده ثم انتقل إلى مجلس الشيخ عبد الرحمن بن عمر التنلاني فاخذ عنه مختلف العلوم، عاد إلى مسقط رأسه فتصدر للتدريس والفتوى، ثم ولي القضاء فسلك مسلك العدل والإنصاف حتى وافته المنية سنة 1251هـ/1835م. أُنظر: أحمد جعفري، اللهجة التواتية الجزائرية، المرجع السابق، ص260.

[5] – للمزيد حول هؤلاء العلماء يُنظر: عبد القادر المهداوي، الدرة الفاخرة، المصدر السابق/ محمد بن عبد الكريم التمنطيطي، جوهرة المعاني، المصدر السابق/ محمد بن عبد الكريم التمنطيطي، درة الأقلام، المصدر السابق.

[6] – فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص89.

[7] – تم التعريف به في الفصل الأول من هذه الدراسة.

والشيخ محمد بن عبد الرحمن التنلاني [1] الذي أخذ العلم عن والده بزاوية تنيلان ثم ارتحل إلى حاضرة سلجلماسة لطلب العلم، وبعد عودته إلى بلده تصدر للتدريس والفتوى بعدة مناطق بتوات، والشيخ المختار بن محمد مصطفى الرقادي [2] الذي ابتدأ تعليمه بمسقط رأسه زاوية كنتة ثم ارتحل مع أبيه إلى أرض الأزواد، لطلب العلم ولما عاد إلى زاوية كنته نشط فيها نشاطاً كبيراً، وغيرهم من العلماء.

يظهر مما سبق كثرة الرحلات الداخلية والخارجية لطلب العلم في توات خلال القرن 19م خاصة إلى حواضر المغرب الأقصى كونها الأقرب إلى توات من غيرها، كما يظهر أنَّ طلبةَ العلمِ التواتيين آثروا الرحلة ليستفيدوا من مناهج غيرهم وليحدث لهم التلاقح المعرفي، وبعد حصولهم على الإجازات العلمية رجعوا إلى بلدانهم فكان لهم دور كبير في إنعاش الحركة العلمية وتطويرها.

ثانياً: العلوم والمناهج التعليمية

01/ القرءان الكريم:

يعد القرءان الكريم أساس العلوم ومصدر المعرفة السليمة، لذا كان الاهتمام بتعليمه وحفظه هو باكورة المعرفة لدى التواتيين، ولا يتدرج في مدارج العلم من لم يفعم صدره بحفظه أولاً كما هو حال البلاد الإسلامية عموماً خلال تلك الفترة، وفي ذلك يقول بن خلدون: "... فأما أهل المغرب، فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرءان فقط...لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، لا من الحديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه، فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعه عن العلم بالجملة، وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن يتبعهم من قرى البربر..."[3]، وهذا كان ينطبق على أهل توات.

[1]- الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن بعمر: هو محمد بن عبد الرحمن بن بعمر بن محمد بن معروف بن يوسف بن احمد بن يوسف بن محمد يصل نسبه إلى عثمان بن عفان، ولد سنة 1151هـ/1738م بقصر أدغاغ، درس عل يد والده ثم انتقل إلى سجلماسة فدرس بها على يدي الشيخ أبي العباس أحمد بن هلال السجلماسي ، قام مقام والده في التدريس والفتوى وتخرج على يده عدة علماء وجمع عدة نوازل فقهية، توفي سنة 1233هـ/1818م بأولاد علي ودفن هناك. أُنظر: محمد بن عبد الكريم التمنطيطي، جوهرة المعاني، المصدر السابق، ص42.

[2]- الشيخ المختار بن محمد مصطفى الرقادي: ولد بزاوية كنته سنة 1211هـ/1796م وابتدأ تعليمه فيها ثم ارتحل مع أبيه إلى أرض أزواد وبالضبط إلى الحلل الكنتية وأخذ عن الشيخ سيدي عمر بن علي المختاري علوم الحديث والفقه والأوراد القادرية الكنتية، ثم عاد إلى زاوية كنته بتوات بدعوة من أهلها فنشط فيها نشاطاً كبيراً حيث تولى فيه القضاء لمدة عشرين سنة، وأحيا ما اندرس فيها من العلوم، وانتشر على يديه العلم بشكل كبير حتى توفي سنة 1325هـ/1907م. أُنظر: عبد الله مقلاتي ومبارك جعفري، المرجع السابق، ص385.

[3]- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص740.

أما منهجهم في حفظ القرءان فإنه يكون غالباً في الكُتَّاب خلال مرحلة الطفولة [1]، حيث يلتحق الطفل بالكُتَّاب ويتعلم القراءة الكتابة على يد معلمه الذي يبدأ معه مرحلة الإملاء حيث يكون قادراً على كتابة ما يمليه عليه[2]، فينكب الطالب على الحفظ آناء الليل وأطراف النهار، و يقوم باستظهار لوحته على معلمه يومياً مع إنجاز واجبات أخرى منها تكرار السورة والحزب في نهاية الأسبوع، يدعم ذلك بحضور مجالس تلاوة الحزب الراتب [3] والتي تكون بعد صلاة المغرب [4]، وعندما يحفظ الطالب القرءان عن ظهر قلب يأمره الشيخ بحفظه مرة أخرى بصورة عكسية أي انطلاقاً من سورة الفاتحة ثم البقرة إلى سورة الناس[5]، وبهذا الأسلوب حفظ طلبة توات كتاب الله.

02/ الحديث والسيرة النبوية:

اهتم التواتيون بحفظ حديث رسول الله فاشتغلوا به وصرفوا إليه أوقاتهم، لأنه المصدر الثاني بعد القرءان العظيم في أصول المعارف ومعدن العلوم [6]. أما منهجهم في ذلك فيتم عن طريق مداومتهم على قراءته بتخصيص حلقات ومجالس لتدريس كتب الحديث وتناول شرحه من كتب الشروح المعتمدة، ومن أهم كتب الحديث التي تدارسوها صحيح الإمام البخاري وصحيح الإمام مسلم وموطأ الإمام مالك والأربعين النووية والجامع الصغير للسيوطي، وتدرس السيرة النبوية من خلال كتاب الشفاء للقاضي عياض والشمائل للترمذي والمواهب اللدنية بالمنح الربانية للقسطلاني وألفية العراقي[7].

مما يدل على الاهتمام بعلم الحديث وجود عدد من علماء القرن 19م يحفظون مصنفات الحديث عن ظهر قلب أمثال: محمد بن عبد الرحمن بن بعمر التنيلاني [8] الذي كان من حفاظ الحديث، كما كان الشيخ عبد الله بن أحمد البلبالي شديد الاهتمام بقراءة الحديث حتى وافته المنية

[1]- Louis Voinot, op.cit, p127.

[2]- عبد العزيز البلبالي، المصدر السابق، ص2.

[3]- الحزب الراتب: هو الورد القرآني اليومي الذي يتلى جماعياً في المساجد، ويكون بمعدل حزبين يومياً في الغالب لتكون ختمة القرءان مع نهاية كل شهر، وتختلف أوقات قراءته من قرية إلى أخرى لكن أشهرها بين صلاتي المغرب والعشاء. أُنظر: ضيف الله بن محمد بن أُبَّ، المصدر السابق، ج1، ص221.

[4]- مبارك جعفري، العلاقات الثقافية، المرجع السابق، ص126.

[5]- زينب سالمي، المرجع السابق، ص62.

[6]- محمد الصالح حوتية، المرجع السابق، ص259.

[7]- محمد باي بلعالم، الرحلة العلية، المرجع السابق، ج1، ص81.

[8]- محمد بن عبد الكريم التمنطيطي، جوهرة المعاني، المصدر السابق، ص42.

وهو منشغل بقراءته [1]، وغيرهم. ومن باب الاهتمام بهذا العلم لدى التواتيين أنه يوم ابتداء قراءة صحيح البخاري يقام حفل كبير ومأدبة فاخرة يحضرها الأئمة والطلبة وأعيان القصر، وفي يوم الاختتام يقام حفل أكبر من حفل الافتتاح[2].

03/ العلوم الشرعية:

أهمها الفقه الذي اهتم به التواتيون اهتماماً بالغاً خاصة ما تعلق بالفقه المالكي لأنه المذهب الذي ساد منطقة توات، حيث كانت الدروس الفقهية من صلب مناهج التعليم التواتية، وذلك من خلال استظهار المتون الفقهية التي يدرسها الطالب منذ التحاقه بالكُتَّاب فيتدرج حسب مستواه وسنه من السهل نحو الصعب، وأهم هذه الكتب الفقهية: العبقري لمحمد بن أُبَّ المزمري والمرشد المعين لابن عاشر والرسالة لأبي زيد القيرواني وشروحها ومختصر خليل وشروحه وتحفة الحكام لابن عاصم الأندلسي [3]، بالإضافة إلى علم أصول الفقه الذي اهتم به التوتيون فعملوا على تحصليه والتمكن فيه، وكان يدرس من خلال كتاب جمع الجوامع لابن السبكي والمختصر الأصولي لابن الحاجب[4]. كما اهتم التواتيون ببقية العلوم الشرعية الأخرى مثل التفسير، وعلم التجويد، وعلم التوحيد، وعلم التصوف[5]، حيث كانت مواد مقررة في دروس الحلقات العلمية.

جدير بالذكر أنَّ اهتمام التواتيين بهذه العلوم خلال القرن التاسع عشر صاحبه تصدر علماء منهم وعلو كعبهم في العلوم الشرعية، حيث خصصت حلقات علمية لتدريس هذه العلوم، تخرج منها عدة شخصيات نالوا حظاً وافراً من هذه العلوم [6]، مثل حلقة الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر البلبالي في تفسير القرءان [7]، وحلقة الشيخ عبد الرحمن بن إدريس التنلاني في أصول الفقه الذي قيل عنه أنه: "كان عالماً ماهراً في أصول الفقه" [8]، بالإضافة إلى المؤلفات التي تركها العلماء التواتيون خاصة في الفقه، والإجازات الكثيرة التي تلقاها الطلبة من شيوخهم في هذا المجال[9]، ومما يدل

---

[1]- Eugène Daumas, Le grand désert, op.cit, p100.

[2]- محمد باي بلعالم، الرحلة العلية، المرجع السابق، ج1، ص274.

[3]- أبو عبد الله الفلاني القبلاوي، المصدر السابق، ص1.

[4]- المصدر نفسه، ص1.

[5]- عبد الحميد البكري، المرجع السابق، ص54.

[6]- Victor Colonieu, op.cit, T14, p75.

[7]- عبد العزيز البلبالي، المصدر السابق، ص4.

[8]- عبد القادر بن عمر المهداوي، المصدر السابق، ص14.

[9]- أبو عبد الله الفلاني القبلاوي، المصدر نفسه، ص2.

على العناية بهذه العلوم تلك المناظرات والمراجعات في المسائل التي كانت تقع بين علماء توات وعلماء الحواضر المجاورة[1]، مثل المناظرة التي وقعت بين الشيخ عبد الرحمن بن إدريس وعلماء ميزاب الإباضية في عدة قضايا فقهية وعقدية[2].

04/ علوم اللغة والأدب:

اهتم التواتيون بعلوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة وعروض كونها لغة القرءان وهي السبيل للتمكن في العلوم الشرعية، ويتم تدريسها بنفس طريقة تدريس المتون الفقهية، حيث كانت تعقد حلقات ومجالس عبر كامل التراب التواتي يُشرفُ عليها علماءُ متمكِّنون ويؤمُّها الطلبة للتعلم والاستزادة، ومن أهم المتون في هذا الفن الأجرومية لأبي عبد الله بن أجروم، والألفية لأبي عبد الله محمد بن مالك الأندلسي [3]، ولامية الأفعال للحريري، والخزرجية في العروض لعبد الله بن محمد الخزرجي[4]، وغيرها. وقد أدى هذا الاهتمام بعلوم اللغة إلى تخريج علماء تضلعوا في تلك العلوم فحافظوا على اللغة وبرعوا في علومها وتمكنوا في العلوم الشرعية.

بالإضافة إلى ذلك اهتم التواتيون بعدة علوم أخرى منها: علم التاريخ الذي كان يدرس في المدارس والزوايا خاصة ما كان له ارتباط بالدين كالسيرة النبوية وتراجم الصحابة والعلماء والعظماء، ومن أهم الكتب المدروسة في هذا الفن كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون والديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون، كما حظي علم المنطق باهتمامهم التواتيين حيث عقدت حلقات لتدريسه اعتمد فيها العلماء على عدة مؤلفات أهمها السلم المرونق للأخضري والمختصر في المنطق لمحمد السنوسي [5]. ومن العلوم التي اهتم بها التواتيون علم الحساب [6] لحاجتهم اليومية إليه كالمعاملات التجارية، وقد لاحظ فوانو (Voinot) أن سكان المنطقة لديهم ضعف كبير في العمليات الحسابية، ولا يعرفون الحساب إلا على الرمل، حيث يقومون بتتبع العلامات حتى الوصول إلى النتيجة، وأضاف أن هذه العملية الحسابية طويلة جداً وتتكرر فيه الأخطاء بمجرد أن

[1]- Eugène Daumas, Le grand désert, op.cit, p97.

[2]- عبد الرحمن بن إدريس التنلاني، المصدر السابق، ص2.

[3]- عبد العزيز البلبالي، المصدر السابق، ص6.

[4]- محمد الصالح حوتية، المرجع السابق، ص254.

[5]- محمد باي بلعالم، الرحلة العلية، المرجع السابق، ج1، ص81.

[6]- Louis Voinot, op.cit, p128.

تصبح الأرقام كبيرة [1]. كما اهتم التواتيون بعلوم أخرى مثل علم الفلك للاستفادة منه في تحديد الشهور ومعرفة أوقات الصلاة، وعلم الطب وعلوم الطبيعة وغيرها[2].

يتبين لنا مما سبق اهتمام التواتيين بالعلوم جملة وإن تفاوتت درجات الاعتناء فيما بينها، حيث كان الاهتمام بالعلوم الدينية كبيراً وفي مقدمتها علم الفقه، دون إهمال بقية العلوم العقلية التي أبدى التواتيون اعتناءهم بها، هذا ما أدى إلى ازدهار الحياة الثقافية في المنطقة خلال هذه الفترة.

ثالثاً: المكانة العلمية للمنطقة:

عاشت البلاد التواتية خلال القرن 12هـ/ 18م نهضة ثقافية أفرزت حركة إنتاج علمي شمل مجالات عديدة، وقد آتت هذه النهضة أكلها على الخصوص أثناء القرن 13هـ/ 19م، أي الفترة التي كثف فيها الأوروبيون مجهوداتهم لاستكشاف هذه البلاد واستكناه مجاهلها، يترجم ذلك الكم الهائل من العلماء والزوايا والمدارس والخزائن العلمية التي تعبر بجلاء عن مساهمة أهل توات في الحركة العلمية بالجزائر، فلم تكن توات في معزل عن تلك الحركة التي شهدتها البلاد الإسلامية مشرقاً ومغرباً، حيث بلغت مركزاً متقدماً تضاهي نظيراتها في العالم الإسلامي، وأصبح اسمها مرادفاً لحواضر كبرى مثل: فاس وتلمسان والجزائر وسجلماسة وتمبكتو والقاهرة، وغيرها، بل أكثر من ذلك أنها شكلت رافداً لحواضر مختلفة خاصة تلك التي تقع إلى الجهة الجنوبية من الصحراء الكبرى[3].

تظافرت عدة عوامل جعلت من المنطقة مركز إشعاع علمي في الصحراء منها وقوعها في منطقة وسط بين المغرب الإسلامي وإفريقيا [4]، بالإضافة إلى الاستقرار السياسي بسبب بعد المنطقة عن الصراعات والحروب والتجاذبات السياسية، فقد عُرفت المنطقة بأنها أرض أمان واطمئنان[5]، ما جعلها تجذب العلماء الفارين من مختلف المناطق إليها، كما أن وقوع المنطقة على طرق القوافل التجارية العابرة للصحراء[6] ساهم في الحياة العلمية بفعل تجارة الكتب التي أصبحت تدر أرباحاً كبيرة، ما جعل التواتيين يطلعون عن كثب على التيارات الثقافية والفكرية التي عرفها العالم الإسلامي، فغدت المنطقة قطب الرحى في شتى مجالات الحياة المختلفة.

---

[1]- Louis Voinot, op.cit, p127.

[2]- عبد القادر بن عمر المهداوي، المصدر السابق، ص12.

[3]- مبارك جعفري، العلاقات الثقافية، المرجع السابق، ص199.

[4]- أبو سالم العياشي، المصدر السابق، ج1، ص79.

[5]- عبد القادر بن عمر المهداوي، المصدر نفسه، ص8.

[6]- عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر، المصدر السابق، ج1، ص76.

لم تكن هذه النهضة العلمية حديثة الولادة، بل كانت توات منذ القرن 9هـ/15م وإلى غاية نهاية القرن 13هـ/19م منارة علم وسط الصحراء، أنجبت رجالاً جهابذة أسهموا في دعم الكيان الحضاري العلمي للمنطقة [1]، ذلك ما أكده الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت 909هـ/ 1503م) بقوله: "...ودخلنا توات فوجدناها ديار علم ومقر أكابر وأعلام، فانتفعنا بهم وانتفعوا بنا"[2]، أما ما ذكره العياشي في رحلته خلال القرن 11هـ/17م من أن توات كانت خلواً من أهل العلم والصلاح حيث يقول: "لم أجد بتوات أحداً ممن ينتسب إلى ولاية أو صلاح، ولا من أهل العلم والفلاح، وغالب أهلها من عوام أهل التجارة"[3] فهذا قد لا يخص إلا فترة محددة ومنطقة معينة، حيث يؤكد الواقع أن توات تميزت بنشاطها التعليمي والثقافي منذ زمن طويل، ح ظي العلماء فيها بمكانة كبيرة، فكانوا محل احترام وتقدير وموضع ثقة جميع الناس[4].

ويؤكد أبو القاسم سعد الله هذا السبق العلمي للمنطقة بقوله: " وقد عرف عن توات منذ القديم بأنها سوق رائجة للكتب وأن بعض عائلاتها الدينية قد كونت مكتبات معتبرة" [5]، ويضيف واصفاً الجانب الثقافي لتوات بقوله: "وهذه المنطقة من الوطن غنية بتراثها العلمي والديني، وغنية بعلمائها ومؤلفيها، وبزواياها ونظمها، وكذلك غنية بآثارها ومكتباتها، ولكن البحث في ذلك لا يزال ضعيفاً، ولم يهتم بها إلا الأجانب، رحالة ومستكشفين، وحكاماً ودارسين، ومبشرين وجواسيس وتجاراً"[6]، فهو يؤكد المكانة العلمية للمنطقة لكن يتأسف لقلة الدراسات في هذا الجانب حيث لم يهتم بذلك سوى الرحالون والمستكشفون الأجانب، ويتساءل قائلاً: "ومن منا درس أو تخصص في هذه الظواهر الحضارية للجنوب الغني والمتسع عبر مئات الأميال؟"[7].

أثبتت المعلومات المختلفة التي ساقها الرحالون الأجانب أن الجزائريين خاصة سكان الصحراء يتمتعون بملكات ذهنية وفكرية تؤهلهم لاستيعاب جميع الآداب والفنون والعلوم، ويقول الدكتور "أبو العيد دودو" أن الرحالة الألمان أكدوا في نهاية دراستهم خلال القرن التاسع عشر أن الجزائريين لا

[1]- Victor Colonieu, op.cit, T14, p75.

[2]- الصديق حاج أحمد، المرجع السابق، ص65.

[3]- أبو سالم العياشي، المصدر السابق، ج1، ص20.

[4]- A.G.P. Martin, Quatre siècles d'histoire, op.cit, p95.

[5]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج5، ص371.

[6]- المرجع السابق، ج3، ص214.

[7]- نفسه، ج3، ص214.

ينقصهم الذكاء ولا المواهب ولا القدرة على التطور [1]، ويواصل الحديث عن هذه الإمكانات بإيراد مقارنة الرحالة الألماني شيمبر (shimbar)[2]بين الأوروبيين والجزائريين فيقول: "لقد بحثت قصداً عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة، غير أني لم أعثر عليه، في حين أني وجدت ذلك في بلدان جنوب أوروبا، فقلما يصادف المرء هناك من يستطيع القراءة بين أفراد الشعب" [3]، ورغم أن توات لم تخضع للدولة العثمانية كما خضع لها الشمال الجزائري، إلا أنها خضعت للمعايير والتيارات الثقافية والفكرية السائدة في ذلك الوقت، وبالتالي يشملها هذا الوصف [4]. وفي نفس السياق لم يخفِ المستكشف كولونيو (Colonieu) دهشته من العدد الهائل الذي شاهده من الطلبة وعلماء الدين بتوات[5].

ويصور لنا دوماس (Daumas) ضمن حديثه عن زاوية البلبالي جانباً من مكانة علمائها تصويراً يكفي للبرهنة على المكانة العلمية للمنطقة حينئذ، إذ يقول: "البلبالي كان عالماً اشتهرت مؤلفاته في المغرب وحتى مكة التي كان يقصده منها أجل الطلبة لما أتاه الله من الحكمة" [6]، ويجزم هذا الرحالة في السياق نفسه أن فتاواه كانت: "مقبولة دون نقاش وتمس أكثر القضايا جدلاً وتعقيداً في الأخلاق والعدالة والدين، ويقدرها كل المسلمون في الشرق والغرب" [7]، مستعرضاً أهم فتاوى الشيخ البلبالي[8] التي تدل على علو كعب هذا الشيخ في المنطقة وخارجها. ويعرب لانج (Laing) من جانبه عن وفرة المعلومات الجغرافية التي استفادها من السكان، ما يدل على سعة اطلاعهم وكثرة رحلاتهم العلمية خارج المنطقة[9].

---

[1]- دودو أبو العيد، **الجزائر في مؤلفات الرحالة الألمان** (**1830–1855**)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975م، ص9.

[2]- فيلهلم شيمبر (1804–1878م) رحالة ألماني زار الجزائر سنة 1831م، وأصدر كتاباً عنها بعنوان: "رحلة فيلهلم شيمبر إلى الجزائر في سنتي 1831م 1832م". أُنظر: المرجع نفسه، ص11.

[3]- نفسه، ص13.

[4]- أحسن دواس، **صورة المجتمع الصحراوي الجزائري في القرن التاسع عشر من خلال كتابات الرحالة الفرنسيين مقارنة سوسيو ثقافية**، مذكرة ماجستير في الأدب المقارن، إشراف: الأخضر عيكوس، كلية الآداب واللغات، جامعة منتوري، قسنطينة، 2008/2007م، ص133.

[5]- Victor Colonieu, op.cit, T14, p75.

[6]- Eugène Daumas, Le grand désert, op.cit, p97.

[7]- Ibid, p97.

[8]- Ibid, pp98-99.

[9]- غوردن لانج، رسالة إلى النقيب ي. سابين، المصدر السابق، ص343.

مما يدل كذلك على المكانة العلمية التي بلغتها المنطقة خلال هذه الفترة تلك الصلات العلمية بين علماء توات ومختلف الحواضر، فلم تكن توات في معزل عن الحركة العلمية والثقافية التي شهدتها البلاد الإسلامية مشرقاً ومغرباً، إذ كان الاتصال بين توات وسائر الحواضر قوياً ونشيطاً، فكثرت الرحلات العلمية غدواً ورواحاً، وفي هذا الإطار يقول سعد الله: " وكانت صلة أهل توات بجامع القرويين وعلماء المغرب وعلماء إفريقيا وتلمسان قد جعلتهم في مكانة يغبطون عليها" [1]، ومن بين تلك الصلات خلال هذه الفترة على سبيل المثال للحصر اللقاءات والنقاشات العلمية التي قام بها الشيخ عبد الرحمن بن إدريس التنيلاني مع الشيخ الحسن بن مصطفى قاضي المالكية والشيخ عبد السلام الجبلي شيخ القراء بالجزائر العاصمة [2]، والتي تدل على الشجاعة الأدبية والتمكن العلمي اللذين رزقهما العالم التواتي.

المبحث الثالث: أشهر المصنفين ومجالات التصنيف

إن الحركة التعليمية والثقافية لا يمكن أن تنهض إلا إذا وُجد من يرعاها، فخلال القرن التاسع عشر عرفت المنطقة حركة علمية نشيطة نبغ فيها علماء وشيوخ تخطت شهرتهم حدود منطقتهم وتركوا بصمات واضحة في بناء الحياة الفكرية وتنشيط الحياة الثقافية من خلال إثراء المكتبات والخزائن بمؤلفاتهم القيمة التي شملت مختلف الفنون والعلوم التي أنتجتها عقولهم وجادت بها قرائحهم، ولازال البعض منها موجوداً في خزائن المنطقة وضاع البعض الآخر مثلما ضاعت الكثير من المخطوطات، ومن أهم مجالات التصنيف:

01/ العلوم الشرعية:

اهتم التواتيون بالتأليف في مختلف العلوم الشرعية، لكن انصب اهتمامهم أكثر بالفقه لحاجتهم لفهم الكثير من المسائل الدينية في حياتهم، وكانت مؤلفاتهم وفق المذهب السائد في بلاد المغرب الإسلامي وهو المذهب المالكي، كما جاء تأليفهم في عدة أنماط أهمها النوازل [3] بالإضافة إلى الشروح والمختصرات والتعليقات والحواشي، وأهم تلك المؤلفات في هذا المجال:

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج5، ص371.

[2]- عبد الرحمن بن إدريس التنلاني، المصدر السابق، ص5.

[3]- النوازل: لغة: جمع نازلة من النزول وهو الحلول، ونزلهم ونزل عليهم ونزل بهم ينزل نزولاً ومنزلاً، واصطلاحاً: تطلق على المسائل الدينية والقضايا الدنيوية التي تحدث للمسلم ويريد أن يعرف حكم الله فيها فيلجأ لأهل العلم الشرعي يسألهم عن أحكام هذه الحوادث ليجدوا لها حكماً شرعياً. أُنظر: ابن منظور، المرجع السابق، ج 11، ص656/ مصطفى الصمدي، **فقه النوازل عند المالكية**، ط1، مكتبة الرشد، الرياض، 2007م، ص13.

– غنية المقتصد السائل فيما وقع في توات من القضايا والمسائل: جمعها الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر البلبالي من ديوان سجل مشاورات القاضي عبد الحق بن عبد الكريم البكري (ت 1210هـ/1796م) الذي شكل مجلساً للشورى من أربعة فقهاء لمشاورتهم في القضايا التي تستشكل عليه، لما توفي القاضي عبد الحق تولى البلبالي خطة القضاء فأخذ سجلات مشاوراته واعتكف على جمع مباحثها و أحكامها و أضاف إلى ذلك ما ثبت تحقيقه لديه من حوادث الأمور [1]، فلما توفي واصل ابنه محمد عبد العزيز[2] إكمال مشروع والده وزاد فيها زيادات حسنة، ثم سماها: "غنية المقتصد السائل فيما وقع في توات من القضايا والمسائل"[3].

يعتبر هذا الكتاب موسوعة جمعت فتاوى عدد كبير من علماء المنطقة وقضاتها، بالإضافة إلى تناوله للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في توات نهاية القرن 18م وبداية القرن 19م، وقد وصفه صاحب جوهرة المعاني أنه: "أجلّ ما أُلِّف في أرض الصحراء" [4]. اعتنى به الشيخ أحمد الحبيب بن محمد البلبالي (ت 1296هـ/1878م) فرتبه على نسق أبواب مختصر خليل، كما اعتنى به أيضاً الشيخ أبو عبد الله امحمد البداوي البكري (ت 1261هـ/1844م) فرتبه ترتيباً آخر، حيث توجد نسخ في الخزائن التواتية بكلا الترتيبين، وقد تصدى لتحقيق أجزاء منه جمع من الأساتذة والطلبة في دراسات فقهية واقتصادية واجتماعية.

– إفهام المقتبس بثبوت التحبيس بخط المحبس: تأليف الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن عمر التنيلاني، وهي رسالة ألفها بسبب واقعة وجه إليه سؤال بشأنها، حيث أثبت فيها جواز ثبوت الوقف بخط الموقف، وجعلها في أربعة فصول دعم فيها جوابه بنصوص علماء المذهب كالإمام مالك و الإمام الزرقاني، وتوجد نسخ منها في العديد من المكتبات التواتية، كما أن لنفس المؤلف "تقاييد فقهية"

---

[1]– عبد العزيز البلبالي، المصدر السابق، ص3.

[2]– هو القاضي عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمان البلبالي الملقب بأبي فارس ولد سنة 1190هـ/1776م، أخذ العلم عن والده وعن الشيخ محمد بن عبد الرحمان بن عمر التنيلاني، استخلفه والده في حياته على القضاء فتولى قضاء الجماعة، من تلامذته ابنه الشيخ البكري و الشيخ أحمد بن محمد أبو العباس البلبالي و الشيخ عبد الكريم بن محمد بن عبد المالك البلبالي و الشيخ الحسن بن سعيد البكري والشيخ محمد بن سعيد البكري وغيرهم توفي سنة 1261هـ/1844م. أُنظر: محمد باي بلعالم، الرحلة العلية، المرجع السابق، ج2، ص212.

[3]– أحمد أبا الصافي جعفري، من تاريخ توات، المرجع السابق، ص547.

[4]– محمد بن عبد الكريم التمنطيطي، جوهرة المعاني، المصدر السابق، ص6.

عبارة عن فتاوي لمجموعة من كبار علماء توات قام بجمعها خوفاً من ضياعها [1]، بالإضافة إلى أن كتاب الغنية مشحون بفتاويه.

- مسائل التمنطيطي: كتاب جمع أسئلة طرحها الشيخ عبد الله بن أبي مدين التمنطيطي[2] على بعض فقهاء عصره لاسيما محمد بن عبد الرحمن بن عمر التنيلاني فتحصل على أجوبة منه، وضم إليها أجوبة بعض علماء توات وسجلماسة، وبقيت تلك الأسئلة وأجوبتها في أوراق متفرقة، إلى أن جاء الشيخ محمد بن أحمد المحضي البكري (ت 1261هـ/1844م) فجمع الأوراق ورتب المسائل فجاء كتاباً مستقلاً[3]. والكتاب مخطوط ببعض الخزائن التواتية.

- غاية الأماني في أجوبة أبي زيد التنلاني: تأليف محمد عبد الكريم بن محمد البلبالي، وهو عبارة عن مجموعة من الفتاوي لأبي زيد عبد الرحمن التنلاني، وزاد عليها أجوبة ابنه أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن، بالإضافة إلى أجوبة غيره من العلماء، ورتب أبوابه على نسق مختصر خليل، ولا توجد نسخة كاملة من الكتاب وإنما توجد منه قطع في العديد من الخزائن التواتية[4].

كما اهتم العلماء التواتيون بوضع شروحاتٍ وحواشٍ لبعض الكتب الفقهية، ومن أشهر الكتب الفقهية التي أولاها التواتيون أهمية بالغة مختصر خليل فقد كان للشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الكريم الحاجب[5] مؤلف سماه: حاشية على مختصر خليل، كما كان للشيخ عبد الله بن محمد التنيلاني [6] شرح لمتن العبقري سماه: المورد العنبري على المنظومة المسماة بالعبقري، وفي التعاليق ألف القاضي محمد عبد

---

[1]- عبد القادر بن عمر المهداوي، المصدر السابق، ص9.

[2]- هو عبد الله بن أبي مدين بن أبي بكر التمنطيطي ولد سنة 1189هـ/1775م، أخذ عن والده واستفاد من أخيه الحسن ابن أبي مدين التمنطيطي، ثم انتقل إلى مجلس الشيخ محمد بن عبد الرحمان التنيلاني، رحل إلى سجلماسة ، لم يعمر الشيخ كثيراً فقد توفي سنة 1231هـ/1816م. أُنظر: محفوظ بوكراع، المرجع السابق، ص414.

[3]- محمد باي بلعالم، الرحلة العلية، المرجع السابق، ج2، ص196.

[4]- عبد السلام الأسمر بلعالم، المرجع السابق، ص168.

[5]- هو الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الكريم الحاجب البكري المكنى بـ "أبي محمد"، قصد الشيخ سيد الحاج محمد بن عبد الرحمن البلبالي وأخذ عنه جميع فنون العلم في أربع سنوات، فأجازه شيخه فتصدر للتدريس والفتوى وانتفع به جم غفير من الطلبة، له عدة مؤلفات منها حاشية على المختصر وشرح على ابن جماعة وله عدة تقاييد فقهية، توفي سنة 1261هـ/1845م. أُنظر: محمد بن عبد الكريم التمنطيطي، جوهرة المعاني، المصدر السابق، ص11.

[6]- هو الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن معروف المهداوي التنيلاني، أحد أبرز علماء بيت التنلاني في القرن 13هـ/19م، كان عالماً حافظاً للحديث والفقه والتفسير والنحو، تصدر للتدريس والفتوى، توفي بالمهدية سنة 1240هـ/1824م. أُنظر: عبد القادر بن عمر المهداوي، المصدر نفسه، ص13.

الله الجوزي[1] كتاب بعنوان: تعاليق على تحفة الحكام في مسائل التداعي والأحكام لأبي الحسن الزقاق[2]، وغيرهم كثير.

03/ التاريخ والتراجم والسير:

اهتم العلماء التواتيون بالتأليف في التاريخ وأدب التراجم وخصوه بالعناية، ومن أشهر المؤلفات في هذا المجال:

- كتاب نقل الرواة عن من أبدع قصور توات: ألفه الشيخ محمد بن عمر الجعفري البوداوي[3]، حيث كان من الفقهاء الذين لهم اطلاع على كتب التاريخ والجغرافيا، المحبين لهذا الفن، وكان قد رأى بأن هناك نقصاً في كتابة تاريخ توات عامة وقصور بودة خاصة، فأراد بهذا الكتاب أن يملأ الفراغ حسب ما ذكر في مقدمة كتابه[4]، فعرَّف بتوات وتاريخ تعميرها وأول من استوطنها وذكر بعض الأحداث التاريخية بداية من القرن 8هـ/14م، كما عرَّف بمشاهير العلماء والأولياء بها، وركز على بودة وبيّن أصل سكانها وسيرتهم وعرفهم وعوائدهم[5]، وبهذا كان لهذا الكتاب قيمة تاريخية يستفيد منها الباحث في معرفة تاريخ منطقة توات، وقد قام الباحث مولاي عبد الله سماعيلي بتحقيقه سنة 2015م.

- مخطوط بعنوان الدرة الفاخرة في ذكر المشائخ التواتية: للشيخ محمد عبد القادر بن عمر التنلاني[1]، وهو مخطوط من الحجم الصغير جمع فيه مؤلفه تراجم مقتضبة لأزيد من مائة شخصية من العلماء

---

[1]- هو القاضي محمد عبد الله بن القاضي محمد الجوزي (الحفيد)، ولد بأولاد عبد اللي وحفظ بها القرآن الكريم، التحق بالزاوية الراشدية بأولاد راشد فتحصل منها على جل فنون العلم، ثم التحق بالشيخ محمد بن عبد الرحمن بن عمر التنيلاني، فأخذ عنه ما تبقى من أمهات فنون العلم وأجازه في ذلك إجازة مطلقة تدريساً وفتوى، ثم عاد إلى مسقط رأسه فتصدر مجلس التدريس حتى عين في عام 1233هـ/1817م قاض على إقليم قورارة، أسس زاوية بقصر أدهمان وتدفقت عليها وفود الطلاب والمريدين من كل الجهات، توفي سنة 1269هـ/1852م. أُنظر: محفوظ بوكراع، المرجع السابق، ص224.

[2]- مولاي التهامي غيتاوي، المرجع السابق، ص ص110-124.

[3]- هو الشيخ محمد بن عمر بن أحمد الحبيب بن محمد بن المبروك بن الحاج أحمد الملقب ب"أبو سبع حجات"، ولد سنة 1287هـ/1870م بزاوية سيدي حيدة في بيت علم وجاه، تعلم القرءان على يد والده ثم انتقل إلى كوسام ليتم العلوم على يد الشيخ عبد الله بن أحمد البلبالي، ليعود إلى زاوية جده ببودة ويتصدر للتدريس والفتوى، حيث تخرج على يده عدد كبير من العلماء، توفي بمسقط رأسه سنة 1345هـ/1926م. أُنظر: محمد بن عمر البوداوي، المصدر السابق، ص ص42-44.

[4]- المصدر نفسه، ص59.

[5]- للمزيد يُنظر: نفسه، ص ص59-79.

[1]- هو محمد عبد القادر بن عمر الأصغر بن عبد الرحمن بن عبد القادر بن أحمد بن يوسف، ولد بتينلان ونشأ في أسرته العلمية وفي زاوية والده بالمهدية، ثم درس على يد الشيخ محمد بن أحميد بن عبد العزيز، كان مهتماً بعلم التاريخ والأنساب، توفي سنة 1265هـ/1848م. أُنظر: عبد القادر بن عمر المهداوي، المصدر السابق، ص1.

والصالحين في توات الوسطى وتيدكلت وقورارة، كما عرَّج فيه على ذكر فضائل العلم والعلماء واستدلَّ على ذلك بأحاديث نبوية [1]، ووضح تاريخ الانتهاء من كتابته أنه كان يوم الأحد 13 صفر 1250هـ/ 1834م[2]. يعتبر هذا المخطوط من أجل ما ألف في تاريخ منطقة توات خلال القرن التاسع عشر، وهو قيد التحقيق في إطار مشروع بحث تكويني بجامعة أدرار.

– مخطوط بعنوان القول البسيط في أخبار تمنطيط: للشيخ محمد الطيب بن عبد الرحيم التمنطيطي [3]، وهو مخطوط من الحجم الصغير أفرده لتاريخ مدينة تمنطيط بصفة خاصة وتوات بصفة عامة، قدم فيه لمحة عامة عن الأحوال السياسية والاقتصادية وأسماء القبائل التي سكنتها حتى عصره[4]، وقد حظي هذا التأليف باهتمام كبير من طرف المؤرخين نظراً لأهميته حيث أفرد له المؤرخ الفرنسي مارتان (Martin) ترجمة في كتابه "أربعة قرون من تاريخ المغرب" [5]، كما قام الباحث فرج محمود فرج بتحقيق هذا المخطوط.

– "درة الاقلام في أخبار المغرب بعد الاسلام"، "جوهرة المعاني فيمن ثبت لدي من علماء الألف الثاني"، "الكواكب البرية في المناقب البكرية" لمحمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي [6] الذي يعد من أشهر المؤرخين في توات، فالمؤلف الأول في التاريخ أفرده للتعريف بتوات وتاريخ عمارتها وتاريخ قدوم أهم القبائل وأبرز العلماء بشكل مختصر، والمؤلف الثاني في التراجم ترجم فيه لثمانية وخمسين عالماً من علماء توات وبلاد المغرب، والمؤلف الثالث في الأنساب وفيه ذكر نسب الشيخ البكري بن عبد الكريم والعائلة البكرية. وتكتسي هذه المؤلفات أهمية كبرى كون مؤلفها كان قاضياً وشيخاً من شيوخ الزاوية البكرية العريقة، وتوجد نسخ عديدة منها في خزائن المخطوطات التواتية.

[1]– عبد القادر بن عمر المهداوي، المصدر السابق، ص ص1-35.

[2]– للمزيد يُنظر: المصدر السابق، ص35.

[3]– هو محمد الطيب بن عبد الرحيم التمنطيطي المشهور باسم "ابن بابا حيدة" ينحدر من عائلة أولاد أبو يحي، ولد بتمنطيط سنة 1184هـ/1770م، نشأ في بيئة علمية وأصبح بعد أن أتم تعليمه من أشهر فقهاء مدينة تمنطيط في القرن 13هـ/19م، اهتم بالتاريخ والأنساب، توفي منتصف القرن 19م. أُنظر: محمد الطيب بن عبد الرحيم (ابن بابا حيدة)، المصدر السابق، ص6.

[4]– المصدر نفسه، ص ص14-41.

[5]- A.G.P. Martin, Quatre siècles d'histoire, op.cit, pp9-10.

[6]– هو محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق البكري التمنطيطي، ولد بتمنطيط سنة 1300هـ/1883م، درس علي يد والده ثم انتقل إلى كوسام ودرس على يد الشيخ عبد الله بن أحمد الحبيب وتفقه في الدين، مارس التدريس والقضاء بتمنطيط، توفي سنة 1374هـ/1955م. أُنظر: محفوظ بوكراع، المرجع السابق، ص ص108-113.

- كتاب الطرائف والتلائد في مناقب الشيخين الوالدة والوالد: للشيخ محمد بن المختار الكنتي الكبير[1]، ويشمل على تاريخ المختار الكنتي وشيوخه وتضمن مقدمة وسبع أبواب وفيه الكثير من المسائل التي كان الشيخ المختار يوجهها لطلابه.

- مخطوط بعنوان إعلام الإخوان بمناقب بعض الأعيان: للشيخ سيدي الحسن بن سعيد البكري [2]، وهو مؤلف في التراجم خصصه لترجمة العديد من الشخصيات البكرية التواتية.

04/ أدب الرحلة[3]:

من جملة الفنون والعلوم التي أبدع فيها علماء توات في القرن التاسع عشر فن الرحلات، الذي ازدهر وعرف تقدماً ملحوظاً في هذه الفترة، فالرحلة تدل على مستوى الوعي الثقافي للرحالة فلو لم يكن صاحبها ذا صبغة ثقافية لما اهتم بكتابتها[4]، فبالإضافة إلى الحج وطلب العلم[5]، ظهر دافع آخر للارتحال لدى التواتيين خلال هذه الفترة وهو الرحلة بدافع مادي، حيث طلب الاستعمار الفرنسي من بعض الشخصيات التواتية القيام برحلات بغية الاستفادة منها للتوسع في المنطقة، ومن أهم أعلام الرحلة خلال القرن 19م:

- عبد الرحمن بن إدريس التنيلاني[1]: يعد من أعلام الرحلة في توات له مؤلف مشهور "رحلة إلى مدينة الجزائر"، وصف فيه معالم الطريق من توات إلى مدينة الجزائر والمدن التي مر بها ويذكر من لقيه

---

[1]- هو محمد بن المختار الكنتي تعلم وحفظ القرءان بمحضرة أبيه الشيخ المختار الكنتي، من علماء كنتة المشهورين في علم الفقه والتفسير والتاريخ له عدة مؤلفات توفي سنة 1270هـ/1854م. أُنظر: محمد سعيد القشاط، **أعلام من الصحراء**، ط1، دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 1997م، ص171.

[2]- هو سيدي الحسن بن سعيد البكري، ولد بالزاوية البكرية سنة 1210هـ/1796م، تلقى تعليمه الأولي بملوكة على يد الشيخ سيدي عبد العزيز البلبالي، بعد رجوعه إلى الزاوية البكرية تصدر للتدريس والإفتاء وتخرج على يديه عدة علماء، كان كثير التنقل بين توات وبلاد التكرور للتدريس والإفتاء، له عدة مؤلفات، توفي سنة 1286هـ/1869م. أُنظر: محمد الطيب بن عبد الرحيم (ابن بابا حيدة)، المصدر السابق، ص9.

[3]- الرحلة لغة: من الارتحال يقال رحل الرجل إذا سافر، والرحلة مؤلف يصف فيه الرحالة ما رأى. أما اصطلاحاً: فهي فن نثري مدون بأسلوب مميز يشمل تاريخ الخروج والوصول إلى كل مدينة مع إعطاء لمحة عنها وعن رجالها مع ذكر مراحل السفر. أُنظر: إبراهيم مصطفى وآخرون، **المعجم الوسيط**، دار الدعوة، بيروت، 1989م، ج1، ص335/ عبد الله كروم، المرجع السابق، ص34.

[4]- سعيد بن سعيد العلوي، **أوروبا في مرآة الرحلة**، منشورات كلية الأدب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1995م، ص15.

[5]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p240.

[1]- تقدمت ترجمته في الفصل الأول من هذه الدراسة.

هناك[1]، حيث تبرز الرحلة مجموعة من الملامح والإشارات التي تدلنا على مكانة المؤلف وعصره ومنطقته، كما تكمن أهمية الرحلة في أنها أرخت لحملة اللورد إكسماوث على مدينة الجزائر سنة 1816م[2]، وتعتبر بذلك المصدر العربي الوحيد الأكثر وثوقاً في تسجيل أحداث تلك الحملة، إذ أنها من أندر الشهادات التاريخية العينية في تاريخ الجزائر العثمانية بداية القرن التاسع عشر.

– الحاج عبد القادر بن أبي بكر التواتي [3]: من أعلام الرحلة في توات خلال القرن التاسع عشر، له مؤلف بعنوان: "الصحراء والسودان" دون فيه رحلته التي قام بها سنة 1849م بطلب من السلطات الفرنسية التي كانت تستعمر الشمال الجزائري[4]. تُقدم هذه الرحلة معلومات تاريخية هامة وصورة دقيقة عن الوضع السياسي السائد بالمناطق التي زارها في الصحراء الجزائرية والسودان خلال تلك الفترة، ولأن صاحب الرحلة كان مبعوثاً من طرف الضابط بواسان (Boissonnet) فقد جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات الجغرافية والاقتصادية التي تهم الفرنسيين من طرق ومسالك وأسواق تجارية [5]، ولأهمية الرحلة قام الفرنسيون بترجمتها إلى الفرنسية.

– عبد الرحمن سلكة [6]: أحد أعلام الرحلة التواتية، له مؤلف تاريخي باللغة الفرنسية بعنوان "ملخص بخصوص توات" جمع فيه معلومات واسعة عن منطقة توات التي زارها في نهاية القرن التاسع عشر، وهي دراسة مهمة عرَّف فيها بتاريخ المنطقة وقصورها وعدد سكانها والعادات والتقاليد والطبقات الاجتماعية ومختلف الأنشطة الاقتصادية، كما تحدث عن علماء توات وعلاقتهم مع علماء الجزائر[7].

05/ الشعر:

الشعر مرآة المجتمع يعبر عن آماله وآلامه ويخلد مآثره وبطولاته، والمجتمع التواتي كجزء من المجتمع العربي الكبير مجتمع شاعر بالفطرة، عكس المجتمعات الأخرى التي يكون فيها قرض الشعر محصوراً على نخبة قليلة من المجتمع، وهذا ما ذكره دوماس (Daumas) حيث قارن بين المجتمع

---

[1]– عبد الرحمن بن إدريس التنلاني، المصدر السابق، ص3.

[2]– للمزيد يُنظر: المصدر نفسه، ص ص4-12.

[3]– تقدمت ترجمته في الفصل الأول من هذه الدراسة.

[4]- Abd al Kadir Touati, op.cit, p7.

[5]– فارس كعوان، **الإستشراق الفرنسي والتراث التواتي قراءة في رحلة عبد القادر بن أبي بكر التواتي بن هيبة الله**، الملتقى الوطني الرابع، إسهامات علماء توات في الحركة الفكرية والثقافية إبان العصر الحديث (1500-2000م)، 19-20 أفريل 2010م، جامعة أدرار، ص43.

[6]– تم التعريف به في الفصل الأول من هذه الدراسة.

[7]- Abderrahmane Selka, op.cit, pp522-554.

العربي والأوروبي قائلاً: "إذا كان الشعر عندنا موهبة مقصورة على عدد قليل وميزة تخص بعض العقول، زهرة نضرة ونادرة لا تنبت إلا بأرضية خصبة جداً، فإنها عند العرب متواجدة في كل مكان، تغذيها الفضاءات الرحبة والشمس ومفاتن الطبيعة ومشاهد الحياة اليومية"[1]. ويضيف بأن قول الشعر يتعاطاه الجميع من الراعي إلى كبير القوم وسيد القبيلة[2]، وهذا الوصف ينطبق على المجتمع التواتي.

أما من حيث المواضيع المطروقة في الشعر التواتي خلال القرن التاسع عشر فإنها تختلف من شاعر إلى آخر، غير أن الغالب على المواضيع في أشعار المجتمع التواتي القصائد الدينية والمدائح. ففي المديح النبوي نجد الشاعرة نانة عائشة[3] التي بدأت النظم سنة 1284هـ/1867م بقصيدة عنوانها: "خيار القول الا على النبي قولوا للقوالة"، وبلغ عدد قصائدها 110 قصيدة في مختلف المواضيع وبهذا فهي من النساء اللواتي ساهمن في نشر الثقافة الشعبية بتوات [4]. ومن الشعراء البارزين في هذا الغرض الشيخ حمزة بن أحمد بن مالك الفلاني [5] الذي خلف الكثير من القصائد الشعرية في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم [1]، فقد ترك ديواناً شعرياً يشمل أغراضاً مختلفة من قصائد مدح الرسول ومواعظ وحكم وغيرها من الأغراض الأخرى[2].

ومن الأغراض الشعرية التي ألف فيها التواتيون فن الرثاء، حيث نجد مرثية الشيخ عبد الرحمن بن إدريس التنيلاني التي رثى فيها ابن عمه الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن التنيلاني في قوله:

ألا في سبيل الله مما أصابنـــا من الهم والأحزان والضيق والنكـــر

---

[1]- Eugene Daumas, Mœurs et coutumes de l'Algerie, op.cit, p106.

[2]- Ibid, p106.

[3]- هي نانة عائشة بنت الشيخ سيدي محمد بن المبروك البداوي الجعفري يصل نسبها إلى الولي الصالح "مول سبع حجات" ولدت سنة 1233هـ/1817م بقصر زاوية سيدي حيدة بلدية بودة، تعلمت على يد والدها وحفظت عنه عديد القصائد، عرفت بزهدها وورعها وبحبها للمصطفى صلى الله عليه وسلم، وفيه نظمت عشرات القصائد، توفيت أواخر القرن 13هـ/19م. أُنظر: عبد الله مقلاتي ومبارك جعفري، المرجع السابق، ص397.

[4]- أحمد جعفري، اللهجة التواتية الجزائرية، المرجع السابق، ص593.

[5]- هو حمزة بن الحاج أحمد بن محمد بن مالك القبلاوي الفلاني ولد 1259هـ/1843م بقرية ساهل بأقبلي، اشتغل في سنٍّ مبكرة بطلب العلم فحفظ القرءان الكريم وتلقى العلوم الشرعية والآداب على يد والده والعديد من العلماء، كان يمتاز بقوة الذاكرة والحفظ، تصدر للتدريس وتخرج على يديه العديد من العلماء منهم عبد الرحمن السكوتي، له مجموعة من الفتاوي والنوازل والمراسلات مع علماء وشيوخ عصره، توفي سنة 1335هـ/1916م. أُنظر: محمد باي بلعالم، **قبيلة فلان في الماضي والحاضر ومالها من العلوم والمعرفة والمآثر**، دار هومة، الجزائر، 2004م، ص ص16-23.

[1]- محمد باي بلعالم، الرحلة العلية، المرجع السابق، ج1، ص256.

[2]- للاطلاع على هذه القصائد يُنظر: محمد باي بلعالم، قبيلة فلان، المرجع نفسه، ص ص24-29.

لقد غمرتنا الحادثات ببؤسها وحلت بنا الرزايا من حيث لا ندري

فيا لتنيلان أصيب وحيدهـــا وسيدهـــا المرجـــو للنفـــع والخيــــر[1]

يعد الشعر التعليمي من الأغراض التي اهتم بها علماء توات بهدف تقريب العلوم إلى ذهن المتعلم فكانوا يلجأون لهذا الغرض تسهيلاً على طلبتهم لحفظها وفهمها، فقد خلف علماء توات العديد من القصائد والمتون التعليمية، ومن الشعراء البارزين في هذا الغرض الشيخ سيد البكري بن عبد الرحمن[2] الذي خلف عدة قصائد ومنظومات شعرية وعلى مختلف الأوزان والبحور الشعرية في النحو والفقه والتوحيد وعلم الفرائض وغير ذلك، فقد كان من عجائب الله في النظم إذا اخذ القلم لا يحتاج للتأمل كسائر العلماء بل يكتب ما أراد في الحال، وإذا سئل عن مسألة يقول للسائل أتريد الوثيقة نظماً أم نثراً ثم يأخذ القلم ويكتب ما طلب منه في الحال[3]، إضافة إلى شعراء آخرين.

05/ التأليف في العلوم العقلية:

عَنِيَ التواتيون بالمواد العلمية لارتباطها الوثيق بالعلوم الدينية، لكن انكب اهتمامهم بتدريسها أكثر من التأليف فيها، ومن العلوم العقلية التي حظيت بتأليف التواتيين علم المنطق حيث أَلَّفَ الشيخ عبد الرحمن السكوتي الملايخافي [1] كتاباً بعنوان "كتاب في علم المنطق" [2]، لكن اختفى هذا الكتاب ولم يعد موجوداً، بالإضافة إلى اهتمامهم بعلم الحساب للاستعانة به في تقسيم التركات، فقد أَلَّف الشيخ عبد الرحمن السكوتي مؤلّفاً في علم الفرائض والحساب سماه "جوهرة الطلاب في علمي الفرائض والحساب"، وهو عبارة عن أرجوزة شعرية من 180 بيتاً[3]. ومن العلوم التي اهتم التواتيون بها

---

[1]- للاطلاع على القصيدة كاملة يُنظر: أحمد أبا الصافي جعفري، الحركة الأدبية، المرجع السابق، ص259.

[2]- هو سيد البكري بن عبد الرحمن بن الطيب بن أحمد بن امحمد بن عمر بن أحمد بن يوسف التنلاني، ولد سنة 1261هـ/ 1845م بزاوية سيد البكري، حفظ القرءان على يد والده ثم انتقل إلى مدرسة شيخه سيدي الحسن بن سعيد وأخذ عنه مختلف العلوم، ثم انتقل إلى أولاد سعيد وعمل على تدريس الصبيان القرءان الكريم، وبعد وفاة شيخه عاد إلى زاوية سيد البكري وقام مقامه في التدريس حتى وافته المنية بمسقط رأسه سنة 1339هـ/1921م، له عدة تآليف نظماً ونثراً. أُنظر: عبد الحميد البكري، المرجع السابق، ص86.

[3]- محمد عبد العزيز سيد اعمر، المرجع السابق، ص105.

[1]- هو عبد الرحمن بن أمحمد بن علي بن الحاج الصديق الملايخافي ولد بأركشاش بأقبلي عام 1285هـ/1868م وعاش يتيماً، لما حفظ القرءان انتقل إلى خاله حمزة القبلاوي فتضلع في العلوم الشرعية والنحوية والفرائض والحساب والمنطق، انتقل إلى ورقلة فقام فيها بدعوة إصلاحية ضد الخرافات والبدع والمعتقدات الباطلة التي كانت سائدة آنذاك، توفي بعد أداءه فريضة الحج بين مكة والمدينة سنة 1330هـ/1911م. أُنظر: محمد باي بلعالم، إرشاد الحائر، المرجع السابق، ص ص72.

[2]- محمد باي بلعالم، قبيلة فلان، المرجع السابق، ص42.

[3]- المرجع نفسه، ص43.

علم الفلك للاستفادة منه في أمور متعددة منها معرفة مواقيت الصلاة وتحديد القبلة، فقد ألف الشيخ المحفوظ القسطني[1] مؤلّفاً بعنوان "روض الزهر اليانع في علم الفلك"، وهو شرح على منظومة الشيخ محمد بن سعيد السوسي[2].

كما ألّف التواتيون في علوم أخرى لكن باهتمام أقل كالطب وعلوم الطبيعة والجغرافيا وغيرها، بدليل وجود بعض الكتب من هذه العلوم في خزائن المخطوطات بالمنطقة، غير أن الشيء الذي نتحسر عليه هو ضياع الكثير من تلك الإبداعات والإسهامات بسبب أو بآخر، وما تبقى منها فهو في حالة يرثى لها، حبيس تلك الخزائن ينتظر من يجمعه ويحققه. يظهر لنا من خلال هذا العرض اهتمام التواتيين بالتأليف في شتى المجالات رغم التفاوت في الاشتغال بتلك العلوم، وهو ما يعطينا صورة واضحة المعالم عن ازدهار الحياة الثقافية في توات خلال القرن التاسع عشر.

المبحث الرابع: الطرق الصوفية في توات

حظيت الحياة الروحية بالنصيب الأوفر من اهتمام الأوروبيين بالوجه الثقافي من حياة التواتيين، حيث شد انتباه الفرنسيين عند احتلالهم للجزائر في القرن التاسع عشر انتشار هذه الطرق بشكل كبير في شمال إفريقيا، وأنها تقوم بدور ثقافي هام بالمنطقة، إذ أكدت دراساتهم أنَّ للطرق الصوفية نشاطاً وانتشاراً كبيراً في منطقة توات، حيث وجدتها أرضاً خصبة لتنمو وتتفرع فيها، وساهمت في القضاء على الأمية والتحفيز على طلب العلم من خلال نشر تعاليمها وأورادها التي تعتبر شرطاً أساسياً للتصوف، وقلما تجد في توات من لا ينتسب إلى إحدى الطرق الصوفية، حيث يقول صوليييه (Soleillet): "المنطقة كلها مغطاة بالطرق الصوفية... تتمتع هذه الطرق بقوة كبيرة في الصحراء، لديهم أتباع كثر ينتمون إلى جميع فئات المجتمع وينتشرون في كل مكان"[1]، ويؤكد رولفس (Rohlfs) ذلك بقوله: "ألاحظ أن جميع المسلمين في توات ينتمون لطريقة صوفية"[2].

---

[1]- هو محمد المحفوظ بن عبد الحميد بن امحمد القسطني التواتي ولد بقرية ايقسطن بدلدول، أرسله والده إلى الشيخ سيدي محمد الونقالي ولزمه لمدة عشر سنوات فأجازه في شتى العلوم، عاد إلى مسقط رأسه ليستأنف نشاطه العلمي، عرف بكثرة تأليفه في مختلف الفنون وكان أول من اشغل بعلم الفلك بقورارة، توفي بدلدول سنة 1233هـ/ 1818م. أُنظر: عبد القادر بن عمر المهداوي، المصدر السابق، ص17.

[2]- محمد المحفوظ القسطني، **روض الزهر اليانع على مشروح المقنع في علم كان لأبي مقرع**، تح: مولاي عبد الله سماعيلي، مقامات للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م، ص ص101- 226.

[1]- Paul Soleillet, L'Afrique Occidental, op.cit, p261.

[2]- Gerhard Rohlfs, Reise durch Marokko, op.cit, p105.

من هذا المنطلق كلّفت الإدارة الاستعمارية مبعوثين خاصين للبحث في أصول هذه الطرق وتحديد دورها وفعاليتها، وتقديم إحصاءات عن أتباعها بهدف التمكن منها، ومن أهم الدراسات في هذا المجال خلال القرن التاسع عشر -بالإضافة إلى المستكشفين السابقين- نجد الدراسة التي قدمها الضابط لويس رين "Louis Rinn "[1]، والدراسة التي قام بها الباحثان كوبلاني "cappolani " ودوبون "depont "[2]. وقد أجمعت تلك الدراسات على أن أهم الطرق الصوفية في توات خلال القرن التاسع عشر هي:

01/ الطريقة القادرية:

تنسب إلى مؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني [1]، وتعتبر أول الطرق الصوفية ظهوراً في العالم الإسلامي خلال القرن 6هـ/12م، حيث عرفت انتشاراً كبيراً في كل الأقطار الإسلامية[2]. انتقلت إلى الجزائر بواسطة الولي الصالح أبي مدين شعيب بن الحسين[3] عندما التقى بمؤسس الطريقة سنة 551هـ/

---

[1]- ضابط عسكري فرنسي تقلد عدة مناصب هامة منها رئيس المصلحة المركزية لشؤون الأهالي، ثم مستشار للحكومة الفرنسية، اشتهر بمعرفته للغة العربية وبخبرته في شؤون الأهالي، كلفته الإدارة الفرنسية بالبحث في تاريخ الجزائر، قدم دراسته سنة 1884م تحت عنوان: "مرابطون وإخوان-دراسة عن الإسلام في الجزائر" حيث قدم إحصاءات ميدانية حول الحياة الثقافية الصوفية في الجزائر في القرن 19م مبيناً تاريخ ظهور الطرق الصوفية وعدد مريديها وبعضاً من أوقافها خلال القرن19م. أُنظر:

Louis Rinn, **Marabouts et Khouans étude sur l'islam en Algérie**, Adolphe Jourdan, libraire-éditeur, Paris, 1884, p1.

[2]- باحثان عسكريان فرنسيان متعاقدان بالمصلحة العسكرية للحكومة الفرنسية جندتهما الحكومة الفرنسية للقيام بدراسة ميدانية للطرق الصوفية في الجزائر، حيث قدما دراسة مفصلة عن التنظيم الطرقي والأعضاء المؤسسين لهذه الطرق وإحصاءات عن عددها وعدد مريدي كل طريقة، طبعت الدراسة سنة 1897م تحت عنوان: "الطرق الدينية الإسلامية". أُنظر:

Xavier Coppolani, Octave Depont, **les confrèries religieuses musulmanes**, Adolphe Jourdan, Alger, 1897, pp1-5.

[1]- هو أبو محمد عبد القادر الجيلاني، ولد بجيلان في بلاد فارس سنة 471هـ/1077م، تلقى تعليمه الأولي بجيلان ثم انتقل إلى بغداد وتلقى العلم فيها على يد كبار العلماء هناك، أسس مدرسته سنة 528هـ/1133م فجلس للتدريس والفتوى، ويعتبر من كبار الزهاد والمتصوفة والاستقامة في أخلاقه وتربيته، توفي سنة 561هـ/1165م. أُنظر: عبد المنعم الحنفي، **الموسوعة الصوفية**، ط1، دار رشاد، القاهرة، 1992م، ص ص113-115.

[2]- سبنسر ترمنجهام، **الفرق الصوفية في الإسلام**، تر: عبد القادر البحراوي، دار المعرفة الجامعية، ميامي، 1994م، ص40.

[3]- هو أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري الأندلسي، ولد سنة 509هـ/1116م، اتجه إلى مدينة فاس وأخذ العلم عن كبار علمائها، رحل إلى المشرق والتقى الشيخ عبد القادر الجيلاني، توفي بتلمسان سنة 594هـ/1198م. أُنظر: أبو يعقوب يوسف بن يحي التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف**، تح: أحمد توفيق، ط2، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1997م، ص319.

1156م، ووصلت إلى توات عن طريق الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي [1] خلال القرن 9هـ/15م الذي أنشأ زاويته القادرية في قصر بوعلي سنة 885هـ/1480م حيث أدَّت دوراً كبيراً في نشر الإسلام وتدريس تعاليم الطريقة في معظم أرجاء إفريقيا الغربية [2]. ويتضمن الورد الذي تقوم عليه الطريقة: الاستغفار مائة مرة والتسبيح مائة مرة والصلاة على النبي مائة مرة والهيللة مائة مرة في اليوم[3].

لقيت القادرية تجاوباً كبيراً من طرف سكان توات خاصة من طرف قبيلة كنته التي كان لها دور كبير في نشر الطريقة بالمنطقة، فقد بلغ عدد مريديها في الجزائر نهاية القرن التاسع عشر حسب الإحصاءات التي قدمها كوبلاني 24.578 مريد[4]، أما في توات فذكر ديبورتي (Deporter) أن لها عدداً كبيراً من الأتباع في توات الوسطى وقورارة [1]، ومن أهم هذه القصور التواتية التي انتشرت بها تيميمون وشروين وتيمي وتسفاوت وأنزجمير وسالي وغيرها[2]. ومن مظاهر انتشار الطريقة في توات إلى غاية اليوم وجود عدّة أضرحة منسوبة للشيخ الجيلاني، وكذا احتفال السكان بالتظاهرة الثقافية المعروفة بزيارة الجيلاني، بالإضافة إلى انتشار أضرحة شيوخ هذه الطريقة التي تزار وتقام لها وعدات سنوية مثل ضريح أحمد بن محمد الرقادي بزاوية كنتة.

02/ الطريقة الشاذلية:

تنسب إلى مؤسسها أبي الحسن علي الشاذلي[3] الذي تأثر بالشيخ أبي القاسم الجنيد والشيخ أبي مدين شعيب والشيخ عبد السلام بن مشيش. انتشرت هذه الطريقة في شمال إفريقيا والمشرق

---

[1]- هو محمد بن عبد الكريم المغيلي ولد بمغيلة سنة 820هـ/1417م، انتقل إلى توات وتوفي بها سنة 909هـ/1503م. للمزيد يُنظر: أحمد الحمدي، **محمد بن عبد الكريم المغيلي رائد الحركة الفكرية بتوات عصره وآثاره (870هـ/909هـ)**، رسالة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، إشراف: عبد المجيد بن نعيمة، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2000/1999م، المذكرة كلها.

[2]- أرلوند توماس، **الدعوة إلى الإسلام**، تر: حسن إبراهيم حسن وآخرون، ط 2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1997م، ص395.

[3]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج4، ص43.

[4]- Xavier Coppolani, Octave Depont, op.cit, p292.

[1]- V. B. Deporter, op.cit, p55.

[2]- Henri Bissuel, op.cit, pp23-38/ Louis Voinot, op.cit, p107.

[3]- هو علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن يوسف ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، ولد بغمارة إحدى قرى سبتة المغربية سنة 571هـ/1196م، تتلمذ على يد عبد السلام بن مشيش بالمغرب وسكن شاذلة فنسب إليها، توجه إلى مصر واستقر فيها، توفي في طريقه إلى الحج بمصر سنة 655هـ/1257م. أُنظر: خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ط15، دار العلم للملايين، 2002م ج4، ص305.

الإسلامي وتفرعت عنها معظم الطرق الصوفية التي انتشرت في إفريقيا، وصلت الجزائر مع مطلع القرن 13م[1]، تتكون أذكارها من الاستغفار مائة مرة والصلاة على الرسول مائة مرة والشهادة عشر مرات كل صباح ومساء، قدَّم الفرنسيون إحصاءات عن مريدي الطريقة في الجزائر خلال نهاية القرن التاسع عشر قدرت بـ 14.206 مريد[2]، وتعتبر أول طريقة صوفية دخلت توات ولقيت رواجاً كبيراً في المنطقة من خلال فروعها في المنطقة والتي سيأتي ذكرها.

03/ الطريقة الطيبية (الوزانية):

هي إحدى فروع الطريقة الشاذلية تأسست على يد مولاي عبد الله الشريف [3] أواخر القرن 11هـ/17م في مدينة وازان بالمغرب الأقصى[1]، وعرفت انتشاراً واسعاً وتنظيماً محكماً في عهد حفيده مولاي الطيب (ت 1149هـ/1737م) الذي حملت اسمه[2]، انتقلت في مطلع القرن 18م إلى الجزائر وتونس وطرابلس ووصلت مصر[3]، أما وردها فيتكون من التسبيح مائة مرة والصلاة على الرسول مائة مرة والشهادة مائة مرة صباحاً ومساءً[4]. دخلت إلى توات خلال القرن 12هـ/18م[5] عن طريق محمد بن عمر المهداوي التمنطيطي، وعرفت انتشاراً واسعاً في كل القصور التواتية خلال القرن 19م[6]، وقد بلغ عدد مريدي الطريقة في الجزائر سنة 1897م حوالي 22.148 مريد[7].

---

[1]- الطاهر بونابي، **التصوف في الجزائر خلال القرنين 6و7 الهجريين/ 12و13 الميلاديين (نشأته- تياراته- دوره الاجتماعي والثقافي والفكري والسياسي)**، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، 2004م، ص133

[2]- Xavier Coppolani, Octave Depont, Ibid, p212.

[3]- هو مولاي عبد الله بن إبراهيم المنحدر من مولاي إدريس الثاني ولد سنة 1005هـ/1597م بتازرون، وبعد بلوغه سن الرشد انتقل إلى تطوان لتلقي العلم ثم سافر إلى فاس وتتلمذ على يد العلماء القرويين، انتقل إلى وزان فأخذ عنه علماء كثيرون، توفي بوزان سنة 1089هـ/1679م. أُنظر: سبنسر ترمنجهام، المرجع السابق، ص409/ V.B.Deporter, op.cit, p54

[1]- جعفر بن أحمد الناصري، **المحيط بالمهم من أخبار صحراء المغرب وشنقيط**، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2015م، ج2، ص627.

[2]- Jules Cambon, op.cit, p200.

[3]- Félix Jacquot, op.cit, p292.

[4]- Paul Soleillet, L'Afrique Occidental, op.cit, p257.

[5]- جعفر بن أحمد الناصري، المرجع نفسه، ص628.

[6]- Henri Bissuel, op.cit, pp24-44/ Louis Voinot, op.cit, p107.

[7]- Xavier Coppolani, Octave Depont, Ibid, p213.

تجدر الإشارة إلى أن هذه الطريقة هي أكثر الطرق انتشاراً في توات، وتعتبر المنطقة القلب النابض لها وهذا بشهادة معظم المستكشفين الأوروبيين[1]، وهو ما نستشفه من حديث الرحالة رولفس (Rohlfs) الذي زار توات تحت حماية شيخ وازان مؤكداً بأن هذه الطريقة تحظى باحترام كل سكان توات بقوله: "...أما بلاد توات بمفهومها الواسع فالأهالي يخدمون في جملتهم زاوية وازان، وشيخها الصالح مولاي الطيب هو محل الاحترام الأكبر عندهم على وجه الخصوص"[2]، كما أشار في ذات السياق إلى الاحترام الكبير الذي حظي به لما علم السكان أنه قادم من وازان قائلاً: "بمجرد أن اكتشف السكان أننا من وازان باركونا في كل مكان وقبلوا لباسنا"[3]، كما ذكر أنَّ للطريقة أملاكاً ضخمة في المنطقة، وهو نفس الأمر الذي أكده صولييه (Soleillet)[4]. ولا تزال هذه الطريقة منتشرة في معظم قصور توات من خلال فرقة الحضرة التي تنسب إلى الشيخ مولاي الطيب الوازاني.

04/ الطريقة الكرزازية (الموساوية):

هي إحدى فروع الطريقة الشاذلية تأسست في كرزاز التي أخذت اسمها على يد سيدي أحمد بن موسى الكرزازي[1] في القرن 10هـ/ 16م، انتشرت في الجنوب الغربي الجزائري وفي المغرب الأقصى حيث كانت لها علاقة طيبة مع حكام المغرب الأقصى خلال القرن التاسع عشر[2]، وبلغ عدد مريدي الطريقة في الجزائر نهاية القرن التاسع عشر حوالي 4.860 مريداً[3]، دخلت توات على يد بعض الأعيان وعرفت انتشاراً كبيراً بالمنطقة بحكم القرب الجغرافي بين توات وكرزاز، ولها عدة اتباع ومقاديم يعينهم شيخ الزاوية خاصة في تسابيت وبودة وتيمي[4]، وقد لاحظ رولفس (Rohlfs) بأنهم

---

[1]- Edmond Doutté, **L'Islam algérien en l'an 1900**, Giralt imprimeur-photograveur, paris, 1900, p81.

[2]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p185.

[3]- Gerhard Rohlfs, Reise durch Marokko, op.cit, p105.

[4]- Paul Soleillet, L'Afrique Occidental, op.cit, p258.

[1]- هو سيدي أحمد بن موسى الكرزازي الشريف الإدريسي (مولى كرزاز) ولد بفاس سنة 907هـ/1501م، حفظ القرءان وتعلم مختلف العلوم، توجه إلى سجلماسة فدرس التصوف على الشيخ محمد بن عبد الرحمن السهلي، ثم انتقل إلى قرية سيدي موسى حيث أسس زاوية لطلاب العلم، اشتهر بالعلم والورع وأصبح مقدماً للطريقة الشاذلية التي أخذها عن شيخه أحمد بن يوسف الملياني، توفي سنة 1016هـ/1608م. أُنظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج4، ص88.

[2]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, Ibid, p190-195.

[3]- Xavier Coppolani, Octave Depont, op.cit, p214.

[4]- Henri Bissuel, op.cit, pp33-43.

يتميزون بوجود جوهرة من العنبر الأصفر في سبحتهم[1]، أما عن طريقة الذكر فهو نفسه ذكر الشاذلية مع إضافة البسملة إلى أذكار الصباح خمسمائة مرة [2]. لا تزال هذه الطريقة تنتشر إلى غاية اليوم في المنطقة ومن مظاهر ذلك الزيارة التي يقوم بها شيخ الزاوية الكرزازية لتوات، ويجوب خلالها العديد من القصور التواتية، كما تقام زيارة سنوية بالزاوية الكرزازية يحضرها العديد من المريدين من توات.

05/ الطريقة الشيخية:

هي فرع من الطريقة الشاذلية، تأسست خلال القرن 11هـ/17م على يد الشيخ عبد القادر بن محمد[3] المعروف بـ"سيد الشيخ"، عرفت انتشاراً واسعاً خاصة في الغرب الجزائري، حيث وصلت توات عن طريق تلاميذ مؤسس الطريقة [4]، تأخذ الشيخية أوراد الطريقة الشاذلية وتضيف إليها قراءة الفاتحة ثلاث مرات بعد كل صلاة من الصلوات الخمس [1]. بلغ عدد مريديها في الجزائر حوالي 10.216 مريد في نهاية القرن التاسع عشر [2]، ويرى رين (Rinn) بأن لها نفوذاً واسعاً في منطقة توات بأقاليمها الثلاثة [3]، ومن جهته يشير دوكولومب (de Colombe) إلى تركز انتشارها في إقليم قورارة[4]، أما كولونيو (Colonieu) فيخبرنا أن لها عدة أتباع في إقليم توات الوسطى [5]، في حين يجزم صولييه (Soleillet) ورولفس(Rohlfs) أن وجودها في إقليم تيدكلت يقتصر على فقارة الزوى التي يسكنها أحفاد سيدي الشيخ مؤسس الطريقة[6].

---

[1]- Gerhard Rohlfs, Reise durch Marokko, op.cit, p105.

[2]- إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المرجع السابق، ص223.

[3]- هو عبد القادر بن محمد بن سليمان بن أبي سماحة من قبيلة أولاد سيدي الشيخ التي تنحدر من الخليفة أبو بكر الصديق، ولد سنة 904هـ/1533م بضواحي الشلالة الظهرانية تعلم على يد والده حيث حفظ القرءان ثم اتجه إلى قورارة ثم فقيق فالتقى بالشيخ محمد بن عبد الرحمن السهلي الذي لقنه الأوراد الشاذلية، أسس عدة زوايا في فقيق والأبيض سيد الشيخ، توفي سنة 1025هـ/1616م. أُنظر: V. B. Deporter, op.cit, p56

[4]- Victor Colonieu, op.cit, T13, pp54-55/ Louis de Colombe, op.cit, p515.

[1]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج4، ص108.

[2]- Xavier Coppolani, Octave Depont, op.cit, p215.

[3]- Louis Rinn, op.cit, p368/ Jules Cambon, op.cit, p202/ Eugene Daumas, le Sahara Algérien, op.cit, p234.

[4]- Louis de Colombe, Ibid, p514.

[5]- Victor Colonieu, Ibid, T15, p456.

[6]- Paul Soleillet, L'Afrique Occidental, op.cit, p259/ Louis Voinot, op.cit, p69/ Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, Ibid, p239.

06/ الطريقة السنوسية:

تنسب لمؤسسها الشيخ محمد بن علي السنوسي [1]، تأسست بمكة سنة 1240هـ/1825م ثم انتقل مركزها إلى ليبيا سنة 1257هـ/1842م فانتشرت في غات وغدامس [2]، لتنتقل إلى الجنوب الشرقي للجزائر فأصبح لها نفوذ كبير على طرق القوافل التي تمر بها، ما جعلها تتعرض للمضايقة من طرف الاستعمار الفرنسي [3]، بلغ عدد مريديها في الجزائر في نهاية القرن التاسع عشر حوالي 942 مريداً[4]، أما أورادها فهي: جزء من القرآن الكريم والاستغفار 100 مرة والتهليل 300 مرة والصلاة على النبي 50 مرة. انتشرت بمنطقة توات في القرن التاسع عشر خاصة في إقليم تيدكلت الذي دخلته عن طريق أولاد باجودة [1] فكان للحاج المهدي باجودة دور كبير في انتشارها، ولا يفوتنا أن ننوه أنَّه كان للزاوية السنوسية دوراً بارزاً في التصدي للاستعمار الفرنسي نهاية القرن التاسع عشر [2]، ولا تزال منتشرة بهذا الإقليم إلى اليوم، ويقل تواجدها في إقليمي توات الوسطى وقورارة.

07/ الطريقة التيجانية:

تأسست على يد الشيخ أحمد التيجاني [3] في عين ماضي بالأغواط في القرن 12هـ/18م، وعرفت انتشاراً واسعاً في شمال إفريقيا وإفريقيا جنوب الصحراء بفضل القوافل التجارية التي كانت تجوب الصحراء مروراً بتوات حيث ساهمت بشكل فعال في نشر الإسلام في تلك المناطق [4]. يتكون الورد التجاني من: الاستغفار مائة مرة والصلاة على الرسول مائة مرة والهيللة مائة مرة، وتشير

---

[1]- هو محمد بن علي السنوسي بن العربي بن محمد بن عبد القادر ينحدر من سلالة الأدارسة ولد بمدينة مستغانم 1202هـ/1787م، درس في مسقط رأسه ثم ارتحل إلى مازونة ثم إلى تلمسان ومنها إلى فاس لاستكمال تعليمه، انتقل إلى الحجاز وأسس أول زاوية له على جبل أبي قبيس سنة 1255هـ/1839م، ثم رحل إلى الجبل الأخضر في بنغازي وأسس زاويته البيضاء سنة 1257هـ/1841م وتوفي هناك سنة 1276هـ/1860م. أُنظر: خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج6، ص299.

[2]- شكري محمد فؤاد، **السنوسية دين ودولة**، دار الفكر العربي، القاهرة، 1948م، ص07.

[3]- إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المرجع السابق، ص224.

[4]- Xavier Coppolani, Octave Depont, op.cit, p214.

[1]- Jules Cambon, op.cit, p204.

[2]- V. B. Deporter, op.cit, p56.

[3]- هو أبو العباس أحمد بن المختار بن أحمد التيجاني الحسني، ولد عام 1150هـ/1737م بقرية عين ماضي بالأغواط، حفظ القرءان وأخذ شتى العلوم بها ثم رحل إلى فاس 1171هـ/1757م، وكان يحضر مجالس العلم ولما رجع إلى الجزائر حل ببوسمغون حيث جاءه الفتح الأكبر سنة 1196هـ/1781م فأعلن الطريقة، توفي بفاس سنة 1230هـ/1815م. أُنظر: العباس بن إبراهيم السملالي، المصدر السابق، ص139.

[4]- Louis Rinn, op.cit, p338.

الإحصاءات إلى أن عدد مريديها بالجزائر بلغ في نهاية القرن التاسع عشر 25.323 مريداً[1]. بعد زيارة مؤسس التيجانية توات سنة 1196هـ/ 1782م[2]؛ عرفت هذه الطريقة انتشاراً واسعاً بالمنطقة على يد العديد من الأتباع مثل سيدي علي العين صالحي الذي أنشأ الزاوية التيجانية بتيدكلت، بالإضافة إلى الشيخ إدريس بن العربي التنلاني الذي نشرها بتوات الوسطى [3]، ولا تزال إلى الآن زاوية أوقروت التيجانية بإقليم قورارة تؤدي دورها العلمي، وتلقن تعاليم الطريقة التيجانية.

08/ الطريقة الرقانية:

تأسست بتوات خلال القرن 12هـ/18م علي يد مولاي عبد الله الرقاني [1] الذي أسس زاويته برقان، وقام بالإشهار لها ابنه مولاي عبد المالك الرقاني (ت 1207هـ/1792م)، تتصل بالطريقة الشاذلية[2]، وتأخذ نفس أورادها مع إضافة ورد خاص بالطريقة يسمى ورد الرماية، انتشرت في بلاد السودان الغربي عن طريق مبعوثين للطريقة إلى المنطقة منهم الشيخ مولاي عبد المالك والشيخ مولاي زيدان (ت1202هـ/1788م)، فأصبح لها أتباع كثر هناك منهم محمد بن عبد الله البرتلي [3]. انحصر وجودها في توات على إقليم تيدكلت وبعض قصور إقليم توات الوسطى [4]، وكان لها دور كبير في بث روح الجهاد والمقاومة في نفوس سكان تيدكلت عند دخول الاستعمار الفرنسي للإقليم نهاية القرن التاسع عشر.

---

[1]- Xavier Coppolani, Octave Depont, op.cit, op.cit, p298.

[2]- Bernard Saffroy, op.cit, p08.

[3]- زهرة مسعودي، **الطرق الصوفية بتوات وعلاقتها بغرب إفريقيا من القرن 18م إلى القرن 20م**، مذكرة ماجستير في التاريخ الإفريقي الحديث والمعاصر، إشراف: عبد الكريم بوصفصاف، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة أدرار، 2010/2009م، ص47.

[1]- هو مولاي عبد الله بن مولاي علي بن مولاي الزين بن مولاي محمد المعروف بسيد حمو بالحاج الذي ينحدر من سلالة الحسن بن علي كرم الله وجهه، ولد بقرية تاوريرت 1093هـ/1682م، رحل إلى زاوية كنتة فحفظ القرءان وتعلم أصول الدين والفقه على يد شيوخ الزاوية الكنتية، أسس زاويته برقان التي ذاع صيتها في المنطقة، توفي سنة 1160هـ/1747م. أُنظر: عبد الله بن هاشم الرقاني، **النسمة الزكية في التعريف بشيوخ الطريقة الرقانية**، ط2، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2020م، ص28.

[2]- مبارك جعفري، **الطريقة الرقانية وانتشارها في إفريقيا جنوب الصحراء خلال القرنين 12-13هـ/18-19م**، مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، ع22، 2017م، ص ص63-74.

[3]- البرتلي الولاتي، **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور**، تح: محمد ابراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م، ص201.

[4]- Lewis Watin, op.cit, p239/ Louis Voinot, op.cit, p108.

هناك طرق أخرى كان لها وجود محدود الانتشار بتوات مقارنة بالطرق السالفة الذكر أهمها: الطريقة الزيانية التي تأسست على يد محمد بن بوزيان بالقنادسة خلال القرن 18م[1]، والطريقة الصادقية التي تأسست من طرف الشيخ بن عبد الصادق بتافيلات ودخلت إلى توات في أوائل القرن 17م، والطريقة الدرقاوية التي أسسها محمد العربي الدرقاوي[2] في القرن 19م، وكلها من فروع الطريقة الشاذلية. بالإضافة إلى الطريقة البكائية الكنتية التي تأسست بتوات خلال القرن 16م على يد الشيخ أعمر بن الشيخ أحمد البكاي[3]، وعرفت انتشاراً واسعاً في القرن 19م بظهور الشيخ المختار الكنتي[4]، والطريقة البكرية التي أسسها الشيخ البكري بن عبد الكريم في القرن 18م[1]، وكلاهما فرع من فروع الطريقة القادرية.

استناداً إلى ما سبق من عرض هذه الطرق الصوفية يبدو أن التواتيين لم يكونوا مستقبلين للطرق الصوفية ومساهمين في انتشارها فقط، بل أدلوا بدلوهم في تأسيس البعض منها كالطريقة الرقانية والبكائية والبكرية، كما يظهر من أوراد هذه الطرق أن مبانيها خاضعة للكتاب والسنة، وأن لها أصلاً في الشريعة المحمدية، فهي تعتمد على نفس الأسس في أذكارها من حيث التهليل والاستغفار والصلاة على النبي وليس بينها خلاف إلا في الأعداد فقط، وعليه فإن هدفها واحد وهو رفعة الإنسان والأخذ بيده نحو الله سبحانه وتعالى.

أدَّت الطرق الصوفية التي انتشرت في مدن وقصور توات – إلى جانب دورها الروحي– دور ثقافي كبير لا يمكن إنكاره أو تجاهله بالرغم من البدع التي لحقت بالتصوف بشكل عام [2], حيث أشرفت على العديد من الزوايا والمدارس كما اهتمت بتحفيظ القرآن الكريم واحتضنت اللغة العربية والثقافة الإسلامية, وحرصاً على ذلك فقد أنفقت بسخاء على نشر تعاليمها وأورادها مما ساعد في القضاء على أمية الحرف والتحفيز على طلب العلم، وقد حملت الطرق الصوفية على عاتقها نشر

---

[1]- Louis Rinn, op.cit, p330.

[2]- Jules Cambon, op.cit, p205.

[3]– بول مارتي، المصدر السابق، ص34/ سبنسر ترمنجهام، المرجع السابق، ص402.

[4]- Paul Soleillet, L’Afrique Occidental, op.cit, p259.

[1]– فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص110.

[2]– رياض بودلاعة، **موقف الطرق الصوفية وزوايا المرابطين من الثورة التحريرية الجزائرية 1954– 1962م**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: عبد الكريم بوصفصاف، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة، 2018/2017م، ص41.

الإسلام الصحيح في المنطقة وخارجها وصولاً إلى إفريقيا الغربية [1]، بالإضافة إلى المساهمة الفعالة في تربية الأطفال تربية دينية سليمة تحميهم من الانحرافات والمزالق ونشر الأخلاق الحميدة المستمدة من مناهج الإسلام وتعاليمه السمحة [2]، ولا تزال العديد من زوايا هذه الطرق الصوفية تؤدي دورها العلمي في توات إلى اليوم.

بالرغم من المعلومات المفيدة التي تقدمها دراسات المستشرقين والمستكشفين عن الطرق الصوفية بالجزائر وتوات خاصة خلال هذه الفترة، إذ تعد من المراجع والوثائق التاريخية المهمة التي لا يمكن لأي باحث أو دارس أن يتجاهلها أو يتنكر لها، إلا أنه بالمقابل نجد فيها كثيراً من النقائص والغلط المقصود، لعدم التزام أصحابها بالموضوعية العلمية، ولذلك يجب الأخذ بالحسبان أنَّ دراستهم لا تخرج عن مقاصدها العامة خدمة لمصالح بلادهم في الجزائر والمحافظة عليها، وذلك بتشويه وتحريف كثير من الحقائق التاريخية في مرات وإخفائها وعدم ذكرها في مرات أخرى حسب ما تمليه عليهم مصالحهم الاستعمارية الوطنية.

لم تخل دراسات الأوروبيين من الإساءة إلى الطرق الصوفية والحط من مكانة مقدميها ومريديها، فقد عملت أقلام بعض المستشرقين –خاصة الفرنسيين- على السلخ التاريخي لهذه الطرق من مبادئها التي قامت عليها وتشويهها لدى القارئ المسلم وغير المسلم لضرب أصالة الإسلام في المنطقة وذلك من خلال تشبيهها بالجماعات المسيحية، حيث شبَّه رين (Rinn) فترة القرن 19م بعصور الظلام التي عرفتها أوروبا في العصور الوسطى، والتي حكمت فيها الكنيسة وتسببت في تخلف الأوروبيين وتأخرهم، فيشبه شيوخ الصوفية بالبابوات والزاوية بالدير وصراع المرابطين المحليين مع شيوخ الطرق الدينية بالصراع الذي كان في أوروبا بين رجال الدين النظاميين والعلمانيين [1]، وفي نفس السياق يؤكد صوليه (Soleillet) أن: "هذه الطرق الصوفية تشبه الجماعات الكاثوليكية في أوروبا والمحافل الماسونية"[2]، كما أشار رولفس (Rohlfs) إلى ذلك بقوله: "...المسلمين مثل المسيحيين تماماً فهم يخدمون صلاحهم ورجال الدين فتجدهم يقدمون الهدايا إلى مقدميهم وذوي قرابتهم"[3].

[1]- عبد العزيز شهبي، **الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر**، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2007م، ص47.

[2]- إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المرجع السابق، ص225.

[1]- Louis Rinn, op.cit, pp18-19.

[2]- Paul Soleillet, L'Afrique Occidental, op.cit, p257.

[3]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p190.

اجتهد الأوروبيون في طمس كثير من الحقائق التاريخية بإعطاء جملة من التفسيرات في غير وجهها الحقيقي وإخفائها[1]، بغرض إفراغ الزوايا والطرق الصوفية من كل معانيها السامية التي أنشئت لأجلها من تعليم ديني وتربية روحية وتكافل اجتماعي[2]، وذلك من خلال اتهاماتهم المتكررة لشيوخها بالطمع والانتهازية بجمع الثروة والمال على حساب الأتباع والمريدين والزوار [3]، حيث ذكر رولفس (Rohlfs) أنه رغم فقر منطقة توات فإنها تدفع إلى الزاوية الطيبية بوازان ما قيمته 50.000 فرنك كل سنة[4]. ومن هذا المنطلق يؤكد رين (Rinn) أن هذه الزوايا لم تعد كما كانت عليه في الماضي عند المتقدمين خالصة للعلم والمعرفة والبحث؛ بل انحرفت في أهدافها وغاياتها عند المتأخرين المتصارعين فيما بينهم بسبب العائدات المالية من تبرعات وهبات وهدايا[1]، ومن هذا المنطلق يؤكد أن هذه الطرق لم تعد تشكل أي خطر على فرنسا ولم تصبح خصماً لها كما كانت، بسبب انطوائها على نفسها وعدم ممارستها لأي نشاط سياسي نتيجة الإجراءات العقابية التي اتخذتها الإدارة الاستعمارية ضدها والتي سماها بالإصلاحات[2].

من البديهي أن الطرق الصوفية ليست بمنأى عن الأخطاء، لكن تسويقها للقارئ على أنها الكنيسة أيام عصور الظلام نرى فيه إجحافاً، كما أن شيوخ الطرق ليسو بمعزل عن الزلل فهم بشر يصيبون ويُخطِئون، لكن تشبيههم برجال الدين في أوروبا هو ضرب لرمزيتهم التاريخية لدى المجتمع. ومن هنا نتساءل: لماذا غُيب الدور الفعلي للطرق الصوفية في تلك المرحلة وهو الدور الجهادي؟ فالدور الذي قام به شيوخ هذه الطرق في الكفاح ومقاومة الغزو الفرنسي للمنطقة في نهاية القرن التاسع عشر لهو دور عظيم، فاهتمام المستكشفين بالطرق الصوفية يعود إلى كون هذه الأخيرة عملت منذ البداية على مقاومة المد المسيحي في الجزائر، كما أن تلك الإحصاءات حول هذه الطرق لا نجد له أي تفسير سوى أنها كانت تمثل هاجساً أمام طموحات فرنسا التوسعية.

منذ دخول الاستعمار الفرنسي للجزائر شكلت توات قاعدة خلفية للعديد من الثورات الشعبية وذلك بفضل النشاط الديني والسياسي لشيوخ الزوايا الصوفية في توات، فقد التجأ إليها كل من

1- Edmond Doutté, Notes sur l'islâm magribin, op.cit, p12.

2- سبنسر ترمنجهام، المرجع السابق، ص341.

3- Jules Cambon, op.cit, p205.

4- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p221.

1- Louis Rinn, op.cit, p356.

2- Ibid, p48.

بوشوشة والسي قدور بن حمزة أثناء كفاحهما ضد فرنسا سنة 1869م، ولقيا دعماً كبيراً من طرف شيخ الطريقة الرقانية مولاي العباس الرقاني مما شجعهما على مواصلة مقاومتهما[1]، وفي سنة 1882م التجأ إلى توات الشيخ بوعمامة واستقر بواحة دلدول [2]، فالتف حوله السكان من أقاليم توات لانتشار الطريقة الشيخية بالمنطقة، وتمكن من مواصلة مقاومته[3].

لما بدأت فرنسا تستعد لاحتلال توات عملت الطرق الصوفية في المنطقة على تعبئة مريديها لمقاومة المحتل ورفضه، وهنا بدأت فرنسا تشعر بمدى الخطر الذي يهدد مصالحها التوسعية والتبشيرية في الصحراء، وقد أشار إلى ذلك الضابط دوبورتي (Deporter) في تقريره عن الطريقة السنوسية قائلاً: " السنوسية قد أحرزت في هذه المناطق (يقصد توات) خلال السنوات الأخيرة على تقدم سريع، حتى أن رئيس مقاطعة عين صالح قد أصبح واحداً منهم، وهو أكثرهم تشدداً" [1]، وفي نفس الصدد ينصح السلطات الفرنسية قائلاً: "إذاً فالسنوسيون هم أعداؤنا ولا يمكن أن نستخف بهم ولكن الأحسن أن نراقبهم عن كثب في كل نشاطاتهم وتحركاتهم في الجزائر"[2].

وعند وصول القوات الفرنسية منطقة توات في نهاية القرن التاسع عشر كان شيوخ الطرق الصوفية ومريدوها في مقدمة المقاومين، إذ قاد الشيخ الحاج المهدي باجودة مقدم الزاوية السنوسية في عين صالح المقاومة بنفسه في معركة الفقيقيرة يوم 28 ديسمبر 1899م، حيث أدت هذه المعركة إلى استشهاده مع أخيه بوعمامة[3]، وبعد سقوط مدينة عين صالح كوّن سكان أولف جيشاً بقيادة مولاي عبد الله بن مولاي العباس الرقاني [4] شيخ الطريقة الرقانية، وتوجهوا صوب عين صالح، حيث جرت

---

[1]- تواتي دحمان وآخرون، **دور أقاليم توات خلال الثورة الجزائرية 1956– 1962م**، دار الشروق للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2008م، ص9.

[2]- محمد بن الطيب البوشيخي، **أولاد سيدي الشيخ الشراقة والغرابة، التصوف والجهاد والسياسة** ، ط3، مطبعة أطلال، وجدة، 2013م، ص217.

[3]- محمد أعفيف، المرجع السابق، ص217.

[1]- V. B. Deporter, op.cit, p56

[2]- Ibid, p56.

[3]- A.G.P. Martin, Les Oasis Sahariennes, op.cit, p136.

[4]- هو مولاي عبد الله بن مولاي العباس بن مولاي عبد الله بن مولاي عبد المالك بن مولاي عبد الله الرقاني مؤسس الطريقة الرقانية، ولد سنة 1254هـ/1838م برقان وفيها حفظ القرءان الكريم وأخذ مبادئ اللغة العربية والفقه والحديث، ارتحل إلى تمبكتو والتقى بالعديد من العلماء وأخذ عنهم مختلف العلوم، بعد عودته إلى رقان سنة 1885م بدأ في توعية الناس من المستعمر الغاشم ومكائده ثم انتقل إلى أولف وأسس دار المكاحلية، وبوصول القوات الفرنسية إلى عين صالح توجه إليها بجيشه وجرت معركة الدغامشة التي استشهد فيها يوم 05 جانفي 1900م. أُنظر: الحاج التومي سعيدان، المرجع السابق، ص183.

معركة الدغامشة في 05 جانفي 1900م، والتي استبسل فيها المجاهدون وسقط فيها عدد كبير من الشهداء[1].

وجه المبعوثون الفرنسيون تحذيرات وتوجيهات للسلطات الفرنسية بأن تحتاط من هذه الطرق الصوفية المنتشرة عبر كامل التراب الجزائري -رغم تقليلهم من شأنها- وأن تأخذها بعين الاعتبار والحسبان خصوصاً وأنها ترفض وتعارض إصلاحاتها وحضارتها ! وحرصاً على ذلك أشار رين (Rinn) أنه من المصلحة الفرنسية الكبيرة الاهتمام بهذه الطرق من خلال كسب شيوخها وتنظيمها بوضع قوانين لها ولأتباعها تسير وفقها بقصد احتوائها واستغلالها بدل العمل على إزالتها والتخلص منها، وأن تعمل جاهدة لكسب ودها والتقرب منها والعمل معها [2]. وفي نفس الصدد أوصى كوبلاني (Coppolani) سلطات بلاده بضرورة ربط علاقات مع كامل الطرق الدينية دون تمييز طريقة عن أخرى لتتمكن من بسط الوصاية عليها ومنها على المجتمع ككل [1]، وكذلك ستساعد فرنسا على مد علاقات جديدة خارج الجزائر بفعل ارتباطات الطرق الدينية الخارجية، مما يسهل على فرنسا نشر أفكارها الاستعمارية[2].

مما لاشك فيه أنَّ الكتابات الأوروبية-خاصة الفرنسية- لها أهميتها التاريخية لأن ما يميزها أنها ارتبطت وتزامنت مع زمن البحث عن المستعمرات، فالاستعمار الكلاسيكي لم يكن استعماراً عسكرياً محضاً، بل كانت الثقافة أحد أهم أسلحته، حيث استعان بالعلوم والثقافة ومنها الثقافة الدينية المتمثلة في الطرق الصوفية التي ميزت تلك المرحلة لفهم فكر المجتمعات المستهدفة، كما كان الاستعمار الفرنسي يدرك جيداً الدور الذي تلعبه الطرق الصوفية في الجهاد، وبأن الوازع الديني في ظل الانتساب لهذه الطرق الصوفية كفيل بالقضاء على فرنسا ومصالحها بالجزائر، فعلينا أن ندرك حقيقة هذه الكتابات الفرنسية ومراميها.

خلاصة الفصل الثالث

واستخلاصاً لما سبق في هذا الفصل يتبين لنا أن منطقة توات خلال القرن التاسع عشر تميزت بازدهار علمي وإشعاع ثقافي، وذالك بسبب انتشار المراكز والمؤسسات الثقافية بشكل واسع عبر قصور المنطقة، فالكتاتيب والمساجد والمدارس والزوايا وخزائن المخطوطات كان لها فضل كبير في

[1]- إبراهيم مياسي، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري، المرجع السابق، ص110.

[2]- Louis Rinn, op.cit, pp516-521.

[1]- Xavier Coppolani, Octave Depont, op.cit, p25.

[2]- Ibid, p27.

انتشار التعليم بالمنطقة، حيث كانت هذه المؤسسات تقوم بدورها التعليمي الذي يمر عبر مراحل ثلاث مراحل تعليمية، تكون المرحلة الأولى في الكتاتيب وتسمى بالمرحلة الابتدائية، والمرحلة الثانية التي تسمى بالثانوية تكون في المساجد والمدارس والزوايا، أما المرحلة العليا فيتوجه طالب العلم فيها إلى إحدى الحواضر العلمية خارج المنطقة للاستزادة.

أما من حيث العلوم المدروسة عبر هذه المراحل فقد غلب عليها العلوم الدينية من قرءان كريم وحديث وعلوم شرعية ولغوية وهو ما كان سائداً في مختلف البلدان العربية والإسلامية في تلك الفترة، هذا ما أعطى للمنطقة مكانة علمية تضاهي مختلف الحواضر الإسلامية، ومما يدل على تلك المكانة العلمية العدد الهائل من العلماء الذين ذاع صيتهم في مختلف الأصقاع وساهموا في إثراء الساحة العلمية بمختلف التآليف والتصانيف في مختلف العلوم والفنون التي أنتجتها عقولهم من علوم شرعية وعلوم إنسانية وعلوم عقلية، فكانوا بحق موسوعة شاملة للعديد من العلوم، ولا تزال هذه المؤلفات حبيسة خزائن المخطوطات إلى غاية اليوم.

كما وجدت الطرق الصوفية في منطقة توات أرضاً خصبة لنشر أفكارها، فقد عرفت المنطقة انتشاراً واسعاً لمختلف الطرق الصوفية منها: القادرية، الشاذلية، الطيبية، السنوسية، التيجانية، الكرزازية، الشيخية، وغيرها، حيث ساهمت هذه الطرق في نشر الوعي والقضاء على الجهل والبدع والخرافات ونشر الإسلام الصحيح، ناهيك عن دورها الجهادي في نهاية القرن التاسع عشر، ولا يزال تأثيرها على المجتمع التواتي إلى غاية اليوم وإن حاولت كتابات الدارسين الأوروبيين تشويهها والحط من مكانتها.

الفصل الرابع

الاقتصاد التواتي في القرن 19م من خلال الرحالة والمستكشفين

المبحث الأول: النشاط الزراعي التواتي

المبحث الثاني: الحرف السائدة وأشهر المصنوعات

المبحث الثالث: التبادل التجاري ميزاته ودعائمه

الفصل الرابع: الاقتصاد التواتي في القرن 19م من خلال الرحالة والمستكشفين

مارس التواتيون كغيرهم من سكان الصحراء أنشطة اقتصادية متعددة كالزراعة والرعي والحرف التقليدية والتجارة، وتتفاوت أهمية هذه الأنشطة باختلاف الزمان والمكان، وبحكم أن الرحلات الاستكشافية التي قادها الأوروبيون إلى المنطقة خلال القرن التسع عشر كانت ذات طابع اقتصادي، فقد أولى أصحابها عناية خاصة بهذا الجانب، ذلك أن تصور الفرنسيين عن الاهمية الاقتصادية لتوات كان يكتنفه الكثير من الغموض، فبينت تلك الأدبيات الفرنسية دور المنطقة الاقتصادي لرجال الأعمال والساسة الفرنسيين، ما جعلهم يتطلعون إلى اليوم الذي سيتمكنون من السيطرة عليها واحتلالها، وهو ما تم بالفعل نهاية ذلك القرن.

سنحاول تناول هذه النشاطات الاقتصادية انطلاقاً من العناية التي منحها لها التواتيون، بادئين بالنشاط الزراعي الذي كان يمثل النشاط الأساسي للسكان والمحرك الأول لباقي القطاعات الأخرى، من خلال الوقوف على نظام الري في هذا الوسط الصحراوي، وأهم المنتجات الزراعية والحيوانية، مع إبراز مختلف الحرف التقليدية والمصنوعات بالمنطقة، كما نقف عند أبرز نشاط أثار اهتمام المستكشفين الأوروبيين أثناء القرن التاسع عشر وهو النشاط التجاري، بإبراز أهم الأسواق التواتية، والنظم التجارية المنتشرة آنذاك، والأسواق الخارجية التي يتعامل معها التواتيين والسلع المتداولة، وما هو دور الفرنسيين في التأثير على هذا النشاط منذ امتداد نفوذهم في الصحراء الجزائرية؟

المبحث الأول: النشاط الزراعي التواتي

أولاً: المياه ونظام السقي

يقوم النشاط الزراعي في توات على استغلال المياه الجوفية عن طريق الفقارة [1]، والتي يعرفها كولونيو (Colonieu) أنها مجموعة من الآبار مرتبطة ببعضها بواسطة أروقة تحت الأرض ثم تظهر على السطح، مما يجعلها دائمة الجريان[2]، وتعتبر الفقارة وسيلة ضرورة للإنسان التواتي بسبب الظروف

---

[1]- اختلف الباحثون حول أصول تسميتها ونشأتها الأولى، فهناك من يرى أنها جاءت من بلاد الحجاز، وهناك من يرى أنها جاءت من سجلماسة، وهناك من يرى أنها كانت موجودة في بلاد الفرس واليمن وصحراء مصر. وقد وصفها ابن خلدون في القرن 8هـ/ 14م بقوله: "وفي هذا البلاد الصحراوية غريبة في استنباط المياه الجارية...، وذلك أن البئر تحفر بعيدة المهوى وتطوى جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلدة، فت نحت بالمعاول والفؤوس، ثم يجري على وجه الأرض وادياً...والعالم أبو العجائب، والله الخلاق العليم". أُنظر: عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر، المصدر السابق، مج07، ص78. وفي لسان العرب: الفقارة من الفقر وهي آبار تحفر وينفذ بعضها إلى بعض. أُنظر: ابن منظور، المرجع السابق، ج5، ص3446.

[2]- Victor Colonieu, op.cit, T13, p81.

المناخية التي تميز المنطقة الصحراوية القاحلة عامة التي لا تستفيد من المياه الطبيعية المتساقطة، وعن المكانة المتميزة للفقارة عند التواتيين يصرح دو كولومب (de Colomb) أن: "الماء ثم الماء في بلد مثل هذا هو مصدر كل وجود، حيث تنعدم السحب ولا تجود السماء بالماء إلا نادراً..."[1].

وضمن حديثه عن طريقة إنجازها يؤكد رولفس (Rohlfs) أن إنشاء فقارة يتطلب عملاً صعباً وعمالاً مهرة، حيث يتم حفر آبار مستقيمة يزيد عمقها كلما اتجهنا نحو المرتفعات، يتم ربط هذه الآبار برواق يسمى محليا بـ (النفاد) ، مسجلاً أن الفقارات بتوات تموّن من نهر تحت الأرض، يزيد منسوب المياه بها بعد هطول الأمطار في المناطق التلية لندرة التساقط بالمنطقة، ويضيف هذا الرحالة أن الفقارات التواتية تأخذ اتجاهاً موحداً من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي [2]، أي من حافة هضبة تادمايت نحو وادي مسعود، وبمنحدر منظم نحو الأرض المراد سقيها، كما يمكن للفقارة الواحدة أن تضم أكثر من 500 بئر، وتمتد على مسافة طويلة قد تزيد عن 10 كلم[3].

تقسم الفقارة إلى عدة أقسام هي:

- الفرع أو الكراع: وهو الآبار الموجودة على جانبي الفقارة لزيادة كمية المياه بها.
- النفاد: وهو طريق الماء من بئر إلى آخر.
- تايجوط: عندما يعترض مسار الماء حجارة صلبة، يفتح ثقب صغير بالحجرة المعترضة ينفذ منه الماء.
- أغُوسرو: وهي المجاري التي تربط الفقارة بالسواقي عند اقتراب ماء الفقارة من الأراضي الزراعية[4].
- القسرية: عبارة عن ممرات مستطيلة منحوتة بشكل دقيق على قطعة حجر مسطحة تسمح بتوزيع المياه حسب الحصص المحددة لكل مالك.
- الساقية: وهي القنوات المخصصة لمرور الماء إلى مدخل القرية .
- الماجن: وهو الحوض الذي تجتمع فيه مياه الفقارة في البستان من أجل السقي[5].

---

[1]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p309.

[2]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p216.

[3]- Lieutenant Herbeau, **Les Foggara du Touat**, Bulletin de la société de géographie d'Alger et de l'Afrique du nord, 4T, N140, 1934, pp561-573.

[4]- موساوي عربية، **الفقارة بمنطقة توات وأثرها في حياة المجتمع دراسة تاريخية أثرية**، أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية، إشراف: عبد العزيز لعرج، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2007م، ص116.

[5]- Paul Soleillet, L'Afrique Occidental, op.cit, p270/ Louis de Colomb, Ibid, p35/ V. B. Deporter, op.cit, p20/ Henri Bissuel, op.cit, p20.

يتم توزيع مياه الفقارة على الملاك بطريقة عادلة حسب قانون الحصص بواسطة آلة قياس تسمى (الشّقْفة)، وهي عبارة عن لوحة معدنية من النحاس مستطيلة الشكل بها ثقوب بعضها ذات قطر صغير وبعضها ذات قطر كبير، وتختلف تسمية (الشّقْفة) وشكلها من إقليم لآخر، ففي توات الوسطى وقورارة تبدو على شكل مستطيل، أما بتيدكلت فهي على شكل أسطواني مفتوحة من الأعلى والأسفل مثقوبة في جوانبها[1]، وتسمى أيضا: القَلْد أو الحلاّفة أو القسّامة، ووِحدة القياس هي الحَبَّة[2] والتي يتراوح صبيبها بين 3 إلى 4 لتر/ثانية[3]، وتقسم الحبَّة إلى وحدات صغيرة هي: النصف، الثلث، الربع، السدس، نصف السدس، ربع السدس، وهذا الأخير يساوي 1/ 24 من الحبة ويسمى القيراط[4].

تخضع الفقارة لنظام صارم ومعقد في الإدارة والتسيير، حيث أن عدد مالكي فقارة واحدة قد يصل إلى 700 مالك[5]، مما يُصعب عملية تقسيم كمية ضئيلة من الماء إلى أجزاء صغيرة ثم إيصال تلك الكمية إلى المساحة الزراعية وفقاً لنصيب صاحبها من ماء الفقارة، ولا يتم ذلك إلا بتوفر الجانب البشري المشرف على العملية ويسمى محلياً (كيال الماء)، إذ يرى دو كولومب (de Colomb) أنه: "بمثابة مهندس المكان، وله سلطة تطال أدق مصالح كل شخص"[6]، بالإضافة إلى شهود يشرفون على عملية القياس ويشهدون على صحتها. كما تملك كل فقارة سجلاً يسمى محلياً بـ (الجريدة) أو (الزمام) تدوَّن فيه حيازات الأفراد، وفي هذا الإطار يؤكد كولونيو (Colonieu) تكرر النزاعات بين أرباب الفقارات، حيث اختلفت بواعثها ودرجاتها، ويتم الفصل فيها غالباً بواسطة "كيال الماء"[7].

---

[1]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p309.

[2]- تسمى الحبة باسم القيراط في تيمي، وبالأصبع في تسابيت، وبالخرقة في كل من أولف وتيط، وقد تسمى أحياناً بالعود والماجل والثمن، ويختلف قطر الحبة من منطقة إلى أخرى داخل توات حيث بلغ 9 ملم في تامست و27 ملم في سالي. يُنظر: A.G.P. Martin, Les oasis sahariennes, op.cit, p23.

[3]- حسن حافظي علوي، **دراسات صحراوية الماء والإبل والتجار** ة، ط 01، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2014م، ص92.

[4]- Capitaine Lô, **es Foggaras du Tidikelt**, travaux de institue de recherche saharienne, TX et TXI, université d'Alger, 1953-1954, p157.

[5]- محمد أعفيف، المرجع السابق، ص106.

[6]- Louis de Colomb, Ibid, p309.

[7]- Victor Colonieu, op.cit, T14, p81.

استرعت انتباه الرحالين والمستكشفين الأوروبيين طريقة الري عن طريق الفقارة، إذ يؤكد رولفس (Rohlfs) أنها تستخدم في كل أنحاء توات [1]، ويطالعنا المستكشف كولونيو أنه في طريقه بين بلغازي وتبرغامين على مسافة 40 كم مرَّ بـ: "30 فقارة بها من 70 إلى 100 بئر"[2]. لكن اختلفت إحصائياتهم حول عدد فقارات توات في القرن التاسع عشر، فحسب الدراسة التي قام بها مارتان (Martin) فإن عدد الفقارات في إقليم قورارة بلغ 406 فقارة حية و116 فقارة ميتة، وفي إقليم توات الوسطى 439 فقارة حية[3]، وذكر فوانو (Voinot) أن تيدكلت تضم 125 فقارة نشطة و51 فقارة ميته[4]، أي بمجموع 970 فقارة حية وعدد معتبرة من الفقاقير الميتة في نهاية القرن التاسع عشر، علماً أن هذا القرن شهد تراجعاً كبيراً في عدد الفقارات مقارنة بالقرن الثامن عشر.

يظهر من خلال هذه الإحصائيات أن المنطقة تتوفر على مخزون مائي كبير، وأن نصيب الأسد من الفقارات كان بتوات الوسطى ثم قورارة، وأقل عدد من الفقارات بتيدكلت. ولا نعرف كيف تم تقديم هذه الإحصائيات من طرف الضباط الفرنسيين، هل قاموا بإحصائها بأنفسهم، أم اعتمدوا على استجواب سكان المنطقة، أم كانت مجرد تقديرات؟ وفي ظل غياب أي إحصائيات من طرف مؤرخي المنطقة تبقى هذه الإحصائيات تقدم صورة عن الموارد المائية في توات، لكن تبقى تلك الأرقام لا تعبر عن عدد الفقارات بدقة.

وبالتالي فالفقارة شريان الحياة التي لا يمكن الاستغناء عنها في أي قصر من القصور، إذ كان السكان يولون أهمية بالغة لهذا المكسب التاريخي يوشك أن يصل حد التقديس، مما سمح لهم بزراعة الأراضي والاستفادة من محاصيلها في مختلف ميادين الحياة الاقتصادية [5]. كما ارتبطت الفقارة أيضاً بأغلب العادات والتقاليد الاجتماعية داخل قصور توات، فالمساحة المسقية في توات تعتبر مكسباً عزيزاً ومظهراً من مظاهر القوة والمكانة الاجتماعية، يدل على ذلك تلك التقسيمات المتناهية الصغر لماء الفقارة.

---

[1]- Gerhard Rohlfs, Reise durch Marokko, op.cit, p114.

[2] - Victor Colonieu, op.cit, T14, p96.

[3]- A.G.P. Martin, Les oasis sahariennes, pp249-279.

[4]- Louis Voinot, op.cit, p 21.

[5]- زاجية هرباش، **الوضع الاقتصادي في إقليم توات من خلال مخطوط الغنية في القرنين 12 و13 الهجريين 18 و19 الميلاديين**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: عبد المجيد بن نعمية، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية جامعة وهران، 2011-2012م، ص134.

ثانياً: النشاط الزراعي والإنتاج الفلاحي

تعتمد توات في حياتها الاقتصادية على الزراعة والتجارة، حيث تعتبر المحاصيل الزراعية أساس التبادل التجاري، لكن قيام الزراعة في المنطقة ليس بالأمر السهل، لوجود عدة معيقات طبيعية تمثلت في الجفاف وقلة الأمطار وارتفاع درجة الحرارة التي ساهمت في تبخر مياه السقي، إلى جانب فقر التربة وملوحتها وكثرة الرياح، بالإضافة إلى قلة الوسائل وبدائيتها، كلها عوامل لا تساعد على قيام زراعة نشطة، ورغم ذلك فإن سكان توات تمكنوا من تذليل الصعوبات، وقد استقطب النشاط الزراعي التواتي اهتمام الرحالين والمستكشفين الأوروبيين أثناء القرن التاسع عشر، مؤكدين وجود حياة زراعية امتازت بوفرة الإنتاج وجودته تمثلت أساساً في:

01/ الزراعة المعاشية:

أ– النخيل: تأتي غراسة النخيل في المقام الأول بالنسبة للمزارعين التواتيين خلال هذه الفترة، ويتم ذلك بأخذ الفسيلة ووضعها في الماء، ثم يقوم الفلاح بغرسها في أحواض من أجل السقي، فتنمو الفسائل بطريقة طبيعية، وتمتد جذورها فتصبح أكثر قوة في مقاومة الظروف الطبيعية القاسية، وبعد مرور سنتين أو ثلاث تبدأ في الإنتاج، إذ يظهر المحصول الأول بداية من شهر جويلية [1]. ويعود سبب انتشار زراعة النخيل واهتمام سكان المنطقة بها حسب كافينياك (Cavaignac) إلى الظروف المناخية الملائمة لهذه الشجرة وهي درجة الحرارة المرتفعة خلال مدة طويلة من السنة، بالإضافة إلى توفر المياه الجوفية، كما أن هذه الشجرة حساسة جداً وتتأثر بدرجة كبيرة بانخفاض درجة الحرارة خلال فصل الشتاء ما يؤثر على محصولها، وهذا ما دفع السكان إلى إحاطتها بنوع من الحماية في هذا الفصل[2].

أما منزلة النخلة فتكاد لا تقل أهمية عن مكانة الفقارة ذاتها، إذ يجزم كولونيو (Colonieu) أن النخلة لا يمكن الاستغناء عنها في توات تماماً، فهي دائمة العطاء ولا تحدد صلاحيتها بزمن معين[3]، كما ذكر لانج (Laing) بأن المنطقة تشتهر بمزارع النخيل التي تنتج ألذ أنواع التمور عالمياً[4]، ويسير في المنحى نفسه الرحالة رولفس (Rohlfs) الذي شاهد أن قصور المنطقة كلها محاطة بغابات وبساتين من النخيل تحتوي على تمور ذات نوعية ونكهة أحسن من تلك التي ذاقها في

---

[1]- Eugène Daumas, Le grand désert, op.cit, p94.

[2]- Félix Jacquot, op.cit, p264.

[3]- Victor Colonieu, op.cit, T13, p45.

[4]- غوردن لانج، رسالة إلى جيمز باندينال، المصدر السابق، ص340.

مناطق صحراوية أخرى، لكنها تبقى أقل جودة من تلك التي ذاقها في تافيلالت، وسعرها أكثر من تمور درعة[1]، ويضيف أن الوقت المحدد لجني التمور هو شهر سبتمبر في كل قصور توات، وقد يستمر إلى شهر أكتوبر[2].

يوجد أصناف متعددة من التمور في توات، فقد ذكر العياشي عندما زار المنطقة في القرن 17م أن التمر رخيص بتوات وتوجد منه أنواع كثيرة [3]، وخلال القرن التاسع عشر بلغت أنواع التمور في توات 153 نوعاً[4]، وتصنف حسب نوعيتها إلى ثلاثة أصناف، الصنف الأول وهو الممتاز يتميز بالمذاق الحلو جداً، يوجه مباشرة إلى الأغنياء، ويقدم عادة للضيوف سواء كانت رطباً أو جافاً، وأهمها: تينقور، أحرطان، تيلمسو، بانخلوف، وغيرها[5]. والصنف الثاني هو المتوسط، يوجه للاستهلاك المحلي والتصدير أيضاً، ويضم عدة أنواع منها: تقازة، تيناصر، تزرزاي، وغير ذلك [6]. أما الصنف الثالث فهو الرديء يعرف بـ(الحشف) و(الركم) ولا يشكل نوعاً خاصاً، بل يمثل التمور الجافة قبل نضجها وهو موجه لتغذية الأنعام [7]. وتعتبر الأنواع في الصنف الأول والثاني الأهم في توات وتتميز بقيمتها عن باقي الأصناف.

اهتم الرحالون والمستكشفون للمنطقة خلال القرن التاسع عشر بهذا النشاط الزراعي، وأجمعوا على الإشارة إلى كثرة زراعة النخيل ووفرة إنتاج التمور في المنطقة، لكن لم يقدم هؤلاء الرحالة أو المستكشفون إحصائيات لعدد أشجار النخيل ولا كمية إنتاج التمور خلال هذه الفترة، وقدمت بعض الدراسات الفرنسية إحصائيات متضاربة في هذا المجال.

يقدر بالات (Palat) عدد النخيل في توات بـ 10.000.000 نخلة سنة 1886م[8]، أما بيوسيل (Bissuel) فأورد معطيات إحصائية نقلاً عن تقارير المؤسسات العسكرية سنة 1891م حيث ذكر أن عدد نخيل توات الوسطى 3.000.000 نخلة وعدد نخيل قورارة 2.500.000 نخلة

1- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p219.

2- Ibid, p239.

3- أبو سالم العياشي، المصدر السابق، ج1، ص107.

4- A.G.P. Martin, Les oasis sahariennes, p298.

5- V.A. Malte Brun, op.cit, p100.

6- Gerhard Rohlfs, Ibid, p237.

7- Victor Colonieu, op.cit, T14, p88.

8- Marcel Frescaly(Lieutenant Palat), op.cit, p43.

وفي تيدكلت 1.500.000 نخلة[1]، أما دوبورتي (Deporter) فقدر عدد نخيل توات خلال نفس السنة بـ 8.000.000 نخلة، منها 3.500.000 بتوات الوسطى، و 3.000.000 بقورارة، 1.500.000 بتيدكلت [2]. ويقدر بويي (Boyé) عدد نخيل توات سنة 1898م بـ 7.000.000 نخلة منها 3.000.000 بتوات الوسطى، و 2.500.000 بقورارة، و1.500.000 بتيدكلت [3]. كما أشار فانو (Voinot) إلى أن نخيل تيدكلت لم يتجاوز 315.793 نخلة في نهاية القرن التاسع عشر[4].

تعتبر دراسة مارتان (Martin) الميدانية خلال مطلع القرن العشرين مصدراً هاماً في تحديد عدد أشجار النخيل وتحديد نسبة إنتاج التمور، حيث يرى أن عدد النخيل في توات حسب إحصائيات سنة 1906م بلغ 1.429.642 نخلة منها 453.480 نخلة بتوات الوسطى، في حين أن قورارة بها 644.447 نخلة، أما نصيب تيدكلت فقدَّره بـ 331.715 نخلة[5]. وخلال نفس الفترة قدم سباتييه (Sabatier) إحصائيات مقاربة لهذه الأرقام، حيث قدرها بـ 1.597.000 نخلة بتوات من مختلف الأنواع منها 433.000 نخلة بتوات الوسطى، 852.000 نخلة بقورارة، و312.00 نخلة بتيدكلت[6].

ورغم أننا لا نعرف المصادر التي استقى منها هؤلاء المستكشفون معلوماتهم تلك، ورغم ما تثيره من تساؤل كذلك، فإن ما ذكر يدعم ما ذهبنا إليه وهو انتشار النخيل بشكل واسع بالمنطقة. كما يظهر من الإحصاءات المتقدمة الذكر أن هناك تبايناً كبيراً في تحديد عدد النخيل في توات خلال فترة زمنية متقاربة، وأنه يصعب تقدير عدد نخيل المنطقة، ويمكن القول أن الأرقام التي قدمها كل من مارتان (Martin) وسباتييه (Sabatier) هي الأدق والأقرب إلى الواقع، لأنها جاءت بعد

---

[1]- Henri Bissuel, op.cit, pp14-31.

[2]- V. B. Deporter, op.cit, pp13-42.

[3]- Boyè Capitaine, **la question Saharienne**, **oasis de Feguig**, **du Gourara**, **du Touat**, **du Tidikelt**, **les touaregs**, Librairie du monde Militaire, Paris, 1897, pp31-41.

[4]- Louis Voinot, op.cit, p25

[5]- A.G.P. Martin, Les oasis sahariennes, op.cit, p305.

[6]- Camille Sabatier, **Le transsaharien**, Ed. Camilli et Fournié, Toulouse, 1922, p81.

الاحتلال الفرنسي للمنطقة، أما الإحصاءات التي كانت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد يكون مبالغاً فيها لأن الغرض منها هو استجلاب القوات الفرنسية إلى المنطقة.

يختلف إنتاج النخيل من التمور على حسب نوعية النخلة ومكان تواجدها، حيث يصل متوسط إنتاج النخلة من التمر سنوياً 20 كلغ وهي أقل من باقي المناطق الصحراوية [1]، وقد بلغت كمية إنتاج التمور في نهاية القرن الثامن عشر أي سنة 1797م بتوات 10.841 حمل[2]، وفي السنة التي تليها 1798م بلغت 59.775 حمل[3]، وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر انخفض إنتاج التمور بنسبة كبيرة جداً ليصل سنة 1828م إلى 959 حمل، ويرجع هذا الانخفاض الكبير إلى عدة عوامل طبيعية وبشرية[4]، وفي سنة 1860م أحصى كولونيو (Colonieu) كمية إنتاج تمور توات بـ 6.000 طن سنوياً[5].

وضمن حديثه عن إنتاج التمور يخبرنا دو كولومب (de Colomb) أن إنتاج قورارة من التمور أكثر من إنتاج توات الوسطى مفسراً ذلك بقوله:"ولعل ما يفسر هذا عدم اعتنائهم بنخيلهم عناية كبيرة، وربما أضرت بها زراعة التبغ كما يزعمون"[6]، وهو ما تؤكده الإحصاءات التي قدمها مارتان (Martin) مطلع القرن العشرين حيث قدَّر إنتاج توات من التمور بـ 2.128 طن، نصيب توات الوسطى منها 681 طن، وقورارة 915 طن، وتيدكلت 532 طن من التمر[7].

رغم بدائية الآلات المستعملة في الزراعة والتي تمثلت في الفؤوس، والمعاول، والقادوم، والمنجل، إلا أن السكان أولو أهمية كبيرة لزراعة النخيل، حيث تتصدر التمور المنتوجات الزراعية في المنطقة خلال هذه الفترة [8]، وذلك لما تميز به هذا المنتوج من مميزات هامة، حيث يعتبر الغذاء الأساسي

1- Jules Cambon, op.cit, p320

2- الحمل: هو مقدار ما يحمله الجمل من التمر، ويترواح وزنه بين 150 إلى 250 كلغ. أُنظر: زاجية هرباش، المرجع السابق، ص209.

3- أحمد العماري، المرجع السابق، ص ص53- 54.

4- شهدت توات خلال هذه الفترة اجتياح أسراب من الجراد سنة 1826م، بالإضافة إلى الصراع بين طائفتي يحمد وسفيان الذي استمر طوال القرن 19م، مما أثر سلباً على الإنتاج. أُنظر: Bernard Saffroy, op. cit, p9

5- Victor Colonieu, op.cit, T13, p45.

6- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p52.

7- A.G.P. Martin, Les oasis sahariennes, op.cit, p305.

8- Marcel Frescaly(Lieutenant Palat), op.cit, p229/ Henri Schirmer, op.cit, p407/ Victor Colonieu, Ibid, p45/ Louis de Colomb,Ibid, p38.

للإنسان التواتي، فالعديد من العائلات تقضي أسبوعاً كاملاً دون أن يكون لها أي غذاء سوى التمر، ومن هذا المنطلق ذكر رولفس (Rohlfs) أن السكان يعتبرون الإساءة إلى النخلة بقطعها أو إتلافها جريمة دينية وأخلاقية [1]، ويتحدث كايبه (Caillié) من جهته عن أهمية التمور حينئذ في حياة السكان فهي تشكل عماد تغذيتهم وأساس نشاطهم التجاري [2]، كما أنها تستعمل في العديد من الصناعات المحلية، وتستغل النوعية الرديئة منها كعلف للحيوانات [3]. فامتلاك النخيل يعتبر من مظاهر الرفاه الاجتماعي والمكانة السياسية داخل المجتمع.

يتضح مما سبق أن زراعة النخيل نالت الحظ الأوفر بالمنطقة، فهي أساس التجارة ومعاش السكان لكنها لم تكن الوحيدة، لأن السكان لم يهملوا المنتجات الزراعية الأخرى، حيث عملوا على زراعة المساحات القليلة المتواجدة بين أشجار النخيل بمنتجات زراعية مختلفة، من أجل توفير ما يكفي لمعيشة السكان، وحتى يستبدل جزء منها بمنتجات لا تتوفر بالمنطقة.

ب– زراعة الحبوب: تعتبر الحبوب من المواد المعاشية الأساسية التي لا يمكن الاستغناء عنها في توات، فانتشرت زراعتها خلال هذه المرحلة بشكل كبير، وتمثلت أساساً في القمح والشعير، وحسب (Soleillet) فإن جميع الأراضي في المنطقة مزروعة بالنخيل والقمح والشعير [4]، ومن جانبه يؤكد رولفس (Rohlfs) أن زراعة القمح والشعير كانت منتشرة في كل واحات توات لكن محصولهما لم يكن كافياً لسد حاجيات السكان من الغذاء، ما يجبرهم على جلب كميات كبيرة منها من المناطق الشمالية[5]، وهي نفس الملاحظة التي سجلها باقي المستكشفين للمنطقة في هذه الفترة [6]، ويزرع هذان المحصولان في المساحات الفارغة بين أشجار النخيل في فصل الشتاء، ويتم حصادهما في فصل الربيع.

وإذا كانت المعطيات الكمية المتعلقة بإنتاج الحبوب شبه غائبة عند الرحالين والمستكشفين الذين استعرضناهم للتو، فإن الباحث الفرنسي مارتان (Martin) قد حاول تجاوز أسلافه فتحدث

---

[1]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p235.

[2]- René Caillié, **journal d'un voyage à Temboctou et à Jenné dans l'Afrique centrale**, tom03, A L imprimerie Royale, Paris, p54.

[3]- Eugène Daumas, Le grand désert, op.cit, p96.

[4]- Pual Soleillet, Exploration du sahara Centrale, op.cit, p94

[5]- Gerhard Rohlfs, Ibid, p219.

[6]- Victor Colonieu, op.cit, T14, p72/ Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p38/ Abderrahmane Selka, op.cit, p550/ Eugène Daumas, le Sahara Algérien, op.cit, p277.

بشكل أكثر دقة عن هذا النشاط الزراعي في مطلع القرن العشرين، مصرحاً أن السلطات الفرنسية قدرت إنتاج توات من القمح سنة 1904م بـ 30.700 قنطار، منها 1.700 قنطار بتوات الوسطى، و 21.000 قنطار بقورارة، و 8000 قنطار بتيدكلت، أما الشعير فقدر بـ 18.300 قنطار[1]، ويضيف فوانو (Voinot) أن المساحة المزروعة من الحبوب بتيدكلت لوحدها تتجاوز 10.000 هكتار[2]. وأهم المناطق التي يتركز فيها إنتاج القمح والشعير هي إقليم قورارة، بالإضافة إلى تسابيت وبودة وأولف وعين صالح.

وهناك أنواع أخرى من الحبوب لكن بكميات قليلة، كالدخن المعروف محليا بـ (التافسوت)[3] الذي يزرع في شهر أفريل وماي ويحصد في شهر أكتوبر، وهو من المحاصيل الصيفية[4]، وقد بلغت كمية إنتاجه 32.000 قنطار سنة 1904م[5]، كما يوجد نوع آخر من أنواع الذرة يعرف بـ (البشنة) يزرع في شهر أفريل ثم في شهر أوت، مما يسمح بزراعتها مرتين في السنة[6]. وبالإضافة إلى الأهمية الغذائية لهذين المحصولين فإنه يكثر عليهما الطلب في أسواق إفريقيا الغربية.

بالرغم من ذلك فإن هذا الإنتاج من الحبوب بالكاد يكون كافياً لتغطية الحاجيات الغذائية للسكان، فيلجئون إلى جلبها من أسواق المدن الشمالية للجزائر.

ج- الخضر والفواكه: تجمع شهادات الرحالين من محليين وأجانب على تنوع إنتاج الخضر والفواكه في توات خلال القرن التاسع عشر، فقد عرفت المنطقة زراعة العديد من الخضر موجهة للاستهلاك المحلي، حيث يزرع التواتيون في فصل الخريف البصل واللفت الأحمر والأبيض والجزر والفلفل والباذنجان والشمندر والخيار والكوسة والكرمب والخردل والطماطم والثوم[1]، وفي فصل الصيف يزرعون التدلاغت

---

[1]- A.G.P. Martin, Les oasis sahariennes, op.cit, p306.

[2]- Louis Voinot, op.cit, p25.

[3]- تعرف أيضاً باسم الذرة البيضاء، أو الدخن، أو السرغو، وتقدم كذلك كعلف للحيوانات، يُنظر:
Flye Sainte Marie, **le commerce et l'agriculture au Touat**, Bulletin de la société de géographie de la province d'Oran, T24, 1904, p353.

[4]- Gerhard Rohlfs, Reise durch Marokko, op.cit, p117/ Abderrahmane Selka, op.cit, p550.

[5]- A.G.P. Martin, Ibid, p307.

[6]- Gerhard Rohlfs, Ibid, p117/ Abderrahmane Selka, Ibid, p550.

[1]- Ibid, p550/ Victor Colonieu, op.cit, T14, p72.

(الفاصولياء) والقرع، وفي فصل الشتاء الفول والعدس والجلبان والحمص [1]، وخلال فصل الربيع يتم زراعة الجزر الأبيض ونوع من الفاصولياء ذات المذاق الممتاز[2].

إلى جانب ذلك عرفت المنطقة زراعة بعض الفواكه مثل العنب والرمان والبطيخ والتين والخوخ واللوز والمشمش، ويخبرنا رولفس (Rohlfs) أنها تزرع بكميات قليلة وذات جودة رديئة، لأن الحرارة المرتفعة تتسبب في نضجها وجفافها بسرعة، أما صولييه (Soleillet) فقد لفت انتباهه وجود شجرة الليمون في واحة تيدكلت [3]. وبما أن الخضر والفواكه زراعة معاشية فإن كل المناطق التواتية كانت تقوم بزراعتها، ولا تتوفر إحصاءات لكميات الإنتاج.

02/ الزراعة الربحية:

أ– الحناء[4]: عُرفت توات بزراعة الحناء، حيث تزرع على مساحات واسعة في جميع أقاليم وواحات المنطقة، وأهم إقليم تزرع به هو توات الوسطى خاصة المنطقة الممتدة بين سالي وأنزجمير، ومنه سميت بوادي الحناء وعرفت به [5]. تجنى الحناء في شهر جويلية بعد اكتمال نمو أوراقها، ثم تجمع وتعرض في الشمس حتى تجف، وتستعمل للتطبيب كدواء للجروح بعد سحق أوراقها وإضافة الماء لها لتصبح على شكل عجينة، كما تستخدم للزينة والتلوين وصباغة الشعر وأطراف الأصابع وراحة اليد من طرف النساء [6]. تباع الحناء في أسواق توات، ويصدر منها جزء كبير نحو أسواق إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى[7].

---

[1]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p315.

[2]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p219.

[3]- Pual Soleillet, Exploration du sahara Centrale, op.cit, p94/ Gerhard Rohlfs, Reise durch Marokko, op.cit, p117/ Eugène Daumas, le Sahara Algérien, op.cit, p279/ Louis de Colomb, Ibid, p315/ Victor Colonieu, op.cit, T14, p72/ colonel d'Eu, op.cit, p35.

[4]- الحناء: تعرف بتسمية (Lawsonia Inermis)، وهي شجرة صغيرة ترتفع عن الأرض أثناء نموها بحوالي 40 أو 50 سم، تزرع على حواف سواقي وقنوات المياه، لون جذعها أبيض وأوراقها خضراء لامعة، تستخدم للزينة والتطيب. للمزيد أنظر: مجموعة مؤلفين، **الموسوعة العربية العالمية**، ط2، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، 1999م، ج9، ص560.

[5]- Victor Colonieu, Ibid, T15, p435/ Henri Bissuel, op.cit, p38.

[6]- Gerhard Rohlfs, Reise durch Marokko, Ibid, p117.

[7]- Louis de Colomb, Ibid, p38.

ب- التبغ[1]: وهو من النوع الصحراوي القوي الرائحة يعرف محلياً ب(الشمة)، يزرع مرة واحدة في السنة، وتترك مسافة بين شجرة وأخرى تقدر بـ 40 و50 سم بشكل دائري، يتم حصد التبغ في شهر جوان بعد أن يصل طول الشجرة 40 سم، ثم تجفف أوراقها وتجمع في حزم صغيرة، ويتم استهلاكها بعد تخميرها وسحقها عن طريق التدخين أو الشم أو الوضع تحت اللسان. يزرع في توات الوسطى خاصة بين زاوية كنته وسالي [2]، وقد شاهد بالات (Palat) السكان يدخنونه في أنابيب خاصة أو في عظمة خروف معدة لذلك [3]. وأهم سوق محلي لها كان بمنطقة سالي حسب ما ذكر رولفس (Rohlfs)، ويؤكد هذا الأخير أن زراعة التبغ منعدمة تماماً بإقليم تيدكلت [4]. كما يتم الطلب على التبغ التواتي بشكل كبير في أسواق إفريقيا الغربية خاصة سوق تمبكتو.

ج- القطن[5]: يعد القطن من أهم المزروعات التي انتشرت بتوات خلال القرن التاسع عشر [6]، رغم أنه لا يحظى بالعناية الكبيرة من طرف السكان، ويزرع على حواف السواقي في شكل شجيرات يصل طولها المترين، تزهر بأزهار بيضاء قصيرة [7]، وأهم منطقة لزراعته إقليم تيدكلت خاصة أقبلي وأولف وعين صالح، بالإضافة إلى وجوده بإقليم قورارة، وقد استغرب رولفس (Rohlfs) نموه في واحات المنطقة بشكل كبير وسهل للغاية [8]، أما بالات (Palat) فيؤكد أن القطن الذي ينمو بتوات ذو نوعية جيدة، ويمكن استخدامه في الصناعة النسيجية[9]، ومن البديهي القول أنه يتم جني كميات كبيرة من هذا المحصول الذي يستخدم أيضاً لتنشيط التجارة الخارجية.

---

[1]- التبغ: نبات حولي يعيش موسماً واحداً يصل طوله نحو 1.2 متر، ينتج حوالي 20 ورقة يبلغ طولها من 60 إلى 75 سم وعرضها من 35 إلى 45 سم، يتراوح لونه من الأخضر الفاتح إلى الأخضر الغامق، يستعمل للشم ويدخن في الغليون. أُنظر: الموسوعة العربية العالمية، المرجع السابق، ج6، ص79.

[2]- Victor Colonieu, op.cit, T15, p435/ Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p315.

[3]- Marcel Frescaly(Lieutenant Palat), op.cit, p237.

[4]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p237.

[5]- القطن: نبات ينمو رأسياً وله فروع جانبية تنتشر في كل الاتجاهات، وله أوراق عريضة بها ثلاثة إلى خمسة فصوص وينمو جذره الرئيسي إلى عمق 1.2متر في التربة. أُنظر: الموسوعة العربية العالمية، المرجع السابق، ج18، ص254.

[6]- Victor Colonieu, Ibid, T14, p72/ Louis de Colomb, Ibid, p315.

[7]- Jules Cambon, op.cit, p327.

[8]- Gerhard Rohlfs, Ibid, p219.

[9]- Marcel Frescaly(Lieutenant Palat), Ibid, p237.

03/ الأشجار والأعشاب:

تزخر منطقة توات بغطاء نباتي متنوع رغم ندرة الأمطار وقساوة الطبيعة وصعوبتها، استخدم التواتيون هذه الأشجار والأعشاب في حياتهم اليومية، حيث استخرجوا منها الفحم، وبنوا منها مساكنهم، وقدموها غذاء لحيواناتهم، واستخدموها في مختلف المجالات الطبية كدواء لشتى الأمراض. من أهم هذه الأعشاب والأشجار التي استرعت انتباه المستكشفين: الينسون، البرسيم، النعناع، الكرنكا، الصمغ، الطلح، الدرين، الرتم، الدانون، النكال، السدرة، الضمران، البلبال، العلندة، الشيح، الشندقورة، العقاية، لازال، الرتم، الكرطوفة، القطف، شحمة الأرض، الحارة، العرعار، السنا[1]، الحريشة، العود، الثمت، بذرة الكتان، حب الرشاد، الدمران، العجا [2]، وقد سجل رولفس (Rohlfs) أن معظم هذه الأعشاب لا يتعدى طولها 50 سم، وتمتد في سهول خضراء على مساحات واسعة خاصة بتيدكلت يطلق عليها السكان إسم "الغابة" [3]، وعند تأخر الأمطار وجفاف التربة تنمو بعض النباتات السامة كالجرجير والكولكولان التي تضر بكل من يتناولها[4].

تتم زراعة الأرض في توات على شكل مستطيلات صغيرة تعرف بـ(الگمون)، في أرض رملية فقيرة من المواد العضوية [5]، مما يضطر الفلاح إلى استخدام الأسمدة الحيوانية، لذلك يلجأ صاحب الأرض إلى كراء منزله مقابل الحصول على كمية من الزبل لاستخدامه كسماد، ويقوم بهذه العمل الخماسون وليس مُلّاك الأراضي [6]. وفي هذا السياق يبالغ عبد الرحمن سلكة في اتهام التواتيين بالكسل، مؤكداً أنهم لا يبحثون عن تحسين وتنويع مواردهم الفلاحية بتحسين البذور، أو تجربة نباتات أخرى غير معروفة لديهم، أو بتجديد زراعة أشجار الفواكه والخضر، أو زراعة الحشائش لحيواناتهم، أو زراعة بعض الأشجار المثمرة[7].

---

[1]- للمزيد يُنظر: حسان قبيسي، **معجم الأعشاب والنباتات الطبية**، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.

[2]- Victor Colonieu, op.cit, T14, p58/ Abderrahmane Selka, op.cit, p550/ Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p35/ Abd al Kadir Touati, op.cit, p19/ Gerhard Rohlfs, Reise durch Marokko, op.cit, p117/ Paul Soleillet, L'Afrique Occidental, op.cit, p271/ Marcel Frescaly (Lieutenant Palat), op.cit, p200.

[3]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, pp227-228.

[4]- Abd al Kadir Touati, Ibid, p19.

[5]- V.B. Deporter, op.cit, P40.

[6]- Victor Colonieu Ibid, p72/ Louis de Colomb, Ibid, p313.

[7]- Abderrahmane Selka, Ibid, p550.

أجمع المستكشفون على وصف المحيط التواتي بالقساوة، حيث الحرارة مرتفعة صيفاً والبرد قارس شتاءً، والمياه نادرة، وحيث التصحر يطبع الحياة بشكل مطلق، والعواصف الرملية الهوجاء شديدة، مما يحتم على أصحاب البساتين والحدائق المزروعة إقامة سياج من سعف النخيل حولها لمنع تراكم الرمال يسمى (أفراك)[1]، وقد شاهد دو كولومب (de Colomb) كفاح السكان لإيقاف زحف الرمال التي يتجاوز ارتفاعها غالباً أشجار النخيل، فلا تستطيع هذه المصدات المقاومة أكثر من سنتين مما يتطلب تجديدها باستمرار[2]، هذا ما يبين حجم معاناة السكان في الحفاظ على زراعتهم وتمسكهم بأراضيهم، وما زالت هذه الطريقة تستعمل لحد الآن لمنع زحف الرمال.

يتضح من خلال ما سبق أن الزراعة كانت تمثل أهم مورد اقتصادي لدى غالبية سكان توات، وتشكل مصدراً أساسياً للعيش، كما ساهمت في إيجاد بعض الحرف الموسمية كتجهيز التمور والحناء وتخزين التبغ، وصناعة بعض الأدوات المستعملة في الحياة اليومية من سعف النخيل، وذلك رغم حاجة الزراعة إلى جهد عضلي كبير وصبر طويل، ناهيك عن صعوبة المنطقة وشدة الظروف المناخية. كما أن النظام الزراعي تكيف مع ظروف المنطقة، فكانت الزراعة في توات مستقرة وذات مردود وإنتاج معتبر، وذلك بفضل نظام الفقاقير الموجود بالمنطقة الذي انبهر منه كل المستكشفين.

ثالثاً: الإنتاج الحيواني

انتشرت بتوات تربية الحيوانات الأليفة، لكن ليس مثل النمط الذي يمارس في الإقليم الشمالي من الجزائر، وقد كان لندرة الأراضي الزراعية وقلة مردوديتها جراء تخلف وسائل الزراعة وما يوفره المجال من موارد شحيحة في غالب الأحيان دورٌ مساعدٌ في التركيز على الثروة الحيوانية بغية سد العجز في الحبوب، طالما أن اللحم واللبن يتصدران أغذية سكان توات، كما تمنحهم الثروة الحيوانية صوفها ووبرها وجلودها مما يُسهِم في صناعتهم التقليدية، فضلاً عن كون بعض تلك الحيوانات تستخدم كوسائل للنقل والمتاجرة.

اشتهرت المنطقة بوجود بعض الخرفان أو النعاج والتي تسمى محلياً بـ (الدمان)[3] موجهة للاستهلاك المحلي وليس للتجارة، وهو جنس مهجن من الخروف العربي والخروف السوداني[4]، يصفها الأغواطي بقوله: "وأغنامهم مثل غنم السودان، مغطاة بشعر أسود يشبه شعر الماعز، ولها أذناب

[1]- V.B. Deporter, op.cit, p45.

[2]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, pp37-38.

[3]- Victor Colonieu, op.cit, T14, p73/ Henri Bissuel, op.cit, p27.

[4]- Abderrahmane Selka, op.cit, p551.

طويلة"[1]، تتغذى بالتمور الجافة (الحشف) والحشائش الأخرى التي تنمو بالمنطقة مثل: البشنة والتافسوت والفصة[2]، وكل عائلة تواتية تربي داخل بيتها حسب طاقتها وثروتها الشخصية. بالإضافة إلى وجود الكبش السوداني المعروف بـ (سيدوان) نسبة إلى السودان الذي يربى ويسمن للذبح وليس للتكاثر[3]، ويتأقلم الخروف التواتي كما يقول السكان مع العطش بشكل أكبر مقارنة بأغنام المنطقة التلية.

كما يربى في توات الماعز بأعداد كثيرة للاستفادة من حليبها، فأغلب الحليب المستهلك في المنطقة يتحصل عليه من الماعز، ويظهر تقرير دو كولومب (de Colomb) أهمية الدور الذي يلعبه امتلاك الماعز في تغذية السكان، مؤكداً أن التواتيين يمتلكون أعداداً معتبرة من الماعز تدر عليهم كميات كبيرة من الألبان يستخرجون منها الدهون [4]، أما لحمها فليس من اللحوم المحببة لسكان المنطقة، وقد أشار الى ذالك الحسن الوزان في وصفه لمنطقة قورارة خلال القرن 16م بقوله: "...فليس في تيكورارين سوى بعض الماعز الذي يربى من أجل اللبن" [5]. ورغم التنامي المستمر لها خلال القرن التاسع عشر إلا أن عبد الرحمن سلكة أشار إلى أن نقص الغذاء وقلة العلاج وتدهور الحالة الصحية لها سيؤدي إلى تناقصها، كما أن حليبها أقل بكثير مقارنة بحليب العنزة العربية[6].

تجمع الدراسات التي قدمها المستكشفون أن هذه الثروة الحيوانية من الأغنام والمعز قليلة ولا تلبي حاجيات السكان من اللحوم، فيعتمد أهل توات لسد العجز والنقص على جلب الخرفان والماعز من الشمال، واللحوم المجففة من بلاد السودان الغربي، لكن لم تقدم إحصائيات لها ما عدى تلك التي قدمها فوانو (Voinot) لمنطقة تيدكلت، حيث قدرها بـ 3.500 رأس من الغنم والماعز[7]. وبالرغم من قلة عدد الأغنام والماعز والتي اشتهرت بها بعض المناطق التواتية أكثر من غيرها كرقان وأقبلي وأولف وتيميمون، بالإضافة إلى قلة صوفها ورداءته، إلا أن التواتيين استغلوا أصوافها وجلودها

---

[1]- الحاج ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص93.

[2]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p39.

[3]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p220.

[4]- Louis de Colomb, Ibid, p39.

[5]- الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص134.

[6]- Abderrahmane Selka, op.cit, p551.

[7]- Louis Voinot, op.cit, p27.

وألبانها، حيث استغلت أصوافها في الغزل والنسيج، واستفادت من ألبانها في صناعة الزبدة والجبن واللبن المخثر، واستعملت جلودها بعد دبغها في الصناعة الجلدية مثل القِرَب لحمل الماء والسروج.

تحظى تربية الجمال بعناية كبيرة في توات [1]، فالإبل فضلاً عن أهميتها في المجال الاقتصادي بالانتفاع من ألبانها وأوبارها ولحومها، تعتبر سفينة الصحراء التي لاتكِلُّ، والتي قدمت على مر الزمن خدمات كبيرة لسكان الصحراء كوسيلة نقل في المسافات البعيدة لقدرتها على التحمل[2]، فهي أساس تجارة القوافل والمورد الاقتصادي الهام للصحراء منذ ظهورها [3]. تتركز تربية الإبل في توات بالمناطق التي تكثر بها المراعي (الغابة)، والتي تبعد مسافة يوم أو يومين من معظم القصور التواتية، حيث يسعى سكان المنطقة إلى استغلالها عقلانياً فيشكلون مجموعات ويبعثون بها للغابة تحت حراسة الرعاة [4]. وعن ملكية قطعان الإبل نجد تفصيلاً أكثر عند دو كولومب (de Colomb) الذي يخبرنا أن إقليم تيدكلت هو صاحب نصيب الأسد من هذه الثروة الحيوانية [5]، ويقدم فوانو (Voinot) معلومات دقيقة نسبياً عن عدد الإبل في هذا الإقليم إذ قدرها بـ 600 رأس[6]، في حين قدرها سلكة عبد الرحمن بتوات الوسطى بـ 200 رأس[7] وذلك في نهاية القرن التاسع عشر.

أما عن تربية الخيول فيخبرنا دو كولومب (de Colomb) أنها: "نادرة جداً لصعوبة توفير الكلأ لها"[8]، ويسير رولفس (Rohlfs) في المنحى نفسه مؤكداً أن الخيل لا يمتلكها إلا العائلات الميسورة الحال واكتسابها يدل على ثروة صاحبها قائلاً: "... يوجد القليل من الخيول في توات لأن

---

[1]- Marcel Frescaly (Lieutenant Palat), op.cit, p236.

[2]- Jean Bisson, **le Gourara**, **Etude de Géographie Humaine**, université d'Alger, Institut de Recherches Sahariennes, Mémoire N03, 1957, p135.

[3]- تُرجح المصادر التاريخية أن الجمل دخل إلى الصحراء الكبرى الإفريقية منتصف القرن السابع قبل الميلاد إثر غزو الهكسوس لوادي النيل وبعد عدة قرون انتقل إلى منطقة المغرب، وساهم في زيادة العمران في المناطق الصحراوية، ومن هذا يتضح أن الجمل دخيل على الصحراء الكبرى الإفريقية وليس ملازماً لها كما يعتقد البعض، وبقدرة هذا الحيوان على التحمل والتأقلم مع أوضاع الصحراء استطاع فك العزلة عنها وربط أطرافها المترامية وانفتاحها على العالم الخارجي. أُنظر: إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، المرجع السابق، ص34.

[4]- Abderrahmane Selka, op.cit, p55/ Henri Bissuel, op.cit, p31.

[5]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p55.

[6]- Louis Voinot, op.cit, p27.

[7]- Abderrahmane Selka, Ibid, p551.

[8]- Louis de Colomb, Ibid, p39.

العناية بالحصان مكلفة في توات" [1]، فبالإضافة لقلة وغلاء العلف المناسب للخيول يصعب تأقلمها مع مناخ المنطقة الحار صيفاً، ويتم تغذيتها مثل الحمير بالتمر الرديء مثلما يؤكد بالات (Palat)[2]. أما عن عددها فقد أشار مارتان (Martin) إلى أنه بلغ 200 رأس سنة 1895م، في حين عدَّ فوانو (Voinot) عدد خيول تيدكلت بـ 16 رأس فقط نهاية القرن التاسع عشر [3]. ولعل أولئك المستكشفين أهملوا ذكر جنس "البغال" التي ثبت امتلاكها لدى بعض العائلات من خلال بعض المصادر المحلية مثل كتب الرحلات الحجية وكتب النوازل في تلك الفترة. وعلى عكس الخيول اشتهرت توات بوجود عدد كبير من الحمير، وذلك لاستخدامها في الأعمال اليومية في القصور والبساتين، خاصة نقل الأسمدة العضوية والأتربة إلى الحقول الزراعية، ويتميز الحمار التواتي بقصر قامته وصغر حجمه وتحمله المشاق رغم قلة غذاءه[4].

وبالنسبة لتربية الأبقار فكانت شبه منعدمة فلم ترد أي إشارة لها لدى المستكشفين الأوروبيين أو الرحالة المحليين خلال هذه الفترة، إذ يجزم رولفس (Rohlfs) أن توات: "لا يوجد بها البقر تماماً"[5]، وذلك لعدم توفر المناخ المناسب لها، رغم ورود بعض الإشارات إليها في بعض المصادر المحلية[6]، مع العلم أنها كانت موجهة للاستهلاك المحلي فقط. أما تربية الدواجن فكانت منتشرة بشكل كبير خاصة الدجاج الذي يمثل مصدراً أساسياً للحوم والبيض للسكان، ويشير المستكشف دو كولومب (de Colomb) إلى إشارات خاطفة مؤدَّاها بأن نوع الدجاج الذي يربى في توات من الحجم الصغير، بالإضافة إلى الحمام[7]. ويتحدث الرحالة رولفس عن طيور المنطقة مؤكداً أنه: "يوجد نوع من الخطاطيف ذو ريش رمادي، كما يوجد نوع من الطيور يسمي الزرزور" [8]. في حين تم تسجيل غياب تام للكلاب بتوات من طرف المستكشفين، وهو ما نستشفه من قول كولونيو (Colonieu) أن: "سكان توات ليس لديهم كلاب، ويخافون منها بشدة"[9].

---

[1]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p210.

[2]- Marcel Frescaly(Lieutenant Palat), op.cit, p237.

[3]- A.G.P. Martin, Les oasis sahariennes, op.cit, p376/Louis Voinot, op.cit, p27.

[4]- Abderrahmane Selka, op.cit, p551/ Henri Bissuel, op.cit, p27.

[5]- Gerhard Rohlfs, Ibid, p220.

[6]- عبد العزيز البلبالي، المصدر السابق، ص438.

[7]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p315/ Louis Voinot, Ibid, p27.

[8]- Gerhard Rohlfs, Ibid, p220.

[9]- Victor Colonieu, op.cit, T15, p433/ Marcel Frescaly, Ibid, p230.

من خلال ما سبق يتضح لنا أن السكان اهتموا بتربية الحيوانات المناسبة لطبيعتهم الصحراوية القاسية، حيث تمتلك جميع حيوانات الصحراء القدرة على التأقلم مع الحرارة والبرودة، والصبر على العطش لمدة طويلة، وقلة الغذاء، لذلك انتشرت تربية الإبل والحمير والأغنام وقلت تربية الخيل والبقر. كما أن مهنة الرعي كانت تصاحبها صعوبات كبيرة وذلك بسبب بُعد المراعي التي تتطلب السير إليها مسافة يوم أو يومين، وقد أصبحت اليوم تربية الإبل نادرة، وهذا راجع إلى استغناء السكان عنها في السفر ونقل البضائع بعدما عوضت السيارة دورها، بالإضافة إلى قلة الكلأ بسبب الجفاف الذي أصاب المنطقة.

المبحث الثاني: الحرف السائدة وأشهر المصنوعات

إلى جانب الزراعة مارس الإنسان التواتي مختلف المهن والحرف اليدوية لتأمين حاجاته الضرورية ومتطلباته اليومية وتحقيق الاكتفاء الذاتي، أو لبيعها وكسب مقابل مادي، معتمداً على ما تجود به الطبيعة من مواد أولية زراعية وحيوانية وأخرى معدنية، فقد اشتهرت منطقة توات خلال القرن التاسع عشر بالعديد من الحرف اليدوية والصناعات التقليدية، بما يتماشى مع الحاجيات الضرورية للسكان، حيث اكتسب سكان المنطقة مهارات إبداعية في صناعة مختلف الأدوات.

أولاً: المقومات الصناعية:

01/ الثروة النباتية والحيوانية:

المقومات النباتية والحيوانية لتوات لم تكن كثيرة، لكن حسن استغلال تلك المواد سمح للسكان الاستفادة منها للحصول على احتياجاتهم المختلفة، إذ مثلت النخلة المورد النباتي الأول التي مدت الحرفيين بمادة خام مستغلين جميع مشتقاتها من تمور وأوراق وأخشاب وألياف، فقد عرفت النخلة التواتية بتوفيرها أجود الأخشاب رغم قصرها، وذلك ما يبرزه الرحالة رولفس (Rohlfs) ضمن حديثه عن النخلة في توات بقوله: "قصيرة الارتفاع، لكنها توفر أخشاباً أفضل جودة من تلك الموجودة في الواحات الغربية" [1]، فقد استعمل خشبها في البناء، وسعفها في صناعة مختلف الأواني والأطباق والسلال والقفاف، وليفها لصناعة الحبال والشباك والأكياس. إلى جانب الأشجار الموجودة بالمنطقة مثل الطلح والبلبال والكرنكة والفرسيق التي تمول عدة نشاطات منها صناعة الأبواب والنوافذ، كما كانت مصدراً لتحضير الفحم النباتي لاستخدامه في التدفئة[2].

---

[1]- Gerhard Rohlfs, Reise durch Marokko, op.cit, p117.

[2]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p43/ Henri Bissuel, op.cit, p31.

أما المواد الحيوانية فتملت في الجلود التي تعتبر المادة الأولية في الصناعة الجلدية، فرغم قلة الثروة الحيوانية في توات والمتمثلة في الأغنام والماعز والإبل وقليل من الخيول، إلا أن ذلك لم يمنع التواتيين من استغلال جلود الأغنام ووبر الإبل لصناعة مختلف الأدوات الضرورية. ويمر تجهيز هذه الجلود بعدة مراحل حتى تصبح صالحة للاستعمال في الصناعة التقليدية، فالأولى هي عملية السلت وذلك بإزالة الشعر منها وتجفيفها تحت أشعة الشمس، ثم عملية الدباغة بوضع الجلد داخل محلول الدبغ المحضر باستعمال الملح الممزوج بورق نبتة "الصلاح"[1]، وأخيراً عملية الصباغة التي تعطي للجلد ألواناً مختلفة، وذلك بواسطة أوراق النباتات مثل الحناء للحصول على اللون البرتقالي، أو قشور الرمان للحصول على اللون الأصفر[2]، أو معدن الونكل (ouankal) للون الأزرق، أو مادة الطملة (thomela) التي تعطي صبغة سوداء[3]، وبذلك تكون الجلود جاهزة لتصنيع مختلف الأدوات الجلدية.

02/ المعادن:

يحتوي باطن أرض منطقة توات على مواد أولية قليلة لكنها ذات أهمية كبيرة، إذ أشارت تقارير الفرنسيين قبل التوسع في المنطقة وإخضاعها عن جملة من المقدرات المعدنية التي تمتعت بها توات، فقد استعانوا بوسائل علمية وأدوات القياس، وبذوي الاختصاصات كعلم الطبوغرافيا، وحملوا معهم عينات من التربة إلى مخابرهم وأجروا عليها التجارب والتحاليل، ونتيجة الدراسات الجيولوجية التي أجراها هؤلاء الرحالون تبين أن توات تزخر بكميات متنوعة من المعادن تحتاجها فرنسا في تنشيط صناعتها أهمها: الملح، الذي يعد منتجاً رئيسياً في تجارة المنطقة مع السودان الغربي، فقد أفاد ضابط الهندسة العسكرية كاريت (carette) سنة 1844م بوجود عدة مناطق تتوفر على الملح الصخري الجميل جداً، وذات مظهر نقي جداً [4]، أما صولييه (Soleillet) فيتحدث من جانبه عن انتشار الملح الصخري مشيراً إلى أنه يمثل جزءاً كبيراً في تجارة توات وتيدكلت[5].

[1]- Abderrahmane Selka, op.cit, p549.

[2]- Rio Capitaine, **L' artisanat a Tamantit**, travaux de l'institut de recherche saharienne, TXX, université d'Alger, 1961, pp137- 140.

[3]- Henri Bissuel, op.cit, p32/ Louis Voinot, op.cit, 142.

[4]- أ. كاريت، **أبحاث حول الجغرافيا والتجارة في الجزائر الجنوبية** ، تر: حمزة الأمين يحياوي، ط.خ، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2016م، ص198.

[5]- Paul Soleillet, Voyage de Paul Soleillet, op.cit, p130.

يعود توفر هذا المعدن في المنطقة لتوفر السباخ بكثرة [1]، إذ يخبرنا بالات (Palat) أن سبخة تيميمون تعد من أغني السباخ بالملح الصخري[2]، ويصرح دو كولومب (de Colomb) أن صناعة البارود تتم بالملح الصخري الموجد بكثرة في تربة توات [3]، كما ينحو دوماس (Daumas) منحى سلفه مؤكداً أن كمية البارود التي يحرقها السكان في أي مناسبة اجتماعية تدل على وفرة هذا المعدن بكثرة[4]. ومن أهم القصور الغنية بالملح الصخري: تيميمون وأولاد محمود بقورارة، وسبع، تيمي، تينيلان بتوات الوسطى، وأولف، أقبلي، عين صالح بتيدكلت[5]، كما أشار بارث (Barth) إلى وجود منجم صخري كبير جنوب عين صالح في المنخفض الكبير بين هضبة تادمايت وهضبة مودير[6].

ولمعرفة أهميته الاقتصادية ومجالات الاستفادة من هذا المعدن أُخذت إلى فرنسا عينة من سبخة تيميمون سنة 1896م، وبعد تحليليه وفحص مواده مخبرياً أثبتت النتائج غناه بالأملاح الخارجية ذات الاستعمالات الواسعة في الصناعات المتعددة مثل الكلور، النترات، البوتاسيوم، الجير..الخ. وللتأكد من أهميته تبعه تحليل مخبري وكمي آخر قام به المراقب الرئيسي للمناجم بمدينة الجزائر سيمون (Simon) الذي خلص تقريره إلى غناه بالنترات بنسبة 68%، لذلك وصفه الحاكم العام كامبون (Cambon) بأن أهميته ومكوناته تشبه إلى حد كبير مناجم الملح في البيرو والشيلي، إذ أن نسبة الملح تفوق 60 بالمائة وهي بذلك النسبة الغالبة[7].

ومن المعادن المنتشرة بمنطقة توات كبريت الحديد الذي يسمى محلياً الطملة (thomela)، وينشأ هذا المعدن نتيجة تحلل الجبس والمواد العضوية تحت تأثير الحرارة والرطوبة، وهذا النوع شائع في الصحراء، إذ كان السكان يستخدمونه لمعالجة الأمراض الجلدية (الجرب) للإبل [8]. وأشارت تقارير المستكشفين الفرنسيين إلى وجود الكبريت الأصلي في المنطقة الشرقية لتادمايت على بعد 50 كم من

---

[1]- E.F Gautier, **Sahara Oranais**, Annales de Géographie, N63, T12, paris, p248.

[2]- Marcel Frescaly (Lieutenant Palat), p253.

[3]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p36.

[4]- Eugène Daumas, Le grand désert, op.cit, p68.

[5]- Ibid, p68/ Louis de Colomb, Ibid, p42/ Henri Duveyrier, op.cit, p144.

[6]- Heinrich Barth, **Travels and discoveries in North and Central Africa**, Pbinted By Spottiszoode And co, London, 1863, p560.

[7]- Jules Cambon, op.cit, pp277-280.

[8]- Gerhard Rohlfs, Reise durch Marokko, op.cit, p168.

المكان المسمى "ضاية الكبريت" [1]. وفي سنة 1893م أُرسلت منه عينات إلى فرنسا، وبعد تحليل مكوناته وأهميتها في صناعات أخرى تبين أنها ذات نوعية جيدة، لكن يبدو أن هذا المعدن غير مستغل من طرف السكان المحليين، إذ يظهر تقرير دو كولومب (de Colomb) أن الكبريت المستعمل في صناعة البارود في توات يأتي من الشمال، تجلبه القوافل التجارية من الجزائر والمغرب[2].

كما بينت الرحلات الاستكشافية في المناطق الصحراوية أن منطقة توات تحتوي على كميات معتبرة من معدن الحديد، وذلك ما يبرزه صوليييه (Soleillet) ضمن حديثه عن هضبة تادمايت إذ يصرح أنه شاهد خلال تجواله في حمادة الشعاب الكثير من الحجارة الحمراء التي تحتوي على معدن الحديد[3]، ولا يشذ فورو (Foureau) عما ذهب إليه سلفه مؤكداً أنه شاهد عياناً عند اجتيازه منطقة توات عدة حجارة حمراء من أصل معدن الحديد، ويتابع هذا المستكشف حديثه عن معادن المنطقة مؤكداً وجود أكسيد المنغنيز في حمادة المناطق الجنوبية الغربية من الجزائر، وكذلك في بعض الأماكن من هضبة تادمايت[4].

ما يفتخر به التواتيون فيما بينهم ويلفت انتباه كل من زار تمنطيط، هو تلك الصخرة المعدنية التي يشيع عند السكان أنها سقطت من السماء، قيل أنها من الفضة ثم تحولت إلى حديد، يؤكد هذه المعلومة الرحالتان دو كولومب (de Colomb) ورولفس (Rohlfs)، فعندما زار الأول تمنطيط سنة 1857م قال: "نرى بالقرب من المسجد الكبير حجراً رمادي اللون قيل أنه سقط من السماء، وهو من الصلابة بحيث لا يمكن تهشيمه بالحديد أو الفولاذ، ومن الثقل بحيث لا يمكن لقوة الإنسان أن تحركه"[5]. وبعد سبع سنوات لما وصلها الثاني سجل نفس الملاحظة قائلاً: "يلمح السكان إلى وجود صخرة نزلت من السماء، والتي جعلوها وسط ساحة القصبة، وهي من معدن الفضة تحولت إلى حديد"[6].

---

[1]- G. Rolland, **Géologie et hydrologie du Sahara Algérien et aperçu géologique sur l'Océan atlantique à la mer rouge**, Imprimerie Nationale, paris, 1890, p173.

[2]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p42.

[3]- Paul Soleillet, L'Afrique Occidental, op.cit, p250.

[4]- Jules Cambon, op.cit, p250.

[5]- Louis de Colomb, Ibid, p47.

[6]- Gerhard Rohlfs, Reise durch Marokko, op.cit, p105.

ويؤكد رولفس (Rohlfs) معاينته لهذه الصخرة قائلاً: " رأيت الصخرة بعيني، لكن لم استطع إجراء أبحاث حولها حتى أتمكن من معرفة أصل مادتها على وجه التحديد"، ويزودنا بمعلومات وافية عن هذه الصخرة مشيراً إلى أن: "قطرها 50 سنتمتر، سطحها أسود اللون مع لمعان وبريق، إلا أنه يرى به عدة بصمات للأصابع ناتجة عن كثرة اللمس لها" [1]، ويؤكد هذا الرحالة معلومة سقوطها من السماء حسب ما يتواتر لدى السكان قائلاً: "والذي يظهر أن سقوطها من السماء له جانب كبير من الصحة[2]، وهي في نظر سكان توات معجزة إلهية حلت ببلادهم " [3]، وبعد احتلالها للمنطقة نقلتها فرنسا نهائيا فوضعت بمتحف التاريخ الطبيعي بالعاصمة باريس سنة 1927م.

وعن وجود المعادن النفيسة ينفرد الحاج عبد القادر بن أبي بكر التواتي –الذي كلف من طرف الفرنسيين لجمع معلومات كافية عن المنطقة – بالحديث عن وجود الألماس مصرحاً أنه خلال تجواله بالبلاد التواتية: "...وجدت الألماس في إقليمنا وسط بعض الصخور السوداء" [4]، ويؤكد صعوبة استخراجه قائلاً: "كان من المستحيل أخذ عينة منها لأن تلك الصخور كانت شديدة الصلابة فلا يمكن كسرها بوسائل حديدية عادية" [5]، ويمضي في حديثه ذاك واصفاً: "هذا الألماس الذي ينمو في قلب الحجارة يظهر في شكل حبيبات الرمان، فهي ثقيلة وتلمع مثل الزجاج وتحمل اللونين الأبيض والأزرق"[6]، ويضيف هذا المبعوث فيما يتعلق بالحجارة السوداء التي تحتوي على الألماس أنه وجدها بين شمال غرب أدرار وأقبلي وجنوب غرب عين صالح[7].

---

[1]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p208.

[2]- ويضيف مترجم رحلة رولفس إلى الفرنسية الباحث ديبيتز (Debetz) معلقاً على كلام رولفس إن هذه الصخرة هي أثقل وأقدم نيزك سقط في الصحراء، وكان من الممكن أن يسقط بين عامي 1392 و1415م بين نومناس البعيدة 12 كم عن تمنطيط وتيطاف التي تبعد 40 كم من تمنطيط، إذ نقلت هذه الصخرة من موضع سقوطها إلى تمنطيط نهاية القرن 15م، ويبلغ وزنها 510 كغ، وأكبر سمك لها 44 سم. بعد احتلال فرنسا للمنطقة اهتم رئيس دائرة المعادن بمتحف التاريخ الطبيعي بباريس "لاكروا" بالموضوع وقرر نقل النيزك إلى باريس لدراسة مكوناته، دامت المفاوضات عشر سنوات نظراً لإصرار السكان على عدم التنازل عن النيزك تم الاستعانة برجال الشرطة، وبعد جهد جهيد تم نقل النيزك نهائياً إلى باريس وحفظه بمتحف التاريخ الطبيعي سنة 1927م. أُنظر: Ibid, p208.

[3]- Ibid, p208.

[4]- Abd al Kadir Touati, op.cit, p13.

[5]- Ibid, p13.

[6]- Ibid, p13.

[7]- Ibid, p13.

بالإضافة إلى وجود معادن أخرى متنوعة وبكميات قليلة كالفحم، والنحاس، والرصاص، وكلور الصوديوم الذي يعتبر من المواد الأساسية في الكثير من الصناعات، ويتم مقايضته مع القوافل التجارية بمنتوجات السودان الغربي[1]، كما يتوفر الفحم الأحفوري، والونكل (ouankal) الذي يستخدم في الصباغة وتحتوي منطقة سالي ورقان على مناجمه الرئيسية[2]، والانتمون الذي يستخدمه السكان لتزيين العينين[3]، والفوسفات، والشب[4] الذي يوجد أكبر منجم له بين رقان وتيدكلت قرب نبع يسمى "عين الشبي" حسب تأكيد دو كولومب (de Colomb)[5]. كما استخرج التواتيون الطين الأبيض والأحمر والجير والجبس لاستخدامه في الصناعات المنزلية[6].

يتبين لنا مما سبق من عرض لكتابات الرحالين والمستكشفين والمبعوثين الفرنسيين وتقارير الحكومة الفرنسية قبل توسعها وإخضاعها لتوات؛ أن المنطقة تحتوي على معادن كثيرة ومتنوعة تعتبر أساسية في الكثير من الصناعات في عالم اليوم لدى البلدان المتطورة، والتي فتحت شهية الإدارة الاستعمارية فيما بعد لاستغلالها خدمة لمشروعها الاقتصادي، لكن هذه الموارد لم تستغل بكاملها وذلك للضعف التكنولوجي وجهل السكان بالطرق والأساليب التقنية الحديثة التي ظهرت حينئذ في أوروبا، فظلت الصناعة بتوات محلية وتقليدية.

ثانياً: أشهر الصناعات التقليدية

اهتم التواتيون بالصنائع والحرف اليدوية المحلية فمارسوها في بيوتهم وحوانيتهم، رغم أن هناك صعوبات تواجه هذا النشاط، لاسيما نقص المواد الخام، فقد استطاع الإنسان التواتي أن يبدع بما لديه من مواد محلية، فيحولها إلى أشياء غاية في الاستعمال [7]. وقد تراوحت مواقف المستكشفين من هذا النشاط بين مؤكدٍ على أهميته في الحياة الاقتصادية وبين مقلّلٍ منها، فدوماس (Daumas) يرى أن هذه الحرف ضرورية للفرد التواتي[8]، أما رولفس (Rohlfs) فيعترف أن: "الأنشطة الحرفية ليست

[1]- Henri Bissuel, op.cit, p32.

[2]- Marcel Frescaly (Lieutenant Palat), op.cit, p252.

[3]- Paul Soleillet, L'Afrique Occidental, op.cit, p254.

[4]- أ. كاريت، المصدر السابق، ص91.

[5]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p51.

[6]- Ibid, p315/ Victor Colonieu, op.cit, T13, p92.

[7]- Jules Cambon, op.cit, p338.

[8]- دوك دي دوماس، المصدر السابق، ص365.

ذات أهمية كبيرة في توات"[1]، وهو نفس الرأي الذي ذهب إليه كولونيو (Colonieu)[2]، وسنتناول هذه الصناعات التقليدية انطلاقاً من العناية التي منحها لها المستكشفون.

01/ الصناعة النسيجية:

كانت الصناعة الأساسية في الصحراء هي الغزل والنسيج، لتوفير ما يحتاجه السكان من ملابس، وتوات ليست استثناءً من هذه القاعدة العامة [3]، رغم ما كانت تعانيه من نقص المادة الخام المتمثلة في الصوف والقطن، والسبب راجع إلى قلة أعداد الحيوانات التي تربى بالمنطقة ورداءة صوفها، زيادة إلى عدم اهتمام التواتيين بزراعة القطن [4]، لذا استوجب جلب هذه المادة من خارج المنطقة، حيث كانوا يشترونه من القوافل التجارية القادمة من الشمال والمتوجهة إلى السودان [5]. واستأثرت النسوة بهذه الحرفة داخل بيوتهن، فحسب تأكيد كاريت (carette) أن:"حياكة الصوف هي من اختصاص النساء حصراً في كل أرجاء الصحراء" [6]، حيث برعن في نسج الأبسطة، والأغطية، والملابس الصوفية والقطنية المختلفة كالبرانس والحياك والإزارات والملاحف والعباءات الصوفية والكسي والجلاليب[7]. كما تم استخدام الحرير المجلوب من الشمال، الذي يخلط بالصوف وتصنع منه أحزمة نسائية لاستعمالها في الزينة[8].

مارست الصانعات التقليديات عملهن بحرفية عالية في هذا المجال، حيث برعن في الخياطة والزخرفة والتنميق، فصنعن على وجه الخصوص أبسطة "الدكالي" التي امتازت بمتانتها، وبألوانها المتناسقة الدالة على الدقة في النسيج والذوق الرفيع، مما أكسب هذا المنتوج شهرة داخل توات

---

[1]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p221.

[2]- Victor Colonieu, op.cit, T13, p45.

[3]- Colonel crouzet, **Tidikelt-Touat-Gourara ET L'Algèrie**, Librairie Militaire De L.Baudoin, paris, 1893, p09.

[4]- E.F Gautier, **Industrie des tentures Dokkali au Gourara et au Touat**, ed typographique, Adolphe Jordan, Alger, 1913, p13.

[5]- V.B. Deporter, op.cit, p33/ Pual Soleillet, L'Afrique Occidental, op.cit, p95.

[6]- أ.كاريت، المصدر السابق، ص188.

[7]- Gerhard Rohlfs, Ibid, p208/ Abderrahmane Selka, op.cit, p549/ Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p40/ Eugene Daumas, Le grand désert, op.cit, p64.

[8]- Jules Cambon, op.cit, p340.

وخارجها[1]، وكانت تصنع تقريباً في جميع قصور الأقاليم التواتية [2]، وتحدث عنه رحالون ومستكشفون عديدون، إذ يؤكد سلكة أن: "صناعة الدكالي هي الأهم بالمنطقة، ولها توسع"[3].

ويزودنا صوليه (Soleillet) بطريقة غزل الصوف وذلك: " بوضع عمودين على الأرض ثابتين، وتكون هناك امرأتان على كل طرف وتبدأ كل منهما بعملية الغزل يدوياً، ثم يصبح في قمة الجودة بعد الحياكة "[4]، ويؤكد كولونيو (Colonieu) من جهته انتشار الصناعة النسيجية بتوات مشيراً إلى أنها كانت: "شائعة في جميع القصور التواتية"[5]، ولا يخفي دو كولومب (de Colomb) إعجابه بالصناعات النسيجية التواتية منوّهاً: "بجودة وجمال الأقمشة الصوفية، التي يعرضونها على القوافل القادمة من الشمال" [6]، ولا يشذ المستكشف دوماس (Daumas) عما ذهب إليه أسلافه مشيراً إلى أنه تم تخصيص سوق خاص لهذه الحرفة يسمى: "سوق الجلاب" [7]، ويبالغ كامبون (Cambon) في شهرة الصناعة النسيجية التواتية التي وصل صيتها مدينتي سانت إيتيان (Saint-Etienne) وليون (Lyon) الفرنسيتين[8]، كما شاهد ريتشاردسن (Richardson) أن معظم البرانس والجرود المعروضة في سوق غات الليبية قادمة من توات لكثرة الطلب عليها[9].

وهكذا استطاعت حياكة النسيج أن تحتل بفضل أصالتها وأهميتها مركزاً مرموقاً، رغم الصعوبات الكثيرة التي واجهتها، فقد بينت قدرة وعزيمة التواتيين في تجاوز كل الصعاب للمساهمة في تنمية المجال الاقتصادي بالاعتماد على وسائل محلية تتلاءم مع طبيعة المنطقة الصحراوية، كما

---

[1]- يمتاز دكالي توات بالجودة والمتانة، وبألوانه المتناسقة ما أكسبه شهرة داخل وخارج توات، وله ثلاث مقاسات: الكبير 1.75×5م/ المتوسط 1.50×3م/ الصغير 1×2م. ويصنف إلى ثلاثة أصناف هي: دكالي تينركوك الذي امتاز بالنوعية الرفيعة من حيث المتانة والألوان، ثم يليه من حيث القيمة دكالي تيميمون، ثم في المرتبة الثالثة دكالي توات المصنوع بمنطقة بودة ومراقن وتمنطقيط وبوفادي. أُنظر: E.F Gautier, op.cit, p7

[2]- Henri Bissuel, op.cit, pp33-38.

[3]- Abderrahmane Selka, op.cit, p549.

[4]- Paul Soleillet, **L'Afrique de la France en Afrique**, Challanel Ainé libraire Ed, Paris, 1876, pp 19- 20.

[5]- Victor Colonieu, op.cit, T14, p91.

[6]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p40.

[7]- Eugène Daumas, Le grand désert, op.cit, p67.

[8]- Jules Cambon, op.cit, p246.

[9]- جيمس ريتشاردسن، **ترحال في الصحراء**، تر: الهادي مصطفى أبو لقمة، ط 1، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1993م، ص386.

استطاعت أن تلبي أغلب حاجيات السكان من ملبوسات وأبسطة وأغطية، ويوجه الباقي للأسواق الخارجية للشهرة التي اكتسبتها هذه الصناعات، رغم أنها كانت مخصصة للاستعمال المحلي فقط.

02/ الصناعة الطينية والحجرية:

تعد الصناعات الطينية من أهم الصناعات التي انتشرت بتوات خلال هذه الفترة، نظراً لتوفر المنطقة على أجود أنواع الطين الأحمر الذي يستخدم في الصناعات الفخارية، ويتم ذلك بعد استخراج الطين وتنقيته من الشوائب ووضعه في الماء لمدة ثلاثة أيام حتى يتحول إلى عجينة، ثم تضاف إليه قطع صغيرة من الطين المحروق المسحوق "الدفون"، ويعجن حتى يصبح عجينة متماسكة قابلة للتشكيل، وباستخدام المهارات اليدوية تتفنن النساء في صناعة عدة أدوات مزخرفة برسومات مختلفة تستخدم في مختلف مناحي الحياة [1] من بينها: القلال لحفظ وتبريد الماء، القدور والطواجين لطبخ الطعام[2]، الصحون لوضع الطعام، الأقداح لشرب الماء، الخوابي لخزن التمر والسمن، الأفران التقليدية، المباخر للعطور، الدفوف للطبل[3]، وغيرها.

كما استفاد الانسان التواتي من الحجارة لنحت وصنع عدة أدوات منها صناعة الرحى التي سماها بالات (Palat) "المطاحن اليدوية"[4] لطحن الحبوب من قمح وشعير، والقداي لطحن الكحل والعطور، وتشفر التي تستعمل لطحن القمح والشعير عندما لا تتوفر الرحى، والقسرية التي تستخدم لتوزيع مياه الفقارات[5]، وأنفيف الذي يستخدم في المكان الذي يخرج منه الماء من الماجن [6]، والمِعرَض الذي يستخدم لحفر الآبار والقبور، والصفية التي تصنع من حجارة ملساء وتستخدم لطهي الوجبات المحلية مثل الخبز الرقيق أو الثريد، وحجرة العلف لتكسير وسحق المواد اليابسة التي تقدم كعلف لحيوانات كالتمر اليابس والعلف[7].

---

[1]- Louis Voinot, op.cit, p143/ Colonel crouzet, op.cit, p09.

[2]- Abderrahmane Selka, op.cit, p549.

[3]- Rio Capitaine, op.cit, p144.

[4]- Marcel Frescaly(Lieutenant Palat), op.cit, p219.

[5]- Jacop Olil, **Les juifs au Sahara** ,**le Touat ou moyen Âge**, CNRS éditions, paris, 1994, p44.

[6]- Pual Soleillet, L'Afrique Occidental, op.cit, p270.

[7]- زاجية هرباش، المرجع السابق، ص229.

03/ الصناعة الخشبية:

ارتبط سكان توات كباقي سكان الصحراء ارتباطاً وثيقاً بالنخلة، فإلى جانب كونها مصدراً للرزق، واستعمال جذوعها في بناء المنازل وتسقيفها وصناعة الأبواب والنوافذ، فقد كانت مصدراً لإنتاج العديد من الأدوات الموظَّفة في حياتهم اليومية، حيث تم تحويل مكوناتها من سعف وليف وجريد إلى منتجات منزلية، فمن سعف النخيل صنع النسوة "التدارة" لتخزين السفوف، والقفاف (السلال) لحمل التمور [1]، والأطباق (الطبيقة) ذات الأهمية الكبيرة حسب تعبير دو كولمب (de Colomb): "وهي سلة مسطحة منسوجة بعناية من الجريد والصوف الأحمر، يستخدمها السكان كطبق يتناولون فيه المأكولات الجافة" [2]. كما برزت حرف شعبية أخرى وهي صناعة الحصائر لفرش أرضية المنازل والمساجد، والمظل للوقاية من الشمس، والمروحات، والمكانس، ونعال السعف[3].

ومن ليف النخيل (لفدام) صنعت الكثير من الأدوات ذات الاستعمالات المختلفة منها: "الدبش" لسرج الحمار [4]، والبردعة التي توضع كحلس فوق الدواب، و"الغرائر" التي توضع فوق الدبش، والحبال لحمل الأثقال [5]، و"الشكال" كعِقال للدابة، والشباك، والمكانس، ونعل لفدام، والفخاخ لصيد الطيور. وبجريد النخيل صنعت مصدات الرياح التي تعرف باسم "أفراك".

جدير بالذكر أن هذه الحرفة شعبية بسيطة تزاولها النسوة داخل المنازل، ولا تحتاج إلى أي وسيلة تقنية في العمل أكثر من أصابع اليدين، وتتميز جميع هذه الصناعات بالجودة والمتانة، وقد ساهمت المرأة من خلال هذه الصناعات اليدوية في تنشيط الحركة التجارية وتطويرها على المستوى الداخلي، فازدهرت الأسواق وتنوعت منتجاتها[6]. كما تجدر الإشارة إلى أن العديد من هذه المصنوعات لا تزال متداولة ومنتشرة ومتداولة إلى اليوم.

كما استثمر التواتيون أخشاب الأشجار التي تنمو بالمنطقة في صناعة بعض الأدوات الخشبية، وقد أشارت تقارير المستكشفين إلى أن وديان المنطقة تزخر بالعديد من الأشجار أهمها: الطلح، البلبال، أقارة، الكرنكا حوَّلها النجارون إلى منتجات تستخدم في الحياة اليومية منها: القصاع لتقديم

---

[1]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p38.

[2]- Ibid, p314.

[3]- Capitaine Lô, op.cit, p50.

[4]- Louis de Colomb, Ibid, p315.

[5]- Louis Voinot, op.cit, p141/ Rio Capitaine, op.cit, p160.

[6]- V.B. Deporter, op.cit, pp32-33.

الطعام، والملاعق الصغيرة والكبيرة، والصناديق والأسِرَّة والأبواب والنوافذ والأقفال التي تعرف بـ (أفكر)[1]، ومقابض السكاكين والخناجر والمناجل والفؤوس، و"المهارز" لتكسير التمر[2]. وما لفت أنظار الأوروبيين أكثر هو انتشار صناعة الفحم النباتي والبارود اعتماداً على تلك الأشجار، إذ يتم تحضير المنتوج الأول بأشجار الطلح والبلبال، والمنتوج الثاني بأشجار الكرنكة[3]، فلا يكاد يخلو أي قصر تواتي من هذه الصناعة[4].

04/ الصناعة الجلدية:

بعد دبغ وصباغة جلود الذبائح المحلية أو المجلوبة من الخارج، يقوم الحرفيون المعروفون بـ "الخرازين" بصنع منتجات مختلفة، مستعينين بأدوات بسيطة مثل السكين، المقص، المثقب، وأهم هذه المنتجات: القِرب لحفظ الماء واللبن وتبريده، فلا يستغني عنها التواتي في حله أو ترحاله[5]، والأحزمة لشد الظهر والثياب، والمحافظ الجلدية، والسروج لركوب الخيل، والرواحل لركوب الجمال، وأغماد السكاكين والخناجر والسيوف، والحقائب الصغيرة التي تحملها النساء، وأكياس حفظ التبغ، والعلب الجلدية، والجبيرة لحفظ النقود، وبعض "الطنافس"، وتجليد الكتب[6].

وأهم الصناعات الجلدية التي اشتهرت بالمنطقة إذ ذاك صناعة النعال والأحذية حسب تأكيد دوكولومب (de Colomb)[7]، ويخبرنا رولفس (Rohlfs) أنه كان شاهد عيان على أن هذه الصناعة لا تزال مزدهرة في تمنطيط، مؤكداً أن السكان لم يتخلوا عن مهارات أجدادهم اليدوية فمنهم الاسكافيون والخياطون[8]، وفي معرض حديثه عن مدينة تيميمون ذكر دوماس (Daumas) أنه تم تخصيص سوق خاص لهذه الحرفة: "يسمى سوق السراجين يجتمع فيه صناع الأحذية والسروج"[1]. ولا

---

[1]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p43/ Louis Voinot, op.cit, p141.

[2]- محمد صالح بوسليم، **إقليم توات ودوره في تجارة القوافل الصحراوية خلال القرنين 12-13هـ/ 18-19م**، ط1، مطبعة مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة، الاغواط، 2019م، ص164.

[3]- Louis de Colomb, Ibid, p38/ Louis Voinot, Ibid, p141.

[4]- Henri Bissuel, op.cit, pp30-38/ Abderrahmane Selka, op.cit, p549.

[5]- Eugène Daumas, Mœurs et Coutumes l'Algérie, op.cit, p18.

[6]- Abderrahmane Selka, op.cit, p549/ Flye Sainte Marie, op.cit, p354.

[7]- Louis de Colomb, Ibid, p315/ Louis Voinot, Ibid, p141.

[8]- Gerhard Rohlfs, Reise durch Marokko, op.cit, p104.

[1]- Eugène Daumas, Le grand désert, op.cit, p67.

يفوتنا أن ننوه بأن منطقة أولف بتيدكلت لا تزال تحتفظ بخصوصيتها الفنية العريقة في صناعة الأحذية المختلفة إلى غاية اليوم.

05/ الصناعة الحديدية:

يبدو أن صناعة الحديد كانت محدودة بين التواتيين، تقتصر على تصليح الأدوات المستعملة أكثر من صنعها، إذ يتم جلب المادة المعدنية كالحديد والفولاذ والنحاس المستعمل من الشمال الجزائري ومن المغرب، ولا يخلو أي قصر في توات من صانع يزاول مهنة الحدادة يلقب بـ "لمعلم"، يقوم بصنع وصيانة الآلات الحديدية خاصة الزراعية من مناجل وفؤوس ومعاول ومطارق وقادومات وأقفال، كما يقوم بصنع الحدوات للدواب، بالإضافة إلى صناعة الأسلحة من خناجر وسكاكين وسيوف ورماح[1]، واللوازم المنزلية من أقفال ومفاتيح ومسامير، ومن النحاس صنعت آلة قياس مياه الفقاقير (الشقفة)[2]. وفي معرض حديثه عن تمنطيط يصرح رولفس (Rohlfs) أن: "صناعة الأسلحة والأقفال لا تزال مزدهرة إلى يومنا هذا"[3]، أما دوماس (Daumas) فيؤكد من جهته أن الأسلحة النارية من بنادق "المكحلة" ومسدسات لا تصنع في المنطقة بل تحمل إليها من شمال الجزائر وتونس والمغرب[4]، ويتم تصليحها وصيانتها من طرف حدادي المنطقة فقط.

انتشرت هذه المهنة في الأسواق داخل محلات وأماكن معروفة، كما كانت هذه الحرفة متوارثة داخل العائلة الواحدة، فلم يكن أي قصر تواتي يستطيع الاستغناء عن وجود الحداد نظراً للدور الهام الذي يناط به داخل القصر آنذاك، أما أجرة العمل فتدفع له تمراً أو حبوباً في آخر كل موسم زراعي[5]. لكن مع التقدم المتزايد للصناعة فإن هذه الحرفة قد تضاءلت بشكل كبير، بل اختفت في بعض القصور التواتية تماماً.

06/ صناعة الحلي ولوازم الزينة:

لا يقل شأن صائغي الذهب ومصنعي الحلي عن دور الحدادين، ذلك أنهم يصنعون أدوات الزينة وحلي النساء، التي كانت مادتها الأساسية خلال هذه الفترة الفضة ثم البرونز والحديد، ورغم أن

[1]- Rio Capitaine, op.cit, p165/ Jacop Olil, op.cit, p62.

[2]- Louis de Colomb, Notice sur les, op.cit, p309/ Louis Voinot, op.cit, p137.

[3]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p208.

[4]- Eugène Daumas, Le grand désert, op.cit, p68.

[5]- V.B. Deporter, op.cit, p30.

توات اشتهرت بصناعة الحلي الذهبية مع سيطرة اليهود عليها قبل القرن التاسع عشر [1]، لكن رولفس (Rohlfs) الذي زار معظم قصور المنطقة، وعايش سكانها مدة ليست قصيرة خلال القرن التاسع عشر يؤكد أنه: "حالياً لا يوجد يهود في توات"، مشيراً إلى أن السكان حافظوا على تلك المهن المتوارثة عن الأجداد [2]، وعليه فقد انتشرت صناعة الحلي الفضية المتنوعة [3] بوسائل بسيطة أهمها: الخواتم، والأساور المختلفة الأنواع والأشكال (أدبلز لحرش، أدبلز لملس، أنبل) [4]، الخلاخل العريضة، القلائد، الأقراط، السلاسل، الدبابيس للشعر، المحابيس، وغيرها[5].

مارس الصانعون التقليديون هذه الحرفة داخل المحلات والبيوت، وكان الدلاَّلون يجوبون البيوت بغرض بيع سلعهم للأشخاص الذين لا يستطيعون الخروج إلى الأسواق، أما طرازها فقد غلبت عليه أذواق المرأة التواتية، وتركزت أماكن الصياغين في تمنطيط، تيمي، أولاد براهيم، تيطاوين، سالي، تيمادنين، قصر العرب[6]. وجدير بالذكر أن السلطات الاستعمارية شجعت هذه الحرفة بعد احتلالها للمنطقة مطلع القرن العشرين، حيث أقامت معرضاً للحرفيين الجزائريين سنة 1937م شارك فيه صيَّاغون من توات[7].

يتبين لنا من خلال ما سبق أن التواتين لم يتعودوا عيش البطالة خلال القرن التاسع عشر، فقد اهتموا بالصناعات اليدوية اهتماماً بالغاً، مستغلين كل الإمكانيات المتوفرة بالمنطقة رغم قلتها، واكتسبوا مهارات وقدرات إبداعية لا بأس بها في هذا المجال، ورغم أن الصناعة التواتية أو بالأحرى الحرف التقليدية لم تكن معدة للتصدير، وإنما للاستهلاك وتلبية متطلبات الحياة اليومية للسكان، إلا أنها اكتسبت شهرة مُمَيَّزة. كما أن تخصص كل عائلة أو قبيلة بحرفة اشتهرت بها وتوارثتها أباً عن جد، ساهم في ديمومتها واستمرارها، لكن بطرق بسيطة وبدائية، فمع ظهور الصناعة الحديثة بأوروبا فقدت الصناعة اليدوية التقليدية التواتية مكانتها وتراجعت بشكل كبير.

1- Jacop Olil, op.cit, p59.

2- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p208.

3- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p315.

4- Gerhard Rohlfs, Reise durch Marokko, op.cit, p106.

5- Rio Capitaine, op.cit, p148.

6- Abderrahmane Selka, op.cit, p549.

7- P. Devors, op.cit, p235.

المبحث الثالث: التبادل التجاري ميزاته ودعائمه

شغلت التجارة لدى التواتيين حيزاً مهماً في اهتمامات الرحالين والمستكشفين أثناء القرن التاسع عشر، واستقطب هذا النشاط خيالهم الفكري، فقدموا معلومات غزيرة ومتنوعة في تقاريرهم عن أهمية دور المنطقة حينئذ في مجال المبادلات التجارية.

أولاً: الأسواق الداخلية:

لعبت الأسواق العامة دوراً هاماً في حياة السكان، فكانت تعد القلب النابض للنشاط الاقتصادي، فهي تلبي حاجياتهم من المواد الغذائية والاستهلاكية، ومركز تجاري لعقد الصفقات والمبادلات التجارية، إضافة إلى كونها المكان المفضل الذي يقصده أصحاب القوافل التجارية القادمة من الخارج لبيع سلعهم أو استبدالها بسلع تجار البلد. وقد أجمعت تقارير المستكشفين والرحالين على أن توات اشتهرت بها خلال القرن التاسع عشر أربع أسواق كبرى هي:

01/ سوق تيميمون:

أهم أسواق إقليم قورارة شمال توات، كان يحتل شهرة كبيرة قبل القرن 19م، كما أشار إلى ذلك الرحالة الحسن الوزان عند زيارته للمنطقة خلال القرن 16م[1]، وخلال القرن التاسع عشر لما زار الرحالة الأغواطي تيميمون وصفها بأنها: "بلدة كبيرة...ولها سوق عظيمة"[2]، ولما زارها عبد القادر بن أبي بكر التواتي اعتبرها أكبر أسواق الشمال التواتي إذ ذاك[3]، ويسير رولفس (Rohlfs) في المنحى نفسه معتبراً هذا السوق أحد أهم ثلاث أسواق في توات[4]، ومن جهته يتحدث دو كولومب (de Colomb) عن: "أهمية تيميمون كمركز تجاري...حيث تصلها القوافل من كل حدب وصوب"[5].

ويطالعنا دوماس (Daumas) بوصف دقيق لهذا السوق الذي انتظم عبر شوارع تيميمون الرئيسية، حيث خصص كل شارع لمجموعة من التجار والصناع، معبراً عن دهشته واستغرابه من التنظيم المحكم لهذا السوق الذي أصبح يمثل مركزاً تجارياً هاماً بالمنطقة، ويسترسل في تعداد هذه الشوارع: "في أحدها تجد الجزارين وبائعي الزبدة تسمى سوق السمن، وفي شارع آخر سوق السراجين أين يوجد صناع الأحذية والسروج، وسوق الجلاب لبائعي الصوف والملابس...، سوق العطارين

1- الحسن بن محمد الوزان، المصدر السابق، ج2، ص133.

2- الحاج ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص93.

3- Abd al Kadir Touati, op.cit, p15.

4- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p221.

5- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p36.

لتجار الأقمشة والتوابل والعطور، وسوق الرحبة لتجار الحبوب والتمور، سوق الخضرة لبائعي الخضار والفواكه، وسوق الدخان لتجار التبغ، وسوق الماكلة لبائعي المأكولات المحضرة، وسوق الصياغة لبائعي المجوهرات، سوق العبيد لبيع العبيد والبضائع المجلوبة من بلاد السودان" [1]، ومن مزايا هذا التقسيم الدقيق تسهيل المعاملات التجارية خاصة بالنسبة للتجار القادمين من خارج المنطقة، كما يدل هذا التقسيم الدقيق أن السوق كانت به كل السلع محلية وأجنبية.

وأهم هذه السلع المحلية المعروضة بهذا السوق التمور على اختلاف أنواعها، الحناء، المصنوعات اليدوية مثل البرانس والأغطية والأبسطة (الدكالي) والأطباق والقفف والسلال، الجير، الجبس، البارود، الفحم، ملح البارود، هذا بالإضافة إلى السلع الأجنبية والمتمثلة أساساً في البنادق والذخيرة، المسدسات، الخناجر، السيوف القادمة من تونس وفقيق، والسكر والقهوة والقمح والشمع القادم من الشمال الجزائري[2]، والعبيد والتبر القادمة من السودان [3]، ونظراً لأهمية هذا السوق فقد كانت تقصده القوافل والقبائل من كل جهات الصحراء والتل، منها الشعانبة وبني ميزاب والخنافسة والحميان وأهل تقرت ووادي سوف وغدامس وأولاد سيدي الشيخ وأهل فقيق وتافيلالت ودوي منيع[4].

02/ سوق تيمي (أدرار):

لم تظهر الأهمية التجارية لهذا السوق إلا خلال القرن الثامن عشر، إذ لا يوجد له ذكر في الرحلات التي سبقت هذا القرن إلى المنطقة، وقد اكتسب هذه الشهرة بعد مزاحمته لسوق تمنطيط منذ القرن الثامن عشر وانتقال عاصمة إقليم توات إلى تيمي، إذ عده رولفس (Rohlfs) من الأسواق الثلاثة الأهم في توات خلال القرن التاسع عشر [5]، وضمن حديثه عن دور تيمي وسوقها في تجارة القوافل يصرح دو كولمب (de Colomb) أن: "تيمي هي ملتقى الطرق في توات، إذ تتقاطع عندها طرق الشمال والشرق والغرب والتي تتجه إلى توات وتيدكلت ومنها إلى السودان" [1]، ويضيف هذا المستكشف أن هذا السوق ينقسم إلى سوق داخلي يعقد بمكان يسمى رحبة الجماعة، "الساحة الكبيرة التي تحيط بها دكاكين التجار"، وهو سوق يومي يقصده سكان القصر والقصور المجاورة لترويج

---

[1]- Eugène Daumas, Le grand désert, op.cit, p67.

[2]- Ibid, p68/ Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p35.

[3]- الحاج ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص93.

[4]- Abd al Kadir Touati, op.cit, p15.

[5]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p221.

[1]- Louis de Colomb, Ibid, p44.

سلعهم، وسوق خارجي غرب المدينة تحط به القوافل التجارية لتقوم بمبادلاتها عبارة عن: "رحبة كبيرة تسمى الحراش"[1]، فهو سوق موسمي ينصب في حال قدوم القوافل التجارية فقط.

ومن القبائل التي كانت تفد على هذا السوق الفولان، وقبائل الغرارب (غرب افريقيا)، حميان، الخنافسة، ميزاب، سكان تيدكلت وقورارة، القليعة [2]. وأهم السلع المتداولة التمر، القمح، الحناء، الشمة، الأواني المحلية الصنع، السكر، الشاي، الصابون، الشمع[3]. ولا يخفي المستكشف دو كولومب (de Colomb) الأهمية المستقبلية لهذا السوق بالنسبة لفرنسا بقوله: "سيكون بالتأكيد في المستقبل مخزن التجارة الكبير لعالم لا يزال مجهولا بالنسبة للعوالم المتحضرة"[4].

03/ سوق تمنطيط:

أقدم سوق في توات[5]، اكتسب شهرة وأهمية لما كانت هذه المدينة عاصمة توات كما أشار إلى ذلك بن خلدون خلال القرن 14م[6]، ويؤكد هذه الأهمية إبن بابا حيدة بقوله: "فاعلم أن مدينة تمنطيط اسم لمدينة في إقليم توات...وانتصبت بها الأسواق والصنائع والتجارات والبضائع...ولا يقنع ذو سلعة عرضها إلا بسعرها" [7]، ويضيف هذا الأخير أن عدد حوانيت النجارين كان يبلغ بسوق تمنطيط ثلاثمائة وستين حانوتاً، ومثلها من حوانيت الحدادين، ومثلها أيضاً من حوانيت صناع الحلي، بالإضافة إلى صانعي الأحذية والمحافظ الجلدية[8].

ورغم مزاحمة سوق تيمي لسوق تمنطيط منذ القرن 18م، إلا أن هذا الأخير لم يفقد أهميته القديمة، وظل محتفظاً بتطوره وازدهاره الاقتصادي، يشهد على ذلك الانطباعات التي تركها في أذهان كل من زاره من رحالين ومستكشفين في هذه الفترة، إذ يعتبره رولفس (Rohlfs) من بين أهم ثلاث أسواق في توات إضافة إلى سوق تيمي وتيميمون [1]، ولم يخف هذا الرحالة إعجابه من تنوع السلع المعروضة وكثرة المحلات التجارية التي تزخرف شوارع تمنطيط من كل جهة، وتقدم كل ما هو

---

[1]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, pp45-46.

[2]- Abd al Kadir Touati, op.cit, p15/ Henri Bissuel, op.cit, p34.

[3]- حليمة سليماني، المرجع السابق، ص82.

[4]- Louis de Colomb, Ibid, p45.

[5]- Bernard Saffroy, op.cit, p06.

[6]- عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص77.

[7]- محمد الطيب بن عبد الرحيم (ابن بابا حيدة)، المصدر السابق، ص3.

[8]- المصدر نفسه، ص3.

[1]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p206.

جذاب للأجانب من منتوجات محلية جميلة[1]، ولما زاره دو كولمب (de Colomb) سنة 1860م أكد أن قصر تمنطيط لا يزال يتمتع بأهمية اقتصادية وسياسية كبيرة في توات [2]، ولم يشذ الفرنسيان ديبورتي (Deporter) وبيوسيل (Bissuel) عما ذهب إليه أسلافهما، إذ يشيران إلى المكانة المتميزة لهذا السوق آنذاك في مجال المبادلات التجارية، باعتباره محطة لإيداع أهم البضائع القادمة من الشمال إلى الجنوب، والتي تأتي في الاتجاه المعاكس[3].

ويعدد عبد القادر بن أبو بكر التواتي القبائل التي ترتاد هذا السوق: " أهل ساهل والعرب والبدو والجكانة وأولاد الحاج وسكان سوف "[4]، بالإضافة إلى القوافل التجارية المارة على السوق من مختلف الجهات. وعليه فقد تنوعت بضائع سوق تمنطيط بتنوع مصادرها فشملت المنتجات المحلية من منسوجات ومصنوعات نحاسية وحلي وأدوات الزينة وقمح وذرة، بالإضافة إلى السلع المجلوبة من طرف القوافل خاصة من أسواق السودان الغربي وبلاد المغرب مثل العبيد والذهب والذرة والملح[5].

04/ سوق عين صالح:

وهو السوق الرئيسي لإقليم تيدكلت، يقع في أكبر قصورها "قصر العرب" بعين صالح [6]، وكان يعد نقطة التقاء هامة للقوافل التجارية العابرة للصحراء في كافة الاتجاهات، إما لبيع سلعها أو لاستئناف السير بها إلى أسواق أخرى، ويلخص دو كولومب (de Colomb) حديثه عن مكانة هذا السوق بالنسبة لتجارة الصحراء قائلاً أن: "عين صالح مركز تجاري مهم، فهو المكان الوحيد الذي تلتقي فيه حركة التجارة القادمة من الشمال ونظيرتها الآتية من الجنوب" [1]، ولما زار صوليييه (Soleillet) عين صالح تكلم بإسهاب عن أهميتها التجارية بالنسبة لتجارة الصحراء [2]، ويسير رولفس (Rohlfs) في المنحى نفسه مؤكداً أن عين صالح تكمن أهميتها في هذا الجانب فقط،

---

[1]- V.A. Malte Brun, op.cit, p103.

[2]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p45.

[3]- V.B. Deporter, E**xtrême-sud de l'Algérie**, **le Gourara**, **le Touat**, **In-Salah**, **le Tidikelt**, **le pays de Touareg-Hoggar**, **l'Adrar**, **Tim Bouctou**, Agadès, fontana et copagnie, Alger, 1890, p177/ Henri Bissuel, op.cit, p34.

[4]- Abd al Kadir Touati, op.cit, p15.

[5]- محمد أعفيف، المرجع السابق، ص125.

[6]- François Rebillet, op.cit, pp28-29.

[1]- Louis de Colomb, Ibid, p54.

[2]- Pual Soleillet, Exploration du sahara Centrale , op.cit, p93-95.

وليس لها أي إنتاج محلي تساهم به في التجارة الصحراوية إذ يقول: "عين صالح تعتبر منطقة عبور فقط، حيث أنه لا يوجد إنتاج محلي للمنطقة، والتمور لوحدها لا تكفي إلا لتغذية سكان المنطقة"[1].

وضمن حديثه عن عين صالح التي مكث بها شهر اً ونصفهَ أشار هذا الرحالة إلى غنى المنطقة وازدهارها بفضل تجارة العبور التي تدر عليها أموالاً طائلة، مؤكداً بأنه وجد "فيها تجار كبار"، كما أنه قابل أناساً وفدوا من عدة مناطق: "من تمبكتو، غدامس، توات، شعامبا، ميزاب، كلهم أتوا من أجل التجارة "[2]، ويعدد أبو بكر التواتي القبائل التي تتردد على هذا السوق: " السود وسكان غرات وسكان غراديم والكنتاويين، وكل كبار التجار " [3]، كما أعرب لانج (Laing) عن دهشته عندما شاهد بعين صالح: "تجار من مختلف الجنسيات"[4].

وعليه كانت السلع المعروضة فيه متنوعة ورخيصة الأثمان، فمن السودان الغربي يأتي العبيد ومسحوق الذهب والعاج وريش النعام، ومن طرابلس تأتي السكاكين والمرايا واللؤلؤ، ومن أسواق الشمال تأتي القهوة والسكر والشمع والزيت، ومن أسواق المغرب تأتي الملابس المطرزة والأسلحة والخيول، ومن الهقار تأتي الجمال واللحم المجفف والخراف[5]. وقد ظل هذا السوق يحافظ على ازدهاره حتى بعد احتلال فرنسا للشمال الجزائري، حيث دعا ديبورتي (Deporter) فرنسا إلى الاحتفاظ بهذه الميزة التجارية لهذا السوق بعد أن تحتل الصحراء الجزائرية بأكملها[6].

05/ أسواق أخرى:

أ- سوق تسابيت: شهد هذا السوق ازدهاراً كبيراً قبل القرن التاسع عشر ، فعندما مر به الرحالة العياشي في القرن 17م أشار إلى الدور المحوري لهذا السوق من خلال ازدهار النشاط التجاري، وتنوع السلع المعروضة ورخص أثمانها، وانتظام القوافل التجارية الوافدة إليه[1]. لكن منذ ظهور الأهمية التجارية لسوق أدرار بداية من القرن 18م بدأ هذا السوق يفقد أهميته التجارية شيئاً فشيئاً، ذلك ما نستشفه

---

[1]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p206.

[2]- Ibid, p236.

[3]- Abd al Kadir Touati, op.cit, p15.

[4]- غوردن لانج، رسالة إلى ويلموت هورتون، المصدر السابق، ص348.

[5]- Eugene Daumas, Le Sahara Algérien, op.cit, p295/ Pual Soleillet, Ibid, pp94-95/ Henry Duverier, op.cit, p182/ Henri Bissuel, op.cit, p44.

[6]- V. B. Deporter, La Question du Touat, op.cit, p39.

[1]- أبوسالم العياشي، المصدر السابق، ص79.

من حديث الرحالة رولفس (Rohlfs) الذي زار هذا السوق سنة 1864م وتحدث عن أهميته التجارية، مبرزاً في ذات السياق أن برينكان قاعدة قرى تسابيت بدأت تفقد حيويتها التجارية بسبب الحصار الذي تعرضت له سنة 1848م[1]، مما أدى إلى خسائر مادية وبشرية كبيرة [2]، ويصرح كولونيو (Colonieu) من جهته إلى أن هذا السوق لم يعد يأتي إليه سوى قبائل حميان لشراء التمور [3]، ويذهب ديبورتي (Deporter) إلى الرأي نفسه مؤكداً أن هذا السوق فقد أهميته تماماً نهاية هذا القرن لصالح سوق تيمي الذي استقطب القوافل التجارية القادمة من الشمال والغرب[4].

ب- سوق رقان: يقام هذا السوق بتيمادنين مركز مقاطعة رقان أقصى جنوب توات، وقد عرف تطوراً وازدهاراً تجارياً قبل هذه الفترة، وضمن حديثه عن أهمية رقان الاقتصادية خلال القرن التاسع عشر ذكر دو كولومب (de Colomb) أنها تمثل: "المركز المتقدم لتوات، فبعدها تبدأ الصحراء الحقيقية"[5]، كما يرى ديبورتي (Deporter) أن أهمية هذا السوق تكمن في استقطابه لبعض القوافل القادمة من الهقار والسودان الغربي، في حين يرى بيوسيل (Bissuel) أن مكانته تعود إلى إستراتيجية المنطقة الواقعة قي قلب الطرق التجارية العابرة للصحراء[6].

ج- سوق أولف: تعتبر من أهم مدن توات لوقوعها على طرق القوافل التجارية بين توات وبلاد السودان[1]، إذ يشير ديبورتي (Deporter) إلى أن أولف تمثل سوقاً لتجارة العبور فقط، مرجعاً الفضل لقبيلة أولاد زنان التي تمتلك عدداً كبيراً من الإبل يستأجرونها للقوافل التجارية المتجهة نحو تمبكتو[2]، ولها دراية كبيرة بخبايا الصحراء، وأفضل الطرق الرابطة بين توات وتمبكتو[3].

---

[1]- سنة 1848م تعرضت برينكان السفيانية لحصار دام مدة 24 يوماً من طرف تحالف عسكري ضم كل من جيش الحاج عبد القادر باجودة شيخ عين صالح وجيش الحاج محمد شيخ تيمي الأحمدياني، أدى إلى مقتل العديد من سكان برينكان وتخريب معظم فقاراتها وإحراق بساتينها وإتلاف نصف أشجار نخيلها. أُنظر:

Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p205.

[2]- Gerhard Rohlfs, Reise durch Marokko, op.cit, p114.

[3]- Victor Colonieu, op.cit, T14, p58.

[4]- V.B. Deporter, La Question du Touat, op.cit, p18.

[5]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p51.

[6]- V.B. Deporter, Ibid, p36/ Henri Bissuel, op.cit, p39.

[1]- الحاج ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص93.

[2]- V.B. Deporter, Ibid, p39/ Henri Bissuel, Ibid, p46.

[3]- Ibid, p46.

ثانياً: نظم التعامل التجاري:

01/ المعاملات التجارية:

كان التجار في توات يتعاملون محلياً أو مع القوافل التجارية بالطرق التالية:

أ- المقايضة: التي كانت أحد أهم أساليب التعامل التجاري السائد في الأسواق التواتية، نظراً لقلة العملات وضعف انتشارها واستعمالها [1]، وأساس المقايضة الاتفاق بين طرفين فيما يعوضانه من بضائع، عادة ما تخضع عملية التحديد للعرض والطلب والسعر اليومي للسلعة [2]. ذكر ابن بطوطة أن المبادلات التجارية تتم بالمقايضة: "...إنما يوجد اللحم واللبن والسمن ويشترى بالأثواب" [3]، ويحدد كولونيو (Colonieu) أهم السلع التي يتم التعامل فيها بالمقايضة: "الأغنام، الصوف، السمن، الحبوب، الكسكس"[4]، إذ يتم تبادل 4 قصعات من التمر مقابل 1 قصعة من القمح، 3 قصعات تمر مقابل 3 قصعات شعير، 6 قصعات حشف مقابل 1 قصعة شعير[5].

كما لا تقتصر المقايضة على التجارة الداخلية فقط بل التجارة الخارجية أيضا، إذ لا يحمل تجار القوافل معهم إلا القليل من النقود ويفضلون المقايضة خاصة بالتمر، ويؤكد سلكة أن التواتيين دائما هم الضحية في هذه المعاملة والقافلي أي التاجر القادم مع القافلة يحقق ربحاً كبيراً، ورغم تضرر التواتي إلا أنه مجبرٌ على هذه المعاملة: "التواتي رغم تضرره إلا أنه لا يستطيع تجاوز القافلي، أما القافلي فيستطيع تجاوز التواتي"[6]. وقد استمر التعامل بالمقايضة إلى غاية نهاية القرن 19م.

ب- الملح: نظراً لأهميته ورواجه التجاري استخدم كعملة للتعامل التجاري في مختلف أنواع البيوع في الصحراء، ووحدة التعامل فيه "العديلة" التي تساوي نصف حمل جمل من الملح، كما يتم تقطيعه إلى قطع مختلفة الأحجام والأشكال تستخدم في البيع والشراء، وكانت تقتصر هذه العملة على التعامل مع البدو الرحل[1].

---

[1]- Eugène Daumas, Le grand désert, op.cit, p7/ Louis Voinot, op.cit, p146.

[2]- كمال أبو مصطفى، المرجع السابق، ص35.

[3]- محمد بن عبد الله ابن بطوطة، المصدر السابق، ص474.

[4]- Victor Colonieu, op.cit, T15, p60.

[5]- Ibid, p89.

[6]- Abderrahmane Selka, op.cit, p548.

[1]- يحي بوعزيز، **مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية** ، ط.خ، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص145.

ج– الودع (الصدف): ويسمى بالكوري (cauris)[1]، وهو عبارة عن قواقع أو ودعات بيضاء اللون تنمو في البحار الحارة، جلبها التجار العرب من بلاد فارس والهند [2]، قيمتها منخفضة جداً، ويؤكد كامبون (Cambon) أن هذه العملة ليست متداولة في توات، بل كان التواتيون يستخدمونها في معاملاتهم مع السودانيين، أو عندما يرسلون قوافلهم إلى السودان مما يسهل عليهم عملية التبادل التجاري[3].

د– العملة المسبوكة: إن استعمال وسائل الدفع السالفة الذكر لا ينفي تعامل سكان توات بالنقود، ونظراً لكون توات منطقة تجارية مفتوحة فقد كانت مسرحاً لتداول العديد من العملات سواء المحلية أو الأجنبية، فقد استعملت العملات المغربية والفرنسية والاسبانية والتركية، وأهم هذه العملات التي تم ملاحظتها من طرف الرحالين والمستكشفين الأوروبيين نجد:

د–1/ المثقال الذهبي: يؤكد كولونيو (Colonieu) الذي زار توات سنة 1860م أنها: "عملية وهمية لم تعد موجودة" [4]، لكن الرحالة الأغواطي الذي حل بالمنطقة سنة 1829م أكد أن المثقال كان عملة رائجة في الصحراء إذ يقول عن تيميمون: "ويباع تراب الذهب بوزن المثقال بالأوقية" [5]، ويؤكد استخدام التواتيين لهذه العملة ما ذكره دو كولومب (de Colomb) أن السمسار يأخذ مثقال عن كل عبد يبيعه [6]، كما ذكر رولفس (Rohlfs) انه شاهد "لحاج عبد القادر باجودة" أرسل رسالة من عين صالح إلى تمبكتو بقيمة 15 مثقال[1]. كما ذكر فوانو (Voinot) أن وحدة التعامل التجاري في تيدكلت هي المثقال [2]، وأضاف ديبورتي (Deporter) أن القافلة المتجهة من عين صالح إلى تمبكتو كان أصحابها يقومون بكراء حوانيت بالمثقال الذهبي[3].

---

[1]– الهادي المبروك الدالي، **التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا جنوب للصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر**، ط1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1999م، ص340.

[2]– أ.ج. هوبكنز، **التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية**، تر: أحمد فؤاد بليع، المطابع الأميرية، القاهرة، 1998م، ص135.

[3]- Jules Cambon, op.cit, p378.

[4]- Victor Colonieu, op.cit, T15, p62.

[5]– الحاج ابن الدين الاغواطي، المصدر السابق، ص93.

[6]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p314.

[1]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p234.

[2]- Louis Voinot, op.cit, p146.

[3]- V.B. Deporter, Extrême-sud de l'Algérie, op.cit, p175.

ويقدر وزن المثقال في توات بـ 4.5غ، في حين قدر لانز (Lenz) وزنه في تمبكتو بـ 4غ[1]، أما قيمته فهي تختلف من منطقة إلى أخرى، إذ يذكر كولونيو (Colonieu) أنها وصلت 35 فرنك في توات وقورارة[2]، في حين ذكر رولفس (Rohlfs) أن 150 مثقالاً تقدر بـ500 فرنك في تيدكلت[3]، أي أن 1 مثقال بـ 3.33 فرنك.

د-2/ العملات الفضية: كانت أكثر رواجاً وتوفراً باعتبارها تسك في أغلب المناطق التي تتعامل معها توات، ونكتفي بذكر أهم العملات الفضية التي وجدها بالات (Palat) عند زيارته للمنطقة سنة 1886م، كما هي موضحة في الجدول التالي[4]:

العملة	المنشأ	قيمتها بالفرنك
الموزونة	المغرب	0.08
الثمنين	فرنسا	0.23
الأوقية	المغرب	0.30
الربيع	المغرب- فرنسا	0.50
فرنك جزائري	فرنسا	01
ريال جزائري	فرنسا	02
ثمان أواق	الدولة العثمانية	2.50
مثقال	المغرب	3.30
سلطاني	فرنسا	05

د-3/ العملة الفرنسية: سعت السلطات الفرنسية منذ احتلالها للجزائر سنة 1830م إلى بسط عملتها الخاصة في الصحراء الجزائرية عن طريق القوافل التجارية القادمة من الشمال، تمهيداً لسيطرتها على المنطقة، فقد انتشرت قطعة معدنية بقيمة 5 فرنك فرنسي والتي يسميها السكان بـ "الدورو"

[1]- oskar lenez, **Tombouctou voyage au Maroc au Sahara et Soudan**, librairie hachette, Pari, 1887, p103.

[2]- Victor Colonieu, op.cit, T15, p62.

[3]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p234.

[4]- Marcel Frescaly (Lieutenant Palat), op.cit, p242.

حسب ما ذكره صولييه (Soleillet)[1]، وكانت قيمتها تختلف من إقليم إلى آخر، فيذكر كولونيو (Colonieu) أن قيمة الدورو في توات الوسطى كانت تساوي من 16 إلى 36 أوقية، وفي تيدكلت 15 أوقية[2]، في حين سجل رولفس (Rohlfs) أن قيمته منخفضة جداً في منطقة توات مقارنة بما وجده بالمغرب، مؤكداً أن قيمته لا تتجاوز 17 أوقية مقابل 32 أوقية بالمغرب[3].

د-4/ العملة الاسبانية: تواجدت بتوات عملتان إسبانيتان هما:

- الريال: وهو قطعة معدنية تزن 25 غرام[4]، وقد شاهد كولونيو (Colonieu) أنه يتم التعامل به بالمنطقة محدداً قيمته بـ 06 أوقيات أو 24 موزونة أي 02 فرنك فرنسي، وأقسامه الربع (الربيع) المساوي لـ 60 موزونات أي 0.5 فرنك فرنسي[5].

- الدورو بومدفع: يسميه السكان هكذا لوجود عمودين على جانبه الخلفي، تبلغ قيمته في توات 06 فرنك فرنسي، وفي تيدكلت من 05 إلى 35 فرنك فرنسي حسب نفس المستكشف[6].

د-5/ العملة البروسية: انفرد الرحالة رولفس (Rohlfs) بالإشارة إلى وجود عملة التالر (thalers) بعين صالح، مصرحاً أنه شاهد عملية:"شراء عبد بسعر 80 إلى 100 تالر"[7]، كما أشار مواطنه بارث (Barth) إلى وجود هذه العملة في تمبكتو[8].

د-6/ العملات الجزائرية العثمانية: سكت السلطات العثمانية في الجزائر عملات ذهبية وفضية وصل بعضها إلى توات، ومن بين تلك التي أشار إليها المستكشفون نجد: الموزونة [1] والتي ذكر كولونيو (Colonieu) أنها: "قطعة صغيرة جداً من الفضة" [2]، وهي أصغر وحدة في التعامل التجاري إذ

---

[1]- Pual Soleillet, Exploration du sahara Centrale, op.cit, p95.

[2]- Victor Colonieu, op.cit, T15, p62.

[3]- V.A. Malte Brun, op cit, p119.

[4]- ناصر الدين سعيدوني، **النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792- 1830)**، ط3، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م، ص186.

[5]- Victor Colonieu, Ibid, T15, p62.

[6]- Ibid, p62.

[7]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p237.

[8]- Henri Barth, **voyages découvertes dans l'Afrique septentrionale et centrale pendant les années 1849 à 1855**, Paris, 1863, T4, p102.

[1]- يمينة درياس، **السكة الجزائرية في العهد العثماني**، دار الحضارة، الجزائر، 2007م، ص43.

[2]- Victor Colonieu, Ibid, p62.

تساوي 0.075 فرنك، وقد شاهد الرحالة عبد الرحمن بن إدريس التنلاني انتشار التعامل بهذه العملة في الجزائر[1]، والمحبوب السلطاني الذي يزن 2.31 غ من الذهب ويساوي 05 فرنكات فرنسية[2]، بالإضافة إلى قطع نقدية أخرى.

د-7/ العملة المغربية: أشار الأغواطي إلى أن عملة فاس كانت متداولة في قورارة كغيرها من المناطق الصحراوية[3]، وذلك بسبب القيمة المرتفعة لهذه العملة [4]، بالإضافة إلى العلاقات التجارية والثقافية والاجتماعية بين توات ومختلف الحواضر المغربية [5]، وهو نفس الأمر الذي ذكره بالات (Palat) بتأكيده للانتشار الواسع للعملات المغربية بالمنطقة[6]، ويحدد مارتان (Martin) هذه العملات مع مقارنتها بالعملة الفرنسية نهاية القرن التاسع عشر وهي: الموزونة= 0.5فرنك، الأوقية= 0.20فرنك، المثقال= 2.5 فرنك[7].

د-8/ العملات المحلية: تؤكد المعلومات التي ساقها الفرنسيون أنه رغم كثرة العملات الأجنبية الوافدة إلى منطقة توات، إلا أنه كان لهذه الأخيرة عملات خاصة بها، استخدمت للتعاملات المحلية، تسمى بالفراك أو الفرنك التواتي، والريال التواتي، والموزونة التيميمونية، وسكة تيدكلت، وفي هذا الصدد يخبرنا بالات (Palat) أنه شاهد وجود: "الفراك أو الفرنك التواتي الذي يساوي 0.90 فرنك، والريال التواتي الذي يساوي 1.80 فرنك"[1]، كما ذكر فوانو (Voinot) أن سكة تيدكلت لم تكن قانونية إذ اقتصر التعامل بها على النطاق التواتي فقط[2].

---

[1]- عبد الرحمن بن إدريس التنلاني، المصدر السابق، ص09.

[2]- عزيز سامح التر، **الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا**، تر: محمود علي عامر، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1989م، ص658.

[3]- الحاج ابن الدين الأغواطي، المصدر السابق، ص94.

[4]- عمر أفا، **النقود المغربية في القرن الثامن عشر أنظمتها وأوزانها في منطقة سوس**، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، 1993م، ص ص51-60.

[5]- هذا لا يعني وجود سلطة سياسية لفاس على هذه المناطق، فكثيراً ما صرح الاغواطي بأن تلك المناطق مستقلة عن العثمانيين في الشمال وكذا سلطة المخزن في الشمال الغربي. أُنظر: خيرة سياب، **رحلة الصحراء لابن الدين الاغواطي المعروفة ب: (الرحلة الاغواطية) دراسة طبيعية، اقتصادية، اجتماعية، عمرانية**، المجلة الجزائرية للمخطوطات، ع 13، 2015م، ص ص167- 184.

[6]- Marcel Frescaly (Lieutenant Palat), op.cit, p241.

[7]- A.G.P. Martin, Quatre siècles d'histoire Marocaine, op.cit, p14.

[1]- Marcel Frescaly (Lieutenant Palat), Ibid, p241.

[2]- Louis Voinot, op.cit, p148.

يستفاد من شهادات الرحالين والمستكشفين الأجانب أن منطقة توات كانت سوقاً مفتوحة على العالم، ما جعلها تشهد رواج عملات متنوعة خلال القرن التاسع عشر، إلا أن هذه الأخيرة كانت قليلة وغير متوفرة بالشكل الكافي، وقيمتها غير مضبوطة بشكل دقيق، إذ تختلف من إقليم لآخر، ما جعلها تأتي في المقام الثاني في المعاملات التجارية، فلا يتم اللجوء إليها إلا بعد الفراغ من عملية المقايضة، كما أن سوق صرف العملات بتوات كان مفضلاً لدى الكثير من التجار لانخفاض سعر الصرف به.

إضافة إلى ما سبق كانت العملات الفضية أكثر طلباً واستخداماً من غيرها، في حين تم تسجيل غياب العملات الذهبية، فقد واجه رولفس (Rohlfs) صعوبة كبيرة في صرف عملته الذهبية "لويس الذهبي" بتيدكلت، وبعد جهد كبير انتهى به الأمر إلى تاجر من غدامس عرض عليه تغييرها بخسارة 50% من قيمتها الأصلية، إذ أعطاه بدل القطعة الواحدة 10 فرنكات فرنسية، علماً أن قيمتها الحقيقية 20 فرنك فرنسي، وهو أمر ربما يكون متأتياً من تخوف السكان أن تكون هذه العملة مخلوطة بالنحاس حسب تأكيد الرحالة نفسه[1].

02/ المكاييل والموازين والمقاييس:

استخدم التواتيون مكاييل وأوزان محلية تختلف أحجامها عبر القصور رغم أن لها نفس التسمية، وكان السكان يعتمدون على المكاييل أكثر من الأوزان أثناء المعاملات التجارية.

أ– المكاييل:

– المد: حجم مقابل لملء اليدين المتوسطتين لا مقبوضتين ولا مبسوطتين[2]، يستعمله التجار عند كيل المواد الجافة كالتمر والشعير والقمح، يبلغ وزنه عند جمهور العلماء 510 غ[3].

– الصاع: يساوي أربعة أضعاف المد، أي حوالي 02 كلغ[1].

– الزقن: يعادل 02 كلغ أو 2.5 لتر، يعتبر وحدة رئيسية للكيل بتوات ويسمى كذلك "الزقنية"، ومن أجزائها المسطمن، حيث 1 زقن= 8 مسطمن، و1 مسطمن= 6مد.

---

[1]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p228.

[2]– الفيروز بادي الشيرازي، **القاموس المحيط**، ط3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1980م، ج1، ص334.

[3]– علي جمعة محمد، **المكاييل والموازين الشرعية**، ط2، مطبعة القدس، القاهرة، 2001م، ص36.

[1]- Hacquard Augustin, **Monographie de Tombouctou accompagnée de nombreuses illustrations et d'une carte de la région de Tombouctou**, société des études coloniales et maritimes, paris,1900, p57.

- القصعة: وحدة كيل تعادل 12 أزقن[1]، أي 24 كلغ، ويختلف وزنها حسب المناطق.

- الغرارة: أكياس تصنع من الليف والصوف توضع فوق الدواب لنقل مختلف البضائع، تستخدم كوحدة للكيل، إذ تقد بـ 36 أزقن، ما يعادل 72 كلغ أو 90 لتر.

- الحمل: أكبر وحدة تستخدم للكيل، وهو متوسط ما يحمله الجمل، يترواح وزنه بين 150 إلى 250 كلغ، ويؤكد كولونيو (Colonieu) الاختلاف بين القصور التواتية في تحديد قيمته، فحمل تيمي 06 قصاع، وحمل بودة وتسابيت 10 قصعات، وحمل تمنطيط وتيميمون 60 قصعة، ويعتبر حمل تيمي الأكثر استعمالاً في توات[2].

ب- الموازين:

- المثقال: يستخدم لوزن الأشياء الثمينة كالذهب، ويساوي 27 من القمح المتوسط، يبلغ وزنه في توات 4.5 غ.

- القيراط: يساوي 03 حبات من القمح، وهو 24/1 جزء من المثقال، يستخدم لوزن الأشياء الثمينة، كما يستخدم وحدة قياس مياه الفقارات.

- الأوقية: تستخدم لوزن الذهب والفضة [3]، ويقاس في توات بوزن العملة الاسبانية "دورو بومدفع" أي 27.045 غ وهو وزن هذا العملة.

- الرطل: يساوي وزن 17 أوقية أي أن رطل توات= 459.756 غ[4].

- الجرة: تستخدم لوزن السوائل كالعسل والزيت والسمن، وهي غير موحدة فكل تاجر لدية جرة خاصة يتخذها كميزان خاص به حسب مشاهدة كولونيو (Colonieu)[5].

ج- أدوات القياس:

- الشبر: وهو المسافة بين الخنصر والإبهام عندما تكون اليد مفتوحة، وهو ما يعادل 21.5 سم.

- الفتر: المسافة بين السبابة والإبهام في حالة انفتاح اليد، يعادل 17 سم.

- الذراع: ما بين المرفق ونهاية الأصبع الأوسط، يعادل 50سم، ويستخدم لقياس الأقمشة.

---

[1]- Victor Colonieu, op.cit, T15, p60/ Louis Voinot, op.cit, p145.

[2]- Ibid, p61.

[3]- عمر بن عبد العزيز الكرسيفي، **رسالة في تحقيق السكك المغربية في القرون الأخيرة**، تح: عمر أفا، ملحق بكتاب النقود المغربية في القرن الثامن عشر أنظمتها وأوزانها في منطقة سوس، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1993م، ص147.

[4]- Victor Colonieu, op.cit, T15, p63/ Jules Cambon, op.cit, pp379.

[5]- Ibid, p63.

- القدم: تستخدم لقياس الأرض ولمعرفة وقت الزوال، وتبلغ حوالي 30.5 سم.
- القامة: طول الرجل المتوسط وتبلغ في المتوسط 1.7م، تستخدم لقياس الابار والمنازل[1].
- الكمون (القمون): وحدة قياس الأرض المزروعة، تقدر 04 أمتار طول و02متر عرض.
- الحبل: يقدر طوله بـ 10 أمتار.
- الميل: يستخدم لقياس المسافات الطويلة، يبلغ طوله 3500 ذراع عند المالكية أي 1920م[2].
- الفرسخ: يعادل 03 أميال عند الفقهاء.
- البريد: يعادل 12 ميلاً أو 04 فراسخ[3].

03/ الوسطاء التجاريون:

يتم النشاط التجاري في مختلف مناطق المجال التواتي داخل الأسواق وداخل الحوانيت، حيث يشرف كل تاجر على عرض سلعته وتنظيمها، فتكون معظم المعاملات بصورة مباشرة بين المنتج أو التاجر والمشتري، لكن أحياناً يضطر التجار إلى الاستعانة بأشخاص آخرين لإتمام المعاملات التجارية المختلفة، ومن هؤلاء:

أ- الدلال: هو الشخص الذي تعطى له سلعة يقوم ببيعها مقابل أجرة محددة، حيث يقوم بالنداء عليها في الأسواق، مما يؤدي إلى حدوث مزايدة في ثمنها، ويكون الدلال في الغالب تاجراً له دراية بقيمة السلع في السوق. ويتحدث دوكولومب (de Colomb) عن وجود الدلال بتوات واصفاً إياه بقوله: "الدلال هو عون من العبيد المحررين تُؤجَّر خدماته في عمليات بيع أو مبادلة بضاعة ما، ويتسلم البضاعة من مؤجِّره الذي يحدد له السعر، وتساوي أجرته عند إتمام الصفقة 5% من قيمتها"[4]، ويزودنا فوانو (Voinot) بمعلومات عن الدور الجوهري للدلال في النشاط التجاري مشيراً إلى أنه هو المالك الحقيقي للسلعة وليس التاجر، مضيفاً أنه يمتلك حانوتاً صغيرة يمارس فيها نشاطه[1]، وبالتالي فدوره لا يقتصر على تنشيط التجارة الداخلية بل يتعداه إلى التجارة الخارجية.

1- Victor Colonieu, op.cit, T15, p63/ Louis Voinot, op.cit, p146.

2- عبد الكامل عطية، **الروابط التجارية بين شمال وجنوب الصحراء الكبرى من خلال المصادر العربية والرحالة الأوروبيين بين القرنين (15-19م)**، دورية كان التاريخية، ع23، 2014، ص ص51-61.

3- Félix Jacquot, op.cit, p221.

4- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p314.

1- Louis Voinot, Ibid, p144.

ب- السمسار: هو الشخص الذي يطوف بالسلعة على التجار وغيرهم سائلاً من يزيد عن ثمن هذه السلعة[1]، فهو حسب تعبير فوانو(Voinot) بمثابة الوسيط بين البائع والمشتري [2]، ويستعرض دو كولومب (de Colomb) جانباً عن دوره قائلاً: "فعلى سبيل المثال عندما تصل قافلة أولاد عبد الكريم الى أدرار...، وفي الوقت الذي يقوم كل واحد من أفرادها بتفريغ جماله يقصده صاحبه ليضع نفسه في خدمته" مصرحاً أن: "السماسرة يعرفون مسبقاً نوعية وكمية البضائع التي تجلبها القافلة التي يكونون في خدمتها" [3]، ويتابع هذا المستكشف أن السمسار يحصل مقابل خدمته على مبلغ من المال متعارف عليه وموحد في كامل أقاليم توات وهو حسب السلعة كالتالي: "موزونة واحدة عن كل رأس من الغنم، 3 ثمينات عن كل جرة من السمن، ويحصل عن كل عبد زنجي يبيعه على مثقال واحد من البائع وعلى مثقال واحد من المشتري أيضاً"[4].

ج- الوكيل: تتمثل مهمته في النيابة عن صاحب البضاعة أو المال بالبيع أو الشراء نظير مقابل معين يتم الاتفاق عليه مسبقاً [5]، فكان الوكلاء يملكون المخازن للسلع والأراضي التي ترعى فيها الماشية والأماكن التي يقيم فيها التجار، وسماه دوكولومب (de Colomb) بالصاحب الذي يضع نفسه في خدمة القوافل التجارية التي تحط بالأسواق التواتية قائلاً: "عندما تحل بالبلد قوافل الشمال...فلكل فرقة قصرها، وترتاد نفس القصور، ويلحق بكل فرد من الفرقة شخص يعرف بالصاحب، وهو بمثابة رجل أعماله أو وسيطه الذي يشتري ويبيع لحسابه" [6]، والدافع في ذلك هو معرفة الوكيل بالسوق ونوعية السلع وأثمانها، فيساعد التجار في تصريف سلعهم وشراء منتجات أخرى لرحلة العودة، كما أنه في حالة كساد السوق يترك التاجر بضاعته لدى الوكيل لبيعها وإرسال الأرباح له، خاصة وأن توات حسب تعبير كاريت (carette) مركز استقبال وقاعدة انتظار لكل السلع القادمة من مختلف المناطق من الجزائر وتافيلالت وطرابلس وغدامس وتونس، والمتوجهة نحو السودان[1].

---

[1]- زاجية هرباش، المرجع السابق، ص262.

[2]- Louis Voinot, op.cit, p144.

[3]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p314.

[4]- Ibid, p314.

[5]- عبد الله بابا، **الحياة الاجتماعية والاقتصادية بتوات إبان الاحتلال الفرنسي 1900-1962م**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: مبارك جعفري، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة أحمد دراية أدرار، 2019/2018م، ص281.

[6]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p314.

[1]- أ.كاريت، المصدر السابق، ص89.

وتجدر الإشارة إلى أن التجار التواتيين كان لهم وكلاء تجاريون في مختلف المراكز التجارية المجاورة بهدف مراقبة الأسواق والاتصال بموكليهم، إذ يصرح سباتييه (Sabatier) أن تجار عين صالح لهم وكالات أو مكاتب تجارية في تمبكتو وغدامس[1].

د- الصراف: وهو تاجر العملة الذي يقوم باستبدال العملات الأجنبية والمحلية، حيث كان التجار القادمون إلى أسواق توات بحاجة إلى صرافين يعرفون عيار ووزن العملات المتبادلة لشراء مختلف السلع، فقد انتشرت- كما أشرنا سابقاً- خلال القرن التاسع عشر عملات عديدة واختلف وزنها وقيمتها داخل أقاليم توات، خاصة وأن التجار كانوا يفضلون صرف عملاتهم بتوات لانخفاض أسعار العملات بها مما يحقق لهم ربحاً تجارياً معتبراً[2]، وقد أشار جُلُّ المستكشفين والرحالة الذين زاروا المنطقة إلى وجود صرافين لمختلف العملات المتداولة.

هـ- البيوتات التجارية: اشتهرت عدد من القبائل التجارية في تنسيق المعاملات التجارية من خلال القيام بدور الوساطة التجارية بين التجار وموكليهم، ويشرف البيت التجاري عادة على عقد الصفقات التجارية بين التجار المصدرين والمستوردين، ويقدم البضائع والجمال وكل ما هو ضروري لتجهيز قافلة تجارية يوكل قيادتها لأحد التجار، أي أن البيت التجاري لديه القدرة على تنظيم القوافل التجارية الكبرى "أكبار"، والتأثير على التجارة محلياً وإقليمياً من خلال علاقته وصلاته التجارية مع المدن الصحراوية الكبرى، ويزودنا رولفس (Rohlfs) بمعلومات عيانية إبان تواجده في تيدكلت عن وجود بيت "أولاد بوحمو" الذي يقوده "الحاج عبد القادر باجودة" وإخوته الأربعة وأبناؤه السبعة بعين صالح، إذ يقدم هذا البيت خدمات كبيرة لكل التجار القادمين للمنطقة [3]، وهو نفس الأمر الذي أشار له لانج (Laing) قبل ذلك[4]، بالإضافة إلى بيت أولاد زنان [5] الذي يمتلك عدداً كبيراً من الإبل يستأجرها للقوافل التجارية المتجهة نحو تمبكتو رفقة مرشدين وخبراء لهم دراية بخبايا الصحراء ومعرفة لأفضل الطرق التجارية [1].

---

[1]- Camille Sabatier, Touat, Sahara, Soudan, op.cit, p99.

[2]- أبو سالم العياشي، المصدر السابق، ص79.

[3]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, pp234-235.

[4]- غوردن لانج، رسالة إلى هانمر وارنجتون، المصدر السابق، ص336.

[5]- محمد صالح بوسليم، إقليم توات، المرجع السابق، ص ص189-190.

[1]- Henri Bissuel, op.cit, p46.

ثالثاً: التبادل التجاري مع الأسواق الخارجية:

التجارة الخارجية في توات لم تكن وليدة القرن التاسع عشر، فقد ارتبطت المنطقة بالمعاملات التجارية وازداد نشاطها وأهميتها منذ القرن 14م، بعد أن أصبحت منطقة عبور ضرورية لقوافل التجار المتجهين من شمال بلاد المغرب إلى بلاد السودان الغربي. وتكمن أهميتها في موقعها المتوسط للصحراء؛ ما جعلها مركزاً تنصب فيه طرق القوافل الرئيسية والفرعية الوافدة من جميع الجهات، بالإضافة إلى توفرها على المصادر المائية والكلأ للدواب، ومصادر الراحة التي لا يبخل بها أهل توات عن قاصدي المنطقة، وأصبحت بذلك الواحات التواتية محطات رئيسية لاستراحة القوافل التجارية واستجمامها، وبالتالي صارت مستودعاً لسلع تجارة العبور الصادرة والواردة تسويقاً وتوزيعاً.

01/ الطرق التجارية من وإلى توات بعيون المستكشفين:

إن أول من اهتم بدراسة طرق القوافل التجارية هم الرحالة والجغرافيون والمؤرخون العرب الذين سجلوا في كتاباتهم ورحلاتهم بدايتها ونهايتها مثل ابن بطوطة وابن خلدون في القرن 14، والحسن الوزان في القرن 15 وغيرهم، ومنذ القرن التاسع عشر استرعى النشاط التجاري الواسع بالصحراء الكبرى انتباه الرحالة الأوروبيين والدوائر الاستعمارية؛ خاصة الفرنسية منها، والتي اهتمت بالتعرف على طرق القوافل الصحراوية القديمة وإرسال البعثات الاستكشافية معتمدة في ذلك على ما سجله الكتاب العرب من معلومات غزيرة، ومن أهم المسالك التي ترتبط معها توات:

أ- من الشمال: أربع طرق رئيسية تربط الشمال الجزائري بتوات هي:

- طريق: الجزائر، البليدة، المدية، الاغواط، ميزاب، عين صالح، أقبلي، توات. وقد سلكه المستكشف صوليييه (Soleillet) سنة 1874م من الجزائر إلى عين صالح، ويتقاطع هذا الطريق مع فرع آخر عند ميزاب للتوجه إلى تيميمون ثم توات، وهو الذي سلكه الرحالة عبد الرحمن بن إدريس سنة 1816م[1]. ويؤكد كاريت (carette) أهميته للتجارة الأوروبية رغم طوله وقلة الماء به[2].

- طريق: وهران، أرزيو، الخيثر، مشرية، عين الصفراء، فيقيق، عبر واد زوزفانة إلى إيقلي، توات. وفي سنة 1847م سلكه الجنرال كافينياك (Cavaignac) في شطره الرابط بين وهران وعين الصفراء لاستكشاف قصور جنوب الغرب الوهراني، حيث وصفه بأنه الأكثر استعمالاً لأنه مليء بالواحات[1].

[1]- عبد الرحمن بن إدريس التنيلاني، المصدر السابق، ص ص2-4.

[2]- E.carette, **Recherches sur la Géographic a le Commorce de l'Algérie méridionale**. Baploration scientifique de l'Algérie, 1844, p137.

[1]- Félix Jacquot, op.cit, p221.

– طريق: وهران، أرزيو، الخيثر، البيض، الأبيض سيدي الشيخ، المنقب، تبلكوزة، توات. حيث يفترق في الخيثر مع الطريق السابق، وقد سلكه دو كولمب (de Colomb) سنة 1857م ومواطنه كولونيو (Colonieu) سنة 1860م ووصفه الأول بقوله: "يعتبر هذا الطريق الأكثر استعمالاً والأكثر أمناً والأقصر، فهو يربط قورارة بسواحل المتوسط مروراً بالبيض"[1]. ولهذا الطريق فرع آخر يتوجه من البيض نحو القليعة (المنيعة) إلى توات عبر قورارة، وهو الذي سلكه المستكشف الفرنسي بالات (Palat) سنة 1886م[2].

– طريق: سكيكدة، قسنطينة، باتنة، بسكرة، تقرت، ورقلة، ميزاب، عين صالح، أقبلي، توات. ويلتقي في ميزاب مع الطريق الأول، وقد سلك هذا الطريق الرحالة الحاج عبد القادر بن أبي بكر التواتي من توات إلى قسنطينة سنة 1849م[3]. وتقدر مسافته بـ 36 يوماً.

ب– من الغرب: أربع طرق رئيسية هي:

– طريق: فاس، مكناس، قصبة المخزن، أم دربينة، عبر واد إيقلي، توات. وقد سلكه المستكشف الفرنسي كاييه (Caillié) سنة 1828م أثناء رحلة العودة قادماً من تمبكتو[4]، وتقدر مسافة هذا الطرق بـ 39 يوما من السير.

– فاس، تافيلالت، سجلماسة، فيقيق، عبر واد الساورة، توات. وقد سلكه الرحالة الألماني رولفس (Rohlfs) سنة 1864م قاماً من تافيلالت، كما اخترقه المستكشف دولس (Douls) سنة 1889م الذي تعرض للاغتيال بين توات وتيدكلت[5]، ويبرز دو كولومب (de Colomb) أهمية هذا الطريق بالنسبة للتجارة الفرنسية قائلاً: "هو الطريق الطبيعي الوحيد من فرنسا إلى بلاد السودان...تملؤه أشجار النخيل والمساكن"[1].

– طريق: مراكش، وداي درعة، قصبة تنزولين، تبلبالة، توات.

– طريق: فاس، تلمسان، ميزاب، قورارة، توات[2].

---

[1]- Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p314.

[2]- Marcel Frescaly (Lieutenant Palat), op.cit, p242/ Louis Voinot, op.cit, p144.

[3]- Abd al Kadir Touati, op.cit, pp4-8.

[4]- أ.كاريت، المصدر السابق، ص274/ يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص137.

[5]- Camille Douls, op.cit, pp437-455.

[1]- Louis de Colomb, Ibid, p546.

[2]- أ.كاريت المصدر نفسه، ص274/ غوردن لانج، رسالة إلى النقيب ي. سابين، المصدر السابق، ص342-343.

ج- من الشرق:

- طريق: طرابلس، غدامس، تينغين، البيدة، لمسقم، الزرايبة، ارسمالن، عين صالح بتوات. وهو الطريق الذي سلكه لانج (Laing) قادماً من طرابلس إلى عين صالح سنة 1825م[1].

- طريق: غدامس، تيماسنين، عرق الريح، فارس أم الليل، حاسي أولاد مسعود، إقسطن بعين صالح. وقد سلكه رولفس (Rohlfs) سنة 1864م مغادراً توات، حيث حدد مسافته بـ 30 يوماً من السير، منبهاً على صعوبات هذا الطريق بقوله: " على طول الطريق من توات إلى غدامس لا يمكن إيجاد شيء ...من المستحيل الحصول على الغذاء حتى الضروريات كالتمر والدقيق، ولهذا فإن المسافرين على طريق توات غدامس مُجبَرون على حمل الغذاء الكافي لمدة شهر"[2]، وهي نفس الملاحظة التي سجلها كاريت (carette) مع تحديده المسافة بـ 20 يوماً، في حين حدد الرحالة الأغواطي المسافة عبر هذا الطريق بـ24 يوماً مشيراً إلى وقوعه تحت سيطرة الطوارق[3].

- طريق: غات، فايوت، عيدو، أركنير، تارسيت، خلغام، انتفوسن، أمغيدة، غاريس، أمسارح، تنجقن، توات، وقد حدد كاريت (carette) المسافة بين عين صالح وغات بـ 20 يوماً[4].

د- من الجنوب:

- طريق: تمبكتو، تودسي، تليق، تدقيور، طرفية، صبطي، تنصر، رقلة، حاسي الملح، حاسي البوز، حاسي حسدة، رقان بتوات.

- طريق: تمبكتو، واعوازن، أروان، بوجبيهة، المبروك، انغانان، تنزروفت، والن، تين تني، أقبلي بتوات، عين صالح[1]. وهو الطريق الذي سلكه لانج (Laing) في رحلته من عين صالح إلى تمبكتو مطلع سنة 1826م، واصفاً إياه بالطريق الغير الآمن ويخضع لسيطرة الطوارق وقبائل أولاد دليم[2]، إذ تعرض

---

[1]- رجب نصير الأبيض، المرجع السابق، ص167/ غوردن لانج، رسالة إلى هانمر وارنجتون، المصدر السابق، ص ص 331-335.

[2] - Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p249.

[3]- الحاج ابن الدين الاغواطي، المصدر السابق، ص98/ أ.كاريت، المصدر السابق، ص279.

- Henry Duverier, op.cit, p360.

[4]- نجمي رجب ضياف، **مدينة غات وتجارة القوافل الصحراوية خلال القرن التاسع عشر الميلادي** ، ط1، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابس، 1999م، ص154/ أ.كاريت، المصدر نفسه، ص283.

[1]- James Richardson, **Routes du Sahara l'intérieur du grand désert d'Afrique**, imprimerie de L. Martinet, Paris, 1850, pp 8-10.

[2]- غوردن لانج، رسالة إلى ويلموت هورتون، المصدر نفسه، ص356.

هذا المستكشف للاغتيال في أروان على يد إحدى تلك القبائل. لكن الرحالة عبد القادر ابن أبي بكر التواتي الذي سلك نفس الطريق سنة 1849م لم يسجل هذه الملاحظة [1]. ويحدد كاريت (carette) مسافة هذا المسلك بـ 48 يوما[2].

– طريق: قاو، تنقارا، تبنكورت، تبرشات، أنافيق، أقلهوك، تساليت، حاسي باكتليس، البرج، تنزروفت، والن، مراقن، أقبلي بتوات[3].

– طريق: تمبكتو، بوجبيهة، المامون، المبروك، عين رنان، والن، تمادنين وهي أول نقطة بتوات، عين الشبي، المالح، زاوية حينون، أقبلي، تيط، إينغر، عين صالح[4].

– طريق: قاو، كاهر، غات، الهقار، عين صالح. وقد سلك هذا الطريق الرحالة بن بطوطة قادماً من قاو إلى توات، ويشير كاريت (carette) أن مسافة الطريق 70يوما عبر الهقار[5].

أثبتت المعلومات التي ساقها الرحالون والمستكشفون الأجانب الذين عبروا الصحراء الإفريقية في القرن التاسع عشر بمعية القوافل التجارية؛ وجود نشاط تجاري عبر هذه المسالك التجارية التي تربط توات مع مختلف المراكز التجارية الصحراوية، فبعض القوافل تتخذ من توات معبراً أو مقراً للتجمع في انتظار تشكيل قوافل كبرى لمواصلة طريق الصحراء الكبرى، وبعض القوافل تنتهي رحلتها في توات حيث تستبدل بضاعتها هناك وتعود أدراجها، فما هي أهم هذه المراكز التجارية التي ترتبط معها توات تجارياً يا ترى؟

02/ الأطراف التجارية:

ربطت منطقة توات علاقات تجارية واسعة ونشاطاً تجارياً رائجاً مع العديد من المناطق المجاورة، ويمكن حصر محاور هذه العلاقات في خمس مناطق رئيسية يتعامل معها تجار توات في جلب أو تصريف البضائع والسلع التجارية هي:

---

[1]- Abd al Kadir Touati, op.cit, pp10-11.

[2]– أ. كاريت، المصدر السابق، ص279.

[3]– أحمد ذكار، **حاضرة وارجلان وعلاقتها التجارية بالسودان الغربي من سنة 1000هـ إلى 1301هـ/ 1591م–1883م**، رسالة ماجستير، إشراف: محمد صالح حوتية، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة أدرار، 2009–2010م، ص69.

[4]- Eugène Hennebert, **Lieutenant colonel Hennebert De Paris à Tombouctou en huit jours**, Publisher aux bureaux de la Revue des inventions et découvertes, Paris, 1889, p277.

[5]– محمد بن عبد الله ابن بطوطة، المصدر السابق، مج01، ص407/ أ. كاريت، المصدر نفسه، ص ص297–298.

أ- أسواق شمال توات:

تتمثل على وجه الخصوص في أسواق الأبيض سيد الشيخ، عين الصفراء، مشرية، غرداية، متليلي، سعيدة، وهران، تلمسان، الجزائر، التي كان لها الأفضلية على بقية المدن الشمالية الأخرى ، وكانت تسيطر على التجارة بين توات وأسواق الشمال قبائل الشعانبة، الخنافسة، حميان، دوي منيع، أولاد سيدي الشيخ [1]، إذ تأخذ هذه القبائل معها من الشمال الأغنام والقمح والزبدة والصوف، وبالمقابل يجلبون معهم التمر والحناء والحياك وبضائع السودان الغربي. كانت القوافل التجارية تنتقل من غرداية إلى سوق تيميمون في موسم جني التمور محملة بمختلف البضائع خاصة الحبوب، الشاي، السكر لمقايضتها بالسلع التواتية خاصة التمور [2]، أما القوافل القادمة من سعيدة والأبيض سيد الشيخ، ومشرية، وعين الصفراء، فكانت تقصد أسواق توات في شهر ديسمبر من كل عام لنفس الغرض. ويعود هذا الازدهار التجاري إلى توفر الأمن عبر المسالك الرابطة بين هذه الأسواق وتوات، وهو ما يفسره قول رولفس (Rohlfs) أن: "ثلاثة أو أربعة قوافل تجارية تعقد كل سنة ذهابا وإيابا من توات إلى تلمسان، ولا قافلة تحمل سلاحاً "[3].

تجدر الإشارة إلى أن هذه القوافل لا تقتصر على الرجال القادرين فقط، بل تشمل النساء والأطفال وقطعان الأغنام والإبل أيضاً، ذلك ما نستشفه من حديث كولونيو (Colonieu) عن القافلة التي سافر معها من البيض إلى توات، والقادمة من سعيدة وجنوب وهران أن تعدادها 220 فارساً، و 2.200رجلاً، 1.400إمرأة وطفلاً، و 10.000جملاً و 16.000رأس من الغنم لمقايضتها بالتمور التواتية، ويمضي في حديثه ذاك مؤكداً أن توات تستقبل حوالي 20.000 حمولة من الإبل سنوياً قادمة من وهران[1].

ب- أسواق المغرب الأقصى:

تشمل أسواق تافيلالت وسجلماسة وفاس ومراكش، حيث كانت قبائل دوي منيع، أولاد جرير، بني محمد تنشط في التجارة بين هذه الأسواق وأسواق توات، وتكمن أهمية أسواق المغرب في تلك البضائع الأوروبية التي تجلبها إلى توات عبر ميناء الصويرة، ومنه تصدر بضائع السودان نحو

---

[1]- أ.كاريت، المصدر السابق، ص94.

[2]- Eugène Daumas, Le grand désert, op.cit, p68/ E.carette, op.cit, p26.

[3]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p190.

[1]- Victor Colonieu, op.cit, T14, p57/ E.carette, Ibid, p96/ Eugène Daumas, Ibid, p68/ Jules Cambon, op.cit, pp390-400.

أوروبا، فكانت المنطقة حلقة وصل بين أوروبا والسودان [1]، حيث تواصل القوافل القادمة من بلاد السودان بعد عرض سلعها بتوات؛ سيرها باتجاه أسواق تافيلالت وسجلماسة ومراكش لمبادلتها ببعض السلع النادرة في توات، ثم تصدير سلع السودان إلى أوروبا[2].

ج- أسواق طوارق الهقار:

كانت قوافل الطوارق والبربر الضاربة في جنوب توات تحط الرحال بسوق عين صالح وسوق رقان، وأهم هذه القبائل طوارق سكمران، إيفوغاس، الهقار، أزجر، وقد ساعد في ازدهار التجارة مع هذه القبائل امتلاك الطوارق عدداً كبيراً من الجمال، فضلاً عن الشجاعة التي يتميزون بها والتي أهلتهم للقيام بدور الحارس للقوافل التجارية، علماً أنه لم يكن للطوارق موارد زراعية أو صناعية يمولون بها السوق التواتية، بل أن قوافلهم تأتي للتزود بالمواد الغذائية من توات خاصة التمور، إذ يشير فوانو (Voinot) إلى أن القوافل الوافدة من الهقار يصل عدد جمال القافلة الواحدة منها أحياناً إلى مائة أو مائتي جمل، وأغلبها لا تأتي محملة بل لأخذ التمور التي يشتريها الطوارق بأعداد ضخمة[3].

د- أسواق السودان الغربي:

من أهم أسواق بلاد السودان الغربي تعاملاً مع توات نجد: تمبكتو، جني، تاودني، المبروك، بوجبيهة، أروان[1]، التي تعتبر بالإضافة إلى ذلك مخازن كبيرة للسلع في بلاد السودان [2]، وتُظهر تقارير المستكشفين أن بلاد السودان الغربي تمثل الشريك التجاري الأول لمنطقة توات في تجارة القوافل، مما يدر ربحاً اقتصادياً كبيراً لتجار المنطقة، ولا أدل على ذلك من المثل الشعبي المتداول في المنطقة وقد ردده المستكشفون: "الجرب دواه القطران، والفقر دواه السودان"[3].

---

[1]- مبارك جعفري، **الأزواد خلال القرن 13هـ/19م دراسة تاريخية اجتماعية واقتصادية**، ط1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2021، ص332.

[2]- أ. كاريت، المصدر السابق، ص174/ محمد صالح بوسليم، إقليم توات، المرجع السابق، ص192

[3]- Louis Voinot, op.cit, p38/ Eugene Daumas, Le Sahara Algérien, op.cit, p295.

[1]- Auguste Cherbonneau, **Indication de la route du Tuggurt à Tombouctou et aux Monts de la Lune (d'après un document arabe)**, Annuaire de la Société archéologique de la Province de Constantine, 1853, pp91-101.

[2]- فليكس ديبوا، **تمبكتو العجيبة**، تر: عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، مر: شوقي عطا الله الجمل، ط 1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003م، ص207.

[3]- Marcel Frescaly (Lieutenant Palat), op.cit, p161/ Eugène Daumas, Ibid, p5.

وقد شاهد رولفس (Rohlfs) في عين صالح أناساً من تمبكتو جاءوا من أجل المبادلات التجارية[1]، وفي سنة 1866م قُدر عدد التجار التواتيين المقيمين في مدينة تمبكتو حوالي 600 تاجر[2]. ويصرح بارث (Barth) أنه شاهد قافلة كبيرة من تجار توات وهي تغادر تمبكتو في شهر أكتوبر سنة 1853م[3]، مضيفاً أن التواتيين لا يزالون منذ ثلاثة قرون التجار الرئيسيين في أسواق السودان، وهو ما ذكره الحسن الوزان عندما زار تمبكتو مؤكداً أن لتجار توات حيّاً خاصاً بهم[4].

كانت القوافل التواتية تتجه إلى بلاد السودان مرتين في السنة؛ في فصل الربيع والخريف، فتكون الرحلة الأولى في شهر ماي والثانية في شهر أكتوبر، وتبدأ هذه القوافل رحلتها نحو تمبكتو بعد تجمع التجار بأعداد كبيرة تدعى "أكبار"، بهدف السفر مع بعض والحراسة ضد هجوم الطوارق، وتكوّن القافلة صفوف وراء بعضها في كل صف مائتا بعير [5]، ويذكر ديبورتي (Deporter) أن القوافل التجارية المتجهة من توات إلى تمبكتو تستغرق في الطريق قرابة شهر ونصف، وتمكث هناك حوالي ثلاثة أشهر، فتبيع أو تقايض سلعها ثم تعود [1]، وكان بعض تجار توات لا يذهبون على رأس قوافلهم، بل يؤجرون آخرين للسير بسلعهم إلى أسواق السودان لبيعها هناك، بعد أن يحددوا لهم سعر البيع، وهذا نظير عمولة تدفع لهم[2].

في سنة 1884م قدر لوشاتلييه (Le Châtelier) متوسط حجم التعاملات التجارية بين عين صالح وتمبكتو من 150.000الى 200.000 فرنك في السنة [3]. وتجدر الإشارة إلى أنه بعد احتلال تمبكتو سنة 1894م توقفت العلاقات التجارية مع توات، لكن التجار التواتيين المقيمين بتمبكتو أعادوا إحياء الحركة التجارية خاصة بعد احتلال فرنسا لتوات مطلع القرن العشرين.

---

[1]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p236.

[2]- Auguste Baumier, **Premier établissement des Israéliens a Tombouctou**, Bulletin de la société de Géographie, 1 Trimestre, T9, Paris, 1870, p369.

[3]- Henri Barth, voyages et découvertes dans l'Afrique, op.cit, p109.

[4]- الحسن الوزان، المصدر السابق، ص109.

[5]- Henri Bissuel, op.cit, p24/ René Caillé, Journale d’un Voyage à Tombouctou, op.cit, p312.

[1]- V.B. Deporter, La Question du Touat, op.cit, p42.

[2]- V.B. Deporter, Extrême-sud de l'Algérie, op.cit, p145.

[3]- M.A. Le Châtelier, **Description de l'oasis d'In Salah**, Imprimerie De L'association Ouvrière, Alger, 1886, p78.

لم تقتصر التبادلات التجارية لتوات على السودان فقط، بل إن سلسلة علاقاتها وروابطها التجارية تشمل أيضاً التبادل مع بعض مراكز البيضان [1]، ومن أهم تلك المراكز "ولاته" التي يخبرنا المستكشف الفرنسي علي صل (Sall) أن تجار توات: "يأتون إلى ولاته محملين ببضائع متنوعة منها الملابس الصوفية كالبرانس والأقمصة وجميع أنواع الأقمشة الحريرية...وهي بضائع يتسابق البيضان والسود إلى شرائها"[2].

هـ- أسواق غدامس وغات:

كانت غدامس شريكاً أساسياً لتوات في تجارة القوافل، وتكمن أهمية غدامس في انفتاحها على تجارة البحر الأبيض المتوسط، كما كانت تشكل نقطة عبور لركب الحج التواتي، حيث كانت رحلة الحج مقرونة بالمعاملات التجارية التي تمكن الحجاج من تغطية نفقات الحج [3]، ورغم بعد المسافة بينهما ظلت توات ترتبط بغدامس خلال القرن التاسع عشر خاصة بعد احتلال الفرنسيين للشمال الجزائري، ما جعل القوافل التجارية القادمة من السودان تفضل الطريق الشرقي المتجه نحو غدامس وغات لبعده عن الفرنسيين. ويذكر لانج (Laing) أنه كان شاهد عيان في عين صالح على قافلة قادمة من غدامس معها تجار من مختلف الجنسيات متوجهين نحو تمبكتو [1]. ويطالعنا رولفس (Rohlfs) أن القافلة التي خرج معها من عين صالح إلى غدامس كانت تضم عدداً من الجمال لأحد كبار تجار غدامس المدعو "ولد هيبة" محملة بريش النعام، بالإضافة إلى العديد من تجار "أولاد سيد الحاج الفقي"، مقدراً تجارة هذا البضاعة الأخيرة بمبلغ 20.000 فرنك سنوياً بين توات وغدامس، بغض النظر عن مواد تجارية أخرى قادمة من السودان[2].

وكانت السلع القادمة من غدامس وغات تباع داخل سوق عين صالح أو توجه إلى نحو أسواق السودان الغربي، كما كان التجار التواتيون يعرضون سلعهم القادمين بها من بلادهم ومن بلاد

---

[1]- بلاد البيضان أو البيظان: اسم يطلق على المنطقة الواقعة جغرافيا بين وادي نون شمالاً ونهري السنغال والنيجر جنوباً، والتي تشمل معظم أراضي موريتانيا اليوم. للمزيد أُنظر: بول مارتي، **القبائل البيضانية في الحوض والساحل الموريتاني وقصة الاحتلال الفرنسي للمنطقة**، تر: محمد محمود ودادي، ط1، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 2001م، ص ص4-100.

[2]- محمدو محمدن، المرجع السابق، ص396.

[3]- محمد عمر مروان، **الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في مدينة غدامس خلال العهد العثماني الثاني 1251هـ-1331هـ/1835م-1912م (دراسة من خلال الوثائق المحلية)**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: عمار بن خروف، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2006/2005م، ص300.

[1]- غوردن لانج، رسالة إلى ويلموت هورتون، المصدر السابق، ص348.

[2]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, pp247-248.

السودان في غات وغدامس[1]. ويذكر القائد لوشاتلييه (Le Châtelier) أنه في سنة 1884م تم تصدير 150 شحنة من البضائع من غدامس إلى توات عبر عين صالح بقيمة 75.000 فرنك، في حين بلغت الواردات 300.000 فرنك[2]، أما مع غات فقد تجاوز حجم البضائع المتبادلة مع توات 6.000 فرنك سنويا[3]، وفي نفس السياق يقدر العقيد ربيلييه (Rebillet) أن تجارة توات تمثل عُشر (1/10) إجمالي معاملات سوق غدامس ما قيمته 02 مليون فرنك في السنة[4].

03/ السلع التجارية وأهم الأسعار:

لقد كانت منطقة توات كغيرها من المناطق التي تنشط بها الحركة التجارية في حاجة ماسة إلى عملية الاستيراد والتصدير من المحيط الخارجي، لأن السكان يحتاجون بعض السلع الوافدة هذا من جهة، ومن جهة أخرى التخلص من فائض بعض المنتجات لديهم، وبهذا أصبحت الأسواق التواتية تعج بمختلف السلع، ولم يكن هذا النشاط التجاري بالمنطقة وليد الفترة التي نحن بصدد دراستها وإنما هو استمرار لما كانت تقوم به من قبل، وهذا ما أشار له ابن خلدون حين قال: "وفواكه بلاد السودان كلها من توات وتكورارين وورجلان"[1].

أ- السلع المحلية:

رغم أن توات اشتهرت بتجارة العبور (ترانزيت)، إلا أنها ساهمت في التجارة الصحراوية ببعض المنتوجات الزراعية والصناعية التي سجلت فيها فائض في الإنتاج، ما جعل التواتيون يسعون في تصريف هذا الفائض وبالتالي المساهمة في التجارة الصحراوية، وفي هذا السياق يذكر رولفس (Rohlfs) أن الموارد التجارية التواتية ليست مهمة للغاية مؤكداً في ذات السياق أن توات: "لا تصدر إلا التمر والأقمشة الصوفية" [2]، وهي نفس السلع التي ذكر كاريت (carette) أن المنطقة تساهم بها في التجارة الخارجية مع الشمال الجزائري[3]، ومن جهته يتحدث كولونيو (Colonieu)

---

[1]- نجمي رجب ضياف، المرجع السابق، ص75.

[2]- M.A. Le Châtelier, op.cit, p78.

[3]- Ibid, p80.

[4]- François Rebillet, op.cit, p11.

[1]- عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص63.

[2]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p221.

[3]- أ.كاريت، المصدر السابق، ص ص244-245.

عن قائمة موسعة لأهم المواد التي تصدرها توات: الحناء، التبغ، الملح الصخري، الحايك، الأقمشة الصوفية، البرنوس[1].

يستفاد من شهادات المستكشفين أن التمور والأقمشة هي أهم صادرات توات إلى أسواق الشمال، فالتمر هو المساهم الأول في النشاط التجاري التواتي، فبعد الاستهلاك المحلي يوجه الفائض إلى الخارج، إذ تحمل منه كميات كبيرة إلى الأسواق المختلفة، ويتم مقايضته بمختلف السلع الواردة إلى المنطقة، كما اشتهرت منطقة توات بصناعة النسيج والأبسطة المسماة "الدكالي"، ويشير دوماس (Daumas) أن الأقمشة لها سوق خاص يسمى: "سوق الجلاب" [2]، ويذكر المترجم العسكري إسماعيل بوضربة في رحلته إلى غات أن: "توات تصدر إلى غات الأقمشة الصوفية، الحنة، التبغ، الشب"[3]، ويقدر كولونيو (Colonieu) صادرات توات إلى منطقة الغرب الوهراني حوالي 06 ملايين كلغ من التمور سنويا [4]، أما عن الأسعار فيضيف هذا المستكشف أن القافلة التي قدم معها من البيض اشترت التمور من توات بسعر 40-45 فرنك للحمل، والحايك (2م عرض/9م طول) بـ8-15 فرنك، والبرنوس بـ 20-28 فرنك[1].

أما السلع التواتية المنقولة للسودان فتمثلت أساساً في التمور التي يكثر الطلب عليها في المنطقة لافتقارها لأشجار النخيل، كما أنهم يستعملونها كغذاء أساسي لسهولة حفظها، وأبسطة الدكالي التي كان يُعتبر امتلاكها من مظاهر الثراء والترف في تمبكتو[2]. كما أن الملح المستخرج من السباخ المنتشرة في توات كثر الطلب عليه وارتفع سعره في السودان لاستعمالاته الغذائية والدوائية، بالإضافة إلى استخدامه كعملة مقايضة[3]. ورغم أن التبغ كان يزرع في السودان الغربي إلا أن التبغ القادم من توات ومع ارتفاع سعره كان يلقى رواجاً كبيراً عند السودانيين، لأنهم يعتبرونه من أجود أنواع التبغ، فحمولة مكونة من 80-100 كلغ بقيمة 25-30 فرنك، تباع في السودان بقيمة 80-100 فرنك[4]،

---

[1]- Victor Colonieu, op.cit, T15, p435.

[2]- Eugène Daumas, Le grand désert, op.cit, p67.

[3]- Ismaël Bouderba, **Voyage à R'at par (du 1er août au 1 décembre 1858)**, Revue algérienne et coloniale, décembre 1859, pp241-308.

[4]- Victor Colonieu, Ibid, p45/ Louis Voinot, op.cit, p38.

[1]- Ibid, T14, pp89-90.

[2]- محمد العربي الزبيري، **التجارة الخارجية للشرق الجزائري**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ت، ص165.

[3]- بول مارتي، **البرابيش بنو حسان**، تع: محمد محمود ودادي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، د.ت، ص98.

[4]- A.G.P. Martin, Oasis Sahariennes, op.cit, p217.

وخلال إقامته بتمبكتو ذكر بارث (Barth) أن التبغ والتمور كانت أهم بضائع الاستيراد من توات، ويضيف أنه خلال هذه الفترة شاهد 20 شحنة من هاتين المادتين وصلت المنطقة [1]، ويسير لانز (lenez) في نفس المنحى مؤكداً أن هاتين المادتين تأتيان من توات على وجه الخصوص[2].

ب- سلع العبور:

ب-1/ سلع العبور من شمال إفريقيا إلى ما وراء الصحراء الكبرى

إن السلع التي تنقل إلى الأسواق الصحراوية في توات وبلاد السودان الغربي والأوسط يجب أن تكون متوفرة وبأسعار رخيصة في أسواق حوض البحر المتوسط، ويمكن حملها على ظهور الجمال شريطة أن تتحمل مدة السفر الطويل والمناخ الحار، كما يجب أن يكون لها عائد مجزٍ حتى تغطي تكلفة الجهد الذي يبذله التاجر ومصروفات الترحيل عبر الصحراء، سواء كانت من منتجات الشمال أو تلك التي استوردت إليه من الأسواق الأوروبية.

فالبضائع الواردة من أسواق الشمال الجزائري كان معظمها مواد غذائية، إذ يستفيض كولونيو (Colonieu) في وصف القافلة التي قدم معها من البيض، مشيراً إلى أنها جلبت معها 16 ألف رأس من الغنم، (لأن الإنتاج المحلي لا يكفي للاستهلاك)، الصوف، الزبدة، الكسكس، الفول، الجمال، الخيل والتي بيعت مقايضة بالتمر ونقداً، فعن طريق المقايضة تم تبادل شاة بـ 6-12 قصعة تمر، قصعة قمح بـ 04 قصعات تمر، 03 قصعات شعير بـ 03 قصعات تمر، قصعة شعير بـ 06 قصعات تمر رديء، 12-15 كلغ سمن بـ 03 حملات تمر، 2-3 أغنام بـ 01 حمل تمر، وعن طريق النقد كانت الأسعار كالتالي: 80 قصعة تمر أحمر بـ 01 فرنك، 50 قصعة تمر عادي بـ 01 فرنك، الأغنام بـ 10-20 فرنك، جزة صوف بـ 03 فرنك[1]. وعن أسعار الحبوب فيستغرب رولفس (Rohlfs) من ارتفاعها جداً بالصحراء عموماً مقارنة بالشمال، فقد سجل أن حملاً من الشعير في توات يساوي 40 فرنكاً، وحملاً من القمح ثمنه 80 فرنكاً سنة 1864م[2].

يطالعنا النقيب دو بونمان (De Bonnemain) في رحلته الاستكشافية إلى غدامس أن القوافل القادمة من الشمال الشرقي حيث غدامس وغات وطرابلس وجنوب تونس تجلب معها إلى

[1]- Henri Barth, voyages découvertes dans l'Afrique, op.cit, p36.

[2]- oskar lenez, op.cit, p167.

[1]- Victor Colonieu, op.cit, T15, pp89-90/ Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p316/ Henri Bissuel, op.cit, p44/ Abderrahmane Selka, op.cit, p549.

[2]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p223.

توات القهوة، السكر، الشاي الفلفل الأحمر، التوابل، القطن الأبيض، الألبسة القطنية الأوروبية، الفضة، النحاس، الحديد، الفولاذ، الزئبق، الكبريت، الجلد، المرجان، الحرير، السكاكين، الزجاج، شاشيات الصوف الحمراء (من تونس)، الأحزمة الصوفية والحريرية، المنسوجات القطنية الانجليزية، لمقايضتها بالسلع السودانية[1].

أما من الشمال الغربي فأن التجار المغاربة من تافيلالت وفيقيق وفاس ومراكش يجلبون إلى توات المنتجات الصناعية المغربية والأوروبية، الأواني الزجاجية، الثياب الجاهزة، الشمع، المعادن، التوابل، المواد الغذائية، السكر، الشاي، الزيت، الأسلحة، الجلد الفيلالي [2]، الأحذية المغربية (البلغات والريحات)، الأغطية ذات الألوان الزاهية، المنتجات الحريرية، الزرابي، الأدوات الحديدية والنحاسية، الأدوات المنزلية والخزفية، المجوهرات الذهبية والفضية، المرجان، العطور، الكحل، الورق، المداد، الملونات لمقايضتها مع المنتجات التواتية والسودانية[1].

وفي منتصف القرن التاسع عشر نسجل دخول بعض البضائع التجارية الأوروبية عن طريق البحر الأبيض المتوسط أو عن طريق المحيط الأطلسي، وهو ما أثار استغراب ودهشة الرحالة رولفس (Rohlfs)، فأثناء إقامته بزاوية كنتة عند قائدها مولاي اسماعيل وجد: "زرابي من اسطمبول... أول مرة أرى فيها لديه منتوجات ألمانية، إلى جانب الفرنسية قادمة من الشمال، وانجليزية قادمة من الغرب: شموع، قدحات...أتى بها من طرابلس"، ويؤكد هذا الرحالة أنه لم يكن ينتظر على الإطلاق أن يصادف في الصحراء الإفريقية مثل هذه البضائع، مشيراً إلى أنها مرتفعة السعر، زاعماً بأن التواتيين لا يقتنونها للاستعمال الشخصي وإنما للتباهي فقط[2].

ب-2/ سلع العبور من ما وراء الصحراء إلى الشمال:

السلع الوافدة من جنوب الصحراء يجب أن تتوفر فيها شروط الترحيل والتسويق التي تتوفر في السلع الوافدة من الشمال إلى الجنوب، أي يحصل عليها بسهولة وبأسعار رخيصة من الأسواق

---

[1]- Louis De Bonnemain, **Voyage à R'adamès (du 26 novembre 1856 au 7 janvier 1857**), Revue Algérienne et Coloniale, T1, 1859, pp85-99.

[2]- P. Christian, **L'Afrique française**, **l'empire de Maroc et les déserts de Sahara**, A.Barbier éditeurs, paris, 1846, p109.

[1]- Victor Colonieu, op.cit, T14, p45/ Abderrahmane Selka, op.cit, p548/ Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p316.

[2]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p213.

الصحراوية أو في أسواق بلاد السودان، وتتحمل مشقة الرحلة الصحراوية الطويلة، وتكون نادرة في الشمال، وأن يكون سعرها أكثر ارتفاعاً من الجنوب حتى تكون مجزية السعر. وتثبت المعلومات التي ساقها المستكشفون أن السلع القادمة من السودان الغربي كان لها دور كبير في تنشيط الحركة التجارية مع توات، رغم أنها محصورة جداً وتمثلت في:

– **العبيد:** كان العبيد عبارة عن سلعة بشرية واسعة الانتشار في السودان الغربي وبأثمان منخفضة خلال هذه الفترة[1]، لذا كانت القوافل التجارية تجلب عدداً كبيراً منهم إلى توات، حتى أصبحت تجارة الرقيق هي التجارة الرائجة في توات، رغم أن تجارتهم لم تكن سهلة، فرحلة العبيد عبر الصحراء شاقة وطويلة[1]، تصحبها أخطار عديدة كهجمات قطاع الطرق وتقلبات الطقس من العواصف الرملية وشدة الحر والبرد القارص، إلى جانب التعب الشديد وقلة الزاد والمؤونة، وكلها كانت تؤدي إلى موت العديد من الرقيق قبل وصولهم إلى توات [2]، وقد تحدث معظم الرحالين والمستكشفين بإسهاب عن هذه التجارة، وفي ذات السياق يؤكد رولفس (Rohlfs) أن القوافل التجارية القادمة من السودان تجلب معها إلى توات في كل مرة حوالي 1000 عبد ينقل معظمهم إلى أسواق الشمال [3]، في حين يقدر بيوسيل (Bissuel) عدد العبيد المجلوبين إلى توات بـ1.200 عبد سنوياً[4].

أما عن أسعارهم فتجمع كتابات المستكشفين أنها كانت منخفضة جداً بأسواق توات خلال القرن التاسع عشر[5]، غير أنَّ هناك تضارباً في الأسعار نرجع سببه إلى الاختلاف الحاصل في السعر حسب العرض والطلب، وحسب جنس العبد وسنه ولون بشرته، ونكتفي في هذا المجال باستشهاد لبيوسيل، كما هو موضح في الجدول التالي:

---

[1]- Édouard Guillaumet, **Le Soudan en 1894; La vérité sur Tombouctou; L'esclavage au Soudan**, Albert Savine diteur, Paris, 1895, p119.

[1]- M. Cortier, **Reconnaissance OuallenAchourât**, **route d'In-Salah à Tombouctou**, **par Ouallen et Achourât**, Emile Larose Librairie-éditeur, paris, 1913, pp22-23.

[2]- أ.ج. هوبكنز، المرجع السابق، ص161.

[3]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p221.

[4]- Henri Bissuel, op.cit, p32.

[5]- Gerhard Rohlfs, Ibid, p237/ V.A. Malte Brun, op.cit, p117/ Abderrahmane Selka, op.cit, p548/ Louis de Colomb, Notice sur les oasis, op.cit, p55/ Victor Colonieu, op.cit, T14, p65.

الجنس	السن	الشراء بتمبكتو/ فرنك.ف	البيع في توات/ فرنك.ف
فتيان	04 إلى 10 سنوات	50 إلى 80	150 إلى 200
فتيات	04 إلى 10 سنوات	80 إلى 160	200 إلى 350
ذكر شاب	11 إلى 16 سنة	150 إلى 200	300 إلى 400
أنثى شابة	11 إلى 16 سنة	200 إلى 350	500 إلى 600
ذكر بالغ	16 إلى 25 سنة	150 إلى 200	250 إلى 400
أنثى بالغة	16 إلى 25 سنة	200 إلى 300	450 إلى 550
رجال	أكثر من 25 سنة	100 إلى 200	350 إلى 500
نساء	أكثر من 25 سنة	150 إلى 250	400 إلى 500[1]

يظهر من خلال الجدول أن الأرباح في هذه التجارة تتجاوز 150% في معظم الحالات، لذا شكلت هذه المعاملة أكبر مساهمة تجارية في هذا الاتجاه رغم تحريم تجارة العبيد دولياً آنذاك، وظلت تمارس بالمنطقة لقربها من مستودع السودان الغربي ، لكن بعد احتلال فرنسا للجزائر 1830م وتحريمها تجارة الرقيق سنة 1847م بدأت هذه التجارة في تراجع مستمر، ووجه احتلال فرنسا لتمبكتو سنة 1894م الضربة القاضية لهذه المعاملة التجارية بل للطريق التجاري كله.

– **الذهب**: شكل مادة أساسية للحركة التجارية الواسعة بين العالم الخارجي والسودان الغربي، وقد اشتهرت عدة مواقع سودانية عبر التاريخ بوفرة هذه المادة الساحرة، وكتب عنها الكثير من المؤرخين العرب، منها تمبكتو، جني، أروان[2]، ويقدر بارث (Barth) حجم تجارة الذهب خلال منتصف هذا القرن بـ 200.000 تالر[3]، وكان التجار التواتيون عند وصولهم إلى أسواق السودان الغربي يحرصون على شراء كميات كبيرة منه لقيمته العالية، وخفة وزنه، ولانخفاض كلفة نقله، إذ اعتبره الرحالة الاغواطي أهم واردات تجار توات من السودان الغربي [4]، كما عده ريتشاردسن (Richardson) البضاعة الأولى التي يصدرها السودان لمختلف مناطق الصحراء[5].

[1]- Henri Bissuel, op.cit, p54.

[2]– أ.بوفيل، **تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير** ، ط2، تر: الهادي أبو لقمة ومحمد عزيز، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1988م، ص ص147- 164.

[3]- Henri Barth, op.cit, p101.

[4]– الحاج ابن الدين الاغواطي، المصدر السابق، ص95.

[5]– جيمس ريتشاردسن، المصدر السابق، ص185.

انتشر الذهب في توات بشكل كبير، وكان عملة مستعملة في التجارة الداخلية والخارجية، كما كان يصنع منه الحلي، إذ يشير عبد الرحمن سلكة إلى أن القوافل التواتية تعود محملة بالذهب من تمبكتو[1]، ويؤكد رولفس (Rohlfs) من جهته أن القوافل التواتية تجلب معها 50 رطلاً من الذهب في السنة، لكنه لم يستطع تقدير حجم هذه البضاعة في توات، معتبراً أن شهرة الذهب في توات مبالغ فيها، وعبَّر عن ذلك بقوله: " فيما يتعلق بالذهب، أنا لا أتخيل أنها كاليفورنيا... "[1]. وعن سعره في تمبكتو فقد بلغ حوالي 10 فرنك للمثقال، ويباع في توات بـ 35 فرنكاً للمثقال[2].

– **العاج:** يستورد من المناطق الاستوائية أين تكثر الفيلة وفرس النهر ووحيد القرن، خاصة في برنو وكانو، ويستخدم عادة في صنع أدوات الزينة كمقابض السيوف والسكاكين، وبعض التحف الثمينة، والأسنان، ويخبرنا لانز (Lenz) أن القوافل التواتية كانت تأتي بكميات كبيرة منه من أسواق السودان، لتصديره إلى أسواق الشمال وإلى أوروبا[3]، لكن رولفس (Rohlfs) رغم إقراره برواج تجارة هذه البضاعة التي تضطلع فيها توات بدور الوسيط؛ لم يستطع تقدير الكمية المجلوبة من هذه البضاعة قائلاً: " بالنسبة لأنياب الفيل لا أستطيع أن أقدر كم يمر عبر توات إلى المغرب" [4]. أما عن سعره فقد كان يباع 0.5 فرنك للكيلوغرام الواحد في السودان، ويصل إلى توات بـ 6 فرنكات للكيلوغرام[5]، وعليه فان نسبة الربح جد مرتفعة تتجاوز 10 أضعاف ثمن الشراء، ما أدى إلى رواج تجارته خلال تلك الفترة.

– **ريش النعام وبيضه:** كان لريش النعام وبيضه رواجٌ كبيرٌ في الأسواق التواتية، إذ يجلب التجار التواتيون منه مقادير هامة أثناء رجوعهم من السودان، فكان ريش النعام يستخدم للزينة، أما بيضه فيتخذ من مُحه أحد العناصر الهامة في تركيب الأدوية لمعالجة عدة أمراض مثل الروماتيزم والبرد، وعند استعراضه للمبادلات التجارية مع السودان الغربي يشير بارث (Barth) إلى أن القوافل التواتية كانت تجلب منه كميات جد معتبرة [6]، ويلخص رولفس (Rohlfs) حديثه عن المبادلات التجارية لهذه

---

[1]- Abderrahmane Selka, op.cit, p548.

[1]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p221.

[2]- Victor Colonieu, op.cit, T15, p62.

[3]- Oskar Lenz, op.cit, p106.

[4]- Gerhard Rohlfs, Ibid, p221.

[5]- محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص168.

[6]- Henri Barth, op.cit, p106.

البضاعة بعين صالح: "هناك بعض التجار الكبار كالحاج احمد بن محمد الذي يقوم كل سنة بإرسال كمية كبيرة من ريش النعام لطرابلس بقيمة 20.000 فرنك لكل كمية" [1]. أما عن سعره في توات فيذكر كولونيو (Colonieu) أن ريش النعام بيع بـ 40 إلى 50 فرنك للكيلوغرام، وبيضه بـ0.30 إلى 0.40 فرنك للبيضة الواحدة[1].

ذلك كله بالإضافة إلى سلع وبضائع أخرى مثل الماشية، النحاس، اللحم المجفف، الأغنام، جلود بعض الحيوانات المفترسة مثل النمور والأسود، والأقمشة، الفول السوداني، الصمغ، القديد، الجبن المجفف، التوابل، الصمغ، وأنواع عديدة من البخور والحلي والأعشاب الطبية...الخ

إن المتتبع لمسار حركة التبادل التجاري بين ضفتي الصحراء الكبرى الشمالية والجنوبية حتى القرن التاسع عشر، يجد أن حركة الصادرات والواردات بين المنطقتين كانت قائمة على سلع وبضائع معينة لم تستبدل ولم يتوقف استيرادها أو تصديرها حتى اضمحلال آخر القوافل العابرة للصحراء، ومما لا شك فيه أن ذلك يعود لخصوصية كل منطقة وحاجتها أو وفرتها لهذه السلع والبضائع، ورغم شساعة الصحراء وصعوبة اختراقها أو عبورها ناهيك عن الحياة فيها، فإنها لم تشكل حاجزاً بين سكان ضفتيها الشمالية والجنوبية، فقد أوجدت مسالك وطرق ارتادها تجارٌ محترفون استرزقوا من الحركة التجارية فكان لهم فضل نقل السلع بين المنطقتين.

رابعاً: الفرنسيون والتجارة التواتية أواخر القرن 19م

رفعت التجارة الصحراوية في القرن التاسع عشر الخيال الحقيقي عند الفرنسيين، وجعلت رجال أعمالهم وساستهم يهتمون بذلك، وكتبوا تقارير إدارية هامة حول أهمية المنطقة في التجارة عبر الصحراء من جهة، وميزة موقعها الذي سيمكن فرنسا عند احتلالها من الاستئثار بتجارة غرب إفريقيا من جهة أخرى[2]، فقد حظيت التجارة التواتية بنصيب الأسد من اهتمامات المستكشفين والمبعوثين الفرنسيين، الشيء الذي قد يجد تفسيره في أن الاهتمام بثروات المنطقة وإمكانياتها التجارية ظل الشغل الشاغل للإدارة الفرنسية في الجزائر[3]، هذه الإدارة التي ألحت في تعليماتها المقدمة للمستكشفين

---

[1]- Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, p236.

[1]- Victor Colonieu, op.cit, T15, p452.

[2]- جمال قنان، **قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر**، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1994م، ص139.

[3]- يحي بوعزيز، ثورات الجزائر، المرجع السابق، ص174.

والرحالين على ضرورة إعطاء الأهمية المناسبة لهذا النشاط، وبالتالي فإنه من الطبيعي أن يولي المستكشفون لهذا المجال أهمية تتناسب مع مكانته لدى تلك السلطات.

فعند قراءتنا لرحلة الضابط دوماس (Daumas) نصادف هاجس الاهتمام بالتجارة بارزاً في مقدمة كتابه إذ يقول: "استكشفنا هذه الصحراء الشهيرة، ومن المهم دراستنا من أجل العلاقات التي تربطها مع القبائل البدوية وسكان المناطق الحضرية التي ستصادفنا كثيراً. ما هي تجارتهم؟ ما هي بضاعتهم؟ في حال ما إذا كانت تجارتهم وصناعتهم ذات أهمية؟ أليس علينا البحث عن مدى الاستفادة منها؟"[1] ولهذا فقد كانت هذه البعثات الاستكشافية تركز على الحياة الاقتصادية والتجارية في الصحراء الجزائرية مما جعل أغلب كتابات المبعوثين الفرنسيين تركز على الجانب الاقتصادي.

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدأت أقدام فرنسا تطأ الصحراء الجزائرية خطوة خطوة، فأحدث هذا التغلغل الفرنسي خللاً في الحركة التجارية بين أسواق الداخل (بين التل والصحراء) والخارج، وأدت هذه السياسة الفرنسية المتمثلة في مراقبة القوافل إلى عزوف العديد من التجار للقيام بهذه المهمة، فأصبح التبادل التجاري بين توات و الفرنسيين في الشمال قليل الأهمية [2]، حيث أوردت الجمعية الفرنسية لترقية العلوم في المؤتمر المنعقد بوهران مارس 1888م معلومات حول حركة القوافل بالجنوب الوهراني، وذكرت على لسان باحثيها أن التجارة كانت نشطة ما بين وهران وقورارة، وقدَّرت عدد الإبل المتجهة نحو قورارة بحوالي 14.194جمل محملة بسلع وبضائع متنوعة قيمتها نحو 42.724.970 فرنكاً، وقفلت راجعة بالعديد من البضائع الصحراوية كالتمور بالإضافة إلى الألبسة التقليدية والأفرشة وغيرها، قدرت قيمتها بحوالي 97.588.250 فرنكاً[3].

هذا ما دفع السلطات الفرنسية إلى التفكير في الاستغلال الأمثل لهذه التجارة والتحكم في القوافل وتوجيهها لخدمة مصالح المعمرين، فأصدرت عدة قرارات وإجراءات مفادها تسهيل التجارة المحلية بين التل والصحراء لحسابات استعمارية، ففي سنة 1880م أسست فرنسا لجنة مختصة في تنظيم و تطوير تجارة القوافل ما بين أسواق الشمال وأسواق توات حتى تزداد الروابط التجارية بين

---

[1]- Eugene Daumas, Le Sahara Algérien, op.cit, p5.

[2]- A.G.P. Martin, Quatre siècles d'histoire, op.cit, p209.

[3]- Association Française pour l'avancement des Sciences, **Congrès d'Oran 1888**, **Oran et l'Algérie en 1887**, Notice Historiques, scientifiques et economiques, T2, Alger, p182.

توات والقوافل الجزائرية[1]، كما أصدرت فرنسا مرسوماً في 17 ديسمبر 1896م خاصاً بتنظيم الحركة التجارية عن طريق إعفاء بعض المنتوجات الفرنسية التي تتجه نحو الواحات الصحراوية؛ ومنها منطقة توات من الضرائب، و لتسهيل العلاقات التجارية بين أسواق الشمال وأسواق توات عملت فرنسا على تشييد بعض المراكز على طول الحدود الجزائرية المغربية مثل مركز عين الصفراء وبني ونيف [1]، كما اقترح صوليه (Soleillet) إنشاء مخازن بالاغواط كمستودع للبضائع الأوروبية، لأنها آخر مدينة محتلة من طرف فرنسا حينئذ، كما أنها قريبة من عين صالح[2].

وبهذه الإجراءات نمت المبادلات التجارية بين القبائل الجزائرية وأسواق توات نمواً سريعاً، حيث تشير الكتابات الفرنسية أنه في سنة 1886م أرسلت قبيلة حميان قافلة إلى توات محملة بمختلف السلع بلغت قيمتها 224.453 فرنك، وبالمقابل جلبت معها ما قيمته 491.755 فرنك من السلع التواتية[3]، وفي سنة 1887م تكونت قافلة في الجنوب الوهراني من 3.411 رجلاً و14.914 جملاً، وبلغت قيمة صادراتها إلى توات 970.000 فرنك، بينما بلغت وارداتها 427.000 فرنك[4]، وفي سنة 1898م بلغت قيمة السلع الفرنسية التي نقلت إلى إقليم قورارة لوحده 51.909.950 فرنك، بالإضافة إلى بعض المنتوجات والمصنوعات الأخرى التي حملتها القوافل وبلغت قيمتها حوالي 1.007.218 فرنكاً[5].

ازدادت أهمية توات لما غدت مشروعاً حيوياً واستراتيجياً للسلطات الاستعمارية المدنية منها والعسكرية[6]، هذا ما أكدته الأدبيات التي لم يكن يخفيها الساسة لما أثيرت مسألة إنجاز خط حديدي

---

[1]- سميرة دعاشي، **الاهتمام الفرنسي بالتجارة في الصحراء الجزائرية وإفريقيا الغربية مابين 1850- 1945م**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: فلة موساوي القشاعي، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة غرداية، 2015/2014م، ص151.

[1]- Tillion André, marie joseph, Roger Alfred, **Conquête Des Oasis sahariennes au Tidikelt**, **au Gourara au touât**, **dans la zouzfana et dans la Saoura en 1900 et 1901**, Henri Charles –lavauzlle Édition militaire, paris, p628.

[2]- Paul Soleillet, Exploration du sahara Centrale, op.cit, p21.

[3]- أُنظر الملحق رقم11 و12 في الملاحق المرفقة نهاية البحث.

[4]- Henri Schirmer, op.cit, p413.

[5]- أحمد العماري، المرجع السابق، ص191.

[6]- Léon Lehuraux, **Le Statut Territorial Des Territoires Du Sud De l'Algérie**, Revue Africaine, N81,1937, p171.

يربط الشمال الجزائري بتمبكتو مروراً بتوات [1]، وتعود فكرة إنشاء هذا الخط للمهندس دي بونشال (Duponchel) الذي قدم تقريراً كاملاً فيما يخص إنشاء خط سكة حديدية من الجزائر إلى تمبكتو سنة 1878م[1]، وفي سنة 1880م اقترح كولونيو (Colonieu) خطاً من مستغانم إلى تيارت وعين صالح، بعد أن شارك في اللجنة العليا التي أسستها وزارة الأشغال العمومية لدراسة مشاريع السكك الحديدية بين الجزائر والسنغال[2].

وعن الأهمية الاقتصادية لهذا المشروع نستدل في هذا الشأن بما ذكره دامون (Damon) الذي كشف عن أهمية هذا الخط قائلاً: "ينبغي على جيلنا أن يفهم جيداً برنامجنا...إن الصحراء أشبه ببحر داخلي وقوافله شبيهة بالأساطيل، فإننا فكرنا في أن نصبح أسياداً لهذا البحر فبذلك نتمكن من احتلال موانئ تمبكتو وعين صالح وربط هذين المرفأين بالساحل بواسطة السكة الحديدية، إن إقليم توات سيصبح مثل منطقة واد ريغ بل أغنى منها" [3]، وفي معرض حديثه عن الزراعة في توات استعرض سباتييه (Sabatier) الفائدة الاقتصادية التي ستجنيها فرنسا من احتلالها للمنطقة، والتي تقدر حسب زعمه بـ 10.000.000 نخلة، يمكن أن توفر 200.000 طن من البضاعة سنوياً، مؤكداً في نفس السياق أن: "منطقة توات بمفردها تساوي السكة الحديدية"[4].

جدير بالذكر أن هذا المشروع فشل بسبب انعدام الأمن، وانتهى الحلم بمقتل منفذيه، فتوجهت أنظار السلطات الفرنسية إلى فرض سيطرتها على المنطقة ليتمكنوا من فرض الاستقرار في بقية مستعمراتهم الإفريقية [5]، وهو ما صرحه به هنري وولف (Henri Wolff) قائلاً: " لن تكون

---

[1]- Derrien Isidore, **Le chemin de fer trans-saharien d'Oran au Touat**, **par Tlemcen et l'Oued Messaoura**, Adolphe Perrier éditeurs –imprimeur, oran, 1879, pp6-40.

[1]- Adolphe Duponchel, L**e chemin de fer transsaharien**, **jonction coloniale entre l'Algérie et le Soudan**, Montpellir typographie, paris, 1878, p373.

[2]- Victor Colonieu, **Le tracé central du chemin de fer Trans-Saharien**, Langres Imprimerie De E.Luuillier, paris, 1880, pp10-23.

[3]- Maurice Wahl, **L'Algérie**, librairie Germer Bailleres et Cie, Paris, 1882, p200.

[4]- Camille Sabatier, Touat, Sahara, Soudan, op.cit, p119.

[5]- Schrader Franz, **Le chemin du Touat**, journal hebdomadaire des instituteurs, N59, T28, 1892, paris, pp163-164.

مستعمراتنا الإفريقية هادئة حقيقة إلا حينما يرفرف العلم الفرنسي في الصحراء على قصر عين صالح"[1]، فمنذ سنة 1889م بدأت فرنسا تفكر جدياً في احتلال توات بالطرق السلمية الهادئة، وذلك بإقامة المؤسسات الاقتصادية، وإنشاء المراكز التجارية الصحراوية [1]، وفي ذلك يقول الحاكم العام الفرنسي للجزائر سنة 1893م مبيناً أهمية منطقة توات الاقتصادية لفرنسا وحاثاً أيَّاها على التمسك بالصحراء الجزائرية وخاصة توات قائلاً: "ستؤول الصحراء إلى غلبتنا، ولن نركن ولو بالقوة إلى سلطة سوى سلطتنا في منطقة توات وعين صالح وغيرهما من المناطق، فليكن الأهالي على اقتناع بأن احتلال هذه المناطق الفعلي ليس إلا مسألة من المسائل الظرفية عندنا...وسيتحقق هذا الاحتلال دون أن نأخذ بعين الاعتبار تلك الاحتياجات التي قد يدفع إليها عملنا "[2].

وعلية فإن منطقة توات لم تكن تمثل في نظر الحكومة الفرنسية بباريس محطة تجارية فحسب، بل مركزاً أمنياً وموقعاً استراتيجياً يؤمن موقعها في القارة الإفريقية عموماً والساحل الإفريقي بشكل خاص، من ثم حاولت عزلها وفصلها عن باقي أقاليم الجزائر عبر جملة من القوانين والتشريعات الاستثنائية حتى تصبح إقليماً فرنسياً خالصاً.

خلاصة الفصل الرابع

يظهر لنا من خلال ما سبق في هذا الفصل أن منطقة توات كانت تضطلع بدور اقتصادي مهم في الصحراء الجزائرية خلال القرن التاسع عشر، وخلال عملية الاستكشاف الأوروبي للجنوب اهتم الفرنسيون خاصة بدراسة الإمكانات الاقتصادية التي تتوفر عليها هذه المناطق، إذ تعتبر كتابات الرحالة والمبعوثين الفرنسيين من المصادر التاريخية المهمة في هذا الجانب، وقد أجمعت هذه الدراسات والتقارير أن توات اكتسبت تلك المكانة الاقتصادية المرموقة بفضل موقعها الاستراتيجي في قلب الصحراء الإفريقية الكبرى، ما جعلها نقطة عبور نحو مختلف الحواضر الإفريقية والعربية.

تعتمد الزراعة على المصادر المائية الجوفية، وبفضلها قامت الحياة الزراعية في منطقة صحراوية لا تستفيد من المياه المتساقطة، وقد برع التواتيون في استغلال هذه المياه بتقنية الفقارة التي سمحت لهم بزراعة الأراضي والاستفادة من محاصيلها في مختلف ميادين حياتهم، وقدمت الدراسات الفرنسية إحصاءات عن هذه الفقارات، مع إبراز أهميتها في النشاط الزراعي التواتي، وبينت أن التواتيين مارسوا

---

[1]- Henri Wolff, A.Blachére, **Sahara et Soudan**, **les Régiments de Dromadaires**, Challamel Ainé, Editeur, Paris,1884, p78.

[1]– الطاهر موساوي، المرجع السابق، ص74.

[2]– أندري نوشي وآخرون، المرجع السابق، ص392.

النشاطات الزراعية التي كان أهمها زراعة النخيل المنتج لمختلف أنواع التمور، وإن قدمت هذه الدراسات إحصاءات متضاربة حول عدد النخيل في توات، وعن كمية إنتاجها من التمور سنوياً، إلا أنها أجمعت على أهمية هذا النشاط الزراعي باعتباره يشكل عماد تغذية السكان وأساس نشاطهم التجاري.

وبين أشجار النخيل زرع الإنسان التواتي مختلف أنواع المزروعات خاصة المعيشية منها بغرض تحقيق الاكتفاء الذاتي، إذ ينتج في تلك المساحات الضيقة القمح، الشعير، البشنة، التافسوت، بعض الخضر والفواكه، بالإضافة إلى الزراعات التجارية كالحناء، التبغ، القطن. كما اشتهرت المنطقة بتربية الحيوانات الأليفة التي تناسب البيئة الصحراوية داخل البساتين والبيوت بغرض توفير اللحوم، وكانت السلالة المشهورة من الأغنام "الدمان" المتميزة بالصغر وقلة الشعر، بالإضافة إلى المعز والإبل، كما انتشرت تربية الدواجن خاصة الدجاج للاستفادة من بيضها ولحمها، مع العلم أن هذه الثروة الحيوانية كانت قليلة ولا تلبي حاجيات السكان من اللحوم.

اعتمد التواتيون على ما تجود به الطبيعة من خامات معدنية وأخرى زراعية وحيوانية، بالإضافة إلى المهارات اليدوية المكتسبة والمتوارثة في إقامة صناعات تقليدية، فقد بينت تقارير المبعوثين الفرنسيين أن المنطقة تحتوي على جملة من المقدرات المعدنية منها: الملح الصخري، الكبريت، الحديد، الألماس، النحاس، الرصاص، وغيرها، لكنها لم تكن مستغلة لجهل السكان بالطرق والأساليب التقنية الحديثة، فقد ظلت الصناعة تقليدية ويدوية تمثلت أساساً في الصناعة النسيجية، الطينية والحجرية، الخشبية، الجلدية، الحديدية، الحلي ولوازم الزينة، التي اكتسبت شهرة محلية وإقليمية.

استهوى النشاط التجاري بالمنطقة المستكشفون الأوروبيون، وكان للفرنسيون دوراً بارزاً في هذا الميدان خاصة بعد أن احتلوا الشمال الجزائري، ما جعلهم يتطلعون إلى الدور التجاري للمنطقة في الصحراء، فدرسوا أهم الأسواق في توات خاصة سوق تيميمون، تيمي، تمنطيط، عين صالح، كما قدمت كتاباتهم معلومات مهمة عن النظم والوسائل التجارية من عملات ومكاييل وموازين ومقاييس ووسطاء تجاريون، بالإضافة إلى دراسة أهم المسالك والطرق التجارية التي تربط توات بغيرها من الحواضر المجاورة، وأهم المراكز والأسواق التجارية التي يتعامل معها تجار توات تصديراً واستيراداً، بالإضافة إلى تقديم إحصاءات عن أهم السلع والأسعار المتداولة بين هذه الأسواق وأسواق توات.

ومنذ العقد الثامن من القرن التاسع عشر زاد اهتمام السلطات الفرنسية بتوات، بعد أن أدركت من خلال تقارير مبعوثيها أهميتها في تنشيط حركة القوافل التجارية بين الشمال والجنوب، فاستعملت

كل الأساليب لتنشيط هذه الحركة التجارية التي توقفت بعد مقاطعة السكان لهم منذ بداية توسعهم في الصحراء، فأسست سنة 1880م لجنة مختصة في تنظيم وتطوير القوافل التجارية بين أسواق الشمال وأسواق توات، وعملت على تضخيم وتقوية هذه القوافل وتزويدها بمختلف السلع المطلوبة، فنمت المبادلات التجارية عبر هذا الخط، كما برزت أهمية توات الأمنية والإستراتيجية في مشروع فرنسا لربط الجزائر بغرب إفريقيا عن طريق السكة الحديدية، ما جعلها تفكر جدياً في السيطرة على المنطقة عسكرياً بداية من نهاية هذا القرن.

خاتمة الأطروحة

على ضوء دراستنا لمنطقة توات خلال القرن التاسع عشر بناءً على ما جادت به كتابات الرحالين وتقارير المبعوثين والمستكشفين، وبعدما فصّلنا في جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية للمنطقة، اتضحت لنا جملة من النتائج أهمها:

- أشارت كتابات الرحالين والمؤرخين العرب إلى منطقة توات في العصور الوسطى والحديثة مثل "ابن بطوطة"، "ابن خلدون" وغيرهم، وهذا يدل على أن المنطقة كانت معروفة قبل هذه الفترة.

- خلال القرن الثامن عشر كانت محاولات محتشمة من طرف الأوروبيين لاكتشاف الصحراء الإفريقية ومنها توات، وقد حظي البريطانيون بالسبق في التعرف على هذه الصحراء، ثم نافسهم في ذلك الألمان، بينما تأخر الفرنسيون إلى غاية مطلع القرن التاسع عشر لانشغالهم بالتوسع داخل القارة الأوروبية أواخر القرن الثامن عشر.

- الرحلات العربية والمحلية في توات خلال القرن التاسع عشر كانت ضئيلة، ولم تستطع أن تنافس أو تزاحم التأليف الأوروبي عن المنطقة، إلا أن كُتاب هذه الرحلات هم من أهل العلم والمعرفة والاطلاع على ماضي المنطقة وحاضره، وهم في أول الأمر عرب ومسلمون لا يوقفهم حاجز اللغة، وبعيدون عن الأفكار المسبقة والنوايا السيئة مثل الأوروبيين، فلقد وصفوا توات ودوّنوا أخبارها، وتحدثوا عن شعبها ووصفوه بأحسن الأوصاف.

- كانت منطقة توات منذ مطلع القرن التاسع عشر محل اهتمام العديد من الرحالة والمستكشفين الأوروبيين على اختلاف جنسياتهم، من أهمهم: الانجليزي غوردن لانج" (Gordon Laing)، والألماني "جيرهارد رولفس" (Gerhard Rohlfs)، والفرنسي "رونييه كاييه" (René Caillié)، ومواطنه "أوجين دوماس"(Eugene Daumas)، وغيرهم.

- تزايد اهتمام فرنسا بمنطقة توات والصحراء الجزائرية عموماً بعد احتلالها للجزائر سنة 1830م، فكثفت من إرسال البعثات العسكرية والعلمية منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر لاستكشاف المنطقة، وتعددت الجهات الفرنسية التي كانت تبعثهم، وتباينت دوافعها، ومن أهمها: بعثة " الجنرال كافينياك" (Général Cavaignac)، وبعثة الضابط "دو كلومب" (De Colomeb)، وبعثة القائد "كولونيو" (Colonieu)، وبول صوليه (paul solleillet)

- استطاعت الرحلات والبعثات الاستكشافية جمع كم هائل من المعلومات حول الجوانب الإنسانية والعلمية عن منطقة توات، إلا أن أغلب تلك الأبحاث والدراسات بقيت حبيسة الكتب والمجلات والأرشيف.

– يدين الرحالة والمستكشفون الأوروبيون لمن سبقهم من العرب في وصف وتحديد الأماكن ومعرفة طبائع المجتمعات البشرية، ومع ذلك تبدو نظرة الاستعلاء والتكبر في كثير من كتاباتهم، فهم يرفضون الاعتماد على المصادر المحلية ويشككون في قيمتها، و يتهمونها بالتجرد والمبالغة، بل ينادون بالاعتماد على رحلات الأوروبيين وأرشيف الدول الأوروبية، ومع ذلك ترجموا العديد من الرحلات المحلية واعتمدوا على مترجمين عرب.

– أغلبية الرحالة والمستكشفين الذين دوَّنوا ما رأوا هم كتاب عسكريون بالمهنة أو تراجمة عسكريون، يجمعون بحماس شديد كلما يقع بين أيديهم من مصادر مكتوبة أو شفوية ومن آثار قديمة وحديثة، بهدف الوصول إلى فهم السكان وليس بغرض العلم، ويحصلون على تلك المصادر بالإغراء أو بالقوة، فلم يكونوا بذلك مؤرخين بالمعنى، بل معظمهم من الهواة ومن كتَّاب الثقافة العامة والانطباعات والمذكرات والتقارير الرسمية.

– ولمعرفة المزيد من طبائع السكان تقرب هؤلاء الرحالة والمستكشفون منهم وتطبعوا بطبائعهم لمعرفة المزيد عنهم، وهناك من كوَّن صداقات مع الأهالي، ورغم ذلك كراهية الأجنبي ظلت قائمة لدى السكان، فقد سجلنا عمليات ومحاولات اغتيال بعض الرحالة والمستكشفين، ولعل هذا يرجع إلى خصوصية المنطقة.

– يلاحظ أن كتابات الرحالة الذين مروا بتوات خلال القرن التاسع عشر قد عكست صورة واضحة عن المجتمع التواتي، وما حفل به من اختلافات بين سكانها بسبب التنوع العرقي واللغوي للأفراد، حيث بينت هذه الكتابات أن هذا المجتمع يشهد طبقية في تكوينه، متشكلة أساساً من الأشراف، المرابطين، الأحرار، الحراطين، العبيد، وقدموا أرقاماً وإحصاءات لعدد السكان حسب هذه الفئات.

– شهدت المنطقة تبايناً لغوياً، فرغم أن اللغة العربية هي السائدة ألا أن العديد من اللغات واللهجات كانت مستعملة مثل الزناتية والتارقية والسودانية، لكن هذا التفاوت الطبقي والتباين اللغوي لم يكن مدعاة للتفرقة بين أفراد المجتمع.

– مارست الجماعة التواتية مهامها بأسلوب تشاركي، وكانت تحظى باحترام الجميع، حيث أشرفت على تسيير الحياة اليومية داخل القصور التواتية، بمساعدة مجموعة من الأعوان ذوي خبرة وكفاءة، وقد اضطلعت الجماعة بمهام اجتماعية واقتصادية وأمنية، وبالتالي كانت تتمتع بسلطة تنفيذية في ظل غياب أي انتماء سياسي للمنطقة.

- قيام العدالة الاجتماعية يبدو واضحاً من خلال وجود النظام القضائي الذي استمد أحكامه من الشريعة الإسلامية، فكانت الشخصيات التي تتولى منصب القضاء من أشهر رجال العلم والدين.

- نال المجتمع التواتي إعجاب الرحالة والمستكشفين لتميزه بالعديد من القيم الاجتماعية كالتدين والأخلاق الحميدة والكرم وحسن الضيافة والتكافل الاجتماعي، مما جعل سلوكهم محل استغراب من المستكشفين، لأن هذه الصفات الحميدة لم تكن معهودة في مجتمعهم الذي يقدس الذات الفردية.

- عُرفت ظاهرة القصور والقصبات في العمارة التواتية، وهي كلها محاطة بأسوار خارجية وأحياناً بخنادق، وهذا دليل على قلة الأمن بالمنطقة حينئذ.

- شهدت المنطقة صراعاً مريراً بين مختلف القبائل التواتية، اشتد خلال القرن التاسع عشر، وأدى هذا الصراع إلى انقسام البلد الواحد إلى قسمين متناحرين، وهما قسم قبائل يحمد وقسم قبائل سفيان، وأسفرت الحرب بين الطرفين إلى تخريب العديد من قصور ومرافق توات.

- كان للمرأة التواتية دورٌ فاعلٌ في المجتمع، فلم تكن حبيسة بيتها، بل كانت لها إسهامات اجتماعية واقتصادية واضحة، إذ مارست العديد من الحرف اليدوية داخل بيتهما، كما ن الت جميع حقوقها، وحظيت بكثير من التقدير والاحترام.

- حافظ المجتمع التواتي على عاداته وتقاليده الخاصة بالزواج، الولادة، الختان، الوفاة، زيارة الأولياء والصالحين والمنسجمة مع تعاليم الدين الإسلامي، كما أولى التواتيون اهتماماً كبيراً بالاحتفالات الدينية كيوم عاشوراء والمولد الن بوي الشريف، من خلال تقديم الأطعمة وممارسة بعض الرقصات الشعبية.

- تميز المستوى المعيشي للسكان بالبساطة، فالتواتيون يعتمدون في عيشهم على ما توفره لهم بيئتهم الصحراوية القاسية من مواد نباتية وحيوانية، إذ تعد التمور والحبوب والحليب أساس الوجبات الغذائية اليومية، كما أن اللباس كان معظمه من القطن والصوف.

- في الجانب الصحي عرفت المنطقة خلال القرن التاسع عشر انتشار عدة أمراض وأوبئة فتاكة ، قضت على الكثير من السكان، وقد عالج السكان تلك الأمراض بما يتوفر لديهم من معادن وأعشاب طبية.

- لم تخلُ نظرة المستكشفين عن المجتمع من السوداوية، فقد شخصوا العديد من الآفات الاجتماعية التي يريدون من خلالها النيل من المجتمع التواتي والحط من قدره، وقطع الصلة بينه وبين المجتمعات الإسلامية.

– تميزت المنطقة خلال هذه الفترة بازدهار علمي وإشعاع ثقافي واسع، لكن المستكشفين الأوروبيين الذين اهتموا بالنواحي الاجتماعية من حياة السكان، غفلوا– أو تغافلوا– عن الجوانب الثقافية.

– لم يهتم المستكشفون بالمؤسسات الثقافية من كتاتيب ومدارس وزوايا، والتي كانت حينئذ جامعات اضطلعت بدور مهم في نشر الثقافة العربية الإسلامية بهذه المنطقة وفي مناطق واسعة من إفريقيا.

– لا شك أن المادة الثقافية شهدت قصوراً كبيراً عند الأوروبيين، لأنهم كانوا يعتمدون إلى تفسير ظواهر تتطلب في الأساس خلفية لغوية، أي عمق في فهم العربية والإسلام، وهذا ما لم يتسنَّ إلا للقليل منهم، ويضاف إلى ذلك أن البعض كان يحمل فكراً عنصرياً ومال في الغالب إلى الأفكار العنصرية.

– إن تغييب مظاهر تلك الثقافة ربما لا يكون بريئاً، ومنه يحق لنا التساؤل عما إذا كان في الأمر إقصاء متعمد ومحاولة لبتر هذه المنطقةعن جذورها الحضارية والثقافية؟

– عرفت الطرق الصوفية انتشاراً واسعاً بالمنطقة، واضطلعت بدور ثقافي هام خلال هذه الفترة، فقد أشرفت على العديد من الزوايا والمدارس، واحتضنت اللغة العربية والثقافة الإسلامية، ناهيك عن دورها في مقاومة الاستعمار نهاية هذا القرن.

– استرعت انتباه الرحالين والمستكشفين الأوروبيين طريقة الري عن طريق الفقارة، التي بفضلها قامت الحياة الزراعية في منطقة صحراوية لا تستفيد من المياه المتساقطة.

– رغم كثرة المعيقات الطبيعية وقلة الوسائل وبدائيتها، مارس التواتيون النشاط الزراعي بشكل واسع، وتمثلت أهم المنتوجات الزراعية في محاصيل معاشية مثل التمور والحبوب، وأخرى تجارية مثل التبغ والحناء، بالإضافة إلى تربية المواشي داخل البيوت والبساتين.

– رغم قلة المواد الأولية المعدنية والنباتية والحيوانية التي تتوفر عليها المنطقة، إلا حسن استغلال الإنسان التواتي لها ساهم في إقامة صناعة تقليدية اكتسبت شهرة محلية وإقليمية كالصناعة النسيجية والطينية والخشبية والجلدية.

– استقطب النشاط التجار ي لدى التواتيين حيزاً مهماً في اهتمامات الرحالين والمستكشفين أثناء القرن التاسع عشر، وقد أجمعت تقاريرهم على الاز دهار التجاري للمنطقة رغم قساوة الصحراء، مستفيدة من عدة عوامل طبيعية وإستراتيجية وأمنية.

– نشطت بالمنطقة عدة أسواق تجارية كانت تعج بالسلع ، وتفد إليها القبائل والقوافل التجارية من كل الحواضر المجاورة، أهمها: سوق تيميمون، سوق تيمي، سوق تمنطيط، سوق عين صالح.

– التعامل التجاري السائد في هذه الأسواق هو المقايضة، وهذا لا يعني عدم وجود العملات النقدية، فقد بينت تقارير المستكشفين أن المنطقة كانت مسرحاً لتداول العديد من العملات المحلية والأجنبية، لكنها كانت غير متوفرة بالشكل الكافي، فقد استعملت العملات الجزائرية والإفريقية والأوروبية.

– المعاملات التجارية كانت مضبوطة الموازين والمقاييس والمكاييل، كما كانت مدعمة بوسطاء ووكلاء تجاريين، كالدلال والسمسار والصراف والوكيل لتسهيل التعامل التجاري.

– كانت توات نقطة التقاء وعبور للقوافل التجارية المتجهة نحو مختلف الجهات، فمثلت رابطاً أساسياً وحلقة وصل وجسر اتصال بين مختلف المراكز الصحراوية ، تتقاطع عندها مختلف المسالك التجارية العابرة للصحراء.

– شهدت العلاقات التجارية بين توات ومختلف الأسواق الخارجية في المناطق المجاورة ازدهاراً كبيراً، خاصة مع أسواق السودان الغربي، وأسواق الشمال الجزائري، غير أن احتلال فرنسا للشمال الجزائري في العقد الثالث من هذا القرن عرقل هذه النشاط التجاري.

– كانت السلع المتبادلة مع الأسواق الخارجية تشمل نوعين، الأول ما تنتجه توات محلياً والثاني سلع أجنبية مستوردة من الخارج، سواء الوافدة من الشمال المتوجهة نحو الصحراء، أو العكس، فكانت توات تلعب دور الوسيط بين هذه الأسواق.

– ازداد اهتمام فرنسا بتجارة توات منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر، وزاد حماس الفرنسيين للاستئثار بتجارتها مستغلين كل الوسائل العلمية والاقتصادية والعسكرية والسياسية، التي أدت إلى السيطرة العسكرية على المنطقة نهاية هذا القرن.

– إذا ما نظرنا إلى كتب الرحالة من حيث كونها مصدراً لدراسة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فإننا نجد فيها مادة لا نجدها عادة في المصادر المحلية، فهؤلاء هم أبناء بنية حضارية أخرى وقد استرعت أنظارهم حقائق وقضايا قد لا يهتم بها المؤرخ من أبناء البلد أو البيئة الحضارية ذاتها.

– تعاني المصادر العربية نقصاً في الاهتمام من ناحية الدراسات الجادة ، على خلاف الغرب الذين اهتموا بها، وما من شك أننا نجد فيها الكثير مما يساعد على تتبع الحوادث أو تصور الحقائق، غير أن نظرة الغربيين وتحليلهم يصيب أحياناً ويخطئ أحياناً كثيرة، وقد ركزوا على ما يهمهم فقط وتركوا الباقي.

– ومع اعترافنا بشجاعة وروح المغامرة التي تحلى أولئك الرحالة الأوروبيون في ارتياد مناطق كان العالم يجهل عنها الكثير؛ باستثناء ما قدمه بعض المؤرخين العرب من معلومات عنها، واعترافنا أيضاً بالأهمية

البالغة التي أضافتها المعلومات التي قدمها أولئك الرحالة عنها، إلا أنه يجب أن لا ننسى أو نغفل في نفس الوقت، بأن أولئك الرحالة وعلى الرغم من اقتصار بعضهم على النواحي العلمية والجغرافية والتاريخية في أبحاثهم ودراساتهم، كان الغالبية منهم قد قدَّموا معلومات هامة عن المنطقة استفاد منها ووظفها الفرنسيون لوضع مخططات لاحتلال المنطقة.

- لقد عجز أولئك المستكشفون وهم يقومون برحلاتهم الخاطفة في توات عن إدراك الديناميكية الداخلية للمجتمع التواتي، فسقطوا أحياناً كثيرة في التبسيط واستسلموا للأحكام الجاهزة، كما أن عدم فهم الحقائق الصحراوية قد زادت من حدته رؤيتها من منظور الذات المركزية الأوروبية، ورغم ذلك فإن هذه الرحلات تبقى فضاء مفتوحاً على الذات والآخر في الوقت نفسه.

- إن أي دراسة لتاريخ هذه المنطقة لا تعطي لهذا الصنف من مصادره الأساسية ما يستحق من عناية لن تستطيع بناء تصور متكامل عنه ، غير أن القراءة الساذجة لنصوص الفرنسيين تظل مزلقاً على الدارس أن يحذر الوقوع فيه، فهي -على أهميتها- تبقى إطلالة خارجية على المجتمع الذي تصفه.

- إن النذر القليل الذي توصلنا إليه عن المنطقة مازال في أنفسنا شيء منه، لأن العديد من الأفكار في اعتقادنا أنها مازالت مغمورة، ولم تنل حظها من الكتابة، يعني أن تاريخ توات عبر الأزمنة يجب النظر إليه بعين الاهتمام لأننا تركنا الرحالة الأوروبيين هم الذين يهتمون بتاريخنا والبحث فيه، فالتقارير الأجنبية التي كانت تُكتب إلى الجمعيات الجغرافية أو إلى الغرف التجارية في فرنسا مازال يكتنفها الغموض والإبهام، وتحتاج إلى كثير من الجهد والوقت للاهتمام بها.

وفي ختام هذا البحث الذي اتخذ من كتابات الرحالة والمستكشفين للبحث في بعض الجوانب الحضارية لتوات، يمكن أن نقترح بعض التوصيات أو التصورات هي كالآتي:

- ترجمة كتابات وتقارير الرحالة والمستكشفين الأوروبيين عن المنطقة والجزائر عامة، وإنشاء مراكز متخصصة في ذلك، مثلما قام به الأشقاء الليبيون، حيث ترجموا معظم الكتابات الأجنبية التي تناولت أقاليمهم.

- إقامة مؤتمرات وندوات علمية سنوية وطنية ودولية تعنى بتاريخ المنطقة، ودراسة أحوالها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية اعتماداً على الكتابات الأجنبية.

- تشجيع الطلبة والباحثين على تناول مواضيع مرتبطة بالتاريخ المحلي، ومن المواضيع التي نقترحها للبحث مستقبلاً: المرأة التواتية بعيون المستكشفين الأوروبيين خلال القرن التاسع عشر، الاهتمام الفرنسي بالتجارة التواتية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

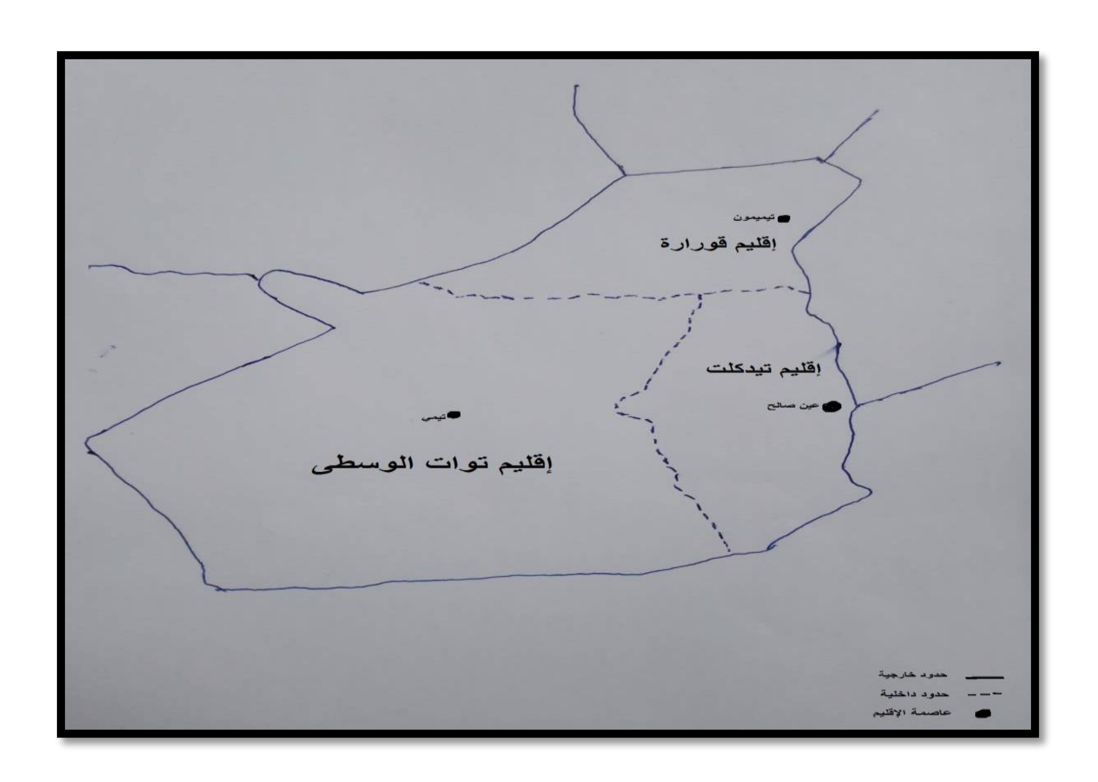
نرجو أن يساهم هذا البحث في إماطة اللثام عن بعض الجوانب الحضارية من تاريخ بلادنا، آملين أن يكون لبنة في طريق الباحثين عن تراث المنطقة وكشف أغوار تاريخها.

الملاحق

الملحق رقم 01: خريطة توضح موقع منطقة توات في الجزائر



الملحق رقم 02: خريطة لأقاليم توات الثلاث وعواصمها



من إنجاز الباحث بناءً على مصادر الدراسة

الملحق رقم 03: جدول لأهم الرحلات والبعثات الاستكشافية إلى توات في القرن 19م

الرحالة	بلد الأصل	تاريخ الرحلة	مسار الرحلة	ملاحظات
غوردن لانج	إنجلترا	1825-1826	لندن- طرابلس- غدامس – غدامس- عين صالح- أقبلي- تمبكتو	تم اغتياله
رونييه كاييه	فرنسا	1828	تمبكتو- توات- تافيلالت- فاس- الرباط- طنجة	
أوجين دوماس	فرنسا	1843	الجزائر- وهران- فقيق- سعيدة- حدود إقليم قورارة.	
		1845	الجزائر- غرداية- المنيعة- حدود إقليم تيدكلت	
الجنرال كافينياك	فرنسا	1847	تلمسان- الغور- عين الصفراء- حدود توات	
لويس دوكلومب	فرنسا	1857	البيض- الأبيض سيد الشيخ- قورارة- توات	
فيكتور كولونيو	فرنسا	1860	سعيدة- البيض- الأبيض سيد الشيخ- قورارة- توات الوسطى	لم تفتح له أبواب قصور توات
جيرهارد رولفس	ألمانيا	1864	طنجة- تافيلالت- واد الساورة- توات الوسطى- تيدكلت- غدامس	

بول صولييه	فرنسا	1872-1874	الجزائر- الأغواط- غرداية- متليلي- المنيعة- عين صالح	
مارسال بالات	فرنسا	1886	البيض- المنيعة- قورارة- تيدكلت	تم اغتياله
كامبي دولس	فرنسا	1887-1888	تافيلالت- تندوف- رقان- أقبلي	تم اغتياله

من إنجاز الباحث بناءً على ما ورد في مضمون الدراسة

الملحق رقم 04: صور أبرز المستكشفين الأوروبيين لتوات خلال القرن 19م



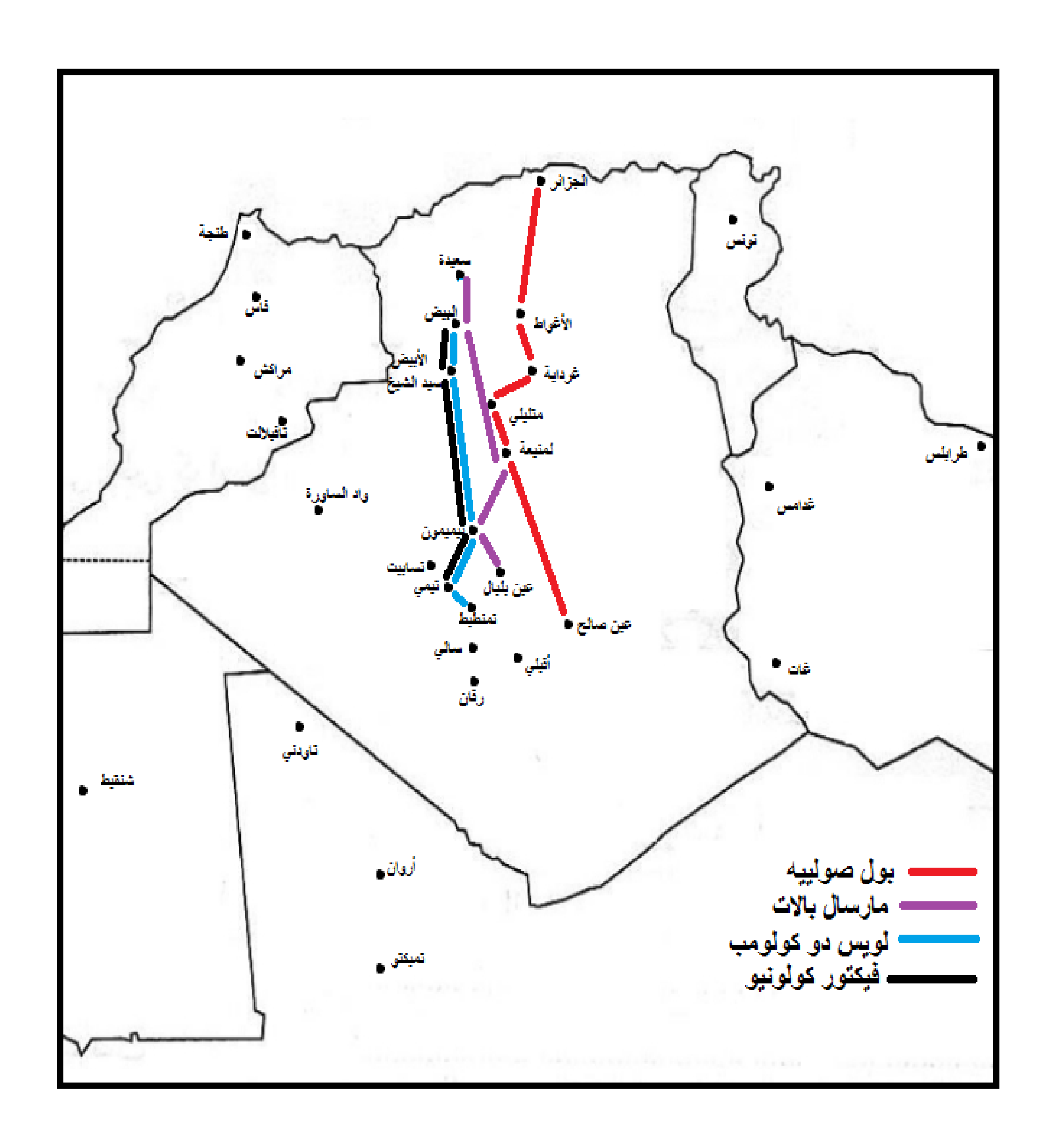
رونييه كاييه — أوجين دوماس

كامي دولس — الجنرال كافينياك

لويس دو كولومب — جيرهارد رولفس

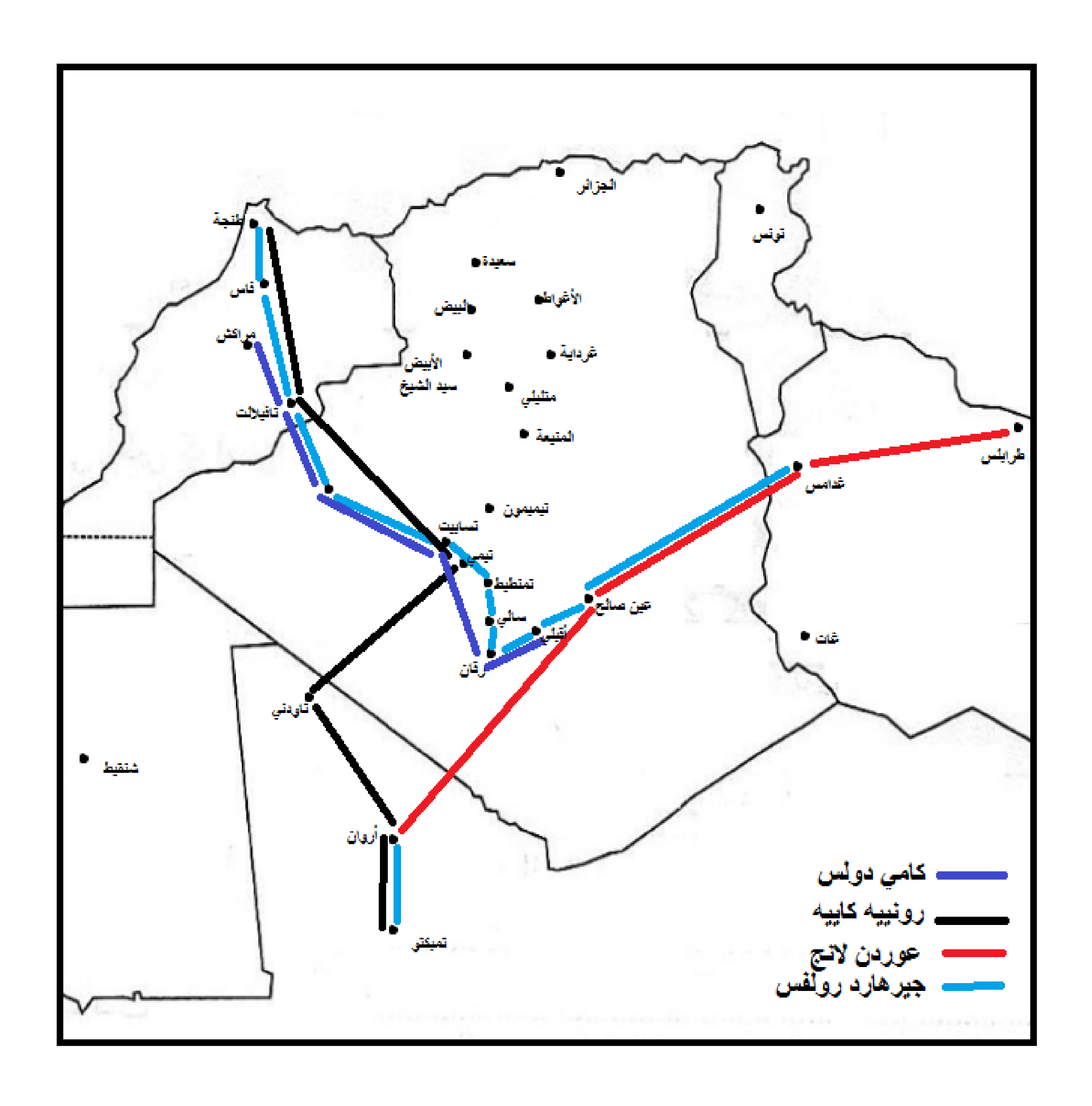
https://gallica.bnf.fr

الملحق رقم05: خريطة مسار الرحلات الاستكشافية الأوروبية لتوات من داخل الجزائر خلال القرن 19م



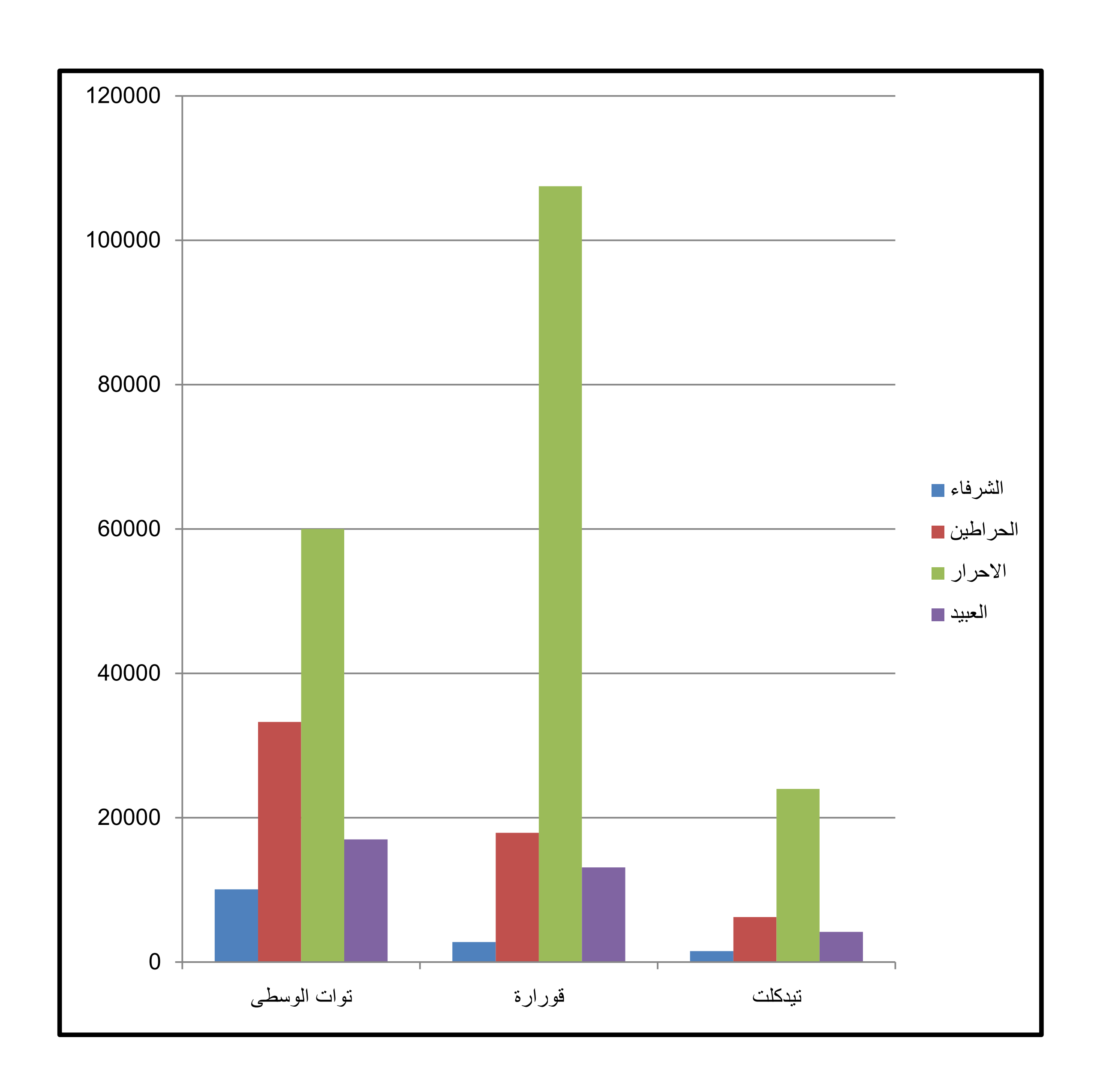
من إنجاز الباحث بناءً على ما ورد في مضمون الدراسة

الملحق رقم 06: خريطة مسار الرحلات الاستكشافية الأوروبية لتوات من خارج الجزائر خلال القرن 19م



من إنجاز الباحث بناءً على ما ورد في مضمون الدراسة

الملحق رقم 07: أعمدة بيانية لفئات المجتمع التواتي حسب الأقاليم سنة 1891م



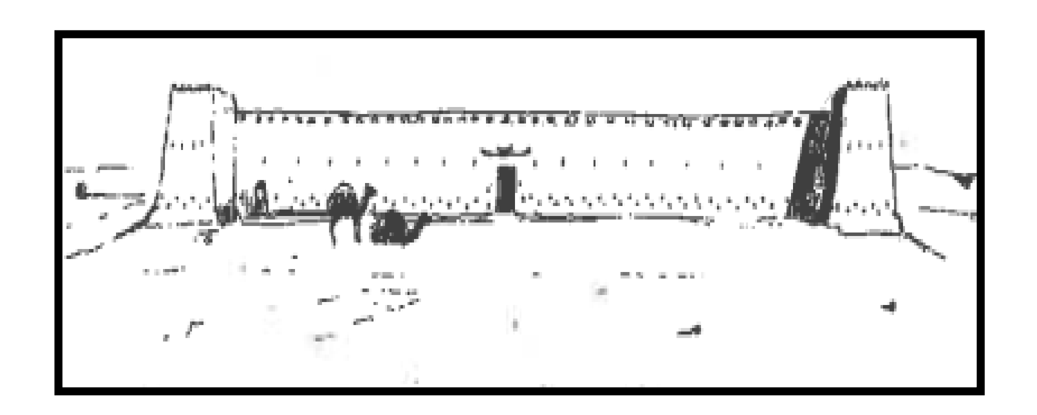
من إنجاز الباحث بناءً على ما ورد في مضمون الدراسة

الملحق رقم **08**: حروف التيفيناغ وما يقابلها بالعربية والفرنسية

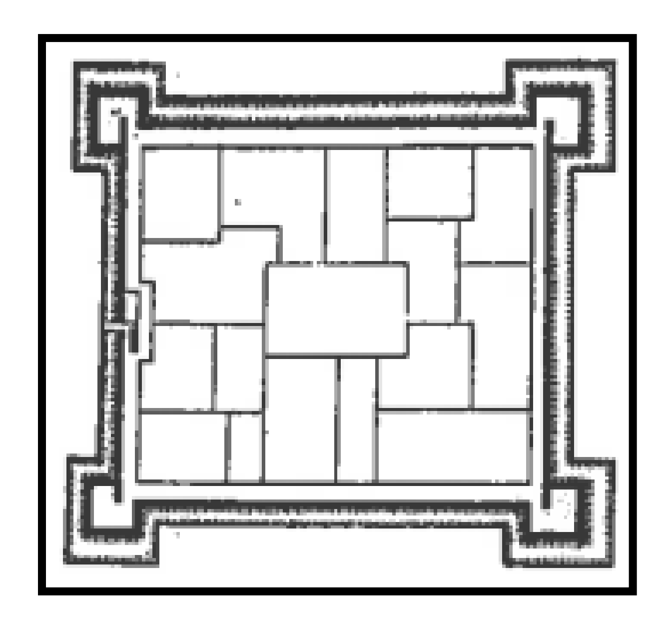
Prononciation.	Arabe.	Tifinag.	Français.
Elif	ا	ⵉ	A.
Bé	ب	ⴱ	B.
Tè	ت	+	T.
Thê	ث		Th.
Djim	ج	ⵊ	Dj.
Hha	ح	ⵃ	Hh.
Kha	خ	ⵅ	Kh.
Dal	د	ⵓ	D.
Dhal	ذ		Dh.
Ré	ر	ⵔ	R.
Zè	ز	ⵣ	Z.
Tta	ط	ⵟ	Tt.
Zha	ظ	ⵥ	Zh.
Kaf	ك	ⴾ	K.
Lam	ل	ⵍ	L.
Mim	م	ⵎ	M.
Noun	ن	ⵏ	N.
Ssad	ص	#	Ss.
Ddad	ض		Dd.
Aïn	ع	⋮	V.
Ghraïn	غ	ⵗ	Ghr.
Fé	ف	ⴼ	F.
Qaf	ق	ⵇ	Q.
Sin	س	ⵙ	S.
Chin	ش	ⵛ	Ch.
Hé	ه	ⵀ	H.
Waou	و	:	W.
Lam-elif	لا		La.
Yê	ي	ⵢ	Y.

Abd al Kadir Touati, **op**.**cit**, **p07**.

الملحق رقم 09: أشكال رسمها المستكشفون للقصور والقصبات التواتية



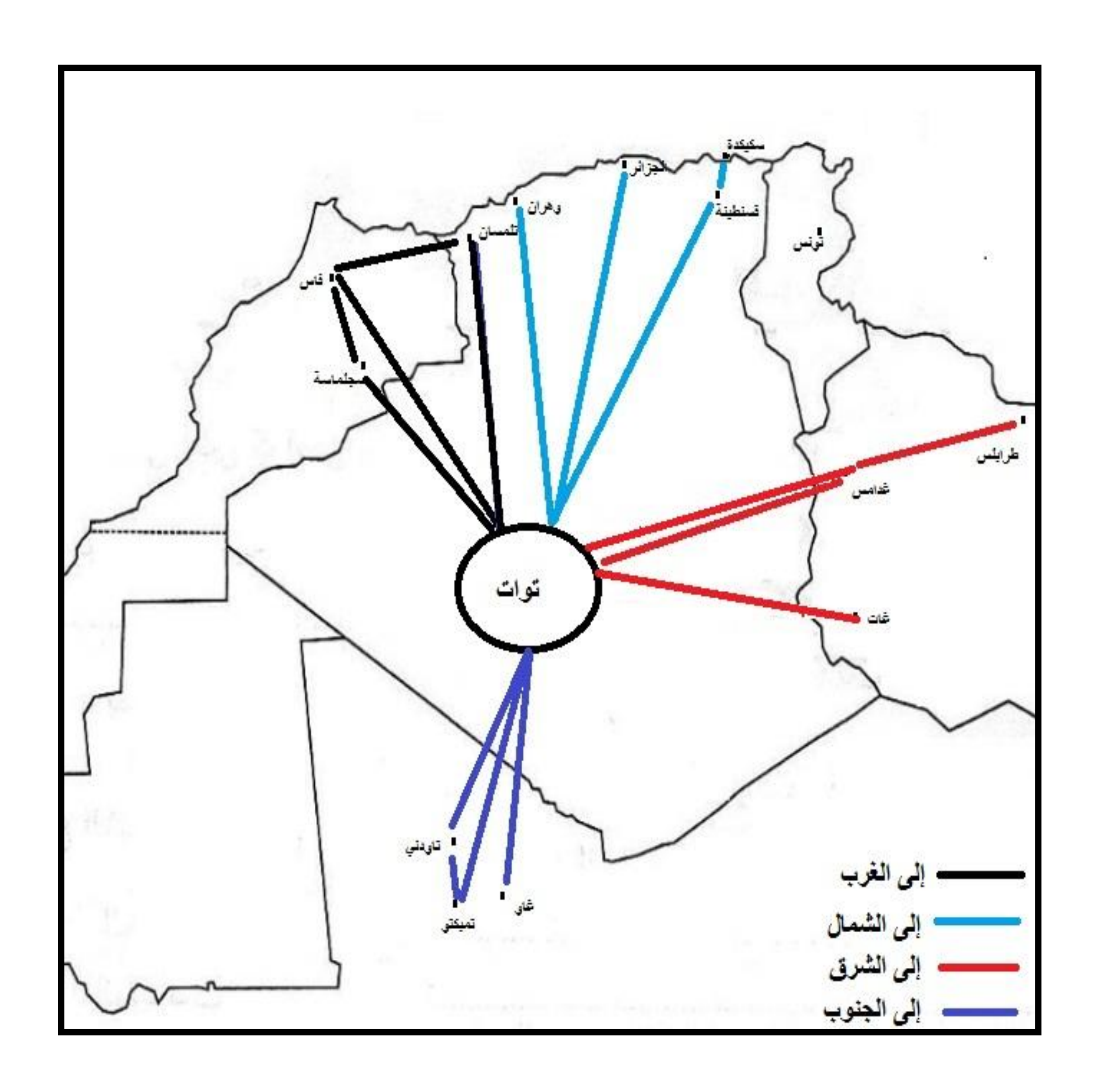
قصر أولف من الجهة الأمامية



مخطط لقصبة في تيدكلت

Gerhard Rohlfs, Voyages et Explorations au Sahara, op.cit, pp225-245

الملحق رقم 10: خريطة أهم المسالك التجارية من وإلى توات خلال القرن 19م



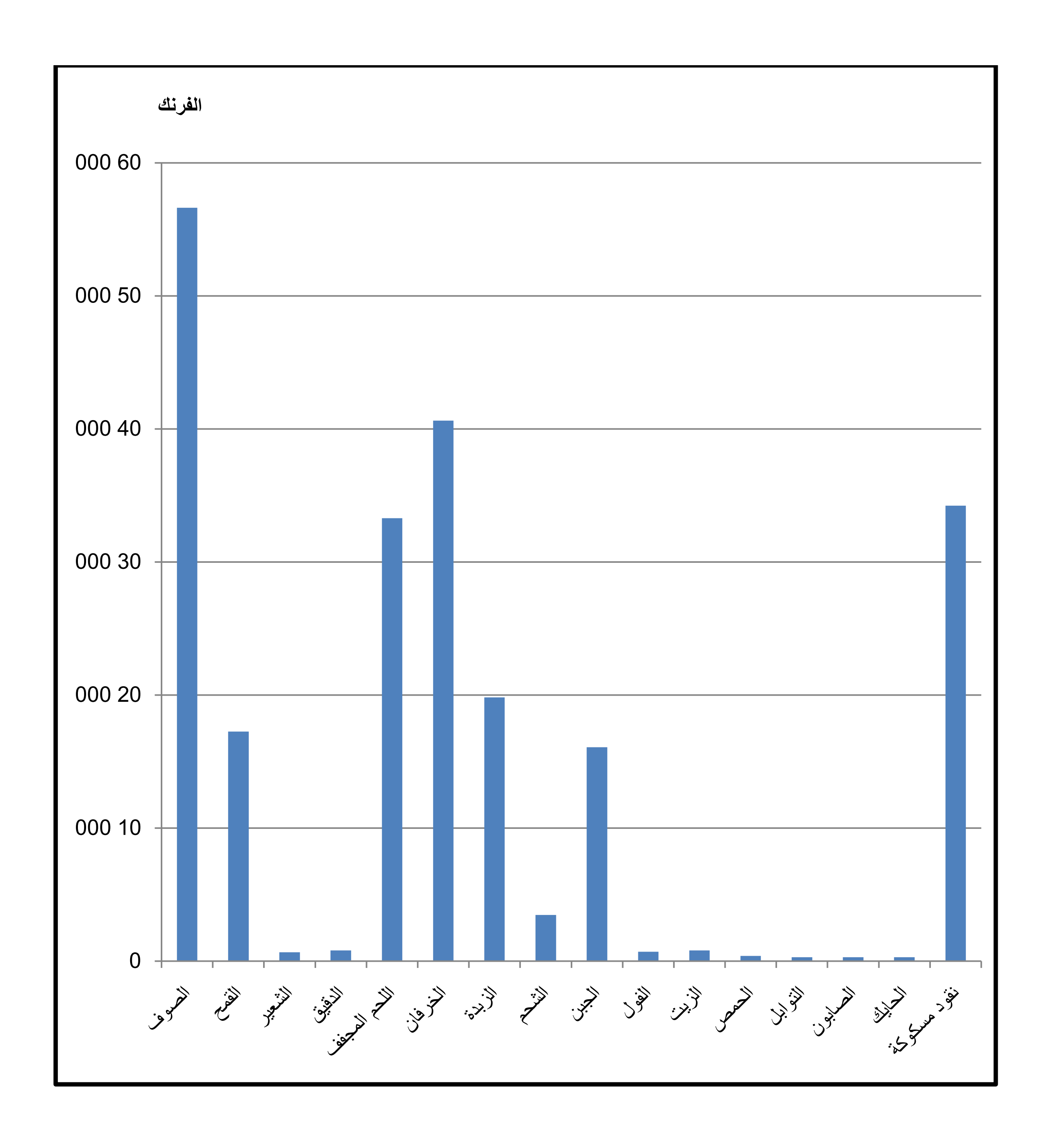
من إنجاز الباحث بناءً على ما ورد في مضمون الدراسة

الملحق رقم 11: جدول لأهم السلع الواردة من الشمال الجزائري إلى توات من طرف قبيلة حميان سنة 1886–1887م

المادة	الكمية	الثمن/ بالفرنك
الصوف	37.758 جزة	56.637
القمح	11.501 ديكالتر	17.251
الشعير	950 ديكالتر	665
الدقيق	250 ديكالتر	812
اللحم المجفف	6.657 ديكالتر	33.285
الخرفان	2.257 رأس	40.626
الزبدة	661 قربة	19.830
الشحم	1.159 قربة	3.477
الجبن	4.018 ديكالتر	16.072
الفول	340ديكالتر	595
الزيت	651 لتر	653
الحمص	95 ديكالتر	237
التوابل	32 كيلوغرام	64
الصابون	13 كيلوغرام	05
الحايك	01 بيصة	08
نقود مسكوكة	/	34.235
مجموع القيمة المحمولة		224.453

Henri Schirmer, op.cit, p412.

الملحق رقم 12: أعمدة بيانية لأهم السلع الواردة من الشمال الجزائري إلى توات من طرف قبيلة حميان سنة 1886–1887م

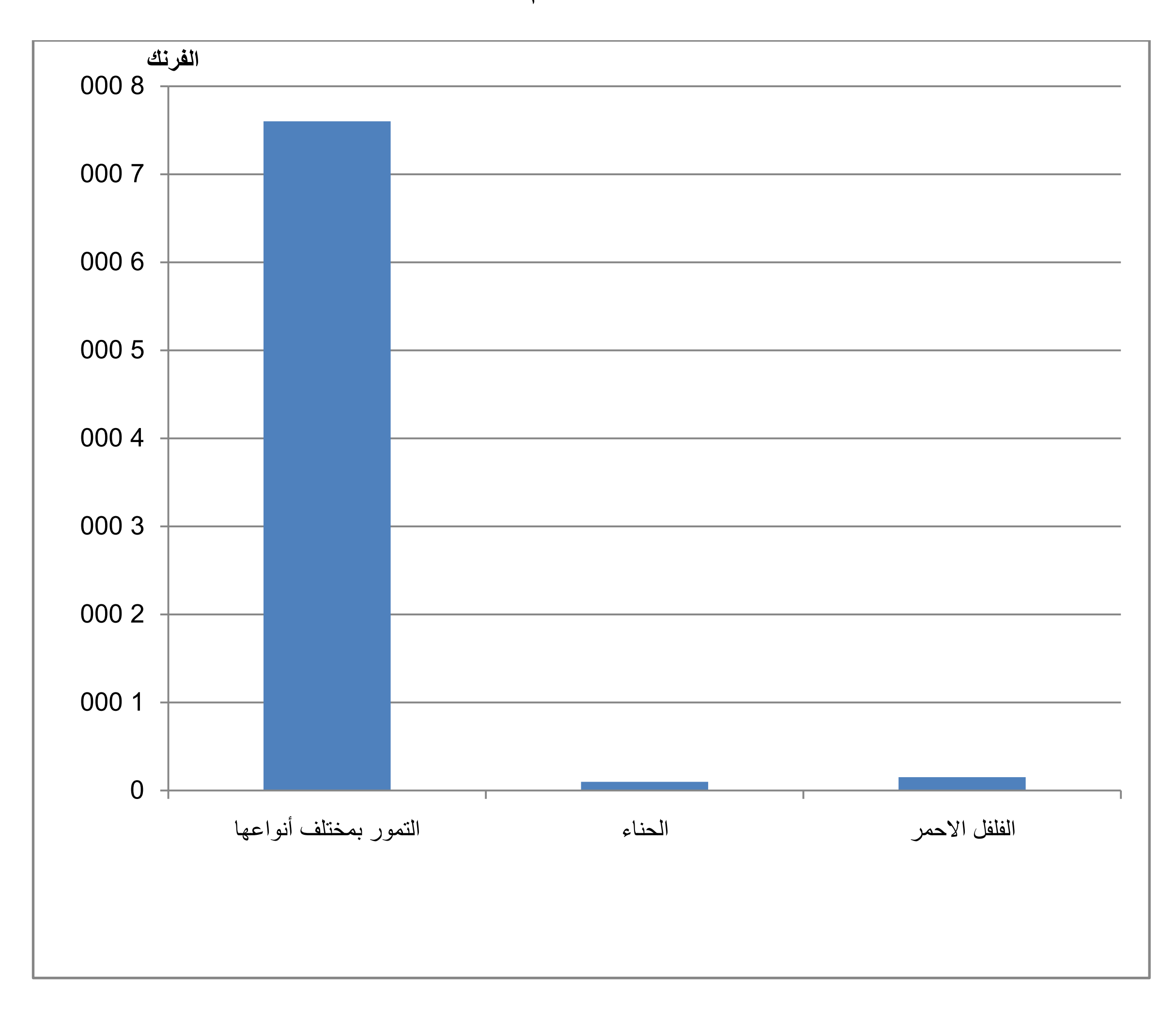


من إنجاز الباحث بناءً على مصادر الدراسة

الملحق رقم 13: جدول السلع الصادرة من توات إلى الشمال الجزائري سنة 1886م

المادة	الكمية
التمور بمختلف أنواعها	7.602 حمل
الحناء	08 أحمال
الفلفل الأحمر	10 أحمال
مجموع القيمة المصدرة 491.755 فرنك	

الملحق رقم 14: أعمدة بيانية للسلع الصادرة من توات إلى الشمال الجزائري سنة 1886م



من إنجاز الباحث بناءً على مصادر الدراسة

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

– القرءان الكريم برواية ورش عن نافع

– السنة النبوية (سنن الترمذي)

أولاً: المصادر

أ– المصادر المخطوطة:

01- البلبالي عبد العزيز، **غنية المقتصد السائل فيما وقع في توات من القضايا والمسائل** ، مخطوط بخزانة بن عبد الكبير، المطارفة، أدرار.

02- بن هاشم مولاي أحمد، **رحلة مولاي أحمد بن هاشم** ، مخطوط بخزانة أدغاغ، بلدية أدرار، أدرار.

03- المهداوي عبد القادر بن عمر، **الدرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية**، مخطوط بخزانة الوليد بن الوليد، قصر با عبد الله، تيمي، أدرار.

04- القبلاوي الفلاني أبو عبد الله، **رحلة الفلاني القبلاوي** ، مخطوط بخزانة مولاي عبد الله سماعيلي، زاوية كنتة، أدرار.

05- التمنطيطي محمد بن عبد الكريم، **جوهرة المعاني فيما ثبت لدي من علماء الألف الثاني**، مخطوط بالخزانة البكرية، تمنطيط، أدرار.

06- التمنطيطي محمد بن عبد الكريم، **درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام**، مخطوط بخزانة سيدي عبد الله البلبالي، كوسام، أدرار.

07- التنلاني عبد الرحمن بن إدريس، **الرحلة إلى ثغر الجزائر**، مخطوط بخزانة كوسام، تيمي، أدرار.

ب– المصادر المطبوعة:

– باللغة العربية

08- بن أُبَّ ضيف الله بن محمد، **رحلتي لزيارة قبر الوالد** ، تح: أحمد أبا الصافي جعفري، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2015م.

09- البوداوي محمد بن عمر، **نقل الرواة عمن أبدع قصور توات** ، تح: مولاي عبد الله سماعيلي، ط1، دار الكلمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015م.

10- ابن بطوطة محمد بن عبد الله، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** ، تح: عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1997م، مج01.

11- الوزان الحسن بن محمد، **وصف إفريقيا**، ط2، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م.

12- الولاتي البرتلي، **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور**، تح: محمد ابراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م.

13- الونشريسي أحمد أبو العباس، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى وعلماء افريقية والأندلس والمغرب**، تح: محمد حجي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م، ج8.

14- ابن حوقل أبو القاسم، **صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، 1992م.

15- الطاهري الإدريسي مولاي أحمد، **نسيم النفحات من أخبار توات ومن بها من الصالحين والعلماء الثقات**، تح: مولاي عبد الله طاهري، د.ن، الجزائر، 2010م.

16- اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب، **كتاب البلدان وصف إفريقيا الشمالية** ، تح: هنري بيريس، مطبعة بريل، 1890م.

17- الكرسيفي عمر بن عبد العزيز، **رسالة في تحقيق السكك المغربية في القرون الأخيرة**، تح: عمر أفا، ملحق بكتاب النقود المغربية في القرن الثامن عشر أنظمتها وأوزانها في منطقة سوس، ط 1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1993م.

18- المراكشي ابن عذارى، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب** ، ط03، تح: كولان وليفي بروفنسال، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م، ج1.

19- مجهول، **تقييد ما اشتمل عليه إقليم توات من الأيالة السعدية من القصور ووثائق أخرى** ، المطبعة الملكية، الرباط، 1962م.

20- الناصري أبو العباس أحمد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى** ، تح: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954م، ج2.

21- السملالي العباس بن ابراهيم، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام** ، تح: عبد الوهاب منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1993م.

22- ابن عبد الرحيم محمد الطيب (ابن بابا حيدة)، **القول البسيط في أخبار تمنطيط**، تح: فرج محمود فرج، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977م.

23- العياشي أبو سالم، **الرحلة العياشية (ماء الموائد)**، تح: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، ط01، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2006م.

24- الفشتالي عبد العزيز، **مناهل الصفا في ذكر موالينا الشرفا**، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1972م.

25- الاصطخري إبراهيم محمد، **مسالك الممالك**، مطبعة بريل، ليدن، 1927م.

26- القيسي أبو عبد الله محمد بن أحمد، **أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب 1040- 1042هـ/ 1630- 1633م**، تح: محمد الفاسي، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، فاس، 1968م.

27- القسطني محمد المحفوظ، **روض الزهر اليانع على مشروح المقنع في علم كان لأبي مقرع**، تح: مولاي عبد الله سماعيلي، مقامات للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م.

28- ابن خلدون عبد الرحمن، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في معرفة أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، تح: خليل شحاتة، دار الفكر، بيروت، 2000م.

29- ابن خلدون عبد الرحمن، **مقدمة بن خلدون**، دار الشرق العربي، بيروت، 2004م.

30- ابن خلدون عبد الرحمن، **التعريف ببن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً**، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1989م.

- المترجمة إلى العربية

31- الأغواطي الحاج ابن الدين، **رحلة الاغواطي الحاج ابن الدين في إفريقيا والسودان والدرعية**، ط خ، تح: أبو القاسم سعد الله، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.

32- بوفيل.أ، **تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير**، ط2، تر: الهادي أبو لقمة ومحمد عزيز، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1988م.

33- جامي عبد القادر، **من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى**، تر: محمد الأسطي، ط 1، دار المصراتي، طرابلس، 1978م.

34- دوماس دوك دي، **الصحراء الجزائرية**، تر: فوزية قندوز عباد، غرناطة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م.

35- دييوا فليكس، **تمبكتو العجيبة**، تر: عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، مر: شوقي عطا الله الجمل، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003م.

36- كاريت.أ، **أبحاث حول الجغرافيا والتجارة في الجزائر الجنوبية** ، تر: حمزة الأمين يحياوي، ط.خ، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2016م.

37- لانج غوردن، **مجموعة رسائل**، ضمن كتاب "رحلتان عبر ليبيا"،تر: دار الفرجاني، ط 1، مكتبة الفرجاني، طرابلس، 1974م.

38- مالتسان هاينريش فون، **ثلاث سنوات في غربي شمال إفريقيا** ، تر: أبو العيد دودو، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط خ، 2009م، ج1.

39- مارتي بول، **البرابيش بنو حسان** ، تع: محمد محمود ودادي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، د.ت.

40- مارتي بول، **كنتة الشرقيون** ، تر: محمد محمود ولد ودادي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، 1985م.

41- مارتي بول، **القبائل البيضانية في الحوض والساحل الموريتاني وقصة الاحتلال الفرنسي للمنطقة**، تر: محمد محمود ودادي، ط1، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 2001م.

42- موري اتيليو، **الرحالة والكشف الجغرافي في ليبيا منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى الاحتلال الايطالي**، تع: خليفة محمد التليسي، ط1، مكتبة الفرجاني، طرابلس، 1971م.

43- ريتشاردسن جيمس، **ترحال في الصحراء** ، تر: الهادي مصطفى أبو لقمة، ط 1، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1993م.

44- رولفس جيرهارد، **عبر إفريقيا** ، تر: عماد الدين غانم، منشورات مركز الدراسات الإفريقية، سبها، دت، ج01.

45- رولفس جيرهارد، **رحلة إلى الكفرة** ، تر: عماد الدين غانم، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 2000م.

46- شالر وليام، **مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1816–1824م)**، د ط، تر: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.

– باللغة الأجنبية

47- Augustin Hacquard, **Monographie de Tombouctou accompagnée de nombreuses illustrations et d'une carte de la région de Tombouctou**, société des études coloniales et maritimes, paris,1900.

48- André Tillion, joseph marie, Alfred Roger, **Conquête Des Oasis sahariennes au Tidikelt**, **au Gourara au touât**, **dans la zouzfana et dans la Saoura en 1900 et 1901**, Henri Charles –lavauzlle Édition militaire, paris.

49- Barth Heinrich, **Travels and discoveries in North and Central Africa**, Pbinted By Spottiszoode And co, London, 1863.

50- Barth Henri, **voyages découvertes dans l'Afrique septentrionale et centrale pendant les années 1849 à 1855**, Paris, 1863, T4.

51- Bissuel Henri, **Le Sahara français**, Editeur, Adolphe Jourdan. Libraire, Alger, 1889.

52- Caillié René, **journal d'un voyage à Temboctou et à Jenné dans l'Afrique centrale**, tom03, A L imprimerie Royale, Paris.

53- Caillié René, **Voyage d'un Faux Musulman a Travers l'Afrique**, Eugène Ardant Editeurs, Paris, Sans Date.

54- Capitaine Boyè, **la question Saharienne**, **oasis de Feguig**, **du Gourara**, **du Touat**, **du Tidikelt**, **les touaregs**, Librairie du monde Militaire, Paris, 1897.

55-Carette. E, **Recherches sur la Géographic a le Commorce de l'Algérie méridionale**. Baploration scientifique de l'Algérie, 1844.
56- Christian.P, **L'Afrique française**, **l'empire de Maroc et les déserts de Sahara**, A.Barbier éditeurs, paris, 1846.
57- Clamageran J.J, **L'algérie Impressions de Voyage 17 Mars- 4 Juin 1873**, Librairie Germer Bailliere, Paris, 1874.
58- Colonieu Victor, **Le tracé central du chemin de fer Trans-Saharien**, Langres Imprimerie De E.Luuillier, paris, 1880.
59- Coppolani Xavier, Depont Octave, **les confrèries religieuses musulmanes**, Adolphe Jourdan, Alger, 1897.

60- crouzet Colonel, **Tidikelt-Touat-Gourara ET L'Algerie**, Librairie Miltaire De L.Baudoin, paris, 1893.
61- Cortier.M, **Reconnaissance OuallenAchourât**, **route d'In-Salah à Tombouctou**, **par Ouallen et Achourât**, Emile Larose Librairie-éditeur, paris, 1913.
62- Daumas Eugène, **Le grand désert**, **ou Itinéraire d'une caravane du Sahara au pays des Nègres**, Imprmerie et librairie centrales de napoléon chaix, paris, 1848.
63- Daumas Eugene, **Le Sahara Algérien "études Géographique**, **Statistique**, **et Historique sur la région au sud des établissements Français**, Langlois Leclercq, Paris, 1845.

64- Daumas Eugène, **Mœurs et Coutumes l'Algérie**, **Tell-Kabylie- Sahara**, Librairie de L.Hachette, paris, 1853.
65- De Colombe Louis, **Explorations des Ksour et du Sahara de la Province d'Oran**, Imprimerie Du Gouvernement, Alger, 1858.
66- Deporter V.B., E**xtrême-sud de l'Algérie**, **le Gourara**, **le Touat**, **In-Salah**, **le Tidikelt**, **le pays de Touareg-Hoggar**, **l'Adrar**, **Tim Bouctou**, Agadès, fontana et copagnie, Alger, 1890.
67- D'Eu colonel, **In-Salah et le Tidikelt**, **journal des opérations ; suivi d'une Instruction sur la conduite des colonnes dans les régions sahariennes**, Librairie Militaire R.chapelot et Ce Imprimeurs èditeurs, paris, 1903.
68- Douls Camille, **Voyage dans le Sahara Occidental et le Sud Marocain**, Imprimerie de Espérance Cagniard, Rouen,1888.
69- Douls Camille, **Voyage d'Exploration à Travers le Sahara Occidental et le Sud Marocain**, Bulletin de la Société de géographie, 7 Série, T 9, Paris, 1888.
70- Duponchel Adolphe, L**e chemin de fer transsaharien**, **jonction coloniale entre l'Algérie et le Soudan**, Montpellir typographie, paris, 1878.
71- Frescaly Marcel (Lieutenant Palat), **Journal de route et correspondance**, G.charpentier et cie, èdieurs, Paris, 1886.
72- Duveyrier Henri, **Les Touareg du Nord** , Editeur Challamel Ainé, Paris, 1864.

73- Gautier E.F, **Industrie des tentures Dokkali au Gourara et au Touat**, ed typographique, Adolphe Jordan, Alger, 1913.
74- Guillaumet Édouard, **Le Soudan en 1894; La vérité sur Tombouctou; L'esclavage au Soudan**, Albert Savine diteur, Paris, 1895.
75- Hennebert Eugène, **Lieutenant colonel Hennebert De Paris à Tombouctou en huit jours**, Publisher aux bureaux de la Revue des inventions et découvertes, Paris, 1889.
76- Isidore Derrien, **Le chemin de fer trans-saharien d'Oran au Touat**, **par Tlemcen et l'Oued Messaoura**, Adolphe Perrier éditeurs –imprimeur, oran, 1879.
77- Jacquot Félix, **Expédition du Général Cavaignac dans le Sahara Algérien en Avril et Mai 1847**, Gide Baudry libraires éditeurs, paris, 1849.
78- Le Châtelier.M.A. **Description de l'oasis d'In Salah**, Imprimerie De L'association Ouvrière, Alger, 1886.
79- Lenez oskar, **Tombouctou voyage au Maroc au Sahara et Soudan**, librairie hachette, Pari, 1887.
80- Rebillet François, **es relations commerciales de la Tunisie avec le Sahara et le Soudan**, Imprimerie Berger-levrault, nancy, 1895.
81- Richardson James, **Routes du Sahara l'intérieur du grand désert d'Afrique**, imprimerie de L. Martinet, Paris, 1850.

82- Rinn Louis, **Marabouts et Khouans étude sur l'islam en Algérie**, Adolphe Jourdan, libraire-éditeur, Paris, 1884.

83- Rohlfs Gerhard, **Meein erster Aufenthalt in Marokko und Reise studlich vom Atlas durchdie Oasen Draa und Tafilet** ,Verlag von J.Kuhtmann's Buchhaudlung, Bremen, 1873.

84- Rohlfs Gerhard, **Reise durch Marokko**, **Uebersteigung des grossen Atlas**, **Exploration der Oasen von Tafilet**, **Tuat und Tidikelt**, **und Reise durch die grosse Wüste über Rhadames nach Tripoli**, Druck von Hedarlch Freses, Bremen, 1868.

85- Rohlfs Gerhard, **Voyages et Explorations au Sahara**, **tome 1**, **Draa- Tafilalet – sud oranais – Touat – Tidikelt – Rhadamès 1861- 1864**, tr: Jaques Debetz, Centre d'Études sur L'Hstoire du Sahara, paris, 2001.

86- ROLLAND. G, **Géologie et hydrologie du Sahara Algérien et aperçu géologique sur l'Océan atlantique à la mer rouge**, Imprimerie Nationale, paris, 1890

87- Sabatier Camille, **Le transsaharien**, Ed. Camilli et Fournié, Toulouse, 1922.

88- Soleillet Pual, **Exploration du sahara Centrale Avenir De La France En Afrique**, Challamel Ainé Librairé éditeur, Paris, 1876.

89- Soleillet Paul, **L'Afrique de la France en Afrique**, Challanel Ainé libraire Ed, Paris, 1876.

90- Soleillet Paul, **L'Afrique Occidental e «Algerie**, **Mzab**, **Tidikelt**», Avignon, Imprimerie De F Seguin Ainé, Paris, 1877.

91- Soleillet Paul, **Voyage de Paul Soleillet d'alger a l'oasis d'In Salah**, Rapport de Chambre commerce d'Alger, Alger, 1875.

92- Touati Abd al Kadir, **Le Sahara et le Soudan**, **documents historiques et géographiques**, Tr: l'abbé Bargès, Rouvier libraire-éditeur, paris, 1853.

93- Voinot Louis, **le Tidikelt étude sur la géographie l'histoire**, **les moeurs du pays**, édition jacques gandini, Paris, 1908.

94- Vuillot.p, **L'exploration du Sahara étude historique et géographique**, Augustin Challamel, paris, 1895.

95- Wahl Maurice, **L'Algérie**, librairie Germer Bailleres et Cie, Paris, 1882.

96- Wolff Henri, Blachére.A, **Sahara et Soudan**, **les Régiments de Dromadaires**, Challamel Ainé, Editeur, Paris,1884.

ثانياً: المراجع

أ- باللغة العربية

97- الأبيض رجب نصير، **طرابلس الغرب في كتابات الرحالة خلال القرن التاسع عشر الميلادي**، ط1، دار الكتب الوطنية، بنغازي، 2009م.

98- أفا عمر، **النقود المغربية في القرن الثامن عشر أنظمتها وأوزانها في منطقة سوس** ، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، 1993م.

99- البوشيخي محمد بن الطيب، **أولاد سيدي الشيخ الشراقة والغرابة، التصوف والجهاد والسياسة**، ط3، مطبعة أطلال، وجدة، 2013م.

100- بوكراع محفوظ، **الفرقد الناثر في تراجم علماء أدرار المالكية الأكابر** ، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2016م.

101- بوناني الطاهر، **التصوف في الجزائر خلال القرنين 6و7 الهجريين/ 12و13 الميلاديين (نشأته- تياراته- دوره الاجتماعي والثقافي والفكري والسياسي)**، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، 2004م.

102- بوعزيز يحي، **ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين** ، ط 1، دار البعث، قسنطينة، 1980م.

103- بوعزيز يحي، **مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية**، ط.خ، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.

104- البكري عبد الحميد، **النبذة في تاريخ توات وأعلامها من القرن التاسع الهجري إلى القرن الرابع عشر**، ط2، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007م.

105- بلحميسي مولاي، **الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.

106- بلعالم محمد باي، **إرشاد الحائر إلى معرفة قبيلة فلان في جنوب الجزائر** ، د.ن، الجزائر، 2007م.

107- بلعالم محمد باي، **قبيلة فلان في الماضي والحاضر ومالها من العلوم والمعرفة والمآثر** ، دار هومة، الجزائر، 2004م.

108- بلعالم محمد باي، **الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات**، د.ط، دار هومة، الجزائر، 2005، ج1.

109- بلعالم محمد باي، **الغصن الداني في ترجمة وحياة الشيخ عبد الرحمن بن عمر التنلاني** ، دار هومة، الجزائر، 2004م.

110- بشار قويدر وحساني مختار، **فهرس مخطوطات ولاية أدرار** ، مطبعة عمار قرفي، باتنة، 1999م.

111- جعفري أحمد، **اللهجة التواتية الجزائرية، معجمها، بلاغتها، أمثالها، حكمها، وعيون أشعارها**، ط1، منشورات الحضارة، الجزائر، 2014م.

112- جعفري أحمد أبا الصافي، **الحركة الأدبية في أقاليم توات من القرن 7ه حتى نهاية القرن 13ه**، ط1، منشورات الحضارة، الجزائر، 2009م ج2.

113- جعفري أحمد ابا الصافي، **من تاريخ توات أبحاث في التراث** ، ط1، منشورات الحضارة، الجزائر، 2011م.

114- جعفري مبارك، **الأزواد خلال القرن 13ه/19م دراسة تاريخية اجتماعية واقتصادية** ، ط1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2021.

115- جعفري مبارك، **العلاقات الثقافية بين توات والسودان الغربي خلال القرن 12ه**، ط01، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.

116- جعفري مبارك، **مقالات وأبحاث حول تاريخ وتراث منطقة توات** ، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2016م.

117- الدالي الهادي المبروك، **التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا جنوب للصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر** ، ط 1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1999م.

118- دحمان تواتي وآخرون ، **دور أقاليم توات خلال الثورة الجزائرية 1956- 1962م**، دار الشروق للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2008م.

119- زبادية عبد القادر، **دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب والمسلمين**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ت.

120- الزبيري محمد العربي، **التجارة الخارجية للشرق الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع**، الجزائر، د.ت.

121- حاج أحمد الصديق، **التاريخ الثقافي لإقليم توات** ، ط 02، منشورات الحبر، الجزائر، 2011م.

122- حوتية محمد الصالح، **توات والأزواد** ، جزءان، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007م.

123- حمداتي شبيهنا ماء العنين، **قبائل الصحراء المغربية أصولها- جهادها- ثقافتها** ، المطبعة الملكية، الرباط، 1998م.

124- يمينة درياس، **السكة الجزائرية في العهد العثماني**، دار الحضارة، الجزائر، 2007م.

125- كروم عبد الله، **الرحلات بإقليم توات دراسة تاريخية وأدبية للرحلات المخطوطة بخزائن توات**، ط خ، دار دحلب، الجزائر، 2007م.

126- مؤنس حسين، **ابن بطوطة ورحلاته تحقيق ودراسة وتحليل** ، دار المعارف، القاهرة، 2003م.

127- محمد علي جمعة، **المكاييل والموازين الشرعية**، ط2، مطبعة القدس، القاهرة، 2001م.

128- محمد فؤاد شكري، **السنوسية دين ودولة**، دار الفكر العربي، القاهرة، 1948م.

129- بن محمذن محمدو، **المجتمع البيضاني في القرن 19م (قراءة في الرحلات الاستكشافية)**، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2001م.

130- مياسي إبراهيم، **الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1834-1934م**، دار هومة، الجزائر، 2005م.

131- مياسي إبراهيم، **توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري (1881-1912)**، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1996م.

132- أبو مصطفى كمال السيد، **جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي** ، مركز الاسكندرية للكتاب، الاسكندرية، 1996م.

133- مرموري حسن، **التوارق بين السلطة التقليدية والإدارة الفرنسية في بداية القرن العشرين**، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2010م.

134- الناصري جعفر بن أحمد، **المحيط بالمهم من أخبار صحراء المغرب وشنقيط** ، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2015م، ج2.

135- نسيب محمد، **زوايا العلم والقرآن بالجزائر**، مطبعة النخلة، الجزائر، 1989م.

136- بن سحنون محمد، **كتاب أدب المعلمين** ، تح: محمود عبد المولى، ط 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.

137- سيدي عمر محمد عبد العزيز، **قطف الزهرات من أخبار علماء توات** ، دارهومة، الجزائر، 2002م.

138- سعيدان الحاج التومي، **سكان تدكيلت القدماء والاتكال على النفس**، دار هومة، الجزائر، 2005م.

139- سعد الله أبو القاسم، **أبحا ث وآراء في تاريخ الجزائر** ، ط خ، دار البصائر، الجزائر، 2007م.

140- سعد الله أبو القاسم، **تاريخ الجزائر الثقافي** ، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م.

141- سعيدوني ناصر الدين، **النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1792- 1830)**، ط3، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م.

142- سعيدوني ناصر الدين وسعيدوني معاوية، **الصحراء الجزائرية من خلال التقارير الفرنسية في أواسط القرن التاسع عشر (نصوص مختارة مترجمة مع نبذ عن حياة ونشاط أصحابها)** ، ط1، البصائر الجديدة، الجزائر، 2019م.

143- أبو العيد دودو، **الجزائر في مؤلفات الرحالة الألمان (1830-1855)**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975م.

144- علوي حسن حافظي، **دراسات صحراوية الماء والإبل والتجار** ة، ط01، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2014م.

145- العلوي سعيد بن سعيد، **أوروبا في مرآة الرحلة**، منشورات كلية الأدب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1995م.

146- العماري أحمد، **توات في مشروع التوسع الفرنسي بالمغرب من حوالي 1850- 1902م**، ط1، منشورات كلية الأدب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، 1988م.

147- عميراوي احميدة، **قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث** ، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، 2005م.

148- عميراوي احميدة وآخرون، **السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية 1844-1916**، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، 2009م.

149- العقبي صلاح مؤيد، **الطرق الصوفية والزوايا بالجزئر تاريخها ونشاطها** ، ط.خ، دار البصائر، الجزائر، 2009م.

150- العربي إسماعيل، **الصحراء الكبرى وشواطئها**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م.

151- العربي إسماعيل، **تاريخ الرحلة الاستكشافية في البر والبحر** ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م.

152- الفاطمي محمد، **البيوتات العلمية بقورارة إبان القرنين 11و12 الهجريين، دراسة توصيفية**، نور نشر، الجزائر، 2019م.

153- فيلالي عبد العزيز ، **تلمسان في العهد الزياني** ، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2006م، ج2.

154- فيرون ريمون، **الصحراء الكبرى** ، تر: جمال الدين الدناصوري، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1963م.

155- فرج محمود فرج، **إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977.

156- الصمدي مصطفى، **فقه النوازل عند المالكية**، ط1، مكتبة الرشد، الرياض، 2007م.

157- قارة مبروك، **تاريخ المدن والقبائل بالجزائر**، ط3، مطابع رويغي، الأغواط، 2018م.

158- بن قينة عمر، **اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995م.

159- قنان جمال، **قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر**، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1994م.

160- القشاط محمد سعيد، **أعلام من الصحراء** ، ط 1، دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 1997م.

161- القشاط محمد سعيد، **التوارق عرب الصحراء الكبرى** ، ط 2، مطابع اديتار، سردينيا، 1989م.

162- رياض زاهر، **استعمار إفريقيا**، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1965م.

163- رمضان أحمد أحمد، **الرحلة والرحالة المسلمون**، ط01، دار البيان العربي للطباعة والنشر، القاهرة، دت.

164- الرقاني عبد الله بن هاشم، **النسمة الزكية في التعريف بشيوخ الطريقة الرقانية** ، ط2، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2020م.

165- شهبي عبد العزيز، **الزوايا والصوفية والعزابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر** ، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2007م.

166- التادلي أبو يعقوب يوسف بن يحي، **التشوف إلى رجال التصوف**، تح: أحمد توفيق، ط2، مطبعة النجاح الجديدة، 1997م.

167- التميمي عبد الجليل، **بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، الجزائر- تونس- ليبيا من 1816 إلى 1871**، ط1، الدار التونسية للنشر، تونس، 1972م.

168- ضياف نجمي رجب، **مدينة غات وتجارة القوافل الصحراوية خلال القرن التاسع عشر الميلادي**، ط1، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابس، 1999م.

169- غيتاوي مولاي التهامي، **القول الميمون في تاريخ قورارة وعلماء تيميمون**، مؤسسة البلاغ للنشر والدراسات والبحوث، الجزائر، 2013م.

ب- المترجمة إلى العربية

170- إ.دان روس، **المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي 1881- 1912**، تر: أحمد أبو حسن، مطبعة المعرف الجديدة، الرباط، 2006م.

171- التر عزيز سامح، **الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا** ، تر: محمود علي عامر، ط 1، دار النهضة العربية، بيروت، 1989م.

172- برنانت أندري، **الجزائر بين الماضي والحاضر**، تر: رابح اسطنبولي وعاشور منصف، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م.

173- جوليان شارل أندري، **تاريخ إفريقيا الشمالية** ، تر: محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1983م، ج1.

174- هوبكنز أ.ج، **التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية** ، تر،: أحمد فؤاد بليع، المطابع الأميرية، القاهرة، 1998م.

175- كام جوزفين، **المستكشفون في إفريقيا** ، تر: السيد يوسف نصر، دار المعارف، القاهرة، 1983م.

176- نوشي أندري وآخرون، **الجزائر بين الماضي والحاضر**، تر: اسطنبولي رابح ومنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م.

177- فيفر لوسيان، **الأرض والتطور البشري**، تر: محمد السيد غلاب، ط 1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2015م، ج2.

178- توماس أرلوند، **الدعوة إلى الإسلام** ، تر: حسن إبراهيم حسن وآخرون، ط 2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1997م.

179- ترمنجهام سبنسر، **الفرق الصوفية في الإسلام** ، تر: عبد القادر البحراوي، دار المعرفة الجامعية، ميامي، 1994م.

ج- باللغة الأجنبية:

180- Antar Michel, **Chauvauchées d'un Futur Saint-Cyrien à Travers les Ksours et Oasis Oranais**, Collection Hetzel, Paris, 1907.

181- Bernard Augustin et Lacroix. N, **la Pénétration Saharienne (1830-1906)**, Imprimerie Algérienne, Alger, 1906.

182- Bisson JEAN, **le Gourara**, **Etude de Géographie Humaine**, université d'Alger, Institut de Recherches Sahariennes, Mémoire N03, 1957.

183- Brun Malte V.A, **rèsumè Historique et Gèographique de l'exploration de Gerhard Rohlfs Au touàt et a in-çàlah d'après le Journal de ce voyageur**, Challamel Ainé Librairé éditeur, paris, 1866.

184- Cambon Jules, **Documents pour servir à l'étude du Nord-Ouest africain LES OASIS DE L'EXTREME-SUD ALGERIEN**, tome03, Publisher G.G.A, service des affaires indigènes, Alger, 1897.

185- Deporter V. B, **La Question du Touat au Sahara Algérien**, **Gourara-Touat-Tidikelt**, Imp Fontana, Alger, 1891.

186- Doutté Edmond, **L'Islam algérien en l'an 1900**, Giralt imprimeur photograveur, paris, 1900.

187- Doutté Edmond, **Notes sur l'islâm magribin**, **les marabouts**, Ernest leroux èditeur, paris, 1900.

188- Faucon Narcisse, **Livre d'Or De L'Algerie**, éditeurs Librairie Algérienne et Coloniale, Paris,1889.

189- Gravier Gabriel, **Voyage a Sègou** « **Rédige d'après Les Notes Et Journaux De Voyage De Soleillet**, Challamel Ainé, Paris, 1887.

190- Gravier Gabriel, **Voyage de p**. **Soleillet a l'Adrar**, **decembre 1879-mai 1880**, E. Cagniard, Paris, 1881.

191- Gustave Vallat, **A la Conquête du Continent Noir**, **Missions Militaires et Civiles de 1892 à 1900**, **Inclusivement**, **d'après des Documents Officiels**, J. Lefort Imprimeur Editeur, Paris, 1901.

192- Humbert Jean Charles, **Forts et Bordjs de l'Extrême Sud**, **Sahara**, **Algérie** (**1892-1903**), Éditeur Calvisson, Paris, 1993.

193- Jules Gros, **Paul Soleillet en Afrique**, Maurice Drhyfous éditeur, Paris, 1888.

194- Martine A.G.P, **Les oasis Sahariennes Gourara-Touat- Tidikelt**, Edition de l'imprimerie algérienne, Alger, 1908.

195- Martin A.G.P, **Quatre siècles d'histoire Marocaine au Sahara de 1504 à 1902**, **au Maroc de 1894 à 1912 d'après archives et documentations indigènes**, Librairie Félix Alcan, Paris, 1923.

196- M'Bokoto ELIKA, **Des Missionnaires aux Explorations**, **les Européens en Afrique**, A.B.C, Paris, 1877.

197- Olil Jacop, **Les juifs au Sahara ,le Touat ou moyen Âge**, CNRS éditions, paris, 1994.

198- Sabatier Camille, **Touat**, **Sahara**, **Soudan**, **étude géographique**, **politique et militaire**, société d'Editions scientifiques , Paris, 1891.

199- Saffroy Bernard, **chronique du Touat**, Centre de Documentation Saharienne, Ghardaia.

ثالثاً: المذكرات والأطاريح الجامعية:

200- بابا عبد الله، **الحياة الاجتماعية والاقتصادية بتوات إبان الاحتلال الفرنسي 1900-1962م**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: مبارك جعفري، كلية العلوم والاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة أحمد دراية أدرار، 2019/2018م.

201- بودلاعة رياض، **موقف الطرق الصوفية وزوايا المرابطين من الثورة التحريرية الجزائرية 1954- 1962م**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: عبد الكريم بوصفصاف، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة عبد الحميد مهري، قسنطينة، 2018/2017م.

202- بوسعيد أحمد، **ركب الحج الجزائري خلال العهد العثماني (1518-1830م) دراسة تاريخية واجتماعية من خلال الرحلات الحجازية** ، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: محمد حوتية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة أدرار، 2018/2017م.

203- بلعالم عبد السلام الأسمر، **الحياة الفقهية في توات خلال القرنيين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين**، أطروحة دكتوراه في العلوم الإسلامية، إشراف: سعيد فكرة، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2016/2015م.

204- بعثمان عبد الرحمن، **القضاء في منطقة توات ما بين القرنين 17و18م**، أطروحة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، إشراف: محمد بن عمر، جامعة وهران01، 2016/2015م.

205- بخدا مريم، **أعلام العائلة التنلانية ودورهم العلمي بإقليم توات خلال القرنين (11-12هـ/17-18م)**، مذكرة ماجستير في التاريخ المغاربي عبر العصور، إشراف: خير الدين شترة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أحمد دراية، أدرار، 2012/ 2013م.

206- جعفري أمحمد، **الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بتدكلت خلال القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي**، أطروحة دكتوراه، تاريخ الجزائر المعاصر، إشراف: عبد الرحمن بعثمان، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة أحمد دراية، أدرار، 2019/ 2020م.

207- جعفري مبارك، **الحياة العلمية في إقليم توات وانعكاساتها جنوب الصحراء خلال القرن 12هـ/18م**، رسالة ماجستير في الدراسات الإفريقية، إشراف: حوتية محمد صالح، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2009/2008م.

208- جعفري عز الدين، **أطلس العادات والتقاليد بمنطقة توات**، أطروحة دكتوراه في التراث اللامادي الجزائري، إشراف: شعيب مقنونيف، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة تلمسان، 2018/2017م.

209- دواس أحسن، **صورة المجتمع الصحراوي الجزائري في القرن التاسع عشر من خلال كتابات الرحالة الفرنسيين مقارنة سوسيو ثقافية**، مذكرة ماجستير في الأدب المقارن، إشراف: الأخضر عيكوس، كلية الآداب واللغات، جامعة منتوري، قسنطينة، 2008/2007م.

210- دعاشي سميرة، **الاهتمام الفرنسي بالتجارة في الصحراء الجزائرية وإفريقيا الغربية مابين 1850- 1945م**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: فلة موساوي القشاعي، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة غرداية، 2015/2014م.

211- هرباش زاجية، **الوضع الاقتصادي في إقليم توات من خلال مخطوط الغنية في القرنين 12 و 13 الهجريين 18 و 19 الميلاديين** ، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: عبد المجيد بن نعيمة، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية جامعة وهران، 2012/2011م.

212- الحمدي أحمد، **محمد بن عبد الكريم المغيلي رائد الحركة الفكرية بتوات عصره وآثاره (870هـ/909هـ)**، رسالة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، إشراف: عبد المجيد بن نعيمة، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2000/1999م.

213- حساني عثمان، **البيئة الاجتماعية والاقتصادية للصحراء الجزائرية من خلال تقارير الأجانب في القرنين 18 و19م**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر إشراف: تلمساني بن يوسف، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2006/ 2007م.

214- كحلاوي حليمة، **الحياة الثقافية بتوات الوسطى خلال القرنين (12-14هـ/18-20م)**، مذكرة ماجستير في التاريخ الثقافي والاجتماعي المغاربي عبر العصور، إشراف: محفوظ رموم، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة أحمد دراية، أدرار، 2016/2015م.

215- موساوي الطاهر، **الاستكشافات الأوروبية للصحراء الجزائرية خلال القرن 19م**، رسالة ماجستير، إشراف: عبد المجيد بن نعيمة، قسم العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة بشار، 2011/ 2012م.

216- موساوي عربية، **الفقارة بمنطقة توات وأثرها في حياة المجتمع دراسة تاريخية أثرية** ، أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية، إشراف: عبد العزيز لعرج، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2007م.

217- مسعودي زهرة، **الطرق الصوفية بتوات وعلاقتها بغرب إفريقيا من القرن 18م إلى القرن 20م**، مذكرة ماجستير في التاريخ الإفريقي الحديث والمعاصر، إشراف: عبد الكريم بوصفصاف، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة أدرار، 2010/2009م.

218- مرجاني عبد القادر، **السياسة الفرنسية ودور المستكشفين في التوغل في الجنوب الجزائري خلال القرن 19م**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: محمد مجاود، جامعة الجيلالي ليابس، سيدي بلعباس، 2019/ 2020م.

219- مروان محمد عمر، **الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في مدينة غدامس خلال العهد العثماني الثاني 1251هـ- 1331هـ/1835م-1912م (دراسة من خلال الوثائق المحلية)**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: عمار بن خروف، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2006/2005م.

220- سالمي زينب، **الحركة العلمية في إقليم توات خلال القرون 08-10 هجرية**، مذكرة ماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي، إشراف: مبخوت بودواية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2012/2011م.

221- بن سويسي محمد، **العمارة في منطقة توات تمنطيط نموذجاً من القرن 6هـ إلى 13هـ**، رسالة ماجستير في الآثار الإسلامية، إشراف: عبد العزيز محمود لعرج، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2009/2008م.

222- سليماني حليمة، **الحياة الاجتماعية والثقافية لقصور تيمي من خلال المصادر المحلية 13هـ/ 19م**، أطروحة دكتوراه، إشراف: مبارك جعفري، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة أدرار، 2019/ 2020م.

223- بن عبد الله نور الدين، **قصور منطقتي توات الوسطى والقورارة، دارسة أثرية عمرانية ومعمارية أنموذجية**، أطروحة دكتوراه في علم الآثار، إشراف: عبد العزيز لعرج، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2009/ 2010م.

224- بن عبد المومن بهية، **الحياة الاجتماعية بإقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين (18-19م)**، رسالة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، إشراف: محمد بن معمر، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2005/ 2006م.

225- قبابلة مبارك، **تطور أساليب ومواد البناء في العمارة الصحراوية** ، رسالة ماجستير في علم الآثار، إشراف: صالح بن قربة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2009/ 2010م.

226- راسمال عبد العزيز، **البداوة والجماعات المستحدثة دراسة سوسيو- انتربولوجية حول قبيلة المجاذبة بالجنوب الوهراني** ، أطروحة دكتوراه في علم الاجتماع، إشراف: محمد السويدي، جامعة الجزائر، معهد علم الاجتماع، 1986م.

227- تياقة الصديق، **المقدس والقبيلة الممارسات الاحتفالية لدى المجتمعات القصورية بالجنوب الغربي الجزائري- زيارة الرقاني نموذجاً-** ، أطروحة دكتوراه في علم الاجتماع، إشراف: حجيج الجنيد، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران، 2013/ 2014م.

228- ذكار أحمد، **حاضرة وارجلان وعلاقتها التجارية بالسودان الغربي من سنة 1000ه إلى 1301ه/ 1591م- 1883م**، رسالة ماجستير، إشراف: محمد صالح حوتية، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة أدرار، 2009/2010م.

229- غرينة عبد النور، **الأوراس في الكتابات الفرنسية إبان الفترة الكولونيالية 1840- 1939م**، رسالة ماجستير، إشراف: ميلود زيدان، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2009/ 2010م.

رابعاً: المعاجم

230- الزركلي خير الدين، **الأعلام**، ط15، دار العلم للملايين، 2002م.

231- الحنفي عبد المنعم، **الموسوعة الصوفية**، ط1، دار رشاد، القاهرة، 1992م.

232- كحالة عمر رضا، **معجم قبائل العرب القديمة والحديثة**، دار العلم للملايين، بيروت.

233- مجموعة مؤلفين، **الموسوعة العربية العالمية**، ط2، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، 1999م.

234- ابن منظور، **لسان العرب**، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

235- مصطفى إبراهيم وآخرون، **المعجم الوسيط**، دار الدعوة، بيروت، 1989م.

236- مقلاتي عبد الله وجعفري مبارك، **معجم أعلام توات** ، ط 1، منشورات الرياحين، الجزائر، 2013م.

237- عطية شعبان عبد العاطي وآخرون، **المعجم الوسيط** ، ط 4، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2004م.

238- قبيسي حسان، **معجم الأعشاب والنباتات الطبية** ، دار الكتب العلمية،ط 3 بيروت، 1998م.

239- الشيرازي الفيروز بادي، **القاموس المحيط**، ط3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1980م.

خامساً: المقالات

أ- باللغة العربية:

240- انساعد سميرة، **الصحراء الجزائرية في عيون الرحالة الفرنسيين خلال القرنين 19و20م "تسجيل فوتوغرافي أم تخيلي"**، مجلة الدراسات، ع2، ديسمبر 2012م.

241- بوساليم صالح، **لمحة عن مراكز المكتبات والخزائن الشعبية للمخطوطات في توات جنوب غرب الجزائر خلال القرنين 12- 13 للهجرة**، دورية كان التاريخية، السنة 3، ع9، سبتمبر 2010م.

242- بعثمان عبد الرحمن، **الصناعات الدوائية والطب الشعبي بمنطقة توات خلال القرنين 12 و13 الهجريين دراسة من خلال الوثائق المحلية المخطوطة**، المجلة الجزائرية للمخطوطات، مج16، ع01، 2020م.

243- جعفري أحمد، **العمارة الإسلامية في أقاليم توات تاريخها ونمط أشكالها هندستها ومواد بنائها وأبعادها القيمية**، مجلة التراث، هيئة أبو ظبي للثقافة والإعلام، السنة 10، ع 115، مارس 2009م.

244- جعفري مبارك، **الطريقة الرقانية وانتشارها في إفريقيا جنوب الصحراء خلال القرنيين 12-13هـ/18-19م**، مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، ع22، 2017م.

245- هقاري محمد، **دور سكان منطقة الأزجر والهقار في مقاومة الاستعمار الفرنسي أثناء الحرب العالمية الأولى**، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ورقلة، ع24، جوان 2016م.

246- سياب خيرة، **رحلة الصحراء لابن الدين الاغواطي المعروفة ب: (الرحلة الاغواطية) دراسة طبيعية، اقتصادية، اجتماعية، عمرانية**، المجلة الجزائرية للمخطوطات، ع 13، 2015م.

247- عوفي عبد الكريم، **مراكز المخطوطات في الجنوب الجزائري، إقليم توات نموذجاً**، مجلة آفاق للثقافة والتراث، مركز جمعية الماجد والتراث، ع34، دبي، جويلية 2011م.

248- عطية عبد الكامل، **الروابط التجارية بين شمال وجنوب الصحراء الكبرى من خلال المصادر العربية والرحالة الأوروبيين بين القرنين (15-19م)**، دورية كان التاريخية، ع 23، 2014م.

ب– باللغة الأجنبية:

249- A.M Jomard, **Notice Historique sur la Vie et les Voyages de René Caillé**, Bulletin de la Société de géographie, 2 série, T10, Paris, 1838.

250- Association Française pour l'avancement des Sciences, **Congrès d'Oran 1888**, **Oran et l'Algérie en 1887**, Notice Historiques, scientifiques et economiques, T2, Alger.

251- Baumier Auguste, **Premier établissement des Israéliens a Tombouctou**, Bulletin de la société de Géographie, 1Trimestre, T9, Paris, 1870.

252- Bouderba Ismaël, **Voyage à R'at par (du 1er août au 1 décembre 1858)**, Revue algérienne et coloniale, décembre 1859.

253- Capitaine Lô, **es Foggaras du Tidikelt**, travaux de institue de recherche saharienne, TX et TXI, université d'Alger, 1953-1954.

254- Capitaine Rio, **L' artisanat a Tamantit**, travaux de l'institut de recherche saharienne, TXX, université d'Alger, 1961.

255- Cherbonneau Auguste, **Indication de la route du Tuggurt à Tombouctou et aux Monts de la Lune (d'après un document arabe)**, Annuaire de la Société archéologique de la Province de Constantine, 1853.

256- Colonieu Victor, **Voyage au Gourara et à l'Auogurout 1860**, Bulletin de la Société de géographie, 1 Trimestre, 7 Série, T13, Paris, 1892.

257- Colonieu Victor, **Voyage au Gourara et à l'Auougurout 1860**, Bulletin de la Société de géographie, 1 Trimestre, 7 Série, T14, Paris, 1893.
258- Colonieu Victor, **Voyage au Gourara et à l'Auougurout 1860**, Bulletin de la Société de géographie, 1 Trimestre, 7 Série, T15, Paris, 1894.
259- De Bonnemain Louis, **Voyage à R'adamès (du 26 novembre 1856 au 7 janvier 1857)**, Revue Algérienne et Coloniale, T1, 1859.
260- De Colomb Louis, **Notice sur les oasis du Sahara et les routes qui y conduisen**, Revue algérienne et colonial, Tome 03, Paris, 1860.
261- Devors.p, **Le Touat**, **étude géographique et médicale**, Institue Pasteur, d'Alger, TXXV, N3-4, 1947.
262- Franz Schrader, **Le chemin du Touat**, journal hebdomadaire des instituteurs, N59, T28, paris, 1892.
263- Gautier E.F, **Sahara Oranais**, Annales de Géographie, N63, T12, paris, 1903.
264- Herbeau Lieutenant, **Les Foggara du Touat**, Bulletin de la société de géographie d'alger et de l'afrique du nord, 4T, N140, 1934.
265- Hess Jean, **L'extrème-sud algérien et le touat**, In: Annales de Géographie, T6, N26, 1897.
266- Huard.P, Lefebvre.p, Plessis J.L, **François-Félix Jacquot (1819- 1857)**, Société Française d' histoire de la médecine, paris, 1983.

267- Lehuraux Léon, **Le Statut Territorial Des Territoires Du Sud De l'Algérie**, Revue Africaine, N81,1937.

268- Sainte Marie Flye, **le commerce et l'agriculture au Touat**, Bulletin de la société de géographie de la province d'Oran, T24, 1904.

269- Schirmer Henri, **le Touat**, **étude de géographie physique et économiqu**, Annales de géographie, T4, N1, 1892.

270-Selka Abderrahmane, **Notice Sur le Touat**, **population**, **çofs**, **ksours**, **lègendes**, **commerce**, **jindustie**, **agriculture**, **èlvage**, **meurs**, **et coutumes**, Bulletin de la société de géographie d'Alger, Alger, 1922.

271- Suter Karl, **Etude sur la Population et l'habitat d'une région du Sahara Algérien** :**le touat**, extrait de revue de géographie alpine, 1953.

272- Watin Lewis, **origines peuples Touat par les romans populaires dans le pays**, Géographique Society Bulletin, l'Algérie et l'Afrique du Nord, l'année 10, triple-seconde, 1905.

سادساً: الملتقيات:

273- فارس كعوان، **الإستشراق الفرنسي والتراث التواتي قراءة في رحلة عبد القادر بن أبي بكر التواتي بن هيبة الله** ، الملتقى الوطني الرابع، إسهامات علماء توات في الحركة الفكرية والثقافية إبان العصر الحديث (1500-2000م)، 19-20 أفريل 2010م، جامعة أدرار.

سابعاً: الحوامل الالكترونية:

274- http://dictionnairedesorientalistes.ehess.fr/document.php?id=324.

275- http://bolcodenis.free.fr/jjl_barges.php.

276- https://gallica.bnf.fr.

الفهارس

فهرس الأعلام والقبائل

-ش-

-ض-

فهرس الأماكن والبلدان

-س-

-ع-

-ف-

-ص-

ق--

-ر-

-ش-

-ت-

فهرس الموضوعات

ملخص الأطروحة

"منطقة توات في القرن التاسع عشر من خلال كتابات الرحالة والمستكشفين"

تعالج هذه الأطروحة موضوع منطقة توات خلال القرن التاسع عشر في كتابات الرحالة والمستكشفين، وتعرِّف بأهم المستكشفين والرحالة الذين زاروا توات وكتبوا عنها، وترصد مختلف مكونات المجتمع التواتي ونظامه الاجتماعي وعاداته وتقاليده ومستواه المعيشي، كما تسلط الضوء على الدور الثقافي للمنطقة من خلال المؤسسات التعليمية والمؤلفات العلمية والطرق الصوفية، وتستعرض في الجانب الاقتصادي نظام الري المرتبط بالفقارة، وكذلك النشاط الزراعي والصناعي، وتركِّز على إبراز المكانة التجارية للمنطقة، كل هذا وذاك بعيون الرحالين والمستكشفين.

الكلمات المفتاحية: توات، الرحالة، المستكشفين، القرن التاسع عشر، المجتمع التواتي، الاقتصاد التواتي، الطرق الصوفية.

Summary:

"The Region of Touat in the Nineteenth Century Through The Writings of Travelers and Explorers"

This thesis deals with the topic of Touat region during the nineteenth century in the writings of travelers and explorers. It introduces the most important explorers and travelers who visited Touat and wrote about it. It monitors the various components of the Touati society, its social system, customs, traditions and standards of living. It also highlights the cultural role of the region through educational institutions, scholarly literature, and Sufi orders. In the economic aspect, it reviews the irrigation system linked to the "Faqara", as well as the agricultural and industrial activities. And it focus on highlighting the commercial position of the region. All the above mentioned is observed through the eyes of travelers and explorers.

Keywords: Touat, travelers, explorers, nineteenth century, Touat society, Touat economy, Sufi orders.